

تفسير الفاسي
المسكت

محاضر التلاوة

تأليف علامه عظيم الشان

محمد جمال الدين الفاسي

ونف على طبعه ونصحه ، ورقه وخرج آياته وأحاديثه ، وعلق عليه

(خادم الكتاب والسنة)

محمد فؤاد عبد الباقي

كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ
[٢٩ / ص / ٣٨]

تفسير الفاسمي

المسيحي

محاسن التاويل

تأليف علامته الشمام

محمد جمال الدين الفاسمي

١٢٨٣ — ١٣٣٢ هـ

١٨٦٦ — ١٩١٤ م

الجزء التاسع

وفيه تفسير سور : يونس وهود ويوسف والرعد

وقف على طبعه وتصحيحه ، ورقمه وخرج آياته وأحاديثه ، وعلق عليه

(خادم الكتاب والسنة)

محمد فاضل عبد الباقى

دار النشر : المكتبة العربية
مبنى الباني الجليلي وشركاه

الطبعة الأولى
جميع الحقوق محفوظة

كلمة

كاتب الشرق الأكبر، عطوفة أمير البيان

الأومير شكيب أرسلان

في مقدمته لكتاب « قواعد التحديث »
المؤلف ، رضى الله عنه

« وإنى لأوصي جميع الناشئة
الإسلامية ، التي تريد أن تفهم الشرع
فهماً ترتاح إليه ضمائرهما ، وتنعقد عليه
خباصرهما ، ألا تقدم شيئاً على قراءة
تصانيف المرحوم الشيخ جمال القاسمي »
جنيف . رجب الفرد ١٣٥٣

كلمة

مصلح العصر الإمام

السيد محمد رشيد رضا

في مجلد المنار السابع عشر ، صفحة ٥٥٨

« هو علامة الشام ، ونادرة الأيتام ،
والمجدد لعلوم الإسلام ، محيي السنة
بالمعلم والعمل والتعليم ، والتهذيب
والتأليف ، وأحد حلقات الاتصال
بين هدى السلف ، والارتقاء المدني
الذي يقتضيه الزمن »

كلمة

حضرة صاحب الفضيلة ، عالم الشام الأوحد

السبح محمد بهجة البيطار

في مقدمته لكتاب « قواعد التحديث »
للمؤلف رضى الله عنه

« إن مما يقضى بالعجب من أمر أستاذنا المؤلف رحمه الله تعالى ، هو كونه خلف زهاء
مائة مصنف أو أكثر ، ولم يبلغ الخمسين من عمره . ونادر جداً أن ترى كتاباً ، في خزانته
الواسعة ، مخطوطاً كان أو مطبوعاً ، خالياً من التعليقات الكثيرة ، والتصحيح على الأصول
الخطية الصحيحة .

ولقد كان ، رحمه الله ، آية في المحافظة على الوقت ، والمواظبة على العمل .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٠ - سُورَةُ يُونُسَ

سميت به ، عليه السلام ، لتضمنها قوله ^(١) « فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةً ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ » ففيه غاية ما يفيد فيه الإيمان ، وضرر تركه وتأخيره ، وهو المقصد الأعلى من إزال الكتاب - قاله المهايى - .

وهذه السورة مكية ، واستثنى منها قوله تعالى ^(٢) : « فَإِنْ كُفِتْ فِي شَكٍّ . . . » الآيةين . وقوله ^(٣) : « وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ . . . » الآية . قيل : نزلت في اليهود . وقيل : من أولها إلى رأس أربعين مكي ، والباقي مدني - حكاه ابن الفرس والسخاوي في (جمال القراء) - .

وآياتها مائة وتسعة .

(١) [١٠ / يونس / ٩٨] . (٢) [١٠ / يونس / ٩٥، ٩٤] .

(٣) [١٠ / يونس / ٤٠] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (الر ، تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ)

«الر» مسرود على نمط التعميد بطريق التحدى . أو اسمٌ للسورة فحله الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف . أى هذه السورة مسماة بـ (الر) . والإشارة إليها قبل جريان ذكرها لما أنها باعتبار كونها على جناح الذكر وبصدده ، صارت في حكم الحاضر ، كما يقال : هذا ما اشترى فلان . أو النصب بتقدير : اقرأ .

وكلمة «تِلْكَ» إشارة إليها ، أما على تقدير كون (الر) مسرودة على نمط التعميد ، فقد نزل حضور مادتها ، التي هي الحروف المذكورة ، منزلة ذكرها فأشير إليها ، كأنه قيل : هذه الكلمات المؤلفة من جنس هذه الحروف البسطة ... الخ .

وأما على تقدير كونه اسماً للسورة ، فقد نوهت بالإشارة إليها بعد تنويعها بتعيين اسمها ، أو الأمر بقراءتها . وما في اسم الإشارة من معنى البعد ، للتنبيه على بعد منزلتها في المخاطمة ، ومحل الرفع على أنه مبتدأ ، خبره قوله تعالى :

«آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ» ، وعلى تقدير كون (الر) مبتدأ ، فهو مبتدأ ثان ، أو بدل من الأول . والمعنى : هي آيات مخصوصة منه ، مترجمة باسم مستقل . والمقصود ببيان بعضيتها منه ، وصفا بما اشتهر اتصافه به من النعوت الفاضلة ، والصفات الكاملة .

والمراد بـ (الكتاب) : إما جميع القرآن العظيم ، وإن لم ينزل السكل حينئذ ، لاعتبار تعينه وتحققه في علم الله تعالى ؛ وإما جميع القرآن النازل وقتئذ ، المتفاهم بين الناس إذ ذاك . و (الحكيم) أى ذو الحكمة ، وإنما وصف به لاشتغاله على فنون الحكم الباهرة ، ونطقه بها ، أو هو من باب وصف الكلام بصفة صاحبه ، أو من باب الاستعارة المسكنية المبنية على تشبيه الكتاب بالحكيم الناطق بالحكمة - أفاده أبو السعود - .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢] (أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ) « أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ » الهمزة لإنكار التعجب والتعجب منه ، وإنما أنكر ذلك لكون سنة الله جارية أبداً على هذا الأسلوب في الإيحاء إلى الرجال ، وإنما كان تعجبهم لبعدهم عن مقامه ، وعدم مناسبة حالهم لحاله ، ومنافاة ما جاء به لما اعتقدوه و(القدم) بمعنى السبق مجازاً ، لكونه سببه وآلته ، كما تطلق (اليد) على النعمة ، و(العين) على الجاسوس ، و(الرأس) على الرئيس . ثم إن السبق مجاز عن الفضل والتقدم المعنوي إلى المنازل الرفيعة ، فهو مجاز بمرتين . أو (القدم) بمعنى المقام ، كـ (مَقْعَدِ صِدْقٍ) ^(١) بإطلاق الحال وإرادة المحل ، وإضافته إلى الصدق من إضافة الموصوف إلى الصفة . وأصله (قدم صدق) أى محققة مقررّة . وفيه مبالغة لجعلها عين الصدق ، وتنبيه على أنهم إنما نالوا ما نالوا بصدقهم ، ظاهراً وباطناً .

قال في (الاتصاف) : ولم يرد في سابقة السوء تسميتها (قدماً) إما لأن المجاز لا يطرد ، وإما أن يكون مطرداً ، ولكن غلب العرف على قصرها ، كما يغلب في الحقيقة . « قَالَ الْكَافِرُونَ » وهم المتمجبون « إِنَّ هَذَا » أى الكتاب الحكيم « لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ » أى ظاهر وقريء (لَسَاحِرٌ) على أن الإشارة إلى الرسول صلوات الله عليه . وهو دليل عجزهم وأعتافهم ، وإن كانوا كاذبين في تسميته سحراً ، وذلك لأن التعجب أولاً ، ثم التسميم بما هو معلوم الانتفاء قطعاً ، حتى عند نفس المعارض ، دأب العاجز المنحزم .

ثم بين تعالى بطلان تعجبهم ، وما بنوا عليه ، وحقق فيه حقيقة ما تعجبوا منه ، وصحة ما أنكروه ، بالتنبيه على بعض ما يبدل عليها من شؤون الخلق والتقدير ، ويرشدهم إلى معرفتها بأدنى تذكير ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)

« إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ »
قال البخارى ^(١) فى صحيحه فى الرد على الجهمية :

قال أبو العالية : استوى إلى السماء ارتفع . وقال مجاهد : استوى على العرش علا ، أى بلا تمثيل ولا تكليف . والعرش : هو الجسم المحيط بجميع الكائنات ، وهو أعظم المخلوقات . و (الأيام) قيل : كهذه ، وقيل : كل يوم كألف سنة .

« يُدَبِّرُ الْأَمْرَ » أى يقضى ويقدر ، على حسب مقتضى الحكمة أمر الخلق كله . و « مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ » تقرير لمظمته وعز جلاله ، ورد على من زعم أن آلهتهم تشفع لهم عند الله . « ذَلِّلْكُمُ اللَّهُ » إشارة إلى المعلوم بتلك العظمة ، أى ذلك العظيم الموصوف بما وصف به هو « رَبُّكُمْ » أى الذى رباكم لتعبده « فَاعْبُدُوهُ » أى وحدوه بالعبادة . « أَفَلَا تَذَكَّرُونَ » أى تفكرون أدنى تفكر فينبهكم على أنه المستحق للربوبية والعبادة ، لا ما تعبدهونه .

(١) أخرجه فى : ٩٧ - كتاب التوحيد ، ٢٢ - باب وكان عرشه على الماء وهو رب

العرش العظيم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَذَابُ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ)

«إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا» أى بالموت أو النشور . أى لا ترجعون فى العاقبة إلا إليه . فاستعدوا للاقائه «وَعَذَابُ اللَّهِ حَقًّا» أى صدقا . ثم علل وجوب المرجع إليه بقوله سبحانه : «إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ» أى من النطفة «ثُمَّ يُعِيدُهُ» أى بعد الموت «لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ» أى بعدل أو بعدلهم وقيامهم على العدل فى أمورهم ، أو بإيمانهم ، لأنه العدل القويم ، كما أن الشرك ظلم عظيم ، وهو الأوجه لمقابلة قوله : «وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ» أى من ماء حار قد انتهى حره «وَعَذَابٌ أَلِيمٌ» وجميع يخلص ألمه إلى قلوبهم «بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ» تعليل لقوله ، لمقابلة قوله ، فإن معناه ليجزى الذين كفروا بشراب من حميم ، وعذاب أليم ، بسبب كفرهم ، لكنه غير النظم المبالغة فى استحقاقهم للعقاب بجمله حقا مقرر لهم ، كما تفيده (اللام) وللتنبية على أن المقصود بالذات من الإبداء والإعادة هو الإثابة . والعقاب واقع بالعرض بكسبهم ، وعلى أنه تعالى يقول : إثابة المؤمنين بما لا تحيط العبارة به لفخامته وعظمته ، ولذلك لم يعينه .

ثم نبه تعالى ، للاستدلال على وحدته فى ربوبيته ، بآثار صنعه فى الفيرين ، إثر الاستدلال بما مر من إبداع السموات والأرض ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِّتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِّينَ وَالْحِسَابَ، مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ، يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) « هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً » للمالين بالنهار « وَالْقَمَرَ نُورًا » أى لهم بالليل : والضياء أقوى من النور . « وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ » الضمير لها ، بتأويل كل واحد منهما ، أو للقمر ، وخص بما ذكر ، لكون منازلها معلومة محسوسة ، وتعلق أحكام الشريعة به ، وكونه عمدة فى تواريخ العرب « لِّتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِّينَ وَالْحِسَابَ » أى حساب الشهور والأيام ، مما يبط به المصالح فى المعاملات والتصرفات « مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ » أى بالحكمة البالغة « يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ » أى يبين الآيات التكوينية أو التنزيلية المنبهة على ذلك لقوم يعلمون الحكمة فى إبداع الكائنات ، فيستدلون بذلك على وحدة مبدعها .

قال السيوطى : هذه الآية أصل فى علم المواقيت والحساب ومنازل القمر والتاريخ .

ثم نبه للاستدلال على وحدانيته سبحانه أيضاً بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَايَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ)

« إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ » أى فى تماقبيهما وكون كل منهما خليفة للآخر « وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى من الشمس والقمر والنجوم والشجر والدواب والجبال والبحار وغير ذلك « لَايَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ » أى لآيات عظيمة دالة على وحدة مبدعها ، وكمال قدرته ، وبالع حكمته . وخص (المتقين) لأنهم المنتفعون بنتائج التدبر فيها ، فإن الداعى إلى النظر والتدبر إنما هو تقواه تعالى ، والحذر من العقوبة .

تنبيه :

في هذه الآيات إشارة إلى أن الذي أوجد هذه الآيات الباهرة ، وأودع فيها المنافع الظاهرة ، وأبدع في كل كائن صنعه ، وأحسن كل شيء خلقه ، وميز الإنسان ، وعلمه البيان - يكون من رحمته وحكمته اصطفاء من يشاء لرسالته ، ليبليغ عنه شرائع عامة ، تحدد للناس سيرهم في تقويم نفوسهم ، وكبح شهواتهم ، وتعلمهم من الأعمال ما هو مناط سعادتهم وشقاؤهم في الآخرة ، كما أشار إلى ذلك بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧] (إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ)

[٨] أُولَئِكَ مَاوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

[٩] (إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ ، تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ)

[١٠] (دَعَوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ، وَءَاخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

« إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا » أى فلا يتوقعون الجزاء « وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ » أى لا يتفكرون فيها « أُولَئِكَ مَاوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * » إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ » أى بسببه ، إلى ماوَاهم ، وهى الجنة ، وإنما لم تذكر تمويلاً على ظهورها ، وانسياق النفس إليها ، لاسيما بملاحظة ما سبق من بيان ماوى السكرة « تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ

النَّعِيمِ « أَى من تحت منازلهم أو بين أيديهم . » دَعَوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ « أَى دعاؤهم هذا الكلام ، لأن (اللهم) نداء ، ومغناه : اللهم إنما نسبحك ، كقول القانت : اللهم إياك نعبد . يقال : دعا يدعو دعاء ودعوى ، كما يقال : شكا يشكو شكاية وشكوى . ويجوز أن يراد بالدعاء العبادة ، ونظيره آية^(١) (وَأَعْتَرِلُكُمُ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ) : « وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ » أَى ما يحيى به بعضهم بعضاً ، أو تحية الملائكة إياهم ، كما فى قوله تعالى^(٢) : « وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ » أو تحية الله عز وجل لهم ، كما فى قوله تعالى (سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ) . و (التحية) التكرمة بالحالة الجليلة . أصلها : أحياك الله حياة طيبة . و (السلام) بمعنى السلامة من كل مكروه . « وَءَاخِرُ دَعَوَاهُمْ » أَى وخاتمة دعائهم هو التسبيح « أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » أَى حمده تعالى : والمراد من الآية أن دعاء أهل الجنة وعبادتهم هو قولهم . سبحانك اللهم وبحمدك . وإيثار التعبير عن (وبحمدك) ، بقوله : (وَءَاخِرُ) الخ رعاية للفواصل ، واهتماماً بالحمد وما معه من الفعوت الجليلة ، تذكيراً بمسماها . والآية تدل على سمو هذا الذكر ، لأنه دعاء أهل الجنة وذكر الملائكة كما قالوا^(٣) : (وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ) ، ولذلك ندب قراءته بعد تكبيرة الإحرام .

قال الرازى لما استسعد أهل الجنة بذكر (سبحانك اللهم وبحمدك) ، وعانينوا ما فيه من السلامة عن الآفات والمحافات ، علموا أن كل هذه الأحوال السنية ، والمقامات القدسية ، إنما تيسرت بإحسان الحق سبحانه وإفضاله وإتعامه ، فلا جرم اشتغلوا بالحمد والثناء . ولما بين تعالى وعيده الشديد ، أنبئه بما دل على أن من حقه أن يؤخر عن هذه الحياة الدنيوية ، لأن حصوله فى الدنيا كالمانع من بقاء التكليف ، فقال تعالى :

(١) [١٩ / مريم / ٤٨] . (٢) [١٣ / الرعد / ٢٣] .

(٣) [٣٦ / يس / ٥٨] . (٤) [٢ / البقرة / ٣٠] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١] (وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ)

« وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ » وهم الذين لا يرجون لقاء تعالى لكفرهم « الشَّرَّ » أى الذى كانوا يستعجلون به ، فإنهم كانوا يقولون ^(١) : (اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) ونحو ذلك « اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ » أى تعجيلاً مثل استعجالهم الدعاء بالخير « لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ » أى لأميتوا وأهلكوا « فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ » أى فى ضلالهم وشركهم يترددون.

لطيفة :

زعم الزمخشري أن معنى استعجالهم بالخير ، أى تعجيله لهم الخير . وضع الأول موضع الثانى إشعاراً بسرعة إجابته لهم ، وإسعافه بطلبتهم ، حتى كأن استعجالهم بالخير تعجيل لهم . وعندى أنه صرف اللفظ الكريم عن ظاهره بلا داع . ولا بلاغة فيه أيضاً ، وإن توبع فيه والحرص على موافقة عامل المصدر له ليكونا من باب واحد - غير ضرورى فى العربية ، والشواهد كثيرة .

وجوز الرازى أن يكون (يعجل) أصله يستعجل . عدل عنه تنزيهاً للجناب الأقدس عن وصف طلب العجلة ، فوصف بتكوينها ، ووصف الناس بطلبها ، لأنه الأليق . ولعل الأليق أن (استعجالهم) مصدر لفعل دل عليه ما قبله ، والتقدير ، ولو يعجل الله للناس الشر الذى يستعجلون به استعجالهم . وإنما حذف إيجازاً ، للعلم به . ويوافقه قوله تعالى ^(٢) (وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ) فإنه فى معنى ما هنا .

(١) [٨ / الأنفال / ٣٢] . (٢) [١٧ / الإسراء / ١١] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِيًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ
ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ، كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)
« وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا » أى لكشفه وإزالته « لِجَنْبِهِ » حال من فاعل (دعا)
واللام بمعنى (على) أى على جنبه ، أى مضطجما « أَوْ قَاعِيًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ
مَرَّ » أى مضى على طريقته الأولى ، « كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ » أى كشفه « مَسَّهُ كَذَلِكَ
زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » أى من الإعراض عن الذكر ، واتباع الشهوات . والآية
سقيت احتجاجا على المشركين ، بما جبلوا عليه كغيرهم من الالتجاء إليه تعالى عند الشدائد ،
علما بأنه لا يكشفها إلا هو ، ليطرحوا عبادة ما لا يضر ولا ينفع ، ويستيقنوا أنه الإله
الأحد ، الذى لا يعبد سواه . وفيها نعى عليهم سوء منقلبهم ، إر كشف كرباتهم ، وتحذير
من مثل صنيعهم .

ثم ذكروهم تعالى بعظيم قدرته مما وصل إليهم من نبال الأقدمين ليمتقوه ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونََ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ
بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا ، كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ)
« وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونََ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا » أى بالتكذيب والكفر
« وَجَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا » أى فقرر عليهم الحجة بالوجوه
الكثيرة . وما كانوا ليؤمنوا بتلك البينات ولا بغيرها ، فجزام بالإهلاك المعروف فيهم .
« كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤] (ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ) « ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ » الخطاب للذين بعث إليهم النبي ﷺ ، أى استخلفناكم فى الأرض بعد القرون التى أهلكتناها ، لننظر كيف تعملون من خير أو شر ، فنعاملكم حسب عملكم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥] (وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَنتِ بَقْرَةٌ إِنَّا غَيْرُ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ ، قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي ، إِنْ أَتَّبَعُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ ، إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) « وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَنتِ بَقْرَةٌ إِنَّا غَيْرُ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبَعُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ » يخبر تعالى عن تعنت الكفار من مشركى قريش ، بأنهم إذا قرأ عليهم النبي ﷺ كتاب الله وحججه الواضحة ، قالوا له : أنتى بقرآن غير هذا ، أى جئنا بغيره من نعط آخر أو بدله إلى وضع آخر . قال تعالى لنبيه : (قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي) : أى ليس ذلك إلى ، إنما أنا مبلغ عن الله تعالى .

قيل : إنما اكتفى بالجواب عن التبديل ، للإيضاح بأن استحالة ما اقترحوه أولاً ، من الظهور بحيث لا حاجة إلى بيانها . وأن التصدى لذلك ، مع كونه ضائعاً ، ربما يعد من قبيل المجازاة مع السفهاء ، إذ لا يصدر مثل ذلك الاقتراح عن العقلاء . ولأن ما يدل على استحالة

الثاني يدل على استحالة الأول بالطريق الأولى . فهو جواب عن الأمرين بحسب المآل والحقيقة وقوله : (إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي) أى بالتبديل والنسخ من عند نفسى .

قال السيوطى فى (الإكليل) استدل به مَنْ منع نسخ القرآن بالسنة . اهـ .

قال الزمخشري : فإن قلت . فما كان غرضهم ، وهم أدهى الناس وأمكرهم ، فى هذا الاقتراح ؛ قلت : الكيد والمكر . أما اقتراح إبدال قرآن بقرآن ، ففيه أنه من عندك ، وأنت قادر على مثله ، فأبدل مكانه آخر . وأما اقتراح التبديل والتغيير فللاطمع ، ولاختبار الحال ، وأنه إن وجد منه تبديل فإما أن يهلكه الله فينجوا منه ، أولا يهلكه فيسخره منه ، ويجعلوا التبديل حجة عليه ، وتصحيحاً لا فترأه على الله - انتهى - .

ولما بين بطلان ما افترحوه الإتيان به واستحالة ، أشار إلى تحقيق حقيقة القرآن ، وكونه من عنده تعالى بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ

عُمُرًا مِّنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

قل « لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ » .

قال الزمخشري : معنى أن تلاوته ليست إلا بمشيئة الله وإحداثه أمراً عجيباً خارجاً عن العادات ، وهو أن يخرج رجل أى لم يتعلم ولم يستمع ، ولم يشاهد العلماء ساعة من عمره ، ولا نشأ فى بلد فيه علماء ، فيقرأ عليهم كتاباً فصيحاً ، يهر كل كلام فصيح ، ويعلمو على كل منشور ومنظوم ، مشحوناً بمعلوم من علوم الأصول والفروع ، وأخبار مما كان ويكون ناطقاً بالغيوب التى لا يعلمها إلا الله ، وقد بلغ بين ظهرانيكم أربعين سنة تعلمون على أحواله ، ولا يخفى عليكم شئ من أسرار ، وما سمعتم منه حرفاً من ذلك ، ولا عرفه به أحد من أقرب الناس منه ، والصقهم به .

«وَلَا أَذْرَأَكُم بِهِ» أى ولا أعلمكم به على لسانى «فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ»
أى من قبل نزوله ، لا أتماطى شيئاً مما يتعلق بنبوهه ، ولا كنت متواصفاً بعلم وبيان ،
فتتهمونى باختراعه . «أَفَلَا تَعْقِلُونَ» أى فتعلموا أنه ليس إلا من الله ، لا
من مثلى .

قال الزمخشري : وهذا جواب عما دسّوه تحت قولهم (أَنْتَ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا) من
إضافة الافتراء إليه .

تنبيه :

رأى أبو السعود أن الأنسب ببناء الجواب فيما سلف على مجرد امتناع صدور التغيير
والتبديل عنه عليه الصلاة والسلام ، لكونه معصية موجبة للعذاب العظيم ، واقتصار حاله
عليه الصلاة والسلام على اتباع الوحي ، وامتناع الاستبداد بالرأى ، من غير تعرض هناك
ولا همنا ، لكون القرآن فى نفسه أمراً خارجاً عن طوق البشر ، ولا لكونه عليه السلام
غير قادر على الإتيان بمثله ، أن يستشهد ههنا على المطلوب مما يلائم ذلك من أحواله المستمرة
فى تلك المدة المتطاولة ، من كمال نزاهته عما يومئذ شائبة صدور الكذب والافتراء عنه فى حق
أحد كائناً من كان ، كما ينبىء عنه تعقيبه بتظليم المفترى على الله تعالى . والمعنى : قد لبثت فيما
بين ظهرا نيكم قبل الوحي ، لا أتمرض لأحد قط بتحكم ولا جدال ، ولا أحوم حول مقال فيه
شائبه شبهة ، فضلاً عما فيه كذب أو افتراء ، أفلا تعقلون أن من هذا شأنه المطرّد فى هذا
العهد البعيد ، مستحيل أن يفترى على الله ، ويتحكم على الخلق كافة ، بالأوامر والنواهي
الموجبة لسفك الدماء ، وسلب الأموال ، ونحو ذلك . وأن ما أتى به وحي مبين ، تنزيل من
رب الملئین - انتهى - .

وما استنفسه رحمه الله ، اقتصر عليه ابن كثير ، ثم استشهد بقول (١) هرقل ملك الروم

(١) الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه فى : ١ - كتاب بدء الوحي ، ٦ - حدثنا

أبو اليمان الحكم بن نافع .

لأبي سفيان ، فيما سألته من صفة النبي ﷺ ، قال هرقل له : هل كنتم تهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال أبو سفيان فقلت : لا ! وكان أبو سفيان إذ ذاك رأس الكفرة ، وزعيم المشركين ، ومع هذا اعترف بالحق * والفضل ماشهدت به الأعداء * فقال له هرقل : فقد أعرف أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ، ثم يكذب على الله .

وقال جعفر بن أبي طالب للنجاحشي ملك الحبشة^(١) : بعث الله فينا رسولا نعرف صدقه ونسبه وأمانته ، وقد كانت مدة مقامه بين أظهرنا قبل النبوة أربعين سنة .
وعن ابن المسيب : ثلاثاً وأربعين سنة . والصحيح المشهور الأول .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] (فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ)

« فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ » استفهام إنكارى معناه الجحد . أى لا أحد أظلم ممن تقول على الله تعالى ، وزعم أنه تعالى أرسله وأوحى إليه ، أو كفر بآياته ، كما فعل المشركون بتكذيبهم للقرآن ، وحملهم على أنه من جهته عليه الصلاة والسلام .

« إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ » أى لا ينجون من محذور ، ولا يظفرون بمطلوب . ونظير هذه الآية قوله تعالى^(٢) (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ) . وترتيب عدم الفلاح على من افترى الوحي ، وعده صادق بلا مرية ، فإن مفتريه يبوء بالخزي والفكال ، ولا يشتبه أمره على أحد بحال .

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده بالصفحة رقم ٢٠٢ من الجزء الأول (طبعة الحلبي)

والحديث رقم ١٧٤٠ (طبعة المعارف) . (٢) [٦ / الأنعام / ٩٣] .

وقد ذكر أن عمرو بن العاص وفد على مسيلة الكذاب - وكان صديقاً له في الجاهلية ، وكان عمرو لم يسلم بعدُ - فقال له مسيلة : ويحك يا عمرو ! وما ذا أنزل على صاحبكم - يعني رسول الله ﷺ - في هذه المدة ؟ فقال : لقد سمعت أصحابه يقرؤون سورة عظيمة قصيرة . فقال : وما هي ؟ فقال^(١) : وَالْمَصْرُ * إِنَّ الْإِنْسَانَ ... الخ ففكر مسيلة ساعة ثم قال : وأنا قد أنزل على مثله ! فقال : وما هو ؟ فقال : يا وبر يا وبر . إنما أنت أذنان وصدر وسايرك حقر نقر !! كيف ترى يا عمرو ؟ فقال له عمرو : والله ! إنك لتعلم أني أعلم أنك لكذاب ! وقال عبد الله بن سلام^(٢) : لما قدم رسول الله ﷺ المدينة أنجفل الناس ، فكنت فيمن أنجفل منه ، فلما رأيته عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب . قال : فكان أول ما سمعته : يقول : أيها الناس ! أفسحوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصلوا الأرحام ، وصلوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام . قل حسان^(٣) :

لو لم تكن فيه آيات مبينة كانت بديهة تأتيك بالخبير

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨] (وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)

« وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ » أي الأوثان التي هي جناد

(١) [١٠٣ / المص / ١ - ٣] .

(٢) أخرجه الترمذی في : ٣٥ - كتاب القيامة ، ٣٢ باب حدثنا محمد بن بشار .

وأخرجه ابن ماجة في : ٥ - كتاب الإقامة ، ١٧٤ - باب ما جاء في قيام الليل ، حديث رقم ١٣٣٤ (طبعنا) . (٣) ليس في ديوان حسان .

لا تقدر على نفع ولا ضرر ، أى ومن شأن المعبود القدرة على ذلك . « وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ ، قُلْ أَنْتَبِئُوكُمُ اللَّهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ » أى أخبرونه بكونهم شفعاء عنده ، وهو إنباء بما ليس بمعلوم لله ، وإذا لم يكن معلوماً له - وهو العالم المحيط بجميع المعلومات - لم يكن موجوداً ، فكان خبراً ليس له مخبر عنه .
فإن قلت : كيف أنبأوا الله بذلك ؟ قلت : هو تهمكم بهم ، وبما ادعوه من المحال الذى هو شفاعة الأصنام ، وإعلام بأن الذى أنبأوا به باطل ، فكأنهم يخبرونه بشيء لا يتعلق علمه به ، كما يخبر الرجل بما لا يعلمه .

وقوله : (فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ) تأكيده لضعفه ، لأن ما لم يوجد فيهما فهو منقطف معدوم - كذا في الكشف - « سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ » أى عن الشركاء الذين يشركونهم به ، أو عن إشرائهم .

ثم أشار تعالى إلى أن التوحيد والإسلام ملة قديمة كان عليها الناس أجمع ، فطرة وتشريعاً ، بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا ، وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)

« وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً » أى حنفاء متفقين على ملة واحدة ، وهى فطرة الإسلام والتوحيد التى فطر عليها كل أحد « فَاخْتَلَفُوا » باتباع الهوى وعبادة الأصنام ، فالشرك وفروعه جهالات ابتدعها الغواة صرفاً للناس عن وجهة التوحيد ، ولذلك بمت الله الرسل بآياته وحججه البالغة ، ليهلك^(١) من هلك عن بينة ، ويحيى من حى عن بينة « وَلَوْلَا

(١) [٨ / الأنفال / ٤٢] .

كَلِمَةً سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ « أَيْ بِتَأخير الحكم بينهم إلى يوم القيامة » لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ « أَيْ عَاجِلًا فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ » بتمييز الحق من الباطل ، بإبقاء الحق ، وإهلاك الباطل .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (وَيَقُولُونَ لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ، فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا

إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ)

« وَيَقُولُونَ لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ » أَيْ مِنْ الْآيَاتِ الَّتِي اقترحوها تعقلاً وعناداً ، وكانوا لا يمتدّون بما أنزل عليه من الآيات العظام المتكاثرة ، التي لم ينزل على أحد من الأنبياء مثلاً ، وكفى بالقرآن وحده آية باقية على وجه الدهر ، بديعة غريبة في الآيات . « فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ » أَيْ هُوَ الْمُخْتَصُّ بِعِلْمِ الْغَيْبِ ، الْمُسْتَأْثَرُ بِهِ ، لَا عِلْمَ لِي وَلَا لِأَحَدٍ بِهِ .

يعنى أن الصارف عن إزال الآيات المقترحة أمر مفقود لا يعلمه إلا هو .

« فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ » أَيْ فِيمَا يَقْضِيهِ اللَّهُ تَعَالَى فِي عَاقِبَةِ تَعَمُّدِكُمْ ، فَإِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ . وَقَدْ قَالَ تَعَالَى فِي آيَةٍ أُخْرَى ^(١) (وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ) . وَقَالَ تَعَالَى ^(٢) (إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَهُمْ كُلُّ آيَةٍ) . وَقَالَ تَعَالَى ^(٣) (وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى كِتَابٍ فِي قِرْطَاسٍ فَلَمْ يَسُوهُ بِأَنْبِيَئِهِمْ لَقَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ) أَيْ فَتُفْشَلُ هَؤُلَاءِ أَقْلُ مَنْ أَنْ يُجَابُوا لِمَقَرَّحِهِمْ ، لَفَرَطِ عِنَادِهِمْ . وَلَا يَخْفَى أَنْ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ لَمَّا قَامَ بِهِ الدَّلِيلُ الْقَاهِرُ عَلَى صَدَقِ نُبُوته ، عَلَيْهِ السَّلَامُ ، لِإِعْجَازِهِ ، كَانَ طَلَبُ آيَةٍ أُخْرَى سِوَاهُ مِنْ مَقَرَّحِهِمْ - مِمَّا لِحَاجَةٍ لَهُ فِي صِحَّةِ نُبُوته ، وَتَقْرِيرِ رِسَالَتِهِ . فَتَمْلِكُهَا يَكُونُ مَفْوضاً إِلَى مَشِئَتِهِ تَعَالَى ، فَتَرَدُّ إِلَى غِيْبِهِ ، وَسِوَاهُ أَنْزَلَتْ أَوَّلًا ، فَقَدْ ثَبَتَتْ نُبُوته ، وَوَضَحَتْ رِسَالَتَهُ ، صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ .

(١) [١٧ / الإِمْرَاء / ٥٩] . (٢) [١٠ / يُونُس / ٩٧ و ٩٦] .

(٣) [٦ / الْأَنْعَام / ٧] .

ثم أكد تعالى ما هم عليه من العناد واللجاج، مشيراً إلى أنهم لا يُدْعَنون ولو أُجيبوا لمقترحهم، بما يهدمهم من عدولهم عنه تعالى بعد كشفهم ضررهم، إلى الإشرak، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢١] (وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَّسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا، قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ)

«وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَّسَّتْهُمْ» أى خالطتهم حتى أحسوا بسوء أثرها فيهم «إِذَا لَهُمْ مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا» أى يتبين مكرهم ويظهر كامن شرهم، فهم فى وقت الضراء فى الإقبال عليه تعالى لكشفها، كالحنادع الذى يظهر خلاف ما يبطن، ثم ينجلي أمره بعد : «قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا» أى عقوبة، أى عذابه أسرع وصولاً إليكم مما يأتى منكم فى دفع الحق . وتسمية العقوبة بالمكر، لوقوعها فى مقابلة مكرهم وجوداً أو ذكراً . «إِنَّ رُسُلَنَا» أى الذين يحفظون أعمالكم «يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ» أى مكرهم، أو ما تمكرونه . وهو تحقيق للانتقام، وتنبية على أن ما دبروا فى إخفائه غير خاف على الحفظة، فضلاً عن العليم الخبير .

ثم بين تعالى نوعاً من أنواع مكرهم فى آية إنجائهم من لجج البحر بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ فِيهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرَحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ)

«هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ» أى السفن

« وَجَرَيْنَ » أى السفن « بِهِمْ » أى بالذين فيها « بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ » أى لينة المهبوب ، موافقة المرغوب « وَفَرَّخُوا بِهَا » لأمن الآيات « جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ » أى ذات شدة « وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ » أى أحاط بهم أسباب الهلاك ، وهى شدة الموج والريح « دَعَوْا اللَّهَ » أى للتخلص منها « مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ » وهو الدعاء لأنهم حينئذ لا يدعون معه غيره « لَكِنْ أَنْجَيْنَا مِنْ هَذِهِ لَنُكَوِّنَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ » أى العابدين لك شكراً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ ، مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

« فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ » أى يفسدون فيها ، ويسارعون إلى ما كانوا عليه من الشرك ونحوه « يَا أَيُّهَا النَّاسُ » أى الناسين نعمة الخلاص بالإخلاص واستجابة الدعاء « إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ » أى وباله عليكم . « مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » خبر محذوف أو هو متاع . أو خبر ثان . أو هو الخبر لـ (بغيكم) (على) متعلق به . وقرئ بالنصب مصدر لمحذوف ، أى نتممكم . أو مفعول به له . أى تبغون . « ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » أى فى الدنيا وهو وعيد بجزائهم على البنى .

ثم بين تعالى شأن الدنيا وقصر مدة التمتع بها وقرب زمان الرجوع الموعد بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (إِنَّمَا مِثْلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَتَزَلْنَا مِنْ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازِيدَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ ، كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

« إِنَّمَا مِثْلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَتَزَلْنَا مِنْ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ » أى امتزج به لسريانه فيه ، فالبناء للمصاحبة ، أو هى للسببية ، أى اختلط بسببه حتى خالط بعضه بعضاً ، أى التف بمضه ببعض ، والأول أظهر « مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ » من الزروع والثمار والكلاؤ والحشيش « حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا » أى حسنها وبهجتها « وَازِيدَتْ » أى بأصناف النبات « وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا » أى متمكنون من تحصيل حبوبها وثمارها وحصدها « أَتَاهَا أَمْرُنَا » أى عذابنا « لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا » أى كالمحصول من أصله « كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ » أى لم تنبت « بِالْأَمْسِ » أى قبيل ذلك الوقت . و (الأمس) مثلٌ فى الوقت القريب « كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ » أى بالأمثلة تقريباً « لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » أى فى معانيها .

تنبيه :

قال القاشانى : البغى ضد العدل ، فكما أن العدل فضيلة شاملة لجميع الفضائل ، وهياة وحدانية لها ، فائضة من نور الوحدة على النفس ، فالبنى لا يكون إلا عن غاية الانهماك فى المذائل ، بحيث يستلزمها جميعاً ، فصاحبها فى غاية البعد عن الحق ، ونهاية الظلمة ، كما قال : الظلم ظلمات يوم القيامة ^(١) . فلهذا قال : (عَلَى أَنْفُسِكُمْ) لا على المظلوم ، لأن المظلوم

(١) أخرجه البخارى فى : ٤٦ - كتاب المظالم والغصب ، ٨ - باب الظلم ظلمات =

سعد به ، وشقى الظالم غاية الشقاء ، وهو ليس إلا مقام الحياة الدنيا . إذ جميع الإفراطات والتفريطات المتقابلة للعدالة تتمتع طبيعياً ، ولذات حيوانية ، تنقضى بانقضاء الحياة الحسية التي مثلها في سرعة الزوال ، وقلة البقاء ، هذا المثل الذي مثل به ، من تزين الأرض بزخرفها من ماء المطر ، ثم فسادها بيمض الآفات سريعاً قبل الانتفاع بنباتها ، ثم تتبعضها الشقاوة الأبدية ، والمذاب الأليم الدائم .

وفي الحديث ^(١) : أسرع الخير ثواباً صلة الرحم ، وأعجل الشر عقاباً البغى واليمين الفاجرة ، لأن صاحبه تتراكم عليه حقوق الناس ، فلا تحتمل عقوبته المهل الطويل الذي يحتمله حق الله تعالى .

وسمعت بعض المشايخ يقول : فلما يبلغ الظالم والفاسق أو ان الشيخوخة ، وذلك لمبارزتهما الله تعالى في هدم النظام المصروف عنايته تعالى إلى ضطبه ، ومخالفتهما إياه في حكمته وعدله . انتهى .

ولما ذكر تعالى الدنيا وسرعة تقضيها ، رغب في الجنة ودعا إليها ، وسماها دار السلام ، أي من الآفات والنقائص ، لذكر الدنيا بما يقابله من كونها معرضاً للآفات كما مر ، فقال سبحانه :

= يوم القيامة ، حديث ١٢٠٤ .

ومسلم في : ٤٥ - كتاب البر والصلة والآداب ، حديث رقم ٥٧ (طبعنا) .

(١) أخرجه ابن ماجه في : ٣٧ - كتاب الزهد ، ٢٣ - باب البغى ، حديث رقم ٢١٢ (طبعنا) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (وَاللّٰهُ يَدْعُوْا اِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِى مَنْ يَّشَاءُ اِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيْمٍ)
 [٢٦] (لِّلَّذِيْنَ اَحْسَنُوْا الْحُسْنٰى وَزِيَادَةٌ ، وَلَا يَرْهَقُ وُجُوْهُهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ،
 اُولٰٓئِكَ اَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيْهَا خَالِدُوْنَ)

« وَاللّٰهُ يَدْعُوْا اِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ » أى يدعو الخلق بتوحيده إلى جنّته « وَيَهْدِى مَنْ يَّشَاءُ اِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيْمٍ » أى دين قيم يرضاه ، وهو الإسلام .
 « لِّلَّذِيْنَ اَحْسَنُوْا الْحُسْنٰى وَزِيَادَةٌ » أى للذين أحسنوا النظر ، فمرفوا مكر الدنيا والتمهوات ، فأعرضوا عنها ، وتوجهوا إلى الله تعالى ، فمبدوه كأنهم يرونه ، الثوبة الحسنى ، وهى الجنة ، وزيادة على الثوبة ، وهى التفضل كما قال تعالى^(١) : (وَيَزِيْدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ) .
 وأعظم أنواعه النظر إلى وجهه تعالى الكريم . ولذا تواتر تفسيرها بالرؤية عن غير واحد من الصحابة والتابعين . ورفعها ابن جرير إلى النبى صلوات الله عليه ، عن أبى موسى وكعب ابن عجرة ، وأبى . وكذا ابن أبى حاتم .

وروى الإمام أحمد^(٢) عن صهيب رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية (لِّلَّذِيْنَ اَحْسَنُوْا ...) الخ وقال : إذا دخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، نادى مناد : يا أهل الجنة ! إن لكم عند الله موعدا ، يريد أن ينجزكموه . فيقولون : ما هو ؟ ألم يشغل موازيننا ، ألم يبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة ويرزقنا عن النار ؟ قال : فيكشف لهم الحجاب فينظرون إليه . فوالله ! ما أعطاهم الله شيئا أحب إليهم من النظر إليه ، ولا أقر لأعينهم . وهكذا رواه مسلم^(٣) .

(١) [٤/النساء/١٧٣] و [٢٤/النور/٣٨] و [٣٥/فاطر/٣٠] و [٤٢/الشورى/٢٦] .

(٢) أخرجه فى مسنده بالصفحة رقم ١٥ من الجزء السادس (طبعة الحلبي) .

(٣) أخرجه فى : ١ - كتاب الإيمان ، حديث رقم ٢٩٧ (طبعنا) .

« وَلَا يَرَهُ قُوجُوهُهُمْ قَتَرٌ » أى لا يغشاها غبرة سوداء من أثر حب الدنيا والشهوات
« وَلَا ذِلَّةٌ » أى أثر هوان ، وكسوف بال ، من أثر الالتفات إلى ما دون الله تعالى .
قال الناصر: وفي تعقيب الزيادة بهذه الجملة مصداق لصحة تفسير الزيادة بالرؤية الكريمة ،
فإن فيه تنبيه على إكرام وجوههم بالنظر إلى وجه الله تعالى ، فحذر بهم أن لا يرهق وجوههم
قتر البعد ، ولا ذلة الحجاب ؛ عكس المحرومين المحجوبين ، فإن وجوههم مرهقة بقتر الطرد ،
وذلة البعد .
وقوله تعالى : « أُولَئِكَ » أى الذين أحسنوا « أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا
خَالِدُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ يَمْثِلُهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ، مَا لَهُمْ مِّنَ
اللهِ مِنْ عَاصِمٍ ، كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا ، أُولَئِكَ
أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

« وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ » أى الشرك والمعاصى « جَزَاءُ سَيِّئَةٍ يَمْثِلُهَا وَتَرْهَقُهُمْ
ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِّنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ » أى واق يقيههم العذاب « كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ » أى ألبست
« وَجُوهُهُمْ قِطْعًا » أى أجزاء « مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا » لفرط سوادها وظلمتها . وذلك
لارتكابهم الهيأة المظلمة من الميول الطبيعية ، والأعمال الرديئة ، والقصد الإخبار بأبدع تشبيه
عن سواد وجوههم . وقد ذكر هذا المعنى فى غير ما آية « أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ
فِيهَا خَالِدُونَ » .

ثم بين تعالى ما ينال المشركين يوم الحشر من التوبيخ والحزى بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائِكُمْ، فَزَيْلَنَا بِهِمْ وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَا تَعْبُدُونَ)

« وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا » يعنى المشركين ومعبوداتهم للمقاولة بينهم ثم نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا « أى معبوديهم بالله ، مع توقعهم الشفاعة منهم « مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائِكُمْ » أى الزموا مكانكم ، لا تبرحوا حتى تفظروا ما يفعل بكم .

قال القاشانى : معناه قفوا مع ما وقفوا معه فى الموقف من قطع الوصل والأسباب التى هى سبب محبتهم وعبادتهم ، وتبرؤ المعبود من العابد لا تقطاع الأغراض الطبيعية التى توجب تلك الوُصل .

ومعنى قوله : « فَزَيْلَنَا بِهِمْ » أى مع كونهم فى الموقف معاً ، فرقنا بينهم ، وقطعنا الوُصل التى بينهم ، فلا يبقى من العابدين توقع شفاعة ، ولا من المعبودين إفادتها ، لو أمكنتهم « وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَا تَعْبُدُونَ » إذ لم تكن عبادتكم عن أمرنا ، بل عن أمر الشيطان ، فكنتم عابديه بالحقيقة ، بطاعتكم إياه ، وعابدى ما اخترعتموه فى أوهامكم من أباطيل فاسدة ، وأمانى كاذبة .

قيل : القول مجاز عن تبرئهم من عبادتهم ، وأنهم عبدوا أهواءهم وشياطينهم ، لأنها الآمرة لهم دونهم ، لأن الأوثان جمادات وهى لا تنطق . وقيل : ينطقها (الله الذى أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ) ^(١) ، فتشافهم بذلك ، مكان الشفاعة التى كانوا يتوقعونها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ)
 « فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ » أى انما « لَغَافِلِينَ »
 أى الله يعلم أنا ما أمرناكم بذلك وما أردنا عبادتكم إيانا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ ، وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ ،
 وَصَلَ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ)

« هُنَالِكَ » أى فى ذلك المقام الدهش ، حين قطع المواصله ، وإنكار الشركاء العبادة
 « تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ » أى تختبر وتذوق كل نفس ما أسلفت من العمل ، فتماين
 أثره من قبح وحسن ، ورد وقبول ، كما يختبر الرجل الشئ ويعرفه ، ليكتفه حاله . وهذا
 كقوله تعالى ^(١) : (يُنَبِّئُ الْإِنْسَانُ بِوَمُؤْتِدٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ) وقوله ^(٢) (يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ) .
 « وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ » الضمير للذين أشركوا ، أى ردوا إلى الله المتولى
 جزاءهم بالعدل والقسط « وَصَلَ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ » أى ضاع عنهم ما افتروه من
 اختراعاتهم ، وأصول دينهم ومذهبهم ، وتوهماتهم الكاذبة ، وأمانتهم الباطلة . أى ظهر
 ضياعه وضلاله ، فلم يبق له أثر فيهم .

وفى هذه الآية تبكيه شديده للمشركين الذين عبدوا ما لا يسمع ولا يبصر ، ولا يغنى
 عنهم شيئاً ، ولم يأمرهم بذلك ، ولا رضى به ، ولا أراد به ، بل تبرأ منهم ، أخرج ما يكونون
 إلى المعونة . والمشركون أنواع وأقسام ، وقد ذكرهم تعالى فى كتابه ، وبين أحوالهم ، ورد
 عليهم آثم رد .

ثم احتج على المشركين على وحدانيته باعترافيهم بربوبيته وحده بقوله سبحانه وتعالى :

(١) [٧٥ / القيامة / ١٣] . (٢) [٨٦ / الطارق / ٩] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣١] (قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ مَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدْبِرُ الْأُمْرَ ، فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ، فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ)

« قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ » بالإمطار والإنبات وهل يمكن إلا ممن له التصرف العام فيها « أَمْ مَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ » أى من يستطيع خلقهما وتسويتهما على الحد الذى سوا عليه من الفطرة العجيبة ، كقوله تعالى ^(١) : (قُلْ هُوَ الَّذِى أُنشَأَكُمْ وَحَمَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ) .

« وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ » يعنى النسمة من النطفة ، أو الطير من البيضة ، أو السنبلة من الحب ، (وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ) كأن يخرج النطفة من الإنسان والبيضة من الطائر . وقيل : المراد أن يخرج المؤمن من الكافر أو الكافر من المؤمن . « وَمَنْ يُدْبِرُ الْأَمْرَ » أى ومن يلى تدبير أمر العالم كله ، بيده ملكوت كل شيء ، تعميم بعد تخصيص . « فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ » إذ لا مجال للمكابرة لغاية وضوحه « فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ » أى أفلا تخافون بعد اعترافكم ، من غضبه لعبادة غيره اتباعاً للهوى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ ، فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ، فَأَنَّى تُصْرَفُونَ) « فَذَلِكُمُ » إشارة إلى من هذه قدرته وأفعاله « اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ » الثابت وحدانيته ثباتاً لا ريب فيه ، لمن حقق النظر « فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ » يعنى أن الحق والضلال لا واسطة بينهما ، فمن تخطى الحق وقع فى الضلال . أى فما بعد حقيقة ربوبيته إلا بطلان ربوبية ما سواه ، وعبادة غيره ، انفراداً أو شركاً « فَأَنَّى تُصْرَفُونَ » أى عن الحق

(١) [٦٧ / الملك / ٢٣] .

الذى هو التوحيد ، إلى الضلال الذى هو الشرك ، وأنتم تعترفون بأنه الخالق كل شيء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

« كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ » أى ثبت حكمه وقضاؤه على الذين تمردوا فى كفرهم ؛ وخرجوا إلى الحد الأقصى فيه . وقوله (أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) بدل من الكلمة ، أى حق عليهم انتفاء الإيمان . وعلم الله منهم ذلك . أو أراد بالكلمة العدة بالمذاب ، و (أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) تعليل بمعنى (لَا يُؤْمِنُونَ) - أفاده الرغشرى - أى كقوله تعالى ^(١) (قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ) وقوله تعالى ^(٢) : (أَمَّا حَقَّتْ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ) قيل : (الَّذِينَ فَسَقُوا) مظهر وضع موضع ضمير المخاطبين للإشمار بالعلية ، و (الفسق) هنا التمرد فى الكفر ، فآل الكلام إلى أن كلمة العذاب حقت عليهم ، لتمردهم فى كفرهم ، ولأنهم لا يؤمنون ، وهو تكرار . وأجيب بأنه تصرّح بما علم ضمناً من (الذين فسقوا) ، أو دلالة على شرف الإيمان بأن عذاب المتمردين فى الكفر بسبب انتفاء الإيمان . ثم احتج أيضاً على حقيقة التوحيد وبطلان الشرك بما هو من خصائصه تعالى ، من بدء الخلق وإعاداته ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ)

« قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ » أى من يبدؤه من النطفة ، ويجعل فيه الروح ليتعرف إليه ، ويستعمله أعمالاً ، ثم يحييه يوم القيامة ، ليجزيه بما أسلف

(١) [٣٩ / الزمر / ٧١] . (٢) [٣٩ / الزمر / ١٩] .

في أيامه الخالية . وإنما نظمت الإعادة في سلك الاحتجاج ، مع عدم اعترافهم بها ، إيداناً بظهور برهانها ، للأداة القائمة عليها سمياً وعقلاً ، وإن إنكارها مكابرة وعناداً لا يلتفت إليه ، وإشماراً بتلازم البدء والإعادة وجوداً وعدماً ، يستلزم الاعترافُ به الاعترافُ بها . ثم أمر عليه الصلاة والسلام بأن يبين لهم من يفعل ذلك ، ف قيل له : « قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنْتَ تُؤْمِنُ كُونَ » أى فكيف تصرفون إلى عبادة الغير ، مع عجزه عما ذكر . ثم احتج عليهم أيضاً ، إخماء إثر إخماء ، بقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ ، قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ ، أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ « أى بوجه من الوجوه ، كبعثة الرسل ، وإبقاء العقل ، وتمكين النظر في آيات الكون ، والتوفيق للتدبر . « قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي لِلْحَقِّ » وهو تبارك وتعالى - « أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ » أى يعبد ويطاع « أَمْ لَا يَهْدِي » أى إلا أن يهديه الله تعالى - نزل منزلة من يعقل لإخامهم - وقيل معناه : أم من لا يهتدى من الأوثان إلى مكان فينقل إليه إلا أن ينقل . أو لا يهتدى ولا يصح منه الاهتداء ، إلا أن ينقله الله من حاله إلى أن يجعله حيواناً مكلفاً ، فيهديه . وقد قرئ (أَمْ لَا يَهْدِي) بفتح الياء والهاء وتشديد الدال ، أصله يهتدى ، أدغمت التاء في الدال ، ونقلت فتحة التاء المدغمة إلى الهاء ؛ وقرئ بفتح الياء وكسر الهاء وتشديد الدال ، لأنه لما نقلت الحركة التقى ساكنان ، فكسر أولهما للتخلص من التقائهما ، وقرئ بسكون

الهاء وبتخفيف الدال، على معنى (يهتدى) . والعرب تقول : يهتدى بمعنى يهتدى . يقال : هديته فهدى أى اهتدى .

وقوله تعالى : « فَمَا لَكُمْ » مبتدأ وخبر ، والاستفهام للإنكار والتعجب . أى : أى شئ لكم فى اتخاذ هؤلاء العاجزين عن هداية أنفسهم ، فضلاً عن هداية غيرهم ، شركاء . وقوله : « كَيْفَ تَحْكُمُونَ » مستأنف ، أى كيف تحكمون بالباطل ، حيث تزعمون أنهم أنداد الله ؟ !

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ، إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ

« وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ » أى فى اعتقادهم ألوهية الأصنام « إِلَّا ظَنًّا » اعتقاداً غير مستند لبرهان ، بل لخيلات فارغة ، وأقيسة فاسدة . والمراد : (الأكثر) : الجميع . « إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ » أى من الملم والاعتقاد الحق « شَيْئًا » أى من الإغناء . ف (شيئاً) فى موضع المصدر ، أى غناء ما . أو مفعول لـ (يغنى) ، و (مِنَ الْحَقِّ) حال منه . « إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ » وعيد على اتباعهم الظن ، وإعراضهم عن البرهان .

تنبيه :

قال الرازى فى هذه الآية :

اعلم أن الاستدلال على وجود الصانع بالخلق أولاً ، ثم بالهداية ثانياً ، عادة مطردة فى القرآن . فحكى تعالى عن الخليل عليه السلام أنه ذكر ذلك فقال : (الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ) ^(١) وعن موسى عليه السلام مثله فقال : (رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى) ^(٢) . وأمر محمد ﷺ بذلك فقال : (سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ

(١) [٢٦ / الشعراء / ٧٨] . (٢) [٢٠ / طه / ٥٠]

غَسَوِي * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ^(١) . وهو في الحقيقة دليل شريف ، لأن الإنسان له جسد وروح ، فلا استدلال على وجود الصانع بأحوال الجسد - هو الخلق ، والاستدلال بأحوال الروح هو الهداية فهنا أيضاً ، لما ذكر دليل الخلق في الآية الأولى وهو قوله ^(٢) : (أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ) أتبعه بدليل الهداية في هذه الآية . والمقصود من خلق الجسد حصول الهداية للروح ، كما قال تعالى ^(٣) : (وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) ، وهذا كان كالتصريح بأنه تعالى إنما خلق الجسد ، وإنما أعطى الحواس ، لتكون آلة في اكتساب المعارف والعلوم . وأيضاً ، فالأحوال الجسدية خسيصة يرجع حاصلها إلى الالتذاذ بذوق شيء من الطعوم ، أو لئس شيء من الكيفيات الملموسة . أما الأحوال الروحانية ، والمعارف الإلهية . فإنها كمالات باقية أبد الآباد ، مصونة عن الكون والفساد . فعلمنا أن الخلق تبع للهداية ، والمقصود الأشرف الأعلى حصول الهداية . ولاضطراب العقول وتشعب الأفكار كانت الهداية وإدراك الحق بإعائته تعالى وحده . والهداية إما أن تكون عبارة عن الدعوة إلى الحق ، أو عن تحصيل معرفتها . وعلى كلٍ فقد بينا أنها أشرف المراتب ، وأعلى السعادات ، وأنها ليست إلا منه تعالى . وأما الأصنام فإنها جمادات لا تأثير لها في الدعوة إلى الحق ، ولا في الإرشاد إلى الصدق ، فثبت أنه تعالى هو الموصل إلى جميع الخيرات في الدنيا والآخرة ، والمرشد إلى كل الكمالات في النفس والجسد ، وأن الأصنام لا تأثير لها في شيء من ذلك ، وإذا كان كذلك ، كانت عبادتها جهلاً محضاً ، وسفهاً صرفاً . فهذا حاصل الكلام في هذا الاستدلال . اهـ .

ثم بين تعالى حقيقة هذا الوحي المنزل ، رجوعاً إلى ما افتتحت به السورة من صدق نبوة المنزل عليه ، ودلائلها في آيات الله الكونية ، والمنبئة عن عظم قدرته ، وجليل عنايته ، يهداية بريته ، فقال تعالى :

(١) [٨٧ / الأعلى / ٣-١] . (٢) [١٧ / النمل / ٦٤] . (٣) [١٦ / النحل / ٧٨] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

« وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ » لا متناع ذلك؛ إذ ليس لمن دونه تعالى كمال قدرته التي بها عموم الإعجاز « وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ » أى مصدقاً للتوراة والإنجيل والزبور بالتوحيد ، وصفة النبي ﷺ . و (تصديق) منصوب على أنه خبر (كان) أو علة لمحذوف ، أى أنزله تصديقاً للح . وقرئ بالرفع خبراً لمحذوف ، أى : هو تصديق الذى بين يديه . أى وبذلك يطمئن كونه من الله تعالى ، لأنه لم يقرأها ، ولم يجالس أهلها ، « وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ » أى وتبيين ما كتب وفرض من الأحكام والشرائع ، من قوله ^(١) (كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْهِكُمْ) كما قال على رضى الله عنه ^(٢) : فيه خبر ما قبلكم ، ونبأ ما بعدكم ، وفصل ما بينكم . « لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ » أى متقياً عنه الريب ، كائناً من رب العالمين ، أخبار آخر لما قبلها .

قال أبو السعود : ومساق الآية ، بعد المنع عن اتباع الظن ، لبيان ما يجب اتباعه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

« أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ » أى بل يقولون . فـ (أم) منقطعة مقدرة بـ (بل والهمزة) عند الجمهور ، والهمزة للإنكار . أى ما كان ينبغى ذلك . وقيل : متصلة ، ومما دلها

(١) [٤ / النساء / ٢٤] . (٢) أخرجه الترمذى فى : ٤٢ - كتاب ثواب القرآن ،

١٤ - باب ما جاء فى فضل القرآن .

مقدر . أى أيقرون به بمد ما بيننا من حقيقة أم يقولون افتراء . « قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ »
أى إن كان الأمر كما تزعمون ، فأتوا ، على وجه الافتراء ، بسورة مثله فى البلاغة ، وحسن
الصياغة ، وقوة المعنى ، فأنتم مثل فى العربية والفصاحة ، وأشد تمرنا فى الفظم « وَادْعُوا
مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » أى ادعوا من دونه تعالى ، ما استطعتم
من خلقه ، للاستعانة به على الإتيان بمثله - إن صدقتم فى أنى اختلقته - فإنه لا يقدر
عليه أحد .

قال أبو السعود : وإخراجه سبحانه من حكم الدعاء ، للتخصيص على براءتهم منه تعالى ،
وكونهم فى عدوة المضادة والمناقضة ، لا لبيان استبداده تعالى بالقدرة على ما كلفوه ، فإن
ذلك مما يؤمهم أنهم لو دعوه تعالى لأجابهم إليه .
وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ، كَذَلِكَ كَذَّبَ
الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ)

« بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ » إضراب وانتقال عن إظهار بطلان ما قالوا
فى حق القرآن العظيم بالتحدى ، إلى إظهاره ببيان أنه كلام ناشئ عن جهلهم بشأنه الجليل .
أى سارعوا إلى التكذيب به ، وفاجئوه فى بديهة السماع ، وقبل أن يفقهوه ويعلموا كنه
أمره ، وقبل أن يتدبروه ، ويقفوا على تأويله وممانيه وما فى تضاعيفه من الشواهد الدالة
على كونه ليس مما يمكن أن يقدر عليه مخلوق ، وذلك لفرط نفورهم عما يخالف دينهم ، وشرادهم
عن مفارقة دين آبائهم . كالناشئ على التقليد من الحشوية ، إذا أحس بكلمة لا توافق ما نشأ
عليه وألفه ، وإن كانت أضوا من الشمس فى ظهور الصحة ، وبيان الاستقامة ، أنكرها

في أول وهلة ، واشتاز منها ، قبل أن يحس إدراكها بحاسة سمعه من غير فكر في صحة أو فساد ، لأنه لم يشعر قلبه إلا صحة مذهبه ، وفساد ما عداه من المذاهب . وسر التعبير (بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ) الإيذان بكال جهلهم به ، وأن تكذيبهم به إنما هو بسبب عدم علمهم به - كذا في الكشف وأبي السعود - .

« وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ » أى بيان ما يؤول إليه ، مما توعدهم فيه . وهذا المعنى هو الصحيح في الآية ، وقد مشى عليه غير واحد .

قال في (تنوير الاقتباس) : أى عاقبة ما وعدهم في القرآن .

وقال الجلال : أى عاقبة ما فيه من الوعيد .

وقال القاشانى : تأويله : أى ظهور ما أشار إليه في مواعيده ، وأمثاله مما يؤول أمره وعلمه إليه ، فلا يمكنهم التكذيب ، لأنه إذا ظهرت حقائقه لا يمكن لأحد تكذيبه .

« كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ » أى بآيات الرسل ، قبل التدبر في معانيها . « فَأَنظِرْهُمْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ » أى من هلاكم بسبب تكذيبهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (وَمِنْهُمْ مَّنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَّنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ ، وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ)

[٤١] وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلكُمْ عَمَلُكُمْ أَنُتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ)

[٤٢] (وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَسْمَعُ الصَّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ)

« وَمِنْهُمْ مَّنْ يُؤْمِنُ بِهِ » أى يصدق به في نفسه ، ولكن يكابر بالتكذيب . « وَمِنْهُمْ مَّنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ » .

« وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ » أى إن أصروا على تكذيبك ، فغبرا منهم ، فقد أعذرت .

ثم أشار إلى أنهم ممن طبع على قلوبهم بقوله تعالى : « وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ » أى إذا قرأت القرآن « أَفَأَنْتَ تَسْمِعُ الصَّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ » أبرزهم في عدم انتفاعهم بسماعهم ، لكونهم لا يعون ولا يقبلون ، بصورة الصم المتهوئين : أى أنطمع أنك تقدر على إسماع الصم ، ولو انضم إلى صممهم عدم عقولهم ؟ لأن الأصم العاقل ربما تفرس واستدل إذا وقع في صماخه دوى الصوت ، فإذا اجتمع سلب السمع والعقل فقد تم الأمر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْى وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصِرُونَ) « وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْى وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصِرُونَ » كذلك أبرزهم ، لعدم انتفاعهم بمشاهدة أدلة الصدق وأعلام النبوة ، بصورة العمى المضموم إلى عماهم فقد البصيرة . أى أحب هداية من كان كذلك ؟ لأن الأعمى الذى له فى قلبه بصيرة قد يحدس ويتظان ، أما مع الحق فجهد البلاء . يعنى أنهم فى اليأس من أن يقبلوا ويصدقوا ، كالصم والعمى الذين لا بصائر لهم ولا عقول - كذا فى الكشف - .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ) « إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا » بتمذيبهم من غير أن تقوم الحجة عليهم ، بإرسال الرسل ، وإزالة الكتب ، ومن غير أن يكونوا سليمى الخواص والمدارك ، فإنه لعدله لا يفعل ذلك . « وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ » بالكفر والتكذيب وعدم استعمال حاساتهم ومداركهم فيما خلقت له .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ

بَيْنَهُمْ ، قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ)

« وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ » أى شيئاً قليلاً « يَتَعَارَفُونَ

بَيْنَهُمْ » أى يعرف بعضهم بعضاً ، كأنهم لم يتعارفوا إلا قليلاً . « قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ » أى بالبعث بعد الموت « وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ » أى من الكفر والضلالة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (وَإِنَّمَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ

ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ)

[٤٧] (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ، فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ

وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

« وَإِنَّمَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ » أى من العذاب « أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ » أى قبل ذلك

« فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ » أى فننجزهم ما وعدناهم كيفما دار الحال « ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ » أى من مساوى الأفعال .

« وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ » أى منهم ، أرسل لهدايتهم ، وتزكيتهم بما يصلحهم « فَإِذَا

جَاءَ رَسُولُهُمْ » أى قبلتهم ما أرسل به فكذبوه « قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ » أى بالعدل ،

فأنجى الرسول وأتباعه ، وعذب مكذبوه « وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » أى فى ذلك القضاء

للمستوجب لتعذيبهم ، لأنه من نتائج أعمالهم .

وقال القاشانى فى قوله تعالى (قُضِيَ بَيْنَهُمْ) : أى بهداية من اهتدى منهم ، وضلالة

من ضل ، وسعادة من سعد ، وشقاوة من شقى ، لظهور ذلك بوجوده ، وطاعة بعضهم إياه لقربه منه ، وإنكار بعضهم له لبعده عنه . أو قضى بينهم بإحجاء من اهتدى به وإثابته ، وإهلاك من ضل وتعذبه ، لظهور أسباب ذلك بوجوده - انتهى - .

فلاية على هذا كقوله تعالى ^(١) : (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا) وجوز أن يكون المعنى : لكل أمة من الأمم يوم القيامة رسول تنسب إليه ، وتدعى به ، فإذا جاء رسولهم الموقف ليشهد عليهم بالكفر والإيمان ، قضى بينهم بإحجاء المؤمنين ، وعقاب الكافرين . كقوله تعالى ^(٢) : (وَرَجَىٰ بِالنَّاسِ وَالشَّهَدَاءِ وَفُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ) .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ)

[٤٩] (قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ، لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ،

إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ، وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ)

« وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ » استبعادا له ، واستهزاء به « إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ »

أى فى أنه يأتينا . ولما فيه من الإشعار بكون إتيانه بواسطة النبى صلوات الله عليه . قيل :

« قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا » أى مع أن ذلك أقرب حصولا ، فكيف أملك

لكم حتى أستعجل فى جلب العذاب لكم ، وتقديم الضر ، لما أن مساق النظم لإظهار المعجز

عنه . وأما ذكر النفع فلقوسيم الدائرة تعميما . والمعنى لا أملك شيئا ما .

« إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ » أى أن أملكه . أو لىكن ما شاء الله كائن ، فلا استثناء متصل أو

منقطع . وصوب أبو السعود الثانى ، بأن الأول ياباه مقام التبرؤ من أن يكون ، عليه الصلاة

والسلام ، له دخل فى إتيان الوعد . وبسَطَ تقريره .

(١) [١٧ / الإسراء / ١٥] . (٢) [٣٩ / الزمر / ٦٩] .

وأفاد بعض المحققين أن الاستثناء بالمشيئة قد استعمل في أسلوب القرآن الكريم للدلالة على الثبوت والاستمرار ، كما في هذه الآية ، وقوله ^(١) : (خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ) قال : والنكتة في الاستثناء بيان أن هذه الأمور الثابتة الدائمة إنما كانت كذلك بمشيئة الله تعالى ، لا بطبيعتها في نفسها ، ولو شاء تعالى أن يغيرها ففعل . اهـ . وهو نفيس جداً فليحرص على حفظه .

وقوله تعالى « لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ » أى لكل واحد من آحاد كل أمة أجل معين « إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ » . قال القاشانى : درجهم إلى شهود الأفعال بسلب الملك والتأثير عن نفسه ، ووجوب وقوع ذلك بمشيئة الله ، ليعرفوا آثار القيامة . ثم لوح إلى أن القيامة الصغرى هى بانقضاء آجالهم المقدرة عند الله بقوله : (لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ . . .) الآية - .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَّاتًا أَوْ نَهَارًا مَآذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ)
 « قُلْ أَرَأَيْتُمْ » أى أخبرونى « إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ » أى الذى تستعجلون به « بَيَّاتًا »
 أى ليلاً « أَوْ نَهَارًا مَآذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ » أى ولا شئ منه يبرغوب البتة .
 لطائف :

الأولى - (أرايت) يستعمل بمعنى الاستفهام عن الرؤية البصرية أو الملمية ، وهو أصل وضعه . ثم استعملوه بمعنى (أخبرنى) والرؤية فيه يجوز أن تكون بصرية وعلمية . فالتقدير : أبصرت حالته العجيبة ، أو أعرفتها ؟ فأخبرنى عنها . ولذا لم يستعمل فى غير الأمر العجيب . ولما كانت رؤية الشئ سبباً لمعرفته ، ومعرفته سبباً للإخبار عنه ، أطلق السبب القريب

أو البعيد، وأريد مسببه ، وهل هو بطريق التجوز كما ذهب إليه كثير ، أو التضمن كإذهب إليه أبو حيان - كذا في (العناية) .

الثانية - سر إشار (بيانا) على (ليلا) مع ظهور التقابل فيه ، الإشمار بالنوم والغفلة ، وكونه الوقت الذي يبيت فيه العدو ، ويتوقع فيه ، ويغتنم فرصة غفلته . وليس في مفهوم الليل هذا المعنى ، ولم يشتهر شهرة النهار بالاشتغال بالمصالح والمعاش ، حتى يحسن الاكتفاء بدلالة الالتزام كما في النهار . أو النهار كله محل الغفلة ، لأنه إما زمان اشتغال بمعاش أو غذاء ، أو زمان قيلولة . كما في قوله ^(١) (بَيَانًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ) بخلاف الليل ، فإن محل الغفلة فيه ما قارب وسطه ، وهو وقت البيات ، فلذا خص بالذكر دون النهار . و (البيات) بمعنى التبييت كالسلام بمعنى التسليم ، لا بمعنى البيوتة .

الثالثة - قيل : إن استعجالهم العذاب ، كان المقصود منه الاستبعاد والاستهزاء ، دون ظاهره ، فورود (ما) هنا في الجواب على الأسلوب الحكيم . لأنهم ما أرادوا بالسؤال إلا الاستبعاد أن الموعود منه تعالى ، وأنه افتراء ، فطلبوا منه تعيين وقته تهكما وسخرية ، فقال في جوابهم هذا التهكم لا يتم إذا كنت مقرًا بأنى مثلكم ، وأنى لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا ، فكيف أدعى ما ليس لى به حق ؟ ثم شرع في الجواب الصحيح ، ولم يلتفت إلى تهكمهم واستبعادهم - أفاده الطيبي - .

الرابعة - سر إشار (مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ) على (مَاذَا يَسْتَعْجِلُونَ مِنْهُ) هو الدلالة على موجب ترك الاستعجال ، وهو الإجماع ، لأن من حق المجرم أن يخاف التعذيب على إجرامه ، ويهلك فرعا من مجيئه ، وإن أبطأ ، فضلا عن أن يستعجله - كذا في (السكشاف) - .

قال في (الانتصاف) : وفي هذا النوع البليغ نكتتان :
إحداها : وضع الظاهر مكان المضمرة .

(١) [٧ / الأعراف / ٤] .

والأخرى : ذكر الظاهر بصيغة زائدة مناسبة للمصدر .
وكلاهما مستقل بوجه من البلاغة والمبالغة - والله أعلم - .
وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥١] (أَنْتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنْتُمْ بِهِ ، آ لَآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ) .

« أَنْتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنْتُمْ بِهِ » إنكار لإيمانهم بنزول العذاب بعد وقوعه حقيقة ، داخل مع ما قبله من إنكار استعجالهم به بعد إيمانهم به ، تحت القول للأمور به . أى : أبعد ما وقع العذاب وحلّ بكم حقيقة ، ءامنتم به حين لا ينفعكم الإيمان ؟ إنكاراً لتأخيرته إلى هذا الحد ، وإيداناً باستتباعه للندم والحسرة ، ليقلعوا عما هم عليه من العناد ، ويتوجهوا نحو التدارك قبل فوت الفوات - أفاده أبو السعود .

وقوله تعالى : « آ لَآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ » على إرادة القول . أى : قيل لهم إذا ءامنوا بعد معاينة العذاب (آ لَآنَ ءَامَنْتُمْ بِهِ) ؟ وذلك إنكاراً للتأخير ، وتوبيخاً عليه . وسر وضع (تستعجلون) موضع (تكذبون) الذى يقتضيه الظاهر ، الإشارة إلى أن المراد به الاستعجال السابق ، وهو التكذيب والاستهزاء ، استحضاراً لمقاتلهم فهو أبلغ من (تكذبون) .

وقيل : الاستعجال كناية عن التكذيب ، وفائدة هذه الحال استحضارها . هذا ما ذكروه ، ولا مانع من بقاء الاستعجال على حقيقة ، يدل عليه آية (١) : (وَإِذْ قَالُوا لَئِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَاباً ...) الخ فهم مع تهكمهم رضوا بأن يماينوا آية يعذبون بها ، لما فى قلوبهم من مرض العناد العضال ، والجهل المصم المعمى ، ولذلك أجيئوا بأن العذاب هل فيه ما يستعجل منه . أى فمثل هذا الاستعجال لا يصدر ممن

له مسكة من عقل ، إذ لا يستعجل إلا ما يرجى خيره ، ثم أعلمهم بعدم فائدة إيمانهم وقتئذ ، وما يوبخون به ، إنكارا للتأخير - والله أعلم - .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ)

[٥٣] (وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ ، قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ ، وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ)
ثم قيل للذين ظلموا « أى أشركوا » « ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ » فى الآخرة
« إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ » أى تقولون وتعملون فى الدنيا .

« وَيَسْتَنْبِئُونَكَ » أى يستخبرونك « أَحَقُّ هُوَ » أى الوعد بعذاب الخلد ، أو ادعاء النبوة أو القرآن « قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ » أى بفائتين العذاب .
فهو لاحق بكم لا محالة . من (أعجزه) الشئ إذا فاته . ويصح كونه من (أعجزه) بمعنى وجده عاجزاً . أى : ما أنتم بواجدى العذاب أو من يوقمه بكم عاجزاً عن إدراككم ، وإيقاعه بكم .

لطائف :

الأولى - دل سؤالهم هذا على محض جهلهم أو عنادهم ، لما ثبت من البرهان القاطع على نبوته بمعجز القرآن ، وإذا صحت النبوة لزم القطع بصحة كل ما ينبئهم عنه ، مما يصدعهم به .

الثانية - إنما أمر بالقسم لاستماتهم ، وللجرى على ما هو المألوف فى المحاوره ، من تحقيق المدعى ، فإن من أقسم على خير ، فقد كسأه حلة الجد ، وخلع عنه لباس الهزل ^(١) (إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ * وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ) .

(١) [٨٦ / الطارق / ١٤ و ١٣] .

الثالثة - لما كانت الناس طبقات ، كان منهم من لا يسلم إلا بـرهان حقيق^١ ، ومنهم من لا ينتفع به ، ويسلم إلا بالأمور الإقناعية ، نحو القسم ، كالأعرابي^(١) الذي قدم على النبي ﷺ ، وسأله عن رسالته وبعثه ، وأنشده بالذي بعثه ، ثم اقتنع بقوله صلوات الله عليه : اللهم نعم ، فقال : آمنت بما جئت به وأنا رسول من ورأى من قومي ، وأنا ضام بن ثعلبة - رواه البخاري في أوئل كتاب العلم - .

الرابعة - قال ابن كثير : هذه الآية ليس لها نظير في القرآن إلا آيتان أخريان ، يأمر الله تعالى رسوله أن يقسم به على من أنكر المعاد في سورة سبأ^(٢) : (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ) وفي التغابن^(٣) (زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُعْمَرُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُعْمَرُنَّ ثُمَّ لَتَنُوبُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ) - انتهى - .
وقد استمد ابن كثير هذا مما ذكره شيخه الإمام ابن القيم في (زاد المعاد) قال :

وحلف ﷺ في أكثر من ثمانين موضعاً ، وأمره الله سبحانه بالحلف في ثلاثة مواضع ، ثم ذكر هذه الآيات ، وكان إسماعيل بن إسحاق القاضي بذاكر أبا بكر بن داود الظاهري ولا يسميه بالفقيه - فتحاكم إليه يوماً هو وخصم له فتوجهت اليه على أبي بكر ابن داود ، فتهماً للحلف ، فقال له القاضي إسماعيل : وتحلف ، ومثلك يحلف يا أبا بكر ؟ فقال : وما ينعني عن الحلف ، وقد أمر الله تعالى نبيه بالحلف في ثلاثة مواضع من كتابه ؟ قال : أين ذلك ؟ فسردها أبو بكر ، فاستحسن ذلك منه جداً ، ودعاه بالفقيه من ذلك اليوم . انتهى .

(١) إنه لحديث جليل وطويل فانظره في صحيح البخاري في : ٣ - كتاب العلم ،

٦ - باب ما جاء في العلم وقوله تعالى : وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً ، حديث رقم ٥٥ .

(٢) [٣٤ / سبأ / ٣] . (٣) [٦٤ / التغابن / ٧] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ ، وَأَسْرَأُ النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ، وَفُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ « أى بالشرك بالله ، أو التعمدى على الغير ، أو مطلقاً » مَا فِي الْأَرْضِ « أى من الأموال » لَافْتَدَتْ بِهِ « أى لجماعته فدية لها من العذاب » وَأَسْرَأُ النَّدَامَةَ « أى أخفوها أسفاً على ما فعلوا من الظلم . وضمير (أسروا) للنفوس ، المدلول عليها بـ (لكل نفس) . والعدول إلى صيغة الجمع ، لتحويل الخطاب ، بكون الخطاب بطريق الاجتماع » لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ « أى عابوه » وَفُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ « أى فيما فعل بهم من العذاب ، لأنه جزاء ظلمهم . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٥] (أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

[٥٦] (هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

« أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » إعلام بأن له الملك كله ، وأنه المتيب المعاقب ، وما وعده من الثواب والعقاب فهو حق ، وهو القادر على الإحياء والإماتة ، لا يقدر عليهما غيره ، وإلى حسابه وجزائه المرجع ، ليعلم أن الأمر كذلك ، فيخاف ويرجى ، ولا يفتر به المغترون - كذا في الكشف - .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ تَكْمٌ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ)

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ تَكْمٌ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ » أى تذكير لنفوسكم بالوعد والوعيد ، والإنذار والبشارة ، والزجر عن الذنوب المورطة في العقاب ، والتحريض على الأعمال الموجبة للثواب ، لتعملوا على الخوف والرجاء « وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ » أى القلوب من أمراضها ، كالشك والنفاق ، والفيل والغش ، وأمثال ذلك ، بتعليم الحقائق ، والحكم الموجبة لليقين ، وتصفيتها بقبول المعارف ، والقنور بنور التوحيد « وَهُدًى » أى لنفوسكم من الضلالة « وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ » أى لمن آمن به ، بالنجاة من العذاب والارتقاء إلى درجات النعيم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ)

« قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ » يعنى القرآن الذى أكرموا به « وَبِرَحْمَتِهِ » يعنى الإسلام « فَبِذَلِكَ » أى فبمجئهم « فَلْيَفْرَحُوا » أى لا بالأموال الفانية القليلة المقدار ، الدنيئة القدر والوقع ، « هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ » أى من الأموال وأسباب الشهوات ، إذ لا يفتفع بجمعها ولا يدوم ، ويفوت به اللذات الباقية ، بحيث يحال بينهم وبين ما يشتهون .

والفاء داخلة في جواب شرط مقدر ، كأنه قيل : إن فرحوا بشئ فبهما فليفرحوا . أو هى رابطة لما بعدها بما قبلها ، لدالاتها على تسبب ما بعدها عما قبلها . والفاء الثانية زائدة لتأكيد الأولى ، أو الزائدة الأولى ، لأن جواب الشرط في الحقيقة (فليفرحوا) و (بذلك) مقدم من تأخير ، وزيدت فيه الفاء للتحسين . وكذلك جوز أن يكون بدلا من قوله (بفضل الله وبرحمته) .

ثم بين تعالى أن من فضله على الناس تبين الحرام من الحلال على أنسفة الرسل ، لئلا يفترؤا عليه الكذب بتحريم ما أحل أو عكسه ، كما فعل المشركون ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ اللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ، أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ)

« قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ » أى ما خلق لكم من حرث وأنعام « فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا » أى أنزله تعالى رزقاً حلالاً كله ، فبعضتموه ، وقلتم : هذا حلال وهذا حرام ، كقولهم ^(١) : (هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ) (مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِدُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا) ^(٢) « قُلْ اللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ » فى الحكم بالتحريم والتحليل ، فأنتم تفعلون ذلك بإذنه « أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ » أى تحتلقون الكذب . ثم بين وعيد هذا الافتراء بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى الْكَذِبِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ)

« وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » أى فيما يفعل بهم ، وهو يوم الجزاء بالإحسان والإساءة ، وهو وعيد عظيم ، حيث أبهم أمره « إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ » فى إزال الوحي وتعليم الحلال والحرام « وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ » أى هذه النعمة ، فيستعملون ما وهب إليهم من الاستعداد والعلوم فى مطالب النفس الخسيسة ، ولا يتبعون ما هدوا إليه .

(١) [٦ / الأنعام / ١٣٨] . (٢) [٦ / الأنعام / ١٣٩] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦١] (وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ، وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)

« وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ » أى أمر ما « وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ » أى التذليل « مِنْ قُرْآنٍ » أى سورة أو آية « وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ » أى تخوضون وتندفعون فيه ، « وَمَا يَعْزُبُ » أى يغيب « عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ » أى غلة أو هباء « فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ » أى فى دائرة الوجود والإمكان .

وقوله تعالى : وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ « كلام برأسه ، مقرر لما قبله ، أى مكتوب مبين ، لا التباس فيه . والمراد بالآية البرهان على إحاطة علمه تعالى بحال أهل الأرض ، بأن من لا يغيب عن علمه شئ كيف لا يعرف حال أهل الأرض ، وما هم عليه مع نبيه ﷺ . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٢] (أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

[٦٣] (الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ)

[٦٤] (لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ، لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ،

ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

« أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ » جمع ولى . وهو فى الأصل ضد العدو ، بمعنى المحب وراز كونه هنا بمعنى الفاعل ، أى الذين يتولونه بالطاعة ، كقوله تعالى (٣) : « وَمَنْ يَقُولِ اللَّهُ وَرَسُولُهُ »

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ » ويعنى المفعول أى الذى يتولاهم بالإكرام كقوله تعالى (١) : (اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) وقوله (٢) : (إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ...) الآية - وكلا المعنيين متلازمان : « لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ » من لحوق مكروه ، « وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » أى من الفرع الأكبر ، كما فى قوله تعالى (٣) : (لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرَعُ الْأَكْبَرُ) .

« الَّذِينَ ءَامَنُوا » أى بكل ما جاء من عند الله تعالى « وَكَانُوا يَتَّقُونَ » أى يخافون ربهم ، فيفعلون أوامره ، ويتجنبون مناهيه ، من الشرك والكفر والفواحش . ومحلّ الوصول الرفع على أنه خبر لمحدوف ، كأنه قيل : مَنْ أولئك وما سبب فوزهم بذلك الإكرام ؟ فقيل : هم الذين جمعوا بين الإيمان والتقوى المفضيين إلى كل خير ، المنجيين من كل شر . أو النصب بمحذوف .

وقوله تعالى : « لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ » (الْبُشْرَى) مصدر إما باق على مصدريته ، والمبشر به محذوف ، أى لهم البشارة فيهما بالجنة ، وإنما حذف للعلم به من آيات آخر كقوله تعالى (٤) : (الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا ...) إلى قوله : يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ) ، وقوله تعالى (٥) : (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ) وإما مراد به المبشر به ، وتعريفه للمهد . كقوله سبحانه (٦) : (يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْمُى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) .

وقوله تعالى : « لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ » أى لمواعيده « ذَلِكَ » أى بشراكم ، وهى

(١) [٢ / البقرة / ٢٥٧] . (٢) [٥ / المائدة / ٥٥] . (٣) [٢١ / الأنبياء / ١٠٣] .

(٤) [٩ / التوبة / ٢١ و ٢٠] . (٥) [٤١ / فصلت / ٣٠] . (٦) [٥٧ / الحديد / ١٢] .

الجنة ، « هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » أى المنال الجليل . الذى لا مطلب وراءه . كيف ؟ وقد فازوا بالجنة وما فيها ، ونجوا من النار وما فيها .

تنبيه :

هذه الآية الكريمة أصل فى بيان أولياء الله ، وقد بين تعالى فى كتابه ، ورسوله فى سنته ، أن لله أولياء من الناس ، كما أن للشيطان أولياء . وللإمام تقي الدين بن تيمية ، عليه الرحمة ، كتاب فى ذلك سماه (الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان) نقبس منه جملة يهم الوقوف عليها ، لكثرة ما يدور على الألسنة من ذكر الولي والأولياء . قال رحمه الله : إذا عرف أن الناس فيهم أولياء الرحمن ، وأولياء الشيطان، فيجب أن يفرق بين هؤلاء وهؤلاء ، كما فرق الله ورسوله بينهما . فأولياء الله هم المؤمنون المتقون ، كما فى هذه الآية ، وفى الحديث الصحيح الذى رواه البخارى وغيره عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال ^(١) : يقول الله : من عادى لى ولياً فقد بارزنى بالمحاربة ، أو فقد آذنته بالحرب ^(٢) ... الحديث - وهذا أصح حديث يروى فى الأولياء ، دل على أن من عادى ولياً لله ، فقد بارز الله بالمحاربة .

وفى حديث آخر ^(٣) : وإنى لأتأر لأوليائى كما يتأر اللئى الحرب . أى : آخذ تأرهم ممن عاداهم ، كما يأخذ اللئى الحرب تأره . وهذا ، لأن أولياء الله هم الذين آمنوا به ووالوه ، فأحبوا ما يحب ، وأبغضوا ما يبغض ، ورضوا بما يرضى ، وسخطوا بما يسخط ، وأمروا بما يأمر ، ونهوا عما نهى ، وأعطوا لمن يجب أن يعطى ، ومنعوا من يجب أن يمنع . والولاية ضد المداوة . وأصل الولاية المحبة والقرب . وأصل المداوة البغض والبعد .

(١) أخرجه ابن ماجه فى : ٣٦ - كتاب الفتن ، ١٦ - باب من ترجى له السلامة من الفتن ، حديث رقم ٣٩٨٩ (طبعنا) . (٢) أخرجه البخارى فى : ٨١ - كتاب الرقاق ، ٣٨ - باب التواضع ، حديث رقم ٢٤٤٠ : (٣) هذا الحديث لم أعتد إليه .

وأفضل أولياء الله هم أنبياءه ، وأفضل أنبيائه هم المرسلون منهم ، وأفضلهم محمد ﷺ ، خاتم النبيين ، وإمام المتقين ، الذى بعثه الله بأفضل كتبه ، وشرع له أفضل شرائع دينه ، وجعله الفارق بين أوليائه ، وأعدائه ، فلا يكون ولياً لله إلا من آمن به ، وبما جاء به ، واتبعه ظاهراً وباطناً . ومن ادعى محبة الله وولايته ، وهو لم يتبعه ، فليس من أولياء الله ، بل من خالفه كان من أعداء الله ، وأولياء الشيطان . وإن كان كثير من الناس يظنون فى أنفسهم أو فى غيرهم أنهم من أولياء الله ، ولا يكونون من أوليائه . فإليه ود النصرارى يدعون أنهم أولياء الله وأحباؤه . قال تعالى ^(١) (قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ . . .) الآية . وكان مشركو العرب يدعون أنهم أهل الله ، لسكنائهم مكة ، ومجاورتهم البيت ، فأُنزل تعالى ^(٢) : (وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ ، إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ) . وكما أن من الكفار من يدعى أنه ولي الله ، وليس ولياً لله ، بل عدو له ، فكذلك من المنافقين الذين يظهرون الإسلام ، يقرون فى الظاهر بالشهادتين ، ويمتقدون فى الباطن ما يناقض ذلك ، مثل ألا يقرؤا باطناً برسالاته عليه السلام ، وإنما كان ملصقاً مطاعاً ، ساس الناس ، برأيه ، من جنس غيره من الملوك . أو يقولون إنه رسول الله إلى الأميين خاصة . أو يقولون إنه مرسل إلى عامة الخلق ، وأن لله أولياء خاصة لم يرسل إليهم ، ولا يحتاجون إليه ، بل لهم طريق إلى الله من غير جهته ، كما كان الخضر مع موسى . أو أنهم يأخذون عن الله كل ما يحتاجون إليه ، وينتفعون به من غير واسطة ، أو أنه مرسل بالشرائع الظاهرة ، وهم موافقون له فيها . وأما الحقائق الباطنة ، فلم يرسل بها ، أو لم يكن يعرفها . أو هم أعرف بها منه ، أو يعرفونها مثل ما يعرفها من غير طريقته . فهؤلاء كلهم كفار ، مع أنهم يمتقدون فى طائفتهم أنهم أولياء الله . وإنما أولياء الله : الذين وصفهم تعالى بولايته بقوله ^(٣) (أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ) .

(١) [٥ / المائدة / ١٨] . (٢) [٨ / الأنفال / ٣٤] . (٣) [١٠ / يونس / ٦٢ و٦٣] .

ولا بد في الإيمان من أن يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر . وأن محمد ﷺ خاتم النبيين ، مرسل إلى جميع الثقلين الإنس والجن . فكل من لم يؤمن بما جاء به فليس بمؤمن ، فضلاً عن أن يكون من أولياء الله المتقين . ومن آمن ببعض ما جاء به ، وكفر ببعض ، فهو كافر ليس بمؤمن .

ومن الإيمان به ، الإيمان بأنه الواسطة بين الله وبين خلقه ، في تبليغ أمره ونهيهِ ، ووعدهِ ووعيدهِ ، وحلالهِ وحرامهِ . فالحلال ما أحله الله ورسله ، والحرام ما حرمه الله ورسله ، والدين ما شرعه الله ورسله ﷺ . فمن اعتقد أن لأحد من الأولياء طريقاً إلى الله من غير متابعة محمد ﷺ ، فهو كافر من أولياء الشيطان

وأما خلق الله تعالى للخلق ، ورزقه إياهم ، وإجابته لدعائهم ، وهدايته لقلوبهم ، ونصرهم على أعدائهم ، وغير ذلك من جلب المنافع ، ودفع المضار ، فهذا لله وحده ، يفعله بما يشاء من الأسباب ، لا يدخل في مثل هذا وساطة الرسل .

ثم لو بلغ الرجل في الزهد والعبادة والعلم ما بلغ ، ولم يؤمن بجميع ما جاء به محمد ﷺ ، فليس بمؤمن ، ولا ولي لله تعالى . كالأخبار والرهبان من علماء اليهود والنصارى وعبادهم ، وكذلك المفتسبون إلى العلم والعبادة من مشركي العرب والترك والهند وغيرهم ، ممن كان من حكماء الهند والترك ، وله علم أو زهد وعبادة في دينه ، وليس مؤمناً بجميع ما جاء به ، فهو كافر ، عدو لله ، وإن ظن طائفة أنه ولي لله . كما كان حكماء الفرس من المجوس كفاراً مجوساً ، وكذلك حكماء اليونان مثل أرسطو وأمثاله ، كانوا مشركين ، يعبدون الأصنام والكواكب . وفي أصناف المشركين من هذه الطوائف من له اجتهد في العلم والزهد والعبادة ، ولكن ليس بمؤمن بالرسول ، ولا يصدقهم فيما أخبروا به ، ولا يطيعهم فيما أمروا ، فهؤلاء ليسوا بمؤمنين ، ولا أولياء الله ، وهؤلاء تقترن بهم الشياطين ، وتنزل عليهم ، فيكاشفون الناس ببعض الأمور ، ولهم تصرفات خارقة من جنس السحر ، وهم من جنس السكهان والسحرة

الذين تنزل عليهم الشياطين . قال تعالى ^(١) : (هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ) . وهؤلاء جميعهم الذين ينتسبون إلى المكاشفات ، وخوارق العادات ، إذا لم يكونوا متبیین للرسول ، فلا بد أن يكذبوا ، وتكذبهم شياطينهم ، ولا بد أن يكون في أعمالهم ما هو إثم وجور ، مثل نوع من الشرك أو الظلم أو الفواحش أو الغلو أو البدع في العبادة ، ولهذا تنزل عليهم الشياطين ، واقرنت بهم ، فصاروا من أولياء الشيطان ، لا من أولياء الرحمن .

ومن الناس من يكون فيه إيمان ، وفيه شعبة من نفاق ، كما في الصحيحين ^(٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أوتى خان . وفي صحيح مسلم ^(٣) : وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم . وإذا كان أولياء الله هم (المؤمنون المتقون) ، فبحسب إيمان العبد وتقواه تكون ولايته لله تعالى ، فمن كان أكمل إيماناً وتقوى ، كان أكمل ولاية لله . فالناس متفاضلون في ولاية الله عز وجل ، بحسب تفاضلهم في الإيمان والتقوى ، وكذلك يتفاضلون في عداوة الله ، بحسب تفاضلهم في الكفر والنفاق .

وأولياء الله على طبقتين : سابقون ومقربون وأصحاب يمين مقتصدون ، ذكرهم الله في عدة مواضع من كتابه العزيز . فالأبرار أصحاب اليمين ، هم المقربون إلى الله بالفرائض ، يفعلون ما أوجب الله عليهم ، ويتركون ما حرم الله عليهم ، ولا يكلفون أنفسهم بالمندوبات ، ولا الكف عن فضول المباحات . وأما السابقون المقربون ، فتقربوا إليه بالنوافل بعد الفرائض ، ففعلوا

(١) [٢٦ / الشعراء / ٢٢١ - ٢٢٣] .

(٢) أخرجه البخاري في : ٢ - كتاب الإيمان ، ٢٤ - باب علامة المنافق ، حديث رقم ٣١ .

ومسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث رقم ١٠٧ و ١٠٨ (طبعنا) .

(٣) أخرجه مسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث ١٠٩ و ١١٠ (طبعنا) .

الواجبات والمستحبات ، وتركوا المحرمات والمكروهات ، فلما تقربوا إليه بجميع ما يقدرون عليه من محبوباتهم ، أحبهم الرب حباً تاماً ، كما قال تعالى ^(١) : (وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَىٰ رَبِّهِ بِالْتَوَاضُعِ حَتَّىٰ أُحِبَّهُ) بمعنى الحب المطلق .

ثم إذا كان العبد لا يكون ولياً لله إلا إذا كان مؤمناً تقيّاً ، لهذه الآية - فمعلوم أن أحداً من الكفار والمنافقين لا يكون ولياً لله . وكذلك من لا يصح إيمانه وعبادته ، وإن قدر أنه لا إثم عليه ، مثل أطفال الكفار ، ومن لم تبلغه الدعوة ، وإن قيل إنهم لا يمدحون حتى يُرْسِلَ إليهم رسولا ، فلا يكونون من أولياء الله ، إلا إذا كانوا من المؤمنين المتقين . فمن يتقرب إلى الله ، لا بفعل الحسنات ولا بفعل السيئات ، لم يكن من أولياء الله .

وكذلك المجانين والأطفال ، فإن النبي ﷺ قال ^(٢) : رفع القلم عن ثلاثة : عن المجنون حتى يفيق ، وعن الصبي حتى يحتلم ، وعن النائم حتى يستيقظ . وهذا الحديث قد رواه أهل السنن من حديث عائشة رضي الله عنها ، واتفق أهل المعرفة على تلقينه بالقبول . ولكن الصبي المميز تصح عباداته ، ويثاب عليها عند جمهور العلماء . وأما المجنون الذي رفع عنه القلم ، فلا يصح شيء من عباداته باتفاق العلماء ، ولا يصح منه إيمان ولا كفر ولا صلاة ولا غير ذلك من العبادات ، بل لا يصلح هو ، عند عامة العقلاء ، لأمر الدنيا . كالتجارة والصناعة . فلا يصلح أن يكون بزازاً ولا عطاراً ولا حداداً ولا نجاراً ، ولا تصح عقودهم باتفاق العلماء . فلا يصح بيعه ولا شراؤه ولا نكاحه ولا طلاقه ولا إفرازه ولا شهادته ، ولا غير ذلك من أقواله ، بل أقواله كلها لغو لا يتعلق بها حكم شرعي ، ولا ثواب ولا عقاب . بخلاف الصبي

(١) أخرجه البخاري في : ٨١ - كتاب الرقاق ، ٣٨ - باب التواضع ، حديث ٢٤٤٠ .

(٢) أخرجه البخاري في : ٨٦ - كتاب الحدود ، ٢٢ - باب لا يرجم المجنون والمجنونة ،

وقال عليّ بن عمر : أما علمت أن القلم رفع عن المجنون حتى يفيق وعن الصبي حتى يدرك وعن النائم حتى يستيقظ (في ترجمة الباب) .

المميز فإن له أقوالاً معتبرة في مواضع ، بالنص والإجماع ، وفي مواضع فيها نزاع . وإذا كان المجنون لا يصح منه الإيمان ولا التقوى ولا التقرب إلى الله بالفرائض والنوافل ، وامتنع أن يكون ولياً لله ، فلا يجوز لأحد أن يعتقد أنه وليّ الله ، لا سيما أن تكون حجته على ذلك إما مكاشفة سمعها منه ، أو نوعاً من تصرف ، مثل أن يراه قد أشار إلى واحد فأتى أو صرع . فإنه قد علم أن الكفار والمنافقين من الشركين وأهل الكتاب ، لهم مكاشفات وتصرفات شيطانية ، كالسكهان والسحرة وعباد المشركين وأهل الكتاب ، فلا يجوز لأحد أن يستدل بمجرد ذلك على كون الشخص ولياً لله ، إن لم يعلم ما يناقض ولاية الله ، فكيف إذا علم منه ما يناقض ولاية الله ؟ مثل أن يعلم أنه لا يعتقد وجوب اتباع النبي ﷺ ظاهراً وباطناً ، بل يعتقد أنه يتبع الشرع الظاهر ، دون الحقيقة الباطنة ، أو يعتقد أن لأولياء الله طريقاً إلى الله غير طريق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . أو يقول إن الأنبياء ضيقوا الطريق ، أو هم قدوة العامة دون الخاصة ، ونحو ذلك مما يقوله بعض من يدعى الولاية . فهو لا يفهم من الكفر ما يناقض الإيمان ، فضلاً عن ولاية الله عز وجل . فمن احتج بما يصدر عن أحدهم ، من خرق عادة ، على ولايتهم ، كان أضل من اليهود والنصارى . وكذلك المجنون ، فإن كونه مجنوناً يناقض أن يصح منه الإيمان والعبادات ، التي هي شرط في ولاية الله . ومن كان يحسن أحياناً ، ويفيق أحياناً ، إذا كان في حال إفاقته مؤمناً بالله ورسوله ، وبؤدى الفرائض ، ويحترز المحارم ، فهذا إذا جن ، لم يكن جنونه مانعاً من أن يثيبه الله على إيمانه وتقواه ، الذي أتى به في حال إفاقته ، ويكون له من ولاية الله بحسب ذلك . وكذلك من طرأ عليه الجنون ، بعد إيمانه وتقواه ، فإن الله يثيبه ويأجره على ما تقدم من إيمانه وتقواه ، ولا يحبطه بالجنون الذي ابتلى به من غير ذنب فعله ، والقلم مرفوع عنه في حال جنونه .

فعلی هذا ، فمن أظهر الولاية وهو لا يؤدى الفرائض ، ولا يحترز المحارم ، بل قد يأتي بما يناقض ذلك ، لم يكن لأحد أن يقول : هذا وليّ الله ، فإن هذا إن لم يكن مجنوناً ، بل كان

متولهاً من غير جنون، أو كان يغيب عقله بالجنون تارة، ويفيق أخرى، وهو لا يقوم بالفرائض بل يعتقد أنه لا يجب عليه اتباع الرسول ﷺ، فهو كافر؛ وإن كان مجنوناً باطنياً وظاهراً قد ارتفع عنه القلم. فهذا وإن لم يكن معافياً عقوبة الكافرين، فليس هو مستحقاً لما يستحقه أهل الإيمان والتقوى من كرامة الله عز وجل، فلا يجوز على التقديرين أن يعتقد فيه أحد أنه ولي الله، ولكن إن كان له حالة في إفاقته كان فيها مؤمناً بالله متقياً، كان له من ولاية الله بحسب ذلك، وإن كان له في حال فيه كفر أو نفاق، أو كان كافراً أو منافقاً ثم طرأ عليه الجنون، فهذا فيه من الكفر والنفاق ما يعاقب عليه، وجنونه لا يحبط عنه ما يحصل منه حال إفاقته من كفر أو نفاق.

فصل

وليس لأولياء الله شيء يميزون به عن الناس في الظاهر من الأمور المباحات، فلا يميزون بلباس دون لباس، ولا بخلق شعر أو تقصيره أو ضفره، إذا كان كلاهما مباحاً، كما قيل: كم من صديق في قباء، وكم من زنديق في عباء. بل يوجدون في جميع أصناف أمة محمد ﷺ إذا لم يكونوا من أهل البدع الظاهرة والفجور، فيوجدون في أهل القرآن، وأهل العلم، ويوجدون في أهل الجهاد والسيف، ويوجدون في التجار والصناع والزراع. وكان السلف يسمون أهل الدين والعلم (القراء) فيدخل فيهم العلماء والنسك. ثم حدث بعد ذلك اسم الصوفية والفقراء واسم (الصوفية)، نسبة إلى لباس الصوف. هذا هو الصحيح، وقد قيل إنه نسبة إلى صفوة الفقهاء وقيل إلى (صوفة بن أد) قبيلة من العرب كانوا يعرفون بالنسك، وقيل إلى أهل الصفا، وقيل إلى الصفوة، وقيل إلى الصفة، وقيل إلى الصف المقدم بين يدي الله تعالى. وهذه أقوال ضعيفة فإنه لو كان كذلك لقليل: صفي، أو صفائي، أو صُفي، ولم يقل صوفي. وصار أيضاً اسم الفقراء يعني به أهل السلوك، وهذا عرف حادث وقد تنازع الناس: أيما أفضل: مسمى الصوفي

أو مسمى الفقير ؟ ويتنازعون أيضاً : أيما أفضل ؟ الفنى الشاكر ، أو الفقير الصابر ؟ والصواب فى هذا كله ما قاله تبارك وتعالى ^(١) : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) . وفى الصحيح ^(٢) من أبى هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ أنه سئل : أى الناس أفضل ؟ قال : أتقاهم . فدل الكتاب والسنة على أن أكرم الناس عند الله أتقاهم . وفى السنن ^(٣) عن النبي ﷺ أنه قال : لا فضل لعربى على عجمى ، ولا لعجمى على عربى ، ولا لأسودى على أبيض ، ولا لأبيض على أسود ، إلا بالتقوى . وعنه أيضاً ﷺ أنه قال ^(٤) : إن الله تعالى أذهب عنكم عبية ^(٥) الجاهلية ونفخها بالآباء . الناس رجلان : مؤمن تقى ، وفاجر شقى .

فصل

وليس من شرط ولّى الله أن يكون ممصوما لا يغلط ولا يخطئ ، بل يجوز أن يخفى عليه بعض علم الشريعة ، ويجوز أن يشتبه عليه بعض أمور الدين ، حتى يحسب بعض الأمور مما أمر الله به ، مما نهى الله عنه . ويجوز أن يظن فى بعض الخوارق أنها من كرامات أولياء الله تعالى ، وتسكون من الشيطان أتبسها عليه ، لنقص درجته ، ولا يعرف أنها من الشيطان ، وإن لم يخرج بذلك عن ولاية الله تعالى فإن الله سبحانه وتعالى تجاوز لهذه الأمة عن الخطأ والنسيان

(١) [٤٩ / الحجرات / ١٣] . (٢) أخرجه البخارى فى : ٦٠ - كتاب الأنبياء ،

٨ - قول الله تعالى : وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ، حديث رقم ١٥٨٧ .

وأخرجه مسلم فى : ٤٣ - كتاب الفضائل ، حديث رقم ١٦٨ (طبعنا) .

(٣) لم أهتد إلى هذا الحديث فى السنن . ولكن وجدته فى مسند الإمام أحمد بالصفحة

رقم ٤١١ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) . (٤) أخرجه أبو داود فى : ٤٠ - كتاب

الأدب ، ١١١ - باب فى التفاخر بالأحساب ، حديث رقم ٥١١٦ .

(٥) العيبة بضم العين وكسر ها . الكبر والفخر والنخوة . اه قاموس .

وما استكروها عليه ولم يؤثم النبي ﷺ المجتهد المخطئ ، بل جعل له أجرا على اجتهداده ، وجعل خطاه مغفورا له . ولهذا لما كان ولي الله يجوز أن يغلط ، لم يجب على الناس الإيمان بجميع ما يقوله من هو ولي الله ، إلا أن يكون نبيا ، بل ولا يجوز لولي الله أن يعتمد على ما يلقى إليه في قلبه ، إلا أن يكون موافقا ، وعلى ما يقع له مما يراه إلهاماً ومحادثة وخطاباً من الحق ، بل يجب عليه أن يعرض ذلك جميعه على ما جاء به محمد ﷺ ، فإن وافقه قبله وإن خالفه لم يقبله ، وإن لم يعلم أموافق هو أم مخالف توقف فيه . والناس في هذا الباب ثلاثة أصناف : طرفان ووسط . فمنهم من إذا اعتقد في شخص أنه ولي الله وافقه في كل ما يظن أنه حدثه به قلبه عن ربه ، وسلم إليه جميع ما يفعله . ومنهم من إذا رآه قد قال أو فعل ما ليس بموافق للشرع ، أخرجه عن ولاية الله بالكلية ، وإن كان مجتهدا مخطئاً ، وخيار الأمور أوساها . وهو ألا يجعل معصوما ولا مأثوما ، إذا كان مجتهدا مخطئاً ، فلا يتبع في كل ما يقوله ، ولا يحكم عليه بالكفر والفسق مع اجتهداده . والواجب على الناس اتباع ما بعث الله به رسوله . وأما إذا خالف قول بعض الفقهاء ، ووافق قول آخرين ، لم يكن لأحد أن يلزمه بقول المخالف ، ويقول : هذا خالف الشرع !

وفي الصحيحين^(١) عن النبي ﷺ أنه قال : قد كان في الأمم قبلكم محدثون ، فإن كان في أمتي أحد ، فعمر منهم . وكان عمر يقول : افتر بوا من أفواه المطيعين ، واسمعوا منهم ما يقولون ، فإنه يتجلى لهم أمور صادقة . والمحدث الذي يأخذ عن قلبه أشياء ، ليس بمعصوم ، فيحتاج أن يعرضه على ما جاء به النبي ﷺ والمصوم ﷺ ولهذا كان عمر رضي الله عنه يشاور الصحابة وينظرهم ويرجع إليهم في بعض الأمور ، وينازعونه في أشياء فيحتاج عليهم ، ويحتاجون عليه بالكتاب والسنة ، ويقرهم على منازعته ، ولا يقول لهم : أنا محدث ملهم

(١) أخرجه البخاري في : ٦٢ - كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ ، ٦ - باب مناقب عمر بن الخطاب ، أبي حفص القرشي المدوي رضي الله عنه ، حديث رقم ١٦٢٨ ، عن أبي هريرة . وأخرجه مسلم في : ٤٤ - كتاب فضائل الصحابة ، حديث رقم ٢٣ ، عن عائشة (طبعنا) .

مخاطب فينبغي لكم أن تقبلوا مني ولا تمارضوني . فأني من ادعى له أصحابه أنه ولي الله ، وأنه مخاطب يجب على أتباعه أن يقبلوا منه كل ما يقوله ولا يمارضوه وبسلموا له حاله من غير اعتبار بالكتاب والسنة - فهو وهمٌ مخطئون . ومثل هذا من أضل الناس . فعمر بن الخطاب رضى الله عنه أفضل منه ، وهو أمير المؤمنين ، وكان المسلمون ينازعونه ويمرضون ما يقول ، هو وهم ، على الكتاب والسنة . وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها على أن كل أحد يؤخذ من قوله ويترك ، إلا رسول الله ﷺ ، وهذا من الفروق بين الأنبياء وغيرهم . ولذا قال الجنيد : علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة . وقال أبو عثمان النيسابورى : من أمر السنة على نفسه قولاً وفعلًا نطق بالحكمة ، ومن أمر الهوى على نفسه قولاً وفعلًا نطق بالبدعة ، لقوله تعالى^(١) : (وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا) . وقال أبو عمرو بن نجيد : كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة فهو باطل .

فأولياء الله تعتبر بصفاتهم وأفعالهم وأحوالهم التي دل عليها الكتاب والسنة ، ويعرفون بنور الإيمان والقرآن ، وبحقائق الإيمان الباطنة ، ومثرائع الإسلام . فإذا كان الشخص مباشراً للنجاسات والخبائث التي يحجبها الشيطان ؛ أو يأوى إلى الحماقات والحشوش التي تحضرها الشياطين ، أو يأكل الحيات والمقارب والزناير وآذان الكلاب التي هي خبائث وفواسق . أو يشرب البول ونحوه من النجاسات التي يحجبها الشيطان . أو يدعو غير الله ، فيستغيث بال مخلوقات ، ويتوجه إليها ، أو يسجد إلى ناحية شيخه ، ولا يخلص الدين لرب العالمين . أو يلبس الكلاب أو النيران ، أو يأوى إلى المزابل ، والمواضع النجسة ، أو يأوى إلى المقابر ، لا سيما إلى مقابر الكفار من اليهود والنصارى أو المشركين ، أو يكره سماع القرآن وينفر عنه ، ويقدم عليه سماع الأغاني والأشعار ، ويؤثر سماع منامير الشيطان ، على سماع كلام الرحمن ، فهذه علامات أولياء الشيطان ، لا علامات أولياء الرحمن - انتهى ملخصاً -

(١) [٢٤ / النور / ٥٤] .

والكتاب مما يلزم الوقوف عليه ، ومطالعة بالحرف . ففيه من الفوائد ما لا يوجد في غيره ،
فرحم الله جامعه ، وجزاء خيراً . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٥] (وَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ، إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا، هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

« وَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » تسليية للنبي ﷺ عما كان يسمعه من تأمرهم في إيصال مكروهه له ، ومجاهرتهم بتكذيبه ، ورميه بالسحر ونحوه
أى : لا تتأثر بقولهم ، وشاهد عز الله وقهره ، لتنظر إليهم بنظر القناء وترى أعمالهم وأقوالهم ،
وما يهددونك به كالمباء . فمن شاهد قوة الله وعزته يرى كل القوة والعزة له ، لا قوة لأحد
ولا حول . فقوله تعالى ^(١) (إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ) تعليل للنهي على طريقة الاستئناف ، كأنه
قيل : مالى لا أحزن ؟ فقيل : إن العزة لله ، أى الغلبة والقهر فى ملكته وسلطانه ، لا يملك
أحد شيئاً منها أصلاً ، لا هم ولا غيرهم ، فهو يغلبهم ، وينصرك عليهم (كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ
أَنَا وَرُسُلِي) ^(٢) (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا) ^(٣) . وقوله (هُوَ السَّمِيعُ) أى لأقوالهم فيك ،
فيجازيهم (الْعَلِيمُ) أى لما ينبغى أن يفعل بهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٦] (أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ

مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ، إِنَّ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ)

« أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ » أى كلهم تحت ملكته وتصرفه
وقهره ، لا يقدرُونَ على شئ . بغير إذنه ومشيئته وإقداره إياهم . وقوله « وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ
يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنَّ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ » تأكيد

(١) [٤ / النساء / ١٣٩] . (٢) [٥٨ / المجادلة / ٢١] . (٣) [٤٠ / غافر / ٥١] .

لما سبق من اختصاص العزة به تعالى ، لتزيد سلوته صوات الله عليه وبرهان على بطلان ظنونهم وأقوالهم المبنية عليها . وفي (ما) من قوله (وما يتبع) وجهان :
أحدهما - أنها نافية ، و (شركاء) مفعول (يتبع) ومفعول (يدعون) محذوف لظهوره .
أى ما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء ، شركاء فى الحقيقة ، وإن سموها شركاء لجهلهم ،
فاقتصصر على أحدهما لظهور دلالة على الآخر . ويجوز أن يكون (شركاء) مفعول (يدعون) ،
ومفعول (يتبع) محذوف ، لانفهامه ، من قوله (إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ) . أى ما يتبعون
يقيناً ، إنما يتبعون ظنهم الباطل .

والوجه الثانى - أنها استفهامية ، منصوبة بـ (يتبع) ، و (شركاء) مفعول (يدعون) .
أى : أى شئ يتبع هؤلاء ؟ أى : إذا كان الكل تحت قهره وملكوته فما يتبعون من دون
الله ليس بشئ ، ولا تأثير له ولا قوة ، إن يتبعون إلا ما يتوهمونه فى ظنهم ، ويتخيلونه فى
خيالهم ، وما هم إلا يُقدِّرون وجود شئ لا وجود له فى الحقيقة .
ثم نبه تعالى على انفراد القدرة الكاملة ، والنعمة الشاملة ، ليدل على توحيده سبحانه
باستحقاق العبادة ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ)

« هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ » أى خلقه لكم لتستقروا فيه من
نصيبكم وكلا لىكم « وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا » أى مضيئاً ، تبصرون فيه مطالب أرزاقكم ومكاسبكم .
قيل : الآية من باب الاحتمال ، والتقدير : جعل الليل مظلاً لتسكنوا فيه ، والنهار مبصراً
لتنحروا فيه لمصالحكم ، لحذف من كل من الجانبين ما ذكر فى الآخر ، اكتفاء بالذكور
عن المتروك ، وإسناد الإبصار إلى النهار مجازى ، كقوله : * ما ليل الحب بنائمه *

« إِنَّ فِي ذَلِكَ » أى الجمل المذكور « لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ » أى هذه الآيات ونظائرهما ، سماع تدبر واعتبار .

ثم شرع فى نوع آخر من أباطيلهم بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ، سُبْحَانَهُ ، هُوَ الْغَنِيُّ ، لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، إِنَّ عِنْدَ كُمْ مِّنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا ، أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)
« قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ » تنزيه له عن أن يجانس أحدا ، أو يحتاج إليه ، وتعجب من كلمتهم الحمقاء « هُوَ الْغَنِيُّ » أى الذى وجوده بذاته ، وبه وجود كل شيء ، فكيف بمائله شيء ؟ ومن له الوجود كله ، فكيف يجانسه شيء ؟ والجملة علة لتنزيهه ، وإيدان بأن اتخاذ الولد من أحكام الحاجة ، إمالة تقوى به ، أو لبقاء نوعه « لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ » تقرير لغناه . أى فهو مستغن بملكه لهم عن اتخاذ أحد منهم ولداً « إِنَّ عِنْدَ كُمْ مِّنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا » أى : ما عندكم من حجة بهذا القول الباطن ، توضيح لبطلانه ، بتحقيق سلامة ما أقیم من البرهان الساطع عن المعارض . أى ليس بعد هذا حجة تسمع . والمراد تجهيلهم ، وأنه لا مستند لهم سوى تقليد الأوائل ، واتباع جاهل الجاهل .

تنبيهه :

دلت الآية على تسمية البرهان سلطاناً .

قال الإمام ابن القيم فى (مفتاح دار السعادة) : إنه سبحانه سى الحجة العالمية سلطاناً . قال ابن عباس رضى الله عنه : كل سلطان فى القرآن فهو حجة ، وهذا كقوله تعالى : (إِنَّ عِنْدَ كُمْ مِّنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا) ، يعنى ما عندكم من حجة بما قلتم ، إن هو لإقول على الله بلا علم . وقوله تعالى (١) : (إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ

بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ) ، بمعنى ما أنزل بها حجة ولا برهاناً ، بل هي من تلقاء أنفسكم وآبائكم .
وقوله تعالى : (أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ) ، يعني حجة واضحة . إلا موضعاً واحداً اختلف فيه ، وهو قوله : (مَا أَغْنَىٰ عَنْنَا مَالِيهِ * هَلَّاكَ عَنِّي سُلْطَانِيهِ) ، فقيل : المراد به القدرة والملك ، أى ذهب عنى مالى وملكى ، فلا مال لى ولا سلطان . وقيل : هو على بابه ، أى انقطعت حجتي وبطلت ، فلا حجة لى . والمقصود : أن الله سبحانه سعى علم الحجة سلطاناً ، لأنها توجب تسلط صاحبها واقتداره ، فله بها سلطان على الجاهلين ، بل سلطان العلم أعظم من سلطان اليد ، ولهذا ينقاد الناس للحجة مالا ينقادون لليد، فإن الحجة تنقاد لها القلوب، وأما اليد فإنما ينقاد لها البدن . فالحجة تأسر القلب وتقوده ، وتذل المخالف ، وإن أظهر العناد والمكابرة ، فقلبه خاضع لها ذليل ، مقهور تحت سلطانها . بل سلطان الجاه ، إن لم يكن معه علم يساس به ، فهو بمنزلة سلطان السباع والأسود ونحوها، قدرة بلا علم ولا رحمة ، بخلاف سلطان الحجة ، فإنه قدرة بعلم ورحمة وحكمة، ومن لم يكن له اقتدار فى علمه ، فهو إما لضعف حقيقته وسلطانته ، وإما لقهر سلطان اليد والسيوف له ، وإلا فالحجة ناصرة نفسها ، ظاهرة على الباطل قاهرة له - انتهى - .

« أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَالًا تَعْلَمُونَ » توبيخ وتقريع على جهلهم . قال الزمخشري : لما نفي عنهم البرهان ، جعلهم غير عالمين ، فدلّ على أن كل قول لا برهان عليه اقائله ، فذاك جهل وليس بعلم .

وقال أبو السمود : فيه تنبيه على أن كل مقالة لا دليل عليها ، فهي جهالة ، وأن العقائد لا بد لها من برهان قطعى ، وأن التقليد بمنزل من الاعتداد به .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٩] (قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ)

[٧٠] (مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِيْقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ)

« قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ » باتخاذ الولد ، وإضافة الشركاء « لَا يُفْلِحُونَ » أى لا يفوزون بمطلوب أصلاً . « مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا » مبتدأ خبره محذوف ، أى لهم تمتع يسير فى الدنيا « ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ » أى بالموت « ثُمَّ نَذِيْقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ » أى بسبب كفرهم . والآية لبيان أن ما يتراءى من فوزهم بالخطوطة الدنيوية ، بمنزل من أن يكون من جنس الفلاح . كأنه قيل : كيف لا يفلحون ، وهم فى غبطة ونعيم ؟ فقيل : هو متاع يسير فى الدنيا ، وليس بفوز بالمطلوب .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧١] (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ

مَقَامِي وَتَذَكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ

ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ)

« وََاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ » أى خبره الذى له شأن وخطر ، مع قومه المغترين بمرزة الأموال والأعوان ، ليتدبروا ما فيه من صحة توكله على الله ، ونظره إلى قومه ، بمن عدم المبالاة بهم ، وبمكايدهم ، وزوال ما تمتعوا به من النعيم ، بإغراقهم بالطوفان ، فلملهم يكفون عن كفرهم ، وتلين أفئدتهم ، ويستيقنون صحة نبوتك « إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ » أى شق وثقل « عَلَيْكُمْ مَقَامِي » أى مكاني ، يعنى نفسه ، أو مكثى بين أظهركم مدداً

طوالاً، ألف سنة إلا خمسين عاماً أو قياماً بالدعوة إلى الله، من رؤيتكم ذاتي بقلة الأموال والأهوان ، ومنع عزتكم بهما عن الانقياد لي « وَتَذَكِّرِي بآيَاتِ اللَّهِ » أي بحججه وبراهينه ، أو تخويفي بعذابه « فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ » أي اعتمدت في دفع ما قصدتموني به « فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ » أي شأنكم في إهلاكى « وَشُرَكَاءُكُمْ » يعنى آلهتهم . وهو تهكم بهم ، أو نظراءهم في الشرك . (والواو) بمعنى مع . أو معطوف على (أمركم) بحذف المضاف ، أى : وأمر شركائكم . أو منصوب بحذف ، أى ادعو شركاءكم ، وذلك لأن (أجمع) يتعلق بالمعاني . يقال : (أجمع الأمر إذا نواه وعزم عليه) « ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً » أى مستوراً . من (غمه ، إذا ستره) بل مكشوفاً تجاهرونى به « ثُمَّ أَقْضُوا إِلَيَّ » أى أدوا إلى ذلك الأمر الذى تريدون بى « وَلَا تَنْظُرُونِ » أى ولا تعملونى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٢] (فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ ، إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

« فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ » أى عن الإيمان بما جئتكم به « فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ » أى جمل على عظمتكم ، أى فلا باع لىكم على التولى والنفور « إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ » أى ما توابى على التكبر إلا عليه تعالى ، يثيبنى به ، آمنتم أو توليتم « وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ » أى المسلمين له وحده بالإيمان به ، ونبذ كل معبود دونه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٣] (فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ، فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ)

« فَكَذَّبُوهُ » يعنى نوحاً بما جاءهم ، عناداً بعد أن قامت عليهم الحجة ، خفت عليهم كلمة العذاب ، وأرسل عليهم الطوفان ، « فَجَعَلْنَاهُ » أى من الفرق « وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ »

وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ « أى خلفاء عن المغرّفين وعمار الأرض » وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ « أى منتهى أمرهم . والمراد بـ (المنذرين) المكذبين . والتعبير به إشارة إلى إصرارهم عليه ، حيث لم يفد الإنذار فيهم . وقد جرت السنة الربانية أن لا يهلك قوم بالاستئصال إلا بعد الإنذار ، لأن من أنذر فقد أعذر . وفى الأمر بالنظر تهويل لما جرى عليهم ، وتحذير لمن كذب الرسول ﷺ ، وتسليمة له .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٤] (ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَبَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ، كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ) « ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ » أى من بعد نوح « رَسُولًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ » يعنى هوداً وصالحاً وإبراهيم ولوطاً وشعيباً ، « فَبَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ » أى الآيات الدالة على صدقهم ، المفيدة هدايتهم « فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ » أى بسبب تعودهم تكذيب الحق ، وتغرّهم عليه . لأنهم كانوا قبل بعثة الرسل أهل جاهلية ، مكذبين بالحق ، فخالهم بعدها ، فخالهم قبلها . هذا على أن ضمير (كانوا) و(كذبوا) لقوم الرسل . وَجَازَ عَوْدُ ضمير (كانوا) لقوم الرسل ، و(كذبوا) لقوم نوح . أى ما كان قوم الرسل ليؤمنوا بما كذب به قوم نوح أى بمثله . « كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ » أى المجاوزين مقتضيات حقائق الأشياء ، بخذلانهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمُ مُوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ) « ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمُ » أى من بعد هؤلاء الرسل « مُوسَىٰ وَهَارُونَ » إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ

وَمَلَكِهِ بِآيَاتِنَا» يعنى التسع « فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ » أى كفاراً ذوى
آثام عظام .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٦] (فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ)

« فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا » يعنى الآيات المزيحة للشك « قَالُوا » يعنى من فرط
التمرد « إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ » أى تلبيس ظاهر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ ، أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ)

« قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ » أى على وجه لم يترك لكم شبهة ، مقاتلكم
الحق ، من أنه سحر ، فحذف المحكى المقول لدلالة الكلام عليه . ثم قال : « أَسِحْرٌ هَذَا »
استفهام إنكار من قول موسى لامن قولهم . فهو مستأنف لإنكار كونه سحراً ، وتكذيب
لقولهم ، وتوبيخ لهم على ذلك إثر توبيخ . وليس (أَسِحْرٌ هَذَا) مقولهم ، لأنهم بقوا
القول بأنه سحر ، فكيف يستفهمون عنه ؟ - كذا قيل - .

ولا أرى مانعاً من أن يكون مقولهم ، والهمزة وسط مزيدة لتكون مؤكدة لما قبلها من
الاستفهام ، ومن لطائفها الاحتراس عن إيهام فاعلية سحر لـ (جَاءَكُمْ) بـادى بدء .
وأسلوب القرآن فوق كل أسلوب . أو الهمزة ومدخولها من مقولهم الأول ، حين فوجئوا
بخارقة موسى ، وقولهم المذكور قَبْلُ (إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ) حكاية لقولهم الذى بقوا عليه
أمرهم . ثم رأيت الناصر فى (الاتيصال) أشار لهذا حيث قال :

وأما القراءة الثانية - يعنى قراءة آالسحر - على الاستفهام ، ففيها - والله أعلم - إرشاد
إلى أن قول موسى أولاً : (أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا) حكاية لقولهم ، ويكون

(أَسِحْرٌ هَذَا) هو الذى قالوه . ولا يناقض ذلك حكاية الله عنهم أنهم قالوا « إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ » ، وذلك إما لأنهم قالوا الأمرين جميعاً : بدأوا بالاستفهام على سبيل الاستهتار بالحق والاستهزاء بكونه حقاً ، والاستهزاء بالحق إنكار له بل قد يكون الاستفهام فى بعض المواطن أبت من الإخبار . ألا ترى أنهم يقولون فى قوله : * أَنْتِ أُمُّ سَالِمٍ * أبلغ فى البت من قوله مخبراً (أَنْتِ أُمُّ سَالِمٍ) . ثم ثنوا بصيغة الخبر الخاصة ببيت الإنكار ، ودعوى أنه سحر ، فقالوا : (إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ) ، فحكى الله تعالى عنهم هذا القول الثانى ، ووبخهم موسى على قولهم الأول . ومعنى العبارتين ومآلهما واحد . وإما ألا يكونوا قالوا سوى : (أَسِحْرٌ هَذَا) على سبيل الإنكار حسبما تقدم ، فحكاها الله تعالى عنهم بما له ؛ لأنه يعلم أن مرادهم من الاستفهام الإنكار ، وبتّ القول أنه سحر ، وحكى موسى عليه السلام قولهم بلفظه ، ولم يؤده بمباراة أخرى . وحكاية القصص المتأولة فى السكتاب العزيز بصيغ مختلفة ، لا تحمل لها سوى أنها معان مفقولة إلى اللغة العربية ، فيترجم عنها بالألفاظ المترادفة المتساوية المعانى .

وحاصل هذا البحث أن قول موسى عليه السلام (أَنْقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا) إنما حكى فيه قولهم ، ويرشد إلى ذلك أنه كافأهم عند ما أتوا بالسحر بمثل مقالهم مستفهماً فقال : ما جئتم به آلسحر (على قراءة الاستفهام) قرضاً بوفاء على السواء . والذى يحقق لك أن الاستفهام والإخبار فى مثل هذا المعنى مؤداها واحد ، أن الله تعالى حكى قول موسى عليه السلام (ما جئتم به السحر) على الوجهين : الخبر والاستفهام ، على ما اقتضته القراءة ثان وهو قول واحد ، دل أن مؤدى الأمرين واحد ، ضرورة صدق الخبر .

وإنما حمل الزمخشري على تأويل القول بالضعيف ، أو إضمار مفعول (تقولون) استشكل وقوع الاستفهام ، حكياً بالقول ، والمحكى عنهم الخبر . وقد أوضحنا أنه لا تنافر ولا تنافي بين الأمرين .

قال الناصر : فشدة بهذا الفصل عرى التمسك ، فإنه من دقائق الفسكت ، والله الموفق .

وقوله تعالى : « وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ » من كلام موسى قطعاً ، أتى به تقريراً لما سبق ، لأنه لما استلزم كون الحق سحراً ، كون من أتى به ساحراً ، أكد الإنكار السابق ، وما فيه من التوبيخ والتجهيل ، بذلك .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٨] (قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمُ بِمُؤْمِنِينَ)

« قَالُوا » أى لموسى « أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا » أى لتصرفنا « عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا » يعنون عبادة الأصنام « وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ » أى الملك والسلطان « فِي الْأَرْضِ » أى أرض مصر « وَمَا نَحْنُ لَكُمُ بِمُؤْمِنِينَ » أى لتبقى عزتنا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٩] (وَقَالَ فِرْعَوْنُ ااثْنُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ)
« وَقَالَ فِرْعَوْنُ » أى حفظاً لعزته ، ودفماً لتمرز موسى « ااثْنُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ » أى ماهر فى فنه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٠] (فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمُ مُوسَى اأَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ)
« فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمُ مُوسَى اأَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ » أى من أصناف السحر . قال بعضهم : جواز الأمر بالسحر لدحضه ، وكذلك طلب إيراد الشبه لتحل .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨١] (فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحَرُ ، إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ)

« فَلَمَّا أَلْقَوْا » أى عصيتهم وحبالهم ايضاهاوا معجزة موسى بمصاه « قَالَ مُوسَى »

مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحَرُ « أى هو السحر ، لا ما جئتمكم به مما سمعتموه سحراً » « إِنَّ اللَّهَ سَبَّطُهُ »
أى سيمحقه بالسكينة بمعجزتى ، فلا يبق له أثر « إِنَّ اللَّهَ لَا يُضْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ » أى
بل يسلط عليه الدمار .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ)

« وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ » أى يثبت ويقر به « وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ » أى
ذلك . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٣] (فَمَا أَمَّنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ)

أَنْ يَفْتَنَهُمْ ، وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ)

« فَمَا أَمَّنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ » معطوف على مقدر معلوم من مواقع آخر ،
أى (١) « فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ » الخ . قيل : الضمير من (قومه) لفرعون ،
وهم ناس يسير من قومه ، آمنوا به سرّاً . والأظهر أنهم قوم موسى ، وهم بنو إسرائيل ،
الذين كانوا بمصر من أولاد يعقوب ، فهم الذين آمنوا به « عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ »
أَنْ يَفْتَنَهُمْ « أى يمدبهم » « وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ » أى مستكبر « فِي الْأَرْضِ » أى أرض
مصر « وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ » أى المتجاوزين الحد بالظلم والفساد ، وبإدعاء الربوبية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٤] (وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ

مُسْلِمِينَ)

« وَقَالَ مُوسَى » أى تطمينا لقلوبهم ، وإزالة للخوف عنهم « يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ

فَعَلَيْكُمْ تَوَكَّلُوا » أى فإليه أسندوا أصركم فى العصمة مما تخافون ، وبه ثقوا ، فإنه كافىكم
(وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ) ^(١) وقوله : « إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ أَى مخلصين
وجوهمكم له .

قال القاشانى : جمل التوكل من لوازم الإسلام ، وهو إسلام الوجه لله تعالى ، أى إن
كل إيمانكم وبقينكم ، بحيث أثر فى نفوسكم ، وجعلها خالصة لله ، لزم التوكل عليه ؛
وإن أريد (الإسلام) بمعنى الانقياد ، كان شرطاً فى التوكل ، لا ملازوما له . وحينئذ يكون
معناه : إن صح إيمانكم بقلبي فعليكم توكلوا ، بشرط أن تكونوا منقادين . كما تقول : إن
كرهت هذا الشجر فاقطعه إن قدرت - انتهى - .

وقال الكرخي : قوله تعالى : (إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ) أى منقادين لأمره . فقوله :
(فَعَلَيْكُمْ تَوَكَّلُوا) جواب الشرط الأول . والشرط الثانى وهو (إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ)
شرط فى الأول . وذلك أن الشرطين متى لم يترتبا فى الوجود ، فالشرط الثانى شرط فى الأول .
ولذلك لم يجب تقديمه على الأول . قال الفقهاء : المتأخر يجب أن يكون متقدماً ، والمتقدم
يجب أن يكون متأخراً . مثاله : قول الرجل لامرأته : إن دخلت الدار فأنت طالق إن كلمت
زيداً . فجموع قوله : (إن دخلت الدار فأنت طالق) مشروط بقوله (إن كلمت زيدا) والشروط
متأخر عن الشرط ، وذلك يقتضى أن يكون المتأخر فى اللفظ ، متقدماً فى المعنى ، وأن يكون
المتقدم فى اللفظ ، متأخراً فى المعنى . فكأنه يقول لامرأته : حال ما كلمت زيدا إن دخلت
الدار فأنت طالق . فلو حصل هذا المعلق قبل إن كلمت زيدا لم يقع الطلاق . فقوله تعالى :
(إِنْ كُنْتُمْ ءَامِنْتُمْ ...) الخ يقتضى أن يكون كونهم مسلمين ، شرطاً لأن يصيروا مخاطبين
بقوله (إِنْ كُنْتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا) فكأنه تعالى يقول للمسلم حال إسلامه :
إن كنت من المؤمنين بالله فعلى الله توكل . والأمر كذلك ، لأن الإسلام عبارة عن الاستسلام ،

(١) [٦٥ / الطلاق / ٣] .

وهو الانقياد لتكاليف الله ، وترك التمرد والإيمانُ عبارة عن معرفة القلب بأن واجب الوجود لذاته واحد ، وما سواه محدث تحت تدبيره وقهره . وإذا حصلت هاتان الحالتان فعند ذلك يفوض العبد جميع أموره إليه تعالى ، ويحصل في القلب نور التوكل على الله تعالى . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٥] (فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

« فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » أى موضع فتنة لهم ، أى عذاب يمدبوننا ويفتنوننا عن ديننا . قال الحاكم : دلت على حسن السؤال بالفتنة من الظلمة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٦] (وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِّنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ)

« وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِّنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ » أى من كيدهم ، ومن شؤم مشاهدتهم ، والعبودية لهم .

قال القاضى : وفى تقديم التوكل على الدعاء تنبيه على أن الداعى ينبغي له أن يتوكل أولاً ، لتجانب دعوته .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٧] (وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ، وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ)

« وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا » أى اتخذها بها بيوتاً مباءة تلازمونها لتجتمع كلمتكم فى شأنكم « وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً » أى مصلى « وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ » أى فى بيوتكم . قال بعضهم : كانوا خائفين . وفى ذلك دلالة على جواز كتم الصلاة عند الخوف . « وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ » أى بالنصرة فى الدنيا ، والجنة فى العقبى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٨] (وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ ، رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ)

« وَقَالَ مُوسَىٰ » أى يدعو الله تعالى في إذهاب غزوة فرعون « رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً » أى ما يزين به من اللباس والمراكب والخلي « وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ » أى بالتكبر عاينك وعلى آياتك ورسلك . وقوله : (لِيُضِلُّوا) متعلق بـ (آتَيْتَ) ، وأعيد (رَبَّنَا) توكيداً . و (لَام) (لِيُضِلُّوا) لام العاقبة والصورورة . أى : آتيتهم النعم المذكورة ليذكروها ويتبعوا سبيلك ، فكان عاقبة أمرهم أنهم كفروا وضلوا عن سبيلك . وتجوزُ جمل اللام للعلة استدرجاً . أو لام الدعاء عليهم بذلك - توسع في غير متسع ، ونبو عن لطف المساق وسره ؛ فإن موسى لما رأى القوم مصرين على الكفر والعدا أخذ في الدعاء عليهم ، ومن حق من يدعو على الغير أن يقدم بين يدي دعائه ما دفعه واضطره إلى الإبتهال ، لتحقيق إجابته . ولذا ، بين أولاً ضلالهم عن السبيل بكفرانهم للنعم ، وعتوهم على المحسن بها تمهيداً لقوله : « رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ » أى أهلكها ، لأنهم يستمعون بنعمتك على معصيتك وأصل (الطمس) محو الأثر والتغيير « وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ » أى اجعلها قاسية ، واطبع عليها ، حتى لا تنشرح للإيمان « فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ » أى يمانيةوه ويوقنوا به ، بحيث لا ينفعهم ذلك إذ ذاك . وقوله : (فَلَا يُؤْمِنُوا) جواب للدعاء ، أو دعاء بلفظ النهي .

قال ابن كثير : هذه الدعوة كانت من موسى عليه السلام ، غضباً لله ولدينه على فرعون وملائته الذى تبين له أنه لا خير فيهم ، ولا ينجى منهم شيء . كما دعا نوح عليه السلام

فقال^(١) : (رَبُّ لَا تَذَرُنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَبَّارًا * إِنَّكَ إِن تَذَرْنِي يَظْلُمُونَ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا) . ولهذا استجاب تعالى لموسى فيهم هذه الدعوة التي شرکہ فيها أخوه هارون ، كما أخبر بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٩] (قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانَّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)

« قَالَ » تعالى « قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا » أى على أمرى ، ولا تمجلا ، فإن مطلوبكما كائن فى وقته لا محالة « وَلَا تَتَّبِعَانَّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ » أى فى الاستمجال ، أو عدم الوثوق بوعده تعالى ، أو يعنى فرعون وقومه ، بقوله سبحانه : ثم أشار تعالى إلى إجابته دعاءها فى إهلاك فرعون وقومه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٠] (وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَيْنَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغِيًّا وَعَدَوْا حَتَّى إِذَا أَذْرَكَهُ الْفَرَقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ

بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

« وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَيْنَهُمْ » أى لحقهم « فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغِيًّا وَعَدَوْا » أى لأجل البغى عليهم والاعتداء « حَتَّى إِذَا أَذْرَكَهُ الْفَرَقُ قَالَ » رجو النجاة من الفرق « ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ » وذلك أن موسى عليه السلام لما رغب إلى فرعون أن يطلق الإسرائيليين من عبوديته ، ويأذن لهم بالسراح إلى فلسطين ليمبدوا ربهم ، أبى وتمرد ، فضر به الله وقومه بالآيات التسمع ، كما

تقدم في سورة (الأعراف) ، فأذن لموسى وشعبه بالخروج من مصر ، فارتحل بنو إسرائيل جميعاً بمواشيهم وأثاثهم ، ثم ندم فرعون وملأه على إطلاقهم من خدمتهم ، فاشتد فرعون وجنوده في أثرهم يريدونهم ، فأدركهم وهم نازلون عند البحر ، فهرب الإسرائيليون من مقدمه ، وضجوا إلى موسى ، فسكن روعهم ، وأعلمهم ما يشاهدون من نجاتهم ، وهلاك عدوهم ، وأوحى تعالى إلى موسى أن يضرب بمصاء البحر ، فانشق ودخل بنو إسرائيل في وسطه على اليبس الذي جعله تعالى آية كبرى ، ونفذوا منه إلى شاطئه ، وتبعهم فرعون وجنوده . حتى إذا توسطوا البحر ، مد موسى يده على البحر ، فارتد إلى ما كان عليه ، وغرق فرعون بمن معه . ولما أحس بالفرق ، لاذ إلى الإيمان يبغي النجاة ، فقبل له :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩١] (إِنَّا لَنَاقِلُونَكَ إِلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ) «وَكَانَ يَوْمَئِذٍ يَوْمَ الْقِيَامِ»

«آلآن» أى تؤمن وتسلم لتنجوا من الفرق «وَكَانَ يَوْمَئِذٍ يَوْمَ الْقِيَامِ» أى كفرت بالله من قبل الفرق ، «وَكَانَ يَوْمَئِذٍ يَوْمَ الْقِيَامِ» أى بالضللال والإضلال ، والظلم والعقو .

القول في تأويل قوله تعالى .

[٩٢] (فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً ، وَإِنْ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافُلُونَ)

«فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ» أى نخرجك من البحر بحسدك الذى لا روح فيه . فرآه بنو إسرائيل ملقى على شاطئ البحر ميتاً وفي التعبير عن إخراجهم من القعر إلى الشاطئ (بالنجية) التى هى الخلاص من المكروه ، تهكم واستهزاء . «لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ» من الأمم الكافرة «آيَةً» أى عبرة من الطغيان والتمرد على أوامره تعالى . «وَإِنْ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافُلُونَ» أى لا يتفكرون فيها ولا يعقبون بها .

تنبيه :

قال الشهاب الحفاجي في (العناية) : لا يقبل إيمان المرء حال اليأس والاحتضار ، كما يدل عليه صريح الآية^(١) : « فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَاسًا » . وأما ما وقع في (الفصوص) من صحة إيمانه ، وأن قوله (ءَامَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ) إيمان بموسى عليه السلام - فمخالف للنص والإجماع ، وإن ذهب إلى ظاهره الجلال الدواني رحمه الله . وله رسالة فيه طالعها ، وكنت أتعجب منها حتى رأيت في (تاريخ حلب) للفاضل الحلبي أنها ليست له ، وإنما هي لرجل يسمى محمد بن هلال النحوي . وقد ردها القزويني ، وشنع عليه وقال : إنما مثاله مثال رجل حامل الذكر ، لما قدم مكة بال في زمزم ليشتهر بين الناس ، كافي المثل (خالف تعرف) وفي (فتاوى ابن حجر رحمه الله) أن بعض فقهاءنا كفر من ذهب إلى إيمان فرعون ولذا قيل : إن المراد بفرعون (في كلامه) النفس الأمارة ، وهذا كله مما لا حاجة إليه - انتهى كلام الشهاب - .

أقول : ذكر شيخنا^١ العطار رحمه الله في كتابه (الفتح المبين في رد اعتراض المعارض على محي الدين) خاتمة في بطلان ما نسب إلى هذا المعارف من القول بصحة إيمان فرعون ونجاته ، قال رحمه الله :

ليعلم أنه شاع فيما بين أهل العلم بأن حضرة محي الدين رضي الله عنه قال بإيمان فرعون ونجاته . والحال أنه ليس كذلك ، كما ستطلع عاينه من النقل عنه . نعم ، بحث في صحة القول بإيمان فرعون ، ونجاته وعدمها ، حيث الأخذ من الآيات القرآنية ، فكان ذلك منه مجرد بحث في الدليل لا غير ، وما كان هذا قولاً بإيمانه قطعياً . وقد بنى مسألة نجات فرعون وإيمانه على أصليين من أصوله ، وافقه عليهما جم غفير من العلماء الأعلام .

الأصل الأول - في بيان حقيقة إيمان اليأس ، فإيمان اليأس عنده ، وعند جم غفير من

(١) [٤٠ / غافر / ٨٥] .

العلماء هو ما كان عند مشاهدة العذاب البرزخي ، كحال المحتضر لا غير ، ففي هذه الحالة لا ينفع الإيمان ، وهذا متفق عليه بين أهل العلم . وذهب قوم إلى أن إيمان اليأس ما كان عند رؤية العذاب دنيوياً أو أخروبياً . فالإيمان في أى حالة من الحالتين لا ينفع . وعند هذا المعارف وجماعة : أن رؤية العذاب الدنيوى لا تمنع صحة الإيمان ، وإن أوجبت الهلاك في الدنيا ، فإن سنة الله قاضية بأن يتحتم وقوع الهلاك الدنيوى لمن رأى هذا العذاب ، وإن آمن ونجا من عذاب الآخرة ، إلا قوم يونس ، فإنه تعالى نجاهم منه ، كما ذكره تعالى .

الأصل الثانى - من أصوله رضى الله عنه : أن من حقت عليه الكلمة لا يتلفظ بمادة الإيمان بقصد الإيمان ، وإن تلفظ بها لا يقصده ، فلا بد من تكذيب الله تعالى له ، ولو بالحكاية عنه ، كما قال تعالى ^(١) : (وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شِيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ) وكما قال ^(٢) : (فَأَتَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنًا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا) فكذبهم تعالى في دعواهم . وهذا الأصل مأخوذ من قوله تعالى ^(٣) : (إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ) فكلمة « حَتَّىٰ » للغاية . ففياً تعالى إيمانهم إلى حين رؤية العذاب الأليم ، وهو الأخرى لا غير ، فإنه هو الذى يوصف بالأليم . ونفى تعالى عنهم وقوع الإيمان قبل ذلك ، فوقعه منهم قبله قصدا ، محال بنص هذه الآية .

إذا تقرر هذان الأصلان ، فلنرجع إلى ما قاله هذا الخبر في شأن فرعون في (الفتوحات المكية) وفي (الفصوص) : فالذى ذكره في (الفتوحات) عند ذكره طبقات أهل النار فيها : هو أن فرعون من أهل النار ، حيث قال في هذا البحث : كفرعون وأضرابه ، نفخص له ولهم من النار طبقة مخصوصة يؤبدون فيها . وأشار إلى كفره في موضع آخر منها عند ذكره هذا الحديث وهو ^(٤) : أعوذ بك منك ؟ قال : استعاذ رسول الله ﷺ من مقام

(١) [٢ / البقرة / ١٤] . (٢) [٤٩ / الحجرات / ١٤] . (٣) [١٠ / يونس / ٩٦ و ٩٧] .

(٤) أخرجه مسلم في : ٤ - كتاب الصلاة ، حديث ٢٢٢ (طبعنا) .

الاتحاد الذى كان عليه فرعون وهو قوله ^(١): (أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى) وعلى هذه الإشارة وما تقدم ، يكون فرعون كافراً عنده ، كما هو عند عامة الخلق . وعلى هذا لا إشكال ولا كلام .
بقى القول على إيمان فرعون ونجاته من حيث الدليل ، وهو مجرد بحث مع الذين ذهبوا إلى كفره قطعياً ، وليس لهم هذا القطع ، لما أن الدليل القرآنى يعطى خلافاً؛ قال تعالى (فَلَمَّا أَدْرَكَهُ الْفَرَقُ قَالَ ءَامَنْتُ . . .) الآية - فذكر فرعون هنا الإيمان ثلاث مرات : اثنتان فى الجنب الإلهى ، والأخيرة تعمه ، والإيمان بموسى حيث قال : (وأنا من المسلمين) ولم يكن مسلماً إلا من جمع بين الإيمان بالله وبرسوله .

ثم قال شيخنا رحمه الله : وفى (الفتوحات) و (الفصوص) ما حاصله : أن إيمانه لم يكن عند اليأس ، لا على مذهبه ومذهب من وافقه ، ولا على مذهب غيره . أما الأول فلأن إيمانه كان عند رؤية العذاب الدنيوى ، لا عند احتضاره ، والإيمان عند رؤية العذاب الدنيوى لا يعد بأساً عنده ، وعند جمع . وأما على الثانى ، فلأن قول فرعون ما كان عند بأسه من الحياة الدنيوية ، فإنه علم أن من آمن بما آمن به قوم موسى كان له المشاركة فى الطريق اليبس التى كانت للمؤمنين ، وقد شاركهم فى إيمانهم ، فكان الغالب على ظنه أو يقينه المعاملة الخاصة بالمؤمنين ، المشاهدة له ، وما علم سنة الله فى خلقه بأنه لابد من الهلاك الدنيوى أن كانت حالته كذلك . والهلاك فى الدنيا لا يدل على عدم النجاة فى الآخرة ، وهو ظاهر . وعلى هذا فإيمانه لم يكن حال اليأس على المذهبين : فالأول بيقين ، والثانى بحسب ما يظهر ، ولا بعد بأنه كان طامعاً فى النجاة بيقين ، لعموم المشاركة . هذا ، وإن مذهب هذا العارف الخاص به هو البناء على اتساع الرحمة الإلهية ، والأخذ بالظواهر من الآيات ، ومع ذلك فلما ذكر البحث فى شأن إيمان فرعون ونجاته ، مع من قال بخلافهما ، قال : إن الوقف فى شأن إيمان فرعون هو الأسلم ، لما شاع عند الخلق عامة من شقائه ، وهذا منه صريح فى أنه كان باحثاً فى إيمانه ونجاته من ظاهر اللفظ القرآنى بحثاً ، لا جازماً بهما - انتهى ملخصاً - .

ثم أنبأ تعالى عما أنعم به على بني إسرائيل إنعمة إنجائهم من عدوهم وإهلاكه ، وإخلاصهم بشكرها وأداء حقوقها بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٣] (وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَآئِيلَ مَبُوءًا صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ، إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) « وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَآئِيلَ مَبُوءًا صِدْقٍ » أضيف المسكان إلى الصدق ، لأن عادة العرب إذا مدحت شيئاً ، أن تضيفه إلى الصدق . تقول : رجل صدق . وقدم صدق . وقال تعالى ^(١) : (مُدْخَلَ صِدْقٍ) و ^(٢) (مُخْرَجَ صِدْقٍ) إذا كان عاملاً في صفة صالحاً للعرض المطلوب منه ، كأنهم لا حظوا أن كل ما يظن به فهو صادق .

وقوله تعالى « وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ » وهى المن والسلوى فى التيه وبعده ، مما فاض عليهم من الأرض التى تدر لبناً وعسلاً « فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ » أى ما تفرقوا على مذاهب شتى فى أمر دينهم ، إلا من بعد ما جاءهم العلم الحاسم لكل شبهة ، وهو ما بين أيديهم من الوحي ، الذى يتلونه . أى : وما كان حقهم أن يختلفوا ، وقد بين الله لهم ، وأزاح عنهم اللبس . ونظير هذه الآية ، فى النعى عليهم اختلافهم ، قوله تعالى ^(٣) : (وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ) . وقوله جل ذكره ^(٤) (وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ) . وفيه أكبر زاجر وأعظم واعظ عن الاختلاف فى الدين ، والتفرق فيه .

« إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ » أى فيميز الحق من المبطل بالإنباء والإهلاك .

(١) [١٧ / الإسراء / ٨٠] . (٢) [٩٨ / البينة / ٤] . (٣) [٣ / آل عمران / ١٩] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٤] (فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ ، لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ)

« فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ » من قصص موسى وفرعون وبنى إسرائيل فاسأل الذين يقرءون الكتاب « أى التوراة » من قبلك « فإنه عندهم على نحو ما أوحى إليك » لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين « أى الشاكين فى أنه منزل من عنده .

تنبيه :

لا يفهم من هذه الآية ثبوت شك له صلوات الله عليه ، فإن صدق الشرطية لا يقتضى وقوعها ، كقولك : (إن كانت الخمسة زوجاً ، كانت منقسمة بمساويين) . والسر فى مثلها تكثير الدلائل وتقويتها ، لتزداد قوة اليقين ، وطمأنينة القلب ، وسكون الصدر . ولذا أكثر تعالى فى كتابه من تقرير أدلة التوحيد والنبوة والرجمة . أو السر هو الاستدلال على تحقيق ماقص ، والاستشهاد بما فى الكتاب المتقدم ، وأن القرآن مصدق لما فيه . أو وصف الأحبار بالسوخ فى العلم ، بصحة ما أنزل إلى رسول الله ، صلوات الله عليه ، تمريضاً بالمشركين . أو تهيج الرسول ، صلوات الله عليه ، وتحريضه ليزداد يقيناً ، كما قال الخليل صلوات الله عليه^(١) (وَلَكِنْ لِيُظْمِنَ قَلْبِي) . وقد روى أنه عليه السلام قال حين نزول الآية : لا أشك ولا أسأل - أخرجه عبد الرازق وابن جرير^(٢) عن قتادة - أو الخطاب عليه السلام ، والمراد غيره ، على حد : (إياك أعمى واسمعى يا جارة) . وفيه من قوة التأثير فى القلوب ما لا مزيد عليه ، بمناجاة

(١) [٢ / البقرة / ٢٦٠] . (٢) أخرجه ابن جرير فى تفسيره بالصفحة رقم ١٦٨

من الجزء الحادى عشر (طبعة الحابى الثانية) .

مالو خاطب سلطان عاملاً له على بلدته بحضور أهلها بوصاياه وأوامره الرهيبة ، فيكون ذلك أفعلى فى النفوس . أو الخطاب لىكل من يسمع . أى : إن كنت أىها السامع فى شك مما نزلنا على لسان نبينا إليك ... وأيد هذا بقوله تعالى بعد^(١) : (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي ...) فكأنه أشار إلى أن المذكور فى أول الآية رمزاً ، هم المذكورون بعد صراحة . وفى الآية تنبيه على أن كل من خالجه شبهة فى الدين ينبغى أن يسارع إلى حلها ، بمقابلة العلماء المنهين على الحق .
وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٥] (وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ)
« وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ » هو أيضاً من باب التهميج والإلهاب والتثبيت . وأجرى بعضهم هاهنا قاعدة ، فقال : النهى عن كل شىء ، إن كان لمن تلبس به فعمناه تركه ، وإن كان لغيره فعمناه الثبات على عدمه ، والا يصدر منه فى المستقبل كما هنا - انتهى - أو يأتى الوجهان الأخيران قبل هنا أيضاً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٦] (إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ)

[٩٧] (وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ)

إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ « أى قوله الكريم ، وأمره بعذابهم ، كما قال^(٢) : (وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَرِثَتِكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ) .
« لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ » أى كذاب آل فرعون وأضرابهم . أى : وعند رؤية العذاب يرتفع التكليف ، فلا ينفعهم إيمانهم .

(١) [١٠ / يونس / ١٠٤] . (٢) [٣٢ / السجدة / ١٣] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٨] (فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَنْفَعَهَا ءِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا

كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ)

« فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ » أى فهلا كانت قرية من القرى المهلكة آمنت قبل معاينة العذاب ، ولم تؤخر إيمانها إلى حين معاينته ، كما فعل فرعون . وفى هذا التخصيص معنى التوبيخ ، « فَنَنْفَعَهَا ءِيمَانُهَا » بأن يقبله الله منها ، ويكشف عنها بسببه العذاب ، « إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ » أى لكن قومه « لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ » أى إلى آجالهم .

هذا ، وقد جوز أن تكون الجملة فى معنى النفي ، لتضمن حرف التخصيص معنى ، فيكون الاستثناء متصلاً ، لأن المراد من القرى أهاليها ، كأنه قال : ما آمن أهل قرية من القرى العاصية فنفعهم إيمانهم إلا قوم يونس . ويؤيده قراءة الرفع على البدل .

روى أن يونس عليه السلام بعثه الله إلى نينوى ، من أرض الموصل ، وكانت مدينة عظيمة ، مسيرة ثلاثة أيام ، وهى قصبة بلاد الآشوريين ، بانيتها أشور أو نينوس بن نمرود ، وكلاهما من أولاد بنى نوح ، وكانت من أقدم مدن العالم وأشهرها . والمؤرخون الوثنيون يصفونها بأن ارتفاع أسوارها كان مائة قدم ، ودائرتها ستون ميلاً ، وهى محصنة بألف وخمسمائة قلعة ، طول الواحدة منهن مائتا قدم . قيل : أهلها كانوا يبلغون نحو ستمائة ألف . وخلفاء نمرود فى هذه المدينة دأبوا على تحسينها ، وتوسيع بنائها . وقويت شوكة الآشوريين فى تلك الأيام حتى خضع لهم أكثر ممالك آسيا ، فتجبروا وتمردوا . وكانوا كلما ظفروا فى غاراتهم يستغرقون فى النهب والمظالم ، فأرسل الله تعالى إليهم يونس عليه السلام ، واسمه فى العبرية (يونان) ، لينذرهم بأنهم لكفرهم واقترافهم الموبقات سيحل بهم العذاب بعد أربعين يوماً ، فتقلب بهم نينوى . ثم خرج يونس من بينهم فأحضر . فلما فقدوه ، وبلغ أميرهم قول يونس ،

تخوفوا نزول العذاب الذي أنذروا به ، فغذف الله في قلب أميرهم الإيمان والتوبة ، فنزل عن عرشه ، وألقى عنه حلته ، والتف بمسح ، وجلس على التراب ، وآمن بالله ، وآمن أهل نينوى كلهم ، وأمر أن ينادى بنينوى بالصيام ، فلا يذوق أحدٌ طعاماً ولا شراباً ، وألا ترى البهائم ولا تسقى ، وأن يلبس الناس المسوح ، صغيرهم وكبيرهم ، وأن يجتمعوا في صعيد واحد ، يجهرون بتسبيح الله ، والإنابة إليه ، والاستغفار له ، والتوبة عما أسلفوا من الظلم والجرم ، وأن يحضروا أطفالهم وذويعهم ومواشيهم معهم . ففعلوا ، وتضرعوا إلى الله ، واستكانوا لجلاله ، وسألوه أن يرفع عنهم العذاب الذي أنذرهم به نبيهم . فلما علم منهم الصدق من قلوبهم ، والتوبة والندامة على ما مضى منهم ، كشف عنهم العذاب ورحمهم . وسيأتي في (سورة الصافات) زيادة في نبا يونس عما هنا .

تنبيهات :

الأول - يروى بعض المفسرين هنا أن العذاب تدلى عليهم ، وغشيهم ، وجعل يدور على رؤوسهم ، وغامت السماء غيماً أسود ، ونحو هذا . وليس في التنزيل بيان لهذا ، ولا في صحيح السنة . وكأن من زعمه فهمه من لفظ (كشفنا) ، ولا صراحة فيه .

قال القرطبي : معنى (كشفنا عنهم عذاب الخزي) أى العذاب الذى وعدهم يونس أنه ينزل بهم لا أنهم رأوه حينئذ ، فلا خصوصية . أى كما روى عن قتادة أن هذا الكشف لم يكن لأمة من الأمم إلا لقوم يونس خاصة ، فإنه لم يقع بهم العذاب ، وإنما رأوا علامته .

الثانى - فى الآية إشارة إلى أنه لم يوجد قرية آمنت بأجمعها بنبيها المرسل إليها من سائر القرى ، إثر بعثته وإنذاره ، إلا قوم يونس . والبقية دأبهم التكذيب ، كلهم أو أكثرهم ، كما قال تعالى ^(١) : (وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ) .

وفي الحديث الصحيح^(١) : عرض على الأنبياء ، فجعل النبي يمر ومعه الفئام من الناس ، والنبي معه الرجل ، والنبي معه الرجلان ، والنبي ليس معه أحد) .

الثالث - أخرج ابن أبي حاتم عن علي رضي الله عنه . قال : إن الحذر ، لا يرد القدر ، وإن الدعاء يرد القدر ، وذلك في كتاب الله : (إِنْ لَّا قَوْمٌ يُّؤْنِسُ لِمَاءَ أَمَنُوا كَشَفْنَا . . .) الآية - .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال : الدعاء يرد القضاء ، وقد نزل من السماء . افرؤوا إن شئتم : (إِنْ لَّا قَوْمٌ يُّؤْنِسُ . . .) الآية - .
وأخرج ابن مردويه عن عائشة ، مرفوعاً ، في قوله تعالى : (إِنْ لَّا قَوْمٌ يُّؤْنِسُ لِمَاءَ أَمَنُوا) قال عليه السلام : دَعَوْا - كَذَا في الإكليل - .
وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٩] (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ، أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ)

« وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ » أي بحيث لا يشذ عنهم أحد « جَمِيعًا » أي مجتمعين على الإيمان ، لا يختلفون فيه . أي : لكنه لا يشاؤه لمخالفته للحكمة التي بنى عليها أساس التكوين والتشريع « أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ » أي على ما لم يشأ الله منهم « حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ » أي ليس ذلك عليك ، ولا إليك ، كقوله تعالى^(٢) : (لَيْسَ

(١) أخرجه البخاري في : ٩٦ - كتاب الطب ، ٤٢ - باب من لم يرق ، حديث ١٦٠٥

ومسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث ٣٧٤ ، عن ابن عباس (طبعنا) .

(٢) [٢ / البقرة / ٢٧٢] .

عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ . وفيه تسليمة له ﷺ ، وترويح لقلبه مما كان يحرص عليه من إيمانهم ، كقوله تعالى (١) : (لَمَّا لَكَ بِأَخِي نَفْسِكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ) (فَإِنَّ اللَّهَ بُضِلَ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدَى مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبُ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ) (٢) ولذا قال تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٠] (وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُوْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَيَجْعَلُ الرُّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ)

« وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُوْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ » أى بإرادته وتوقيفه ، فلا تجهد نفسك فى هداها ، فإنه إلى الله ، « وَيَجْعَلُ الرُّجْسَ » أى الخذلان « عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ » أى حججه وأدلته ، لما على قلوبهم من الطبع .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠١] (قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ)

« قُلِ انظُرُوا » أى تفكروا « مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى من الآيات الدالة على توحيده ، وكمال قدرته . قال السيوطى : فى الآية دليل على وجوب النظر والاجتهاد ، وترك التقليد فى الاعتقاد . « وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ » أى وما تنفع الآيات والرسل المنذرون ، أو الإنذارات ، عن لا يؤمن . و (ما) استفهامية أو نافية .

(١) [٢٦ / الشعراء / ٣] . (٢) [٣٥ / فاطر / ٨] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٢] (فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ ، قُلْ فَانْتَظِرُوا
إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ)

« فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ » أى وقائمه تعالى فيهم ،
كما يقال (أيام العرب) لوقائمهها ، من التعبير بالزمان عما وقع فيه ، كما يقال (المغرب) للصلاة
الواقعة فيه . « قُلْ » أى تهديداً لهم « فَانْتَظِرُوا » أى ما هو عاقبةكم ، « إِنِّي مَعَكُمْ
مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ » .

وقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٣] (ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا ، كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ)
« ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا » عطف على محذوف معلوم من السياق ، كأنه قيل : نهلك الأمم
ثم ننجى رسلنا المرسله إليهم « وَالَّذِينَ ءَامَنُوا ، كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ »
أى من كل شدة وعذاب . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٤] (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ
مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ ، وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)
« قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ
مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ » إنما أوثر الخطاب باسم الجنس -
أعنى الناس - مصدراً بحرف التنبيه ، تعميماً للتبليغ ، وإظهاراً لكمال العناية بشأن ما بلغ
إليهم . وعبر عما هم فيه من القطع بالشك ، للإيذان بأنه أقصى ما يمكن خطوره ،

وإلا فإن وضوح صحته ، وبرهان حقيقته أوضح من الشمس في رابعة النهار . وقدّم ترك عبادة الغير على عبادته تعالى ، إيذاناً بمخالفتهم من أول الأمر . وفي تخصيص التوفى بالذكر ، متعلّقاً بهم - ما لا يخفى من التهديد ، إذ لا شيء أشد عليهم من الموت . « وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » أى بأعلى مراتب التوحيد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٥] (وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

« وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا » أى مائلاً عن الأديان الباطلة .

لطيفتان :

الأولى - إقامة الوجه للدين كناية عن توجيه النفس بالسكينة إلى عبادته تعالى ، والإعراض عما سواه ، فإن من أراد أن ينظر إلى شيء نظر استقصاء ، يقيم وجهه فى مقابلته ، بحيث لا يلتفت يميناً ولا شمالاً ، إذ لو التفت بطلت المقابلة ، فلذا كنى به عن صرف العمل بالسكينة إلى الدين ، فالمراد بالوجه الذات . أى : اصرف ذاتك وكليتك للدين ، فاللام صلة .

الثانية - جملة (وَأَنْ أَقِمَّ) عطف على (أَنْ أَكُونَ) . وجاز حكاية صلة (أَنْ) بصيغة الأمر ، لأنه لا فرق فى صلة الموصول الحرفى بين الطلب وبين الخبر ، لأن القصد وصلها بما يتضمن معنى المصدر ، وهو يحصل بكل فعل . وقال بعضهم : إن هنا فعلاً مقدراً . أى وأوحى إلى أن أقم ، وأنه يجوز أن تكون (أَنْ) مصدرية ومفسرة ، لأن فى المقدر معنى القول دون حرفه ، ثم رجحه بأنه يزول فيه قلق العطف ، ويكون الخطاب فى وجهك فى محله . وردّ بأن الجملة المفسرة لا يجوز حذفها ، ولا قلق فى هذا العطف ، وأمر الخطاب سهل ، لأنه للملاحظة المحسّية ، والأمر المذكور معه - كذا فى (العناية) .

وقوله تعالى : « وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ » تهيمج وحث له على عبادة الله تعالى ، ومنع لغيره ، كما تقدم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٦] (وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ، فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ)

« وَلَا تَدْعُ » أى لا تعبد « مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ » أى لا فى الدنيا ولا فى الآخرة .
 إن عبده « وَلَا يَضُرُّكَ » إن لم تعبد « فَإِنْ فَعَلْتَ » أى عبده « فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ »
 أى الضارين لنفسك ، أو بوضع الأمر فى غير موضعه ^(١) (إِنَّ الشَّرَّكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٧] (وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ، وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ، يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)
 « وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ » وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ
 يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ » لما نهى تعالى عن عبادة الأوثان ،
 ووصفها بأنها لا تنفع ولا تضر ، بين أنه سبحانه هو الضار النافع ، الذى إن أصاب بضر لم
 يقدر على كشفه إلا هو وحده ، دون كل أحد ، فكيف بالجناد الذى لا شعور به . وكذلك
 إن أراد بخير ، لم يرد أحد ما يريد من فضله وإحسانه ، فكيف بالأوثان ؟ فهو الحقيقى ،
 إذا ، بأن توجه إليه العبادة دونها .

لطائف :

قيل : ذكر المس فى أحدهما ، والإرادة فى الثانى ، الإشارة إلى أنهما متلازمان ، فما يريد
 يصيبه ، وما يصيبه لا يكون إلا بإرادته . لكنه صرح فى كل منهما بأحد الأمرين ، إشارة
 إلى أن الخير مقصود بالذات له تعالى ، والضرر إنما وقع جزاء لهم على أعمالهم ، وليس مقصوداً
 بالذات ، فلذا لم يعبر فيه بالإرادة .

(١) [٣١ / لقمان / ١٣] .

وقيل : قصد الإيجاز ، فذكر في كل من الفقرتين المتقابلتين ما يدل على إرادة مثله في الأخرى ، لافتضاء المقام تأكيد كل من الترغيب والترهيب ، وهو نوع من البديع يسمى احتباكاً .

قال أبو السعود : على أنه قد صرح بالإصابة حيث قيل (يصيب به) إظهاراً لسكال العناية بجانب الخير ، كما ينبى عنه ترك الاستثناء فيه . أى : يصيب بفضل الواسع المنتظم لما أراذك به من الخير .

روى ابن عساكر عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : اطلبوا الخير دهركم كله ، وتعرضوا لنفحات ربكم ، فإن لله نفحات من رحمته ، يصيب بها من يشاء من عباده ، واسألوه أن يستر عوراتكم ، ويؤمن روعاتكم . ورواه عن أبي هريرة بمثله .
وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٨] (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ، فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ، وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ، وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ)

« قُلْ » أى لأولئك الكفرة الفجرة ، بعد ما بلغتهم دلائل التوحيد والنبوة والمعاد ، وأنذرهم ، « يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ » يعنى القرآن « فَمَنِ اهْتَدَىٰ » أى بالإيمان به ، « فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ » أى منعمة اهتدائه لها خاصة ، « وَمَنْ ضَلَّ » أى بالكفر به « فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا » أى فوبال الضلال عليها . والمعنى : لم يبق لكم بمجيب الحق عذر ، ولا على الله حجة ، فن اختار الهدى واتباع الحق ، فما تقع إلا نفسه ، ومن آثر الضلال ، فما ضر إلا نفسه . وفيه تنزيه ساحة الرسالة عن شائبة غرض عائد إليه ، عليه السلام ، من جلب تقع أو ضر ، كما يلوح به إسناد المجيء إلى الحق ، من غير إشعار بكون ذلك بواسطته - أفاده أبو السعود - .

« وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ » أى بحفيظ موكل إلى أمركم ، وإنما أنا بشير ونذير -

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٩] (وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ ، وَهُوَ خَيْرُ
الْحَاكِمِينَ)

« وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ » أى فى التبليغ ، وإن لم يهتدوا به ، « وَاصْبِرْ »
أى على أذاهم فى الدعوة ، « حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ » أى لك بالنصرة عليهم والغلبة « وَهُوَ
خَيْرُ الْحَاكِمِينَ » وقد حكم وشاء قتلهم وأسرهم يوم بدر ، وله الأمر من قبل ومن بعد .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١١ - سُورَةُ هُود

أضيفت إليه لتضمنها نبأه مع قومه ، وتميزاً لها ، وإن تضمنت أنباء غيره من الأنبياء عليهم السلام .

وقال المهيبي : سميت به لقوله ^(١) : (إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ، مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ، إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) الدال على توحيد الأفعال ، مع استقامته بإعطاء كل مستعد ما يستعد له ، المقتضية للأحكام والجزاء ، وهي من أعظم المقاصد . اهـ .
وهي مكية . واستثنى منها ثلاث آيات أنزلت بالمدينة فألحقت بها : (فَلَمَّا تَرَأَتْهُ) ^(٢) (أَفْمَنْ كَانَ عَلَى بَيْتَةٍ مِنْ رَبِّهِ) ^(٣) ، (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ) ^(٤) .
وآياتها مائة وثلاث وعشرون .

روى الحاكم عن أبي بكر رضى الله عنه قال : يا رسول الله ! قد شئت أن أقال : قد شيتني (هود) و (الواقعة) و (الرسائل) و (عمّ يتساءلون) و (إذا الشمس كورت) .
ورواه هو والترمذي عن ابن عباس .

وروى أيضاً عن أنس وسهل وعمران . وفي رواية : شيتني هود وأخواتها ذكر يوم القيامة وقصص الأمم . وفي رواية : شيتني هود وأخواتها . وما فعل بالأمم .

(١) [١١ / هود / ٥٦] . (٢) [١١ / هود / ١٢] .

(٣) [١١ / هود / ١٧] . (٤) [١١ / هود / ١١٤] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (الر ، كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ)

« الر » تقدم الكلام على مثلها في أول سورة البقرة فليتذكر .

« كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ » أى نظمت نظماً رصيناً محكماً معجزاً ، وأثبتت دأمة على حالها لا تبدل ولا تغير ولا تفسد ، محفوظة عن كل نقص وآفة « ثُمَّ فُصِّلَتْ » أى لأنواع من دلائل التوحيد والأحكام والمواعظ والقصص ، كما تفصل القلائد بالفرائد . أو جعلت فصولاً سورة سورة ، وآية آية ، أو فصل فيها ما يحتاج إليه العباد ، أى : بين ولخص . قيل : (ثم) هنا للتراخي في الحكم ، أى الرتبة أو التراخي بين الإخبارين ، لا للتراخي في الوقت ، لأن التفصيل والإحكام صفتان لشيء واحد ، لا تفك إحداها عن الأخرى ، فليس بينهما ترتب وتراخ . وهذا التكلف ، على أن (ثم) تقتضى الترتيب ، وقد خالف قوم في اقتضاها إياه ، كما حكاها في (المعنى) .

« مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ » أى إحكامها وتفصيلها من لدن حكيم بناها على علم وحكمة ، لا يمكن أحسن منها ، وأشد إحكاماً . وخبير بتفاصيلها على ما ينبغي في النظام الحكيم في تقديرها وتوقيتها وترتيبها - قاله القاشاني - .

قال الزمخشري : وفيه طباق حسن ، لأن المعنى أحكمها حكيم وفصلها ، أى بينها وشرحها خبير عالم بكيفيات الأمور .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢] (أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ، إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ)

« أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ » قال القاشاني : أى تنطق عليكم بلسان الحال والدلالة ، ألا

تشركوا بالله فى عبادته ، وخصوه بالعبادة .

وقال الزمخشري : « أَلَا » مفعول له ، أى لثلا . أو (أن) مفسرة ، لأن فى تفصيل

الآيات معنى القول ، كأنه قيل : قال لا تعبدوا إلا الله ، أو أمركم ألا تعبدوا إلا الله .

وقوله تعالى : « إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ » كلام على لسان الرسول ، أى إنى

أُنذركم ، من الحكيم الخبير ، عقاب الشرك وتبعته ، وأبشركم منه بثواب التوحيد وفائدته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُغْفِرْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى

وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ، وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ)

« وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ » أى من الشرك « ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ » أى بالطاعة . أو

المعنى : ثم اخلصوا التوبة واستقيموا عليها ، كقوله ^(١) : (ثُمَّ اسْتَغَامُوا) .

« يُغْفِرْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى » أى يطول نفعكم فى الدنيا بمنافع حسنة

مرضية ، من عيشة واسعة ، ونعم متتابعة ، إلى وقت وفاتكم ، كقوله ^(٢) (مَنْ عَمِلَ

صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً) .

« وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ » أى ويمط كل ذى فضل فى العمل الصالح فى الدنيا

أجره ، وثواب فضله فى الآخرة .

« وَإِن تَوَلَّوْا » أى تتولوا عن التوحيد والتوبة إليه « فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ

يَوْمٍ كَبِيرٍ » وهو يوم القيامة .

(١) [٤١ / فصلت / ٣٠] و [٤٦ / الأحقاف / ١٣] . (٢) [١٦ / النحل / ٩٧] .

قال القاشاني : (كبير) أى شاق عليكم ، وهو يوم الرجوع إلى الله ، القادر على كل شيء ، أى يوم ظهور عجزكم ، وعجز ما تعبدون ، بظهوره تعالى فى صفة قادريته ، فيقهركم بالعذاب ، ولذا قال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

[٥] (أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ ، أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ

يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)

« إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » .

ثم بين تعالى إعراضهم بجسمهم أيضاً ، إثر الإشارة إلى توليهم بقلوبهم ، بقوله : « أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ » أى يزورون عن الحق واستماعه بصدورهم « لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ » أى فى قلوبهم « وَمَا يُعْلِنُونَ » أى يجهرون بأفواههم « إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ » أى بما فى ضمائر القلوب . ونظير ما حكى هنا عن مشركى مكة من كراحتهم لاستماع كلامه تعالى ، ما قاله تعالى عن قوم نوح ^(١) (وَإِنِّي كَلِمًا دَعَوْتُهُمْ لَتَقْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا » . وما ذكرناه هو أظهر ما تحمل عليه الآية - والله أعلم - .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ،

كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)

« وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا » أى ماتميش به . وإنما جىء (على)

(١) [٧١ / نوح / ٧] .

اعتباراً لسبق الوعد به ، وتحقيقاً لوصوله إليها البتة ، بطريق التكفل الشبيه بالإيجاب « وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا » أى مسكنها فى الدنيا ، أو فى الصلْب « وَمُسْتَوْدَعَهَا » أى بمدالموت ، أو فى الرحم « كُلُّ » أى من الدواب ورزقها ومستقرها ومستودعها « فى كِتَابٍ مُبِينٍ » أى مسطور فى كتاب عنده تعالى ، مبين عن جميع ذلك .
ثم بين تعالى عظيم قدرته فى تكوينه وإبداعه بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ، وَلَئِنْ قُلْتِ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ)

« وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ » من الأحد إلى الجمعة « وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ » أى ما كان تحته قبل خلق السموات والأرض ، وارتفاعه فوقها ، إلا الماء . وفيه دلائل على أن العرش والماء كانا مخلوقين قبل السموات والأرض - كذا فى الكشف - .

وقال القاضى : أى لم يكن بينهما حائل ، لا أنه كان موضوعاً على متن الماء .

قال قتادة : ينبئنا تعالى فى هذه الآية كيف كان بدء خلقه قبل أن يخلق السموات

والأرض .

روى الإمام أحمد^(١) عن أبى رزين - واسمه لقيط بن عامر العقيلي - قال : قلت يارسول الله !

أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه ؟ قال : كان فى عماء ، ما تحته هواء ، وما فوقه هواء ،

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ١١ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) .

ثم خلق العرش بعد ذلك . ورواه الترمذى ^(١) وحسنه وقال : قال أحمد : يريد بالعماء أنه ليس معه شيء .

وقال البيهقي في كتاب (الأنباء والصفات) : (العماء) ممدود كما رأيت مقيدا كذلك ، ومعناه السحاب الرقيق ، أى فوق سحاب ، مدبراً له ، وعالياً عليه . كما قال تعالى ^(٢) : (ءَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ) . يعنى مَنْ فوق السماء . وقوله . (ما فوقه هواء) أى ما فوق السحاب هواء . وكذلك قوله (وما تحته هواء) أى ما تحت السحاب هواء .

وقد قيل : إن ذلك (العمى) مقصور ، بمعنى لا شيء ثابت ، لأنه مما عَمِيَ عن الخلق ، فكأنه قال في جوابه : كان قبل أن يخلق الخلق ، ولم يكن شيء غيره . و (ما) فيهما نافية . أى : ليس فوق العمى ، الذى هو لا شيء موجود ، هواء . ولا تحته هواء . لأنه إذا كان غير موجود ، فلا يثبت له هواء بوجه . انتهى ملخصاً .

وقال ابن الأنثير : الماء في اللغة : السحاب الرقيق ، وقيل الكثيف ، وقيل هو الضباب . وفي الحديث حذف ، أى أين كان عرش ربنا ؟ دل عليه قوله تعالى : (وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ) .

وحكى بعضهم أنه العمى المقصور . قال : وهو كل أمر لا يدركه الفطن . وقال أبو عبيد : إنما تأولنا هذا الحديث على كلام العرب المعقول عنهم ، وإلا فلا ندرى كيف كان ذلك العماء !

قال الأزهري : فنحن نؤمن به ولا نكثف صفته . وقوله تعالى : « لَيَبْلُوَنَّكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا » أى أخلصه ، متعلق بـ (خلق) أى : خلقهم لحكمة بالغة ، وهى أن يجعلهم مساكين لعباده ، وينعم عليهم بفنون النعم ،

(١) أخرجه الترمذى في : ٤٤ - كتاب التفسير ، ١١ سورة هود ، ١ - حدثنا أحمد

ابن منيع . (٢) [٦٧ / الملك / ١٦] .

فيعبده وحده ، ويتسابقوا في العمل الذي يرضيه . ولما كان الابتلاء والاختبار لمن تخفى عليه عاقبة الأمور ، قيل : إنه هنا تمثيل واستعارة ، فشبه معاملته تعالى عباده في خلق المنافع لهم ، وتكليفهم شكره ، وإثابتهم إن شكروا ، وعقوبتهم إن كفروا - بمعاملة المختبر مع المختبر ، ليعلم حاله وبجأزيه ، فاستعير له الابتلاء على سبيل التمثيل ، (ليعلمكم) موضع (ليعاملكم) . ويصح أن يكون مجازاً مرسلًا ، لتلازم العلم والاختبار . أى : خلق ذلك ليعلم ، أى . ليظهر تعلق علمه الأزلى بذلك .

قال القاشاني : جمل غاية خلق الأشياء ظهور أعمال الناس . أى : خلقناهم لنعلم العلم التفصيلي التابع للوجود الذي يترتب عليه الجزاء ، أبتكم أحسن عملا ، فإن علم الله قسمان : قسم يتقدم وجود الشيء في اللوح ، وقسم يتأخر وجوده في مظاهر الخلق . والبلاء الذي هو الاختبار هو هذا القسم - انتهى - .

ونحو هذه الآية قوله تعالى^(١) : (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ، ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا) . وقوله^(٢) : (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ * فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ) . وقوله سبحانه^(٣) : (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) .

وقوله تعالى « وَلَئِنْ قُلْتَ » أى لأهل مكة « إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ » أى مُحْيَوْنَ « مِنْ بَمَدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا » أى القول بالبعث ، أو القرآن المتضمن لذلك « إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ » أى مثله في الخديعة والبطلان .

(١) [٣٨ / ص / ٢٧] . (٢) [٢٣ / المؤمنون / ١١٥ و ١١٦] .

(٣) [٥١ / الذاريات / ٥٦] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨] (وَلَيْنَ آخَرُنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لِيَقُولُوا مَا يَحْبِسُهُ ، أَلَا يَوْمَ

يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)

« وَلَيْنَ آخَرُنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ » أى جماعة من الأوقات محصورة .

والعذاب هو عقاب الآخرة ، أو عذاب الدنيا بيدر ، أو هلاك المستهزين الذين ماتوا قبل

بدر « لِيَقُولُوا » أى استهزاء « مَا يَحْبِسُهُ » أى عنا . « أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا

عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ » أى دار وزل بهم « مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ » أى العذاب الذى

كانوا به يستعجلون .

لطيفة :

(الأمة) تستعمل في الكتاب والسنة في معان متعددة ، فإفراد بها الأمد ، كما هنا وقوله

في يوسف ^(١) : (وَأَدَّكَ بِعْدَ أُمَّةٍ) . والإمام المقتدى به ، كقوله ^(٢) : (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ

كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ) . والملة والدين كآية ^(٣) : (إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ) . والجماعة

كآية ^(٤) : (وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجِدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ) . وقوله

تعالى ^(٥) : (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ)

- أفاده ابن كثير - .

ثم أخبر سبحانه عن الإنسان ، وما فيه من الصفات الذميمة ، إلا من رحم الله من

عباده المؤمنين ، بقوله تعالى :

(١) [١٢ / يوسف / ٤٥] . (٢) [١٦ / النحل / ١٢٠] .

(٣) [٤٣ / الزخرف / ٢٢ و ٢٣] . (٤) [٢٨ / القصص / ٢٣] .

(٥) [١٦ / النحل / ٣٦] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (وَلَيْنِ أَدَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُوسٌ كَفُورٌ)
 « وَلَيْنِ أَدَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً » أى نعمة « ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُوسٌ » أى
 قنوط عن عودها ، قطوع رجاءه من فضله تعالى ، من غير صبر ولا تسليم لقضائه ، « كَفُورٌ »
 عظيم الكفران لما سلف له من القلوب فى نعمة الله ، كأنه لم ير خيراً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (وَلَيْنِ أَدَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي ، إِنَّهُ
 لَفَرِحٌ فَخُورٌ)

« وَلَيْنِ أَدَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي » أى المصائب
 التى ساءتني « إِنَّهُ لَفَرِحٌ » أى أشر بطر « فَخُورٌ » أى على الناس بما أذافه الله من نعمائه ،
 قد شغله الفرح والفخر عن الشكر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١] (إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ)
 « إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا » أى على الضراء ، إيماناً بالله ، واستسلاماً لقضائه « وَعَمِلُوا
 الصَّالِحَاتِ » أى فى الرخاء والشدة ، شكراً لآلائه ، سابقها ولاحقها « أُولَئِكَ لَهُمْ
 مَغْفِرَةٌ » أى لذنوبهم بقلك الشدة « وَأَجْرٌ كَبِيرٌ » أى على الصبر والأعمال الصالحة .

تنبيهه :

قال القاشانى قدس سره : ينبغى للإنسان أن يكون فى الفقر والغنى ، والشدة والرخاء ،
 والمرض والصحة ، واثقاً بالله ، متوكلاً عليه ، لا يحتجب عنه بوجود نعمة ، ولا بسميه

وتصرفه في الكسب ، ولا بقوته وقدرته في الطلب ولا بسائر الأسباب والوسائط ، لئلا يحصل اليأس عند فقدان تلك الأسباب ، والكفران والبطر والأثر عند وجودها ، فيبعد بها عن الله تعالى ، وينسأ فينسأ الله . بل يرى الإعطاء والمنع منه دون غيره . فإن أناه رحمة من جهة أو نعمة ، شكره أو لا برؤية ذلك منه . ونهمود المنعم في صورة النعمة ، وذلك بالقلب ، ثم بالجوارح باستعمالها في مرضيه وطاعته ، والقيام بحقوقه تعالى فيها ، ثم باللسان بالحمد والثناء متيقناً بأنه القادر على سلبها ، محافظاً عليها بشكرها ، مستزيداً بإياها ، اعتماداً على قوله تعالى^(١) : (أَلَيْسَ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ) .

قال أمير المؤمنين عليه السلام : إذا وصلت إليكم أطراف النعم ، فلا تنفروا أقصاها بقلة الشكر . ثم إن نزعها منه ، فليصبر ولا يتأسف عليها ، عالماً بأنه هو الذي نزع دون غيره ، لمصلحة تعود إليه ، فإن الرب تعالى كالوالد الشفيق في ربيته إياه ، بل أرف وأرحم ، فإن الوالد محجوب عما يلهه تعالى ، إذ لا يرى إلا عاجل مصالحه وظاهرها ، وهو العالم بالغيب والشهادة ، فيعلم ما فيه صلاحه عاجلاً وآجلاً ، راضياً بفعله ، راجياً إعادة أحسن ما نزع منها إليه ، إذ القاطن من رحمته بعيد منه ، لا يستوسع رحمته لضيق وعائه ، محجوب عن ربوبيته ، لا يرى عموم فيض رحمته ودوامه . ثم إذا أعادها لم يفرح بوجودها ، كما لم يحزن بفقدانها ، ولا يفخر بها على الناس ، فإن ذلك من الجهل ، وظهور النفس . وإلا لعلم أن ذلك ليس منه وله ، وبأن سبب يسوغ له نخر بما ليس له ومنه ؟ بل لله ، ومن الله .

وقوله تعالى : (إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا) استثناء من (الإنسان) أي هذا النوع يؤوس كفور ، فرح نخور ، في الحالين ، إلا الذين صبروا مع الله واقفين معه ، في حالة الضراء والنمأ . والشدة والرخاء ، كما قال عمر رضي الله عنه : الفقر والغنى مطيعان ، لا أبالي أيهما أمتطى . انتهى .

(١) [١٤ / إبراهيم / ٧] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢] (فَلَمَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ ، إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ ، وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

« فَلَمَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ » أى بتلاوته عليهم ، وتبليغه إليهم ، « أَنْ يَقُولُوا » أى مخافة أن يقولوا ، تعامياً عن تلك البراهين التى لا تنكاد تخفى صحتها على أحد ممن له أدنى بصيرة ، وتعادياً فى العناد على وجه الافتراح « لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ » أى هلاً أنزل عليه ما اقترحنا من الكنز والملائكة ، زعماً أن الرسول متبوع ، لا بد له من الإنفاق على أتباعه ، ولا يتأتى مع عدم سلطنته إلا بإبقاء الكنز عليه ، أو مجيء ملك معه يصدق برسالته ، فقال تعالى : « إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ » أى ليس عليك إلا الإنذار بما أوحى إليك ، غير مبال بما صدر منهم من الافتراح « وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ » أى فيحفظ ما يقولون ويجازيهم عليه ، فكل أمرك إليه ، وبلغ وحيه بقلب منشرح ، غير مبال بهم .

اطائف :

الأولى - قال القاشانى : لما لم يقبلوا كلامه ﷺ بالإرادة ، وأنكروا قوله بالاقتراحات الفاسدة ، وقابلوه بالعماد والاستهزاء ، ضاق صدورهم ، ولم ينبسط للكلام ، إذ الإرادة تجذب الكلام ، وقبول المستمع يزيد نشاط المتكلم ، ويوجب بسطه فيه ، وإذا لم يجد المتكلم محلاً قابلاً لم يتسهل له ، وبقي كروباً عنده ، فشجعه الله تعالى بذلك ، وهيج قوته ونشاطه بقوله : (إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ) ، فلا يخلو إنذارك من إحدى الفائدتين : إما رفع الحجاب بأن ينجع فيمن وفقه الله تعالى لذلك ، وإما إلزام الحجة لمن لم يوفق لذلك ، ثم كل الهداية إليهم .

الثانية - لا يخفى أن (لعل) للترجى ، وهو ، وإن اقتضى التوقع ، إلا أنه لا يلزم من توقع الشيء وقوعه ، ولا ترجح وقوعه ، لوجود ما يمنع منه . وتوقع مالا يقع منه ، المقصود تحريضه على تركه ، وتهيبج داعيته .

وقيل : (لعل) هنا للتبعيد لا للترجى ، فإنها تستعمل كذلك ، كما تقول العرب : لعلك تفعل كذا ، لمن لا يقدر عليه . فالمعنى : لا تترك .

وقيل : إنها للاستفهام الإنكارى كما فى الحديث ^(١) : لعلنا أمجلك .

وقيل : هى لتوقع الكفار . فكما تكون لتوقع المتكلم ، وهو الأصل ، لأن معانى الإنشآت قائمة به - تكون لتوقع المخاطب أو غيره ، ممن له ملابسة بمعناه كما هنا . فالمعنى : إنك بلغت الجهد فى تبليغهم أنهم يتوقعون منك ترك التبليغ لبعضه - كذا فى العناية - .

الثالثة - إنما عدل عن (ضيق) الصفة المشبهة إلى (ضائق) اسم الفاعل ، ليدل على أنه ضيق عارض ، غير ثابت ، لأن رسول الله ﷺ كان أفسح الناس صدرأ . وكذا كل صفة مشبهة إذا قصد بها الحدوث تحول إلى فاعل ، فيقولون فى سيد سائد وفى جواد جائد ، وفى سمين سامن . قال :

بمنزلة أمّا اللثيمُ فسَامِنٌ بها ، وكرامُ الناس بادٍ شحوبُها
وظاهر كلام أبى حيان أنه مقيس . وقيل إنه لمشابهة (تارك) . ومنه يعلم أن المشاكلة قد تكون حقيقة - كذا فى العناية - .

وقوله تعالى :

(١) أخرجه البخارى فى : ٤ - كتاب الوضوء ، ٣٤ - باب من لم ير الوضوء إلا من المحرجين ، حديث ١٤٤ - عن أبى سعيد الخدرى .

القول في تأويل قوله تعالى:

[١٣] (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

« أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ » أى ما يوحى إليك . وفى (أم) وجهان منقطعة مقدرة بـ (بل) والهمزة الإنكارية (أى : بل يقولون . ومتصلة والتقدير : أيكلفون بما أوحينا إليك ، وهو ما فى الإعجاز ، أم يقولون ليس من عند الله .

« قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا » أى للاستمانة « مَنْ اسْتَطَعْتُمْ » أى من الإنس والجن . وقوله : « مِنْ دُونِ اللَّهِ » متعلق بـ (ادعوا) ، أى متجاوزين الله تعالى « إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » أى فى أنى افتريته ، فأنتم عرب فصحاء مثلى ، لا سيما وقد زاولتم أساليب النظم والنثر والخطب .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤] (فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)

« فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ » أى بما لا يعلمه غيره من نظم معجز للخلق ، وإخبار بغيوب لا سبيل لهم إليها « وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ » أى واعلموا عند ذلك أن لا إله إلا الله ، وأن توحيده واجب ، والإشراك به ظلم عظيم ، « فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ » أى مبايعون بالإسلام ، منقادون لتوحيد الله ، وتصديق رسوله ، بعد هذه الحجة القاطعة ؟

لطائف :

الأولى - قيل : تُحَدِّثُوا أولا بعشر سور، فلما عجزوا تُحَدِّثُوا بسورة، وذهب البرد إلى أن الأمر بالعكس ، ووجهه بأن ما وقع أولا هو التحدى بسورة مثله فى البلاغة والاشتمال على ما اشتمل عليه من الإخبار عن المغييات والأحكام وأحواتها ، وهى الأنواع التسعة المنظومة فى قول بعضهم :

ألا إنما القرآنُ تسمعةُ أحرفٍ سأنبيكها فى بيتٍ شعرٍ بلاملٍ
حلال ، حرامٌ ، مُحْكَمٌ مُتَشَابِهٌ بِشِيرٍ نَذِيرٌ ، قِصَّةٌ ، عِظَةٌ ، مَثَلٌ

فلما عجزوا عن ذلك ، أمرهم بالإتيان بعشر سور مثله فى النظم ، وإن لم تشتمل على ما اشتمل عليه ، وبشهد له توصيفها بـ (مفتريات) .

وقيل : إن التحدى بسورة وقع بعد إقامة البرهان على التوحيد ، وإبطال الشرك ، فتمين أن يكون لإثبات النبوة بإظهار معجزة ، وهى السورة الفذة . والتحدى بعشر وقع بعد تعنتهم واستهزائهم ، واقتراحهم آيات غير القرآن ، لزعمهم أنه مفترى . فقامه يناسبه التكثير ، لأنه أمر مفترى عندهم ، فلا يعسر الإتيان بكثير مثله - كذا فى العناية - .

الثانية : ضمير (لكم) للنبي ﷺ ، وجمع للتعظيم ، كما فى قول من قال :

* وإن شئت حرمت النساء سواكم *

أوله والمؤمنين ، لأنهم أتباعه فى الأمر بالتحدى ، وفيه تنبيه لطيف على أن حقهم ألا ينفكوا عنه ، عليه الصلاة والسلام ، ويناصبوا معه لمعارضة المعارضين ، كما كانوا يفعلونه فى الجهاد . وإرشاد إلى أن ذلك مما يفيد الرسوخ فى الإيمان ، والطمانينة فى الإيقان ، ولذلك رتب عليه قوله عز وجل : (فاعلموا . . .) الخ . وجوز أن يكون الخطاب فى الكل للمشركين من جهة عليه السلام ، داخلات تحت الأمر بالتحدى ، والضمير فى (لم يستجيبوا) لـ (من استطعتم) أى : فإن لم يستجب لكم سائر من تجارون إليهم فى مهماتكم إلى

المعاونة ، فاعلموا أن ذلك خارج عن دائرة قدرة البشر ، وأنه منزل من خالق القوى والقُدَر -
كذا في أبي السعد - .

ثم بين تعالى وعيد من آثر الحياة الدنيا على الآخرة - وهم الكفار - بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥] (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ)

« مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ » أى نوصل إليهم جزاء أعمالهم فيها من الصحة والرزق .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦] (أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

« أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا » أى وحبط في الآخرة ما صنعوه ، أى لم يكن لهم ثواب عليه . وجوز تعلق الظرف بـ (صنعوا) والضمير الدنيا ، كما عاد عليه في قوله ^(١) : (نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا) ؛ « وَبَاطِلُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » أى كان عملهم في نفسه باطلا ، لأنه لم يعمل لغرض صحيح .

ونظير هذه الآية قوله تعالى ^(٢) : « مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا * وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَمِعْنَا لَهَا سَعِيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا * كَلَّا نُمِدُّ هُوْلَاءِ وَهُوَ لَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ

(١) [١١ / هود / ١٥] . (٢) [١٧ / الإسراء / ١٨ - ٢٠] .

وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا . وقوله تعالى^(١) : (مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ، وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ) .
لطيفة :

في إعراب « باطل » وجهان :

الأول - كونه خبراً مقدماً ، و (ما كانوا) مبتدأ مؤخرأ : و (ما) مصدرية أو موصولة ، والكلام من عطف الجمل .

والثاني - كونه عطفاً على الأخبار قبله أى : أولئك باطل ما كانوا يعملون . و (مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) فاعل بـ (باطل) ورجح هذا بقراءة زيد بن علي رضي الله عنهما : (وَبَطَلَ) ماضياً معطوفاً على (حَبِطَ) .

ثم أشار تعالى إلى صفة المؤمنين ، في مقابلة أولئك ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] (أَفَمَنْ كَانَ عَلَى يَمِينَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً ، أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ، فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ ، إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ)

« أَفَمَنْ كَانَ عَلَى يَمِينَةٍ مِّن رَّبِّهِ » أى برهان نير ، عظيم الشأن ، يدل على حقيقة ما ثبت عليه من الإسلام ، وهو القرآن « وَيَتْلُوهُ » أى يتبعه « شَاهِدٌ مِّنْهُ » أى من القرآن نفسه ، يشهد له بكونه من عند الله تعالى ، وهو إعجازه . وفسرت (البينة) أيضاً بالإسلام ، سماه بيعة لغاية ظهوره ، إذ هو دين الفطرة ، قبل تدنيسها برجس الوثنية و (الشاهد) بالقرآن ،

(١) [٤٢ / الشورى / ٢٠] .

فالضمير للرب تعالى . « وَمِنْ قَبْلِهِ » أى القرآن « كِتَابُ مُوسَى » وهو التوراة . أى :
ويقلو تلك البيئة من قبله كتاب موسى ، مقررًا لذلك أيضاً . وقوله تعالى : « إِمَامًا » أى
مقتدى به فى الدين ، « وَرَحْمَةً » أى نعمة عظيمة على المنزل إليهم ، تهديهم وتعلمهم
الشرائع . « أُولَئِكَ » أى من كان على بيئة « يُؤْمِنُونَ بِهِ » أى بالقرآن ، فلهم الجنة ،
« وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ » يعنى أهل مكة ، ومن ضامهم من المتحزبين على رسول
الله صلوات الله عليه ﴿ قَالَنَارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ » أى شك من القرآن أو من
الموعد « إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ » .
أى به . إما لقصور أنظارهم واختلال أفكارهم ، وإما لعنادهم واستكبارهم .

لطائف :

الأولى : (مَنْ) فى قوله تعالى : (أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ) مبتدأ حذف خبره ،
لإغناء الحال عن ذكره . وهذا سر حذف معادل الهمزة كثيراً . وتقديره : أفمن كان على
بيئة من ربه كأولئك الذين ذكرت أعمالهم ، وبين مصيرهم ومآلهم - كذا قال أبو السموذى .
وفى (شرح الكشاف) أن التقدير : أمن كان يريد الحياة الدنيا ، على أنها موصولة ،
فن كان على بيئة من ربه ، والخبر محذوف ، لدلالة الفاء . أى : يعقبونهم أو يقرّبونهم .
والاستفهام للإنكار فيفيد أنه لا تقارب بينهم ، فضلاً عن التماثل ، فلذلك صار أبلغ من
نحو قوله تعالى ^(١) : (أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا ، لَا يَسْتَوُونَ) .

الثانية : قرئ (كِتَابَ مُوسَى) بالنصب عطفاً على الضمير فى (يتلوه) أى يتلو القرآن
شاهد ممن كان على بيئة من ربه . يعنى من آمن من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام ،
وشهادتهم على أنه حق لا مفترى ، لما يجدونه مكتوباً عندهم ، و(يتلو) من التلاوة ، فتكون
الآية كقوله تعالى ^(٢) . (وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ) - والله أعلم - .

(١) [٣٢ / السجدة / ١٨] . (٢) [٤٦ / الأحقاف / ١٠] .

الثالثة - (الأحزاب) جمع حزب . والحزب جماعة الناس . ويطلق (الأحزاب) على من تألبوا على حرب رسول الله ﷺ ، وكذا كل نبي قبله . وهو إطلاق شرعي . وعليه حمل الآية ، لتكون السورة مكية . إلا أن اللفظ يتناوله ، وكل من شاكلهم من سائر الطوائف .

وفي صحيح مسلم^(١) عن سعيد بن جبير عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ؛ أن رسول الله ﷺ قال : والذي نفسي بيده ! لا يسمع بي أحد من هذه الأمة ، يهودي أو نصراني ، ثم لا يؤمن بي ، إلا دخل النار . قال سعيد : كنت لا أسمع بحديث من النبي ﷺ على وجهه ، إلا وجدت مصداقه في القرآن ، فبلغني هذا الحديث ، فجلت أقول : أين مصداقه في كتاب الله ؟ حتى وجدت هذه الآية (وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ) قال : الملل كلها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨] (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ، أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ، أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ) « وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا » كقوله للملائكة (بَنَاتُ اللَّهِ) ، وللأصنام (شُفَعَاءُ عِنْدَ اللَّهِ) « أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ » أي يساقون إليه سوق العبيد المقتربين على ملوكهم ، « وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ » من الملائكة والنبيين والجوارح : « هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ » تهويل عظيم مما يحيق بهم حينئذ ، لظلمهم بالكذب على الله . قيل : ولا يبعد أن تكون الآية للدلالة على أن القرآن ليس بمفتري ،

(١) أخرجه مسلم في ١ - كتاب الإيمان ، ٧٠ - باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس ، ونسخ الملل بملته ، حديث رقم ٢٤٠ (طبعنا) .

فإن من يعلم حال من يفترى على الله كيف يرتكبه ، كما مرّ في يونس في قوله تعالى ^(١) :
(وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩] (الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ)
« الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ » أى عن دينه القويم ، كل من يقدرّون على صده
« وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا » أى يطلّبونها معوجة بالكفر ، أو يصفونها لهم بالاعوجاج ، « وَهُمْ
بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ
أَوْلِيَاءَ . يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ ، مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ)
« أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ » أى يعجزونه تعالى أن يعاقبهم في الدنيا ،
« وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ » أى يعمونهم من عقابه ، « يُضَاعَفُ لَهُمُ
الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ » لتصاتهم عن الحق ، وبفضهم له ، « وَمَا كَانُوا
يُبْصِرُونَ » لتعميمهم عن آيات الله ، وإعراضهم غاية الإعراض ، كما قال الله ^(٢) : (وَقَالُوا
لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ) وقال تعالى ^(٣) : (الَّذِينَ كَفَرُوا
وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ذُنُوبُهُمْ عَذَابٌ أَلَدٌ . . .) الآية .

(١) [٢٠ / طه / ٦٩] . (٢) [٦٧ / الملك / ١٠] .

(٣) [١٦ / النحل / ٨٨] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢١] (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ)

« أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ » أى سعادتها وراحتها، أو بتسليمها لعبادة الأوثان وتركها ما خلقت له من عبادته تعالى ، وهذا الخسران فى النفس أعظم خسارة كما قيل :

إذا كان رأسُ المالِ عمرَكَ فاحترسْ عليه من الإنفاقِ فى غيرِ واجبٍ

« وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ » أى غاب عنهم الآلهة وشفاعتها ، ولم تُجِدْهم شيئاً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ)

« لَا جَرَمَ » أى حقاً ، أو لامحالة « أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ

الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

« إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ » أى خضعوا له وحده ، « أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ، هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ،

أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)

« مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ » أى الكفار والمؤمنين « كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ » مثل للكافر

« وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ » مثل للمؤمنين « هَلْ يَسْتَوِيَانِ » أى الفريقان « مَثَلًا » أى حالاً

وصفة ، « أَفَلَا تَذَكَّرُونَ » أى بضرب الأمثال وتدبرها .

ثم قص تعالى على نبيه ﷺ من أنباء الرسل ما يثبت فيه فؤاده ، ليتسلى بما يشاهده من معاناة الرسل قبله من أمهم ، ومقاساتهم الشدائد من جهتهم ، وليعلم قومه أن رسالته كرسالة من تقدمه ، وأن سنة الله فيهم معروفة ، كما قال تعالى ^(١) (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ، وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ) ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ)

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ » وكانت امتلأت الأرض من شركهم وشروهم « إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ » أى بأتى . وقرئ بالكسر . أى : فقال إني لكم نذير مبين ، أيقن لكم موجبات العذاب ، ووجه الخلاص منه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ، إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ)

« أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ » (الباء) مقدرة هنا للتعمية . و (لا) ناهية . أى أرسلناه متلبساً بالنهي عن عبادة غير الله . « إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ » أى إن عبادتم غيره « عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ » أى مؤلم في الدنيا والآخرة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا تَرَاكَ

اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّى الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ)

« فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ » أى السادة والكبراء ، « مَا تَرَاكَ إِلَّا

(١) [٣٥ / فاطر / ٢٤] .

بَشَرًا مِثْلَنَا » أى لست بملك ، ولكنك بشر ، فكيف أوحى إليك من دوننا .

قال القاشانى : أى فقال الأشراف المليئون بأمر الدنيا ، القادرون عليها ، الذين حجبوا بعقلهم ومعقولهم عن الحق : ما نراك إلا بشراً مثلنا ، لسكونهم ظاهريين ، واقفين على حد العقل المشوب بالوهم ، التحجير بالهوى ، الذى هو عقل المماش ، لا يرون لأحد طوراً وراء ما بلغوا إليه من العقل ، غير مطلعين على مراتب الاستعدادات والسمكالات ، طوراً بعد طور ، ورتبة فوق رتبة إلى ما لا يعلمه إلا الله ، فلم يشعروا بمقام الذبوة ومعناها .

« وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَأَيْنَا أَنْ نُرِيَهُمْ أَوْ نَرَاهُمْ أَوْ يُخْبِرُنَا سَ وَهَمٌّ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ » .

وقوله تعالى : « بَادِيَ الرَّأْيِ » أى بديهية الرأى ، لأنهم ضماف العقول ، عاجزون عن كسب المماش ، ونحن أصحاب فكر ونظر . قالوا ذلك لاحتجاجهم بعقلهم القاصر عن إدراك الحقيقة ، والفضيلة المنوية ، لقصر تصرفه على كسب المماش ، والوقوف على حده . وأما اتباع نوح عليه السلام ، فإنهم أصحاب همم بعيدة ، وعقول حائمة حول القدس ، غير ملتفتة إلى ما يلتفت غيرهم إليه ، فلذلك استنزلوا عقولهم واستحققروها .

تنبيه :

(بَادِى) قرأه أبو عمرو بالهمزة ، والباقون بالياء .

فأما الأول فعناه أول الرأى . بمعنى أنه صدر من غير روية وتأمل ، أول وهلة .
وأما الثانى فيحتمل أن أصله ما تقدم ، فقلبت الياء عن الهمزة تخفيفاً ، ويحتمل أنها أصلية من بدايبدو ، كملا يعلو . والمعنى : ظاهر الرأى دون باطنه . ولو تَوَمَّلَ لعرف باطنه ، وهوى المعنى كالأول . وعلى كليهما ، هو منصوب على الظرفية . والعامل فيه إما (نراك) أو (اتبعك)

قال الناصر : زعم هؤلاء أن يحجوا نوحاً بمن اتبعه من وجهين :

أحدهما - أن المتبعين أراءه ، ليسوا قدوة ولا أسوة .

والثانى - أنهم مع ذلك لم يترؤوا فى اتّباعه ، ولا أمعنوا الفكرة فى صحة ما جاء به ، وإنما بادروا إلى ذلك من غير فكرة ولا روية . وغرض هؤلاء ألا تقوم عليهم حجة بأن منهم من صدقه وآمن به - انتهى .

أى وكلا الوجهين يبرهنان على جهلهم وقصر عقلهم : أما الأول فلا خفاء فى أنه ليس بعارٍ على الحق رذالة من اتبعه ، بل اتّباعه هم الأشراف ، ولو كانوا فقراء ، والذين يأبونه هم الأدنون ، ولو كانوا أغنياء . وفى الغالب ، ما يتبع الحق ، إلا ضعفة الخلق ، كما يغلب على الكبراء مخالفته ، كما قال تعالى^(١) : (وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُّقْتَدُونَ) . ولما سأل^(٢) هرقل ، ملك الروم ، أباسفيان عن نعوت النبي ﷺ ، قال لهم فيما قال : أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ؟ فقال : بل ضعفاؤهم ! فقال هرقل : هم أتباع الرسل .

وأما الثانى : فإن البدار لا اعتناق الحق من أسمى الفضائل ، لأن الحق إذا وضح فلا يبقى للرأى ولا للفكر مجال ، ولا بد من اتّباعه حائثاً لكل ذى فطنة ، ولا يتردد إلا غيـّ أو عيـّ ولا أجلى مما يدعو إليه الرسل عليهم السلام .

وقوله تعالى : « وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ » خطاب لنوح وأتباعه « عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ » أى تقدّم يؤهلكم للنبوّة . واستحقاق المتابعة ، لأن الفضل محصور عندهم بالغنى والمال .

قال الزمخشري : كان الأشراف عندهم من له جاه ومال ، كما ترى أكثر المتسمين بالإسلام يمتقدون ذلك ، وبينون عليه إكرامهم وإهانتهم . ولقد زلّ عنهم أن التقدم فى الدنيا لا يقرب أحداً من الله ، وإنما يبعده . ولا يرفعه ، بل يضعه . فضلاً عن أن يجعله سبباً فى الاختيار للنبوّة ، والتأهيل لها . على أن الأنبياء عليهم السلام بُعثوا مرغبين فى طلب الآخرة ،

(١) [٤٣ / الزخرف / ٢٣] . (٢) انظر صحيح البخارى : ١ - كتاب بدء

الوحي ، ٦ حدثنا أبو الميمان الحسك بن نافع ، حديث رقم ٧ .

مصغرين لشأن الدنيا ، وشأن من أخلد إليها . فما أبعد حالهم عليهم السلام من الانصاف بما يبعد من الله ، والتشرف بما هو ضمة عند الله !
وقوله تعالى : « بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ » أى فيما تدعونه من الإصلاح وترتب السعادة والنجاة عليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمْوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ)

قَالَ « أى نوح » يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ « أى أخبرونى » « إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ » أى برهان « مِّن رَّبِّي وَءَاتَانِي رَحْمَةً » أى هداية خاصة كشفية « مِّنْ عِنْدِهِ » أى فوق طور العقل من العلوم الدنية ، ومقام النبوة « فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ » أى لاحتجابكم بالظاهر عن الباطن ، وبالخليقة عن الحقيقة « أَنُلْزِمُكُمْوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ » يعنى أنكرهكم على قبولها ، ونفسركم على الاهتداء بها ، وأنتم تكرهونها ، ولا تختارونها ، (وَلَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ) ^(١) ، فلاستفهام للإنكار ، أى لا تقدر على ذلك ، والذي فى وسعنا دعوتكم إلى الله ، لا أن نضطركم إليها ، فإن شئتم تلقيها فزكوا نفوسكم ، واركوا إنكاركم . وفى طى جوابه عليه السلام حث على تدبرها ، ورد عن الإعراض عنها ، بأسلوب فائق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ، إِن أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ ، وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا ، إِنَّهُمْ مُّلاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ)
« وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ » أى على تبليغ التوحيد « مَالًا ، إِن أَجْرِي إِلَّا عَلَى

(١) [٢ / البقرة / ٢٥٦] .

الله « قال القاشاني : أى الغرض عندكم من كل أمر ، محصورٌ في حصول المماش ، وأنا لا أطلب ذلك منكم ، فتنهبوا لغرضي ، وأنتم عقلاء بزعمتكم .

ثم لا بدّ أن لا وجه لكرهه دعوته ، إذ لا تنقصهم من دنياهم شيئاً ، فلم يبق إلا خسة أتباعه ، ولا ترتفع إلا بطردهم ، قال « وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا » أى لأنهم أهل القرية والمنزلة عند الله ، وطردهم قد يكون مانعاً لهم من الإيمان أو لأمثالهم . ولا يفعل ذلك إلا عدو لله مناوئٌ لأوليائه . ولو كان طردهم سبب إيمانكم ولم يرتدوا ، أخاف من طردهم شكائهم ، وهذا معنى قوله : « إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ » أى فيخاصمون طاردهم عنده . أو المعنى : إنهم يلاقونه ويفوزون بقربه ، فكيف أطردهم ؟

ثم أشار إلى أن خستهم ليست مانعة من الإيمان ، إذ لا تلحقهم ، بقوله : « وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ » أى فتخافون لحوق خستهم ، لمشاركتكم إياهم في الإيمان من جهلكم ؛ إذ الخسيس لا تترك مشاركته في كل شيء . أو تجهلون ما يصلح به المرء للقاء الله ، ولا تعرفون الله ولا لقاءه ، لذهاب عقولكم في الدنيا . أو تسفهون وتؤذون المؤمنين ، وتدعونهم أراذل . أو تجهلون أنهم خير منكم ، كما قال تعالى ^(١) : (وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ) ؟ ثم أشار إلى أن طردهم يستوجب عقابه تعالى بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ ، أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)

« وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ » أى : فإن أفادكم طردهم تمزكم ، فإنى أستوجب قهره بطردهم ، ومن يدفعه عنى ؟ وفيه إعلام بأن الطرد ظلم موجب لحلول السخط قطعاً ، وإنما لم يصرح به إشعاراً بأنه غنى عن البيان ، لا سيما وقد تقدم ما يلوح به

(١) [٦ / الأنعام / ٥٣] .

من كرامتهم بإيمانهم بالله واليوم الآخر . « أَفَلَا تَذَكَّرُونَ » تتمظنون فتنزعروا عما تقولون ؟

تنبيه :

قال بعضهم : ثمرة ذلك وجوب تعظيم المؤمن، وتحريم الاستخفاف به ، وإن كان فقيراً عادماً للجاء ، متملقاً بالحرف الوضيعة ، لأنه تعالى حكى كلام نوح وتجهيله للرؤساء ، لما طلبوا طرد من عدوه من الأراذل . وهى نظير قوله تعالى ^(١) : « وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ » .

ثم أشار إلى أنه عليه السلام بشر مثلهم ، أوتر بالوحى والرسالة فلا يدعى ما ليس له ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] (وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا ، اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ ، إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ)

« وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ » أى رزقه وامواله « وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ » أى أنا ادعى الفضل بالنبوة ، لا بالغنى وكثرة المال ، ولا بالاطلاع على الغيب ، ولا بالملكية ، حتى تنكروا فضلى بفقدان ذلك « وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ » أى تحتقرهم ، وهم الفقراء المؤمنون « لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا » أى فى الدنيا والآخرة ، لهوانهم عليه ، كما تقولون ؛ إذ الخير عندى ما عند الله ، لا المال « اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ » أى من الخير ، منى ومنكم ، وهو أعرف بقدرهم وخطرهم ، وما يعلم أحد قدر خيرهم لعظمه -

(١) [٦ / الأنعام / ٥٢] .

قاله القاشاني - وحل غيره هذا على تفويض مافى أنفسهم من الإيمان إلى علم الله إرشاداً إلى أن اللائق لكل أحد ألا يبت القول إلا فيما يعلمه يقيناً ، ويبنى أموره على الشواهد الظاهرة ، ولا يجازف فيما ليس فيه على بيينة ظاهرة . « إِنِّي إِذَا » أى إذا قلت ذلك « لِمَنْ الظَّالِمِينَ » أى لبخس حقهم ، وخط قدرهم ؛ فإن الإيمان الظاهر منهم ، رفع شأنهم ، فإذا ضموا إلى ذلك ، الإيمان القلبى ، كما هو الظاهر منهم ، فلهم جزاء الحسنى ، فمن قطع لهم بعدم نيل الخير ، بعد ما آمنوا ، كان ظالماً . وفيه تعريض بأنهم ظالمون فى ازدرائهم .

القول فى تاويل قوله تعالى :

[٣٢] (قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ)

« قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا » أى أطلته ، أو أتيت به بأنواعه ، « فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا » أى من العذاب « إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ » .

القول فى تاويل قوله تعالى :

[٣٣] (قَالَ إِنَّمَا يَا بُنَيَّ بِإِذْنِ اللَّهِ إِن شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ)

« قَالَ إِنَّمَا يَا بُنَيَّ بِإِذْنِ اللَّهِ إِن شَاءَ » يعنى أنه ليس موكولاً إلى ، وإنما يقولاه الله الذى كفرتم به « وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ » أى بالهرب أو بدفمه .

القول فى تاويل قوله تعالى :

[٣٤] (وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ ، هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

« وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ »

أى أى شىء يجديه إبلاغى ونصحى ، بدعوتكم إلى التوحيد والتحذير من العذاب، إن كان الله يريد إغواءكم ليدمركم «هُوَ رَبُّكُمْ» أى مالك أمركم «وَالَيْهِ تُرْجَمُونَ» أى بعد الموت فيجازيكم بأعمالكم . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ، قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَائِي وَأَنَا بِرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ) «أَمْ يَقُولُونَ» أى قوم نوح «افْتَرَاهُ» أى النصح ، فهو من نعمة نبأ نوح ، أو ضمير الجمع لكفار مكة، يعنون افتراء محمد صلوات الله عليه لنبا نوح ، جىء به معترضاً في تضاعيفه ، تحقيقاً له ، وتأكيذا لوقوعه ، وتشويقاً للسامعين إلى استماعه؛ إذ بقى منها الأهم وهو نتيجه . «قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَائِي» أى إنم كسب ذنبى «وَأَنَا بِرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ» .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَن ءَامَنَ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ)

«وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ» أى بعد مبالغته فى بذل الوسع فى النصح مع عدم نفعه إليهم «أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ» أى لا تحزن «بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ» أى من التكذيب والإيذاء فقد انتهى أمرهم، وحان وقت الانتقام منهم . وقيل : المعنى لا تبتئس ، أى لإهلاكهم شفقة عليهم ، لأنهم إنما يهلكون بما كانوا يفعلون من معاندتهم معك ، فليسوا محلا لشفتقتك ولا لرحمتنا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا، إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ) «وَاصْنَعِ الْفُلْكَ» أى للتخلص من عذابهم «بِأَعْيُنِنَا» أى بحفظنا وكلاءتنا ، كأن

معه من الله عز وجل حفاظاً وحراساً ، يكلاًونه بأعينهم من التعمدى من الكفرة ، ومن الزيف فى الصنعة « وَوَحِينَا » أى إليك ، كيف تصنعها وتعليمنا وإلهامنا . قيل : لم يكن قبله سفينة . « وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا » أى ولا تدعنى ، فى استدفاع العذاب عنهم ، بشفاعتك « إِنَّهُمْ مُّعْرِضُونَ » أى محكوم عليهم بالطوفان ، وقد وجب ذلك ، فلا سبيل إلى كفه . كقوله تعالى (١) « يَا إِبْرَاهِيمُ اَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبِينَ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ، قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ)

« وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ » حكاية حال ماضية لاستحضار صورتها العجيبة . وقيل : تقديره واخذ يصنع الفلك ، « وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ » أى هزئوا به ، بمعالجة السفينة « قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا » أى فى صنع الفلك « فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ » أى لجهلكم « كَمَا تَسْخَرُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ) « فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ » أى فى الدنيا فيجمله محلاً للسخرية « وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ » أى فى الآخرة ، بدوم معه الخزي . وقوله تعالى :

(١) [١١ / هود / ٧٦] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ

وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ، وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ)

« حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا » أى بإهلاك قومهم . و « حَتَّىٰ » غاية لقوله (وَيَصْنَعُ) وما بينهما حال من الضمير فيه ، و (سَخِرُوا مِنْهُ) جواب (كَلَّمَا) . « وَفَارَ التَّنُّورُ » أى وجه الأرض أو كل مفجر ماء ، أو محفل ماء الوادى ، أو عين ماء معروفة ، أو السكانون الذى يخبر فيه ، أو تنوير الفجر - أقوال حكاهم اللغويون والمفسرون - زاد بعضهم احتمال أن يكون هذا كناية عن اشتداد الأمر ، كما يقال : (حى الوطيس) والوطيس التنور ، وهو من فصيح الكلام وبليغه ، وعندى أنه أظهر الأوجه المذكورة وأرقها وأبدعها وأبلغها ، وإن حاول الرازى رده ، كأنه قيل : واشتد الأمر ، وقوى انهيار الماء ونبوعه . وهذا الإيجاز فى مجازة الرهيب ، قد بينته آيات أخر ، وهى ^(١) : (فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ...) الآيات - ومما يؤيده شموله لشدة الأمر من السماء والأرض ، فيطابق هذه الآيات . وأما غيره فمقصود على ناحية الأرض فقط . وجلى أن الأمر كان أعم - والله أعلم - .

« قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا » أى فى السفينة « مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ » أى صنفين من البهائم والطيور وما يبدب على وجه الأرض « اثْنَيْنِ » أى ذكرًا وأنثى .

قال أبو البقاء : يقرأ (كَلِّ) بالإضافة ، وفيه وجهان :

أحدهما - أن مفعول (احْمِلْ) (اثْنَيْنِ) و (مِنْ) حال .

والثانى - أن (مِنْ) زائدة ، والمفعول (كَلِّ) ، و (اثْنَيْنِ) توكيد . ويقرأ مِنْ

(٤) [٥٤ / القمر / ١٢ و ١١] .

كُلِّ (بالتنوين ، ذ (زَوْجَيْنِ) مفعول (اَحْمِلْ) ، و (اُثْنَيْنِ) توكيد له ، و (مِنْ) متعلقة بـ (اَحْمِلْ) أو حال . انتهى .

« وَأَهْلَكَ » أى من يتصل بك فى دينك وسيرتك من أقاربك ، « إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ » أى وجب عليه « الْقَوْلُ » أى بالإغراق بسبب ظلمه ، « وَمَنْ ءَامَنَ » أى احمله معك فيها . قال أبو السعود : وإفراد الأهل منهم للاستثناء المذكور ، وإيثار صيغة الإفراد فى (ءَامَنَ) محافظة على لفظ (مَنْ) للإذان بقلتهم ، كما أعرب عنه قوله ، عز قائلًا : « وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] (وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِيهَا وَمُرسَاها ، إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)

« وَقَالَ » أى نوح عليه السلام لمن معه من المؤمنين « ارْكَبُوا فِيهَا » أى السفينة « بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِيهَا وَمُرسَاها » قال الزمخشري : يجوز أن يكون كلاماً واحداً ، وكلامين . قال كلام الواحد أن يتصل (بِسْمِ اللَّهِ) بـ (ارْكَبُوا » حالاً من الواو ، بمعنى : اركبوا فيها مسمين الله ، أو قائلين بسم الله وقت إجرائها ، ووقت إرسائها ، إما لأن المجرى والمرسى للوقت ، وإما لأنهما مصدران ، كالإجراء والإرسال ، حذف منهما الوقت المضاف ، كقولهم : (خفوق النجم) و (مقدم الحاج) ويجوز أن يراد مكانا الإجراء والإرساء . وانتصابهما ، بما فى (بِسْمِ اللَّهِ) من معنى الفعل ، أو بما فيه من إرادة القول .

والكلامان : أن يكون (بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِيهَا وَمُرسَاها) جملة من مبتدأ وخبر مقتضبة ، أى : بسم الله إجرائها وإرساؤها يروى أنه كان إذا أراد أن تجرى قال : بسم الله ، فجرت . وإذا أراد أن ترسوا قال : بسم الله ، فرست . ويجوز أن يقحم الاسم ، كقوله ^(١) : ثم اسم السلام عليهما . ويراد : بالله إجرائها وإرساؤها ، أى بقدرته وأمره . ومعنى قولنا : (جملة

(١) تمام البيت :

إلى الحول ، ثم اسمُ السلامِ عليهما ومن يَبِكِ حَوْلًا كَامِلًا فَقَدِ اعْتَدَرَ
وقائله لبيد ، يخاطب ابنتيه .

مقتضبة) أن نوحاً عليه السلام أمرهم بالركوب ، ثم أخبرهم بأن مجراها ومرساها بذكر اسم الله أو بأمره وقدرته . ويحتمل أن يكون غير مقتضبة ، بأن تسكون في موضع الحال من ضمير (الفلك) كأنه قيل : اركبوا فيها مجرة ومرساة بسم الله ، بمعنى التقدير ، كقوله (١) : (فَأَدْخُلُوهَا خَالِدِينَ - انتهى - .

تنبيهات :

الأول - قرأ الإخوان - حمزة والكسائي وحفص - (مَجْرَاهَا) بفتح الميم ، والباقون بضمها . واتفق السبعة على ضم ميم (مرساها) . وقد قرأ ابن مسعود والثقفى (مَرَسَاهَا) بفتح الميم أيضاً . وقرأ بضم الميم وكسر الراء والسين وباء بعدها ، بلفظ اسم الفاعل . مجرورى المحل ، صفتين لله .

الثانى - ما وقع بعد الراء من الألفات المنقلبة عن الياء ، التى للتأنيث ، أو للإلحاق ، أماله حمزة والكسائي وأبو عمرو ، ووافقهم حفص فى إمالة (مَجْرَاهَا) هنا ، ولم يُعمل غيره .

الثالث - أخذ بعضهم من الوجه الأول فى (بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا) أعنى تقدير قائلين ، استحباب التسمية . وذكره تعالى عند ابتداء الجرى والإرساء . وهو مؤيد بقوله تعالى فى سورة المؤمنون (٢) : (فَلِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنزَلاً مُبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ) . وقوله تعالى (٣) : (وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ * لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا) . الآية - وجاءت السنة بالحث على ذلك ، والندب إليه أيضاً .

(١) [٣٩ / الزمر / ٧٣] . (٢) [٢٣ / المؤمنون / ٢٨ و ٢٩] .

(٣) [٤٣ / الزخرف / ١٢ ، ١٣] .

وقوله تعالى : « إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ » جملة مستأنفة ، بيان للموجب للإنجاء ، أى لولا مغفرته ورحمته لفرقتم وهلكتم مثل قومكم ، أو تمليل لـ (اَرْكَبُوا) لما فيه من الإشارة إلى النجاة ؛ فكأنه قيل : اركبوا لينجيكم الله .
وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ)

« وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ » متصل بمحذوف ، دل عليه (اَرْكَبُوا) ، أى فركبوا مسمين وهى تجرى ، وهم فيها . « فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ » وذلك أنه لما تفتحت أبواب السماء بالماء ، وتفتحت ينابيع الأرض تعاظمت المياه ، وعلت أكناف الأرض ، وارتفعت فوق الجبال الشاخبة بخمسة عشر ذراعاً ، وكان ما يرتفع من الماء عند اضطرابه من أمواجه كالجبال .
« وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ » أى فى متنحى عن أبيه « يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا » أى ادخل فى ديننا ، واصحبنا فى السفينة « وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ » أى فى الدين والانزال ، الهالكين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (قَالَ سَأَوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ، قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ ، وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ)

« قَالَ سَأَوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ » أى فلا أغرق « قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ » أى لا مانع اليوم من بلائه ، وهو الطوفان ، إلا الراحم وهو الله تعالى . أو لا عاصم إلا مكان من رحم ، وهم المؤمنون ، يعنى السفينة . أو لا عاصم ،

بمعنى لا ذا عصمة إلا من رحمه الله . أو (إلا) منقطعة ، أى لکن من رحمه فهو المعصوم . قال الناصر : الاحتمالات الممكنة أربعة : لا عاصم إلا راحم ، ولا معصوم إلا مرحوم ، ولا عاصم إلا مرحوم ، ولا معصوم إلا راحم . فالأولان استثناء من الجنس ، والآخران من غير الجنس . أى : فيكون منقطعاً . أى لکن المرحوم يعصم ، على الأول . ولكن الراحم يعصم من أراد ، على الثانى .

وزاد الزمخشريّ خامساً وهو : لا عاصم إلا مرحوم ، على أنه من الجنس ، بتأويل حذف المضاف ، تقديره : لا مكان عاصم إلا مكان مرحوم . والمراد بالنفي التعريض بعدم عصمة الجبل ، وبالمثبت التعريض بعصمة السفينة . والكل جائز وبعضها أقرب من بعض - انتهى - .

« وَحَالِ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ » أى صار حائلاً بين نوح وابنه ، أو بين ابنه والجبل ، لارتفاعه فوقه « فَكَانَ » أى ابنه مع كونه فوق الجبل « مِنَ الْمُغْرَقِينَ » أى الهالكين بالفرق . وفيه دلالة على هلاك سائر الكفرة على أبلغ وجه ، فكان ذلك أمراً مقرر الوقوع ، غير مفتقر إلى البيان . وفى إيراد (كان) دون (صار) مبالغة فى كونه منهم - أفاده أبو السعود - . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودَىٰ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

« وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودَىٰ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » إعلام بأنه لما غرق أهل الأرض ، ولم يبق ممن كفر بالله ديار ، أمر تعالى الأرض أن تبلع ماءها الذى نبع منها ، واجتمع عليها ، وأمر السماء أن تغلق عن المطر ، فنضب الماء ، وقضى أمر الله بأنحاء من نجا ، وبإهلاك من هلك .

ولما أخذت المياه تتنافص وتراجع إلى الأرض شيئاً فشيئاً ، وظهرت رؤس الجبال ، استقرت السفينة على الجودي ، وهو جبل بالجزيرة قرب الموصل .
 و (بُعْداً) مصدر منصوب بمقدر ، أى وبعدها بعداً . يقال : بعد بعداً إذا أرادوا البعد البعيد من حيث الهلاك والموت ونحو ذلك ، ولذلك اختص بدعاء السوء ك (جَدْعاً) و (تَمَسّاً) و (اللام) متعلقة بمحذوف ، أو للبيان ، أو متعلقة بـ (قيل) أى قيل لأجلهم هذا القول .
 والتعرض لوصف الظلم للإشعار بعلميته للهلاك ، ولتذكّر ما سبق من قوله : (وَلَا تَحْطُبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُفْرَقُونَ) .

تنبيه :

هذه الآية ، بلغت من أسرار الإعجاز غايتها ، وحوت من بدائع الفرائد نهايتها . وقد اهتم علماء البيان لإيضاح نخب من لطائفها . ومن أوسمهم مجالاً في مضمار معارفها ، الإمام السكاكي ، فقد أطال وأطاب في كتابه (المفتاح) وتلطف في التبيان بألطف من نسيم الصباح ، ونحن نورده بتمامه ، لنعطر الأبواب بعرف مبتدئه ومسك ختامه . قال عليه الرحمة في بحث (البلاغة والفصاحة) ، وتعريفه الأولى بأنها بلوغ المتكلم في تأدية المعاني حداً له اختصاص بتوفية خواص التراكيب حقها ، وإيراد أنواع التشبيه والمجاز والكناية على وجهها ، ثم تقسيمه الفصاحة إلى ما يرجع إلى المعنى ، وهو خلوص الكلام عن التعميد . وإلى اللفظ ، وهو كونه عربياً أصلياً ، جارياً على قوانين اللغة ، أدور على السنة الفصحاء ، أكثر في الاستعمال ، ما صورته :

وإذا قد وقفت على البلاغة ، وعثرت على الفصاحة المعنوية واللفظية ، فأنا أذكر على سبيل الأنموذج ، آية أكشف لك فيها ، عن وجوه البلاغة والفصاحتين ، ما عسى يسترها عنك . ثم إن ساعدك الذوق ، أدركت منها ما قد أدرك من تحدّوايها ، وهى قوله ، علت كلمته : (وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ . . . إلى . . . الظالمين) .

والنظر في هذه الآية من أربع جهات : من جهة علم البيان ، ومن جهة علم المعاني ، وهما مرجما البلاغة ، ومن جهة الفصاحة المعنوية ، ومن جهة الفصاحة اللفظية .

أما النظر فيها من جهة علم البيان ، وهو النظر فيما فيها من المجاز والاستمارة والكناية وما يتصل بها فنقول : إنه عز سلطانه ، لما أراد أن يبين معنى : أردنا أن نرُدَّ ما انفجر من الأرض إلى بطنها فارتد ، وأن تقطع طوفان السماء ، فانقطع ، وأن نفيض الماء النازل من السماء فغاض ، وأن تقضى أمر نوح ، وهو إنجازه ما كنا وعدنا من إغراق قومه فقضى ، وأن نسوى السفينة على الجودي فاستوت . وأبقينا الظلمة غرقى بنى السكلام على تشبيهه المراد ^(١) بالمأمور الذى لا يتأتى منه ، لسكال هيئته ، العصيان ، وتشبيهه تكوين المراد ^(٢) بالأمر الجزم النافذ فى تكوين المقصود ، تصويراً لاقتداره العظيم ، وأن السموات والأرض وهذه الأجرام العظام تابعة لإرادته ، إيجاداً وإعداماً ، ولشيئته فيها تغييراً وتبدلاً ، كأنها عقلاء مميزون ، قد عرفوه حق معرفته ، وأحاطوا علماً بوجوب الانقياد لأمره ، والإذعان لحكمه ، وتحتم بذل المجهود عليهم فى تحصيل مواده ، وتصوروا مزيد اقتداره ، فمظمت مهابته فى نفوسهم ، وضربت سرادقها فى أفنية ضمايرهم . فكما يلوح لهم إشارته كان المشار إليه مقدماً ، وكما يرد عليهم أمره كان المأمور به متمماً . لا تلقى لإشارته

(١) أى المراد منه . أعنى الذى أريد منه أن يتعلق به فعل ، وهو ههنا الأرض والسماء ، فحذف الجار وأوصل الفعل إلى الضمير فاستتر فيه . كما فى لفظ (المشترك) فإن أصله المشترك فيه . والمعنى أنه شبه الأرض والسماء بالمأمور الذى لا يتأتى منه ، لسكال خوفه من الأمر ، العصيان ، وهذا التشبيه هو المصحح للنداء ، كما سيأتى . ١٠ (سيد) قدس سره .

(٢) أراد بلفظ (المراد) هنا معناه الظاهر . أعنى ما أريد من المراد منه ، وهو الذى عبر عنه بالبلع والإفلاق . ولتخالف معنى (المراد) فى الموضعين أعاد الظاهر ، وهذا التشبيه الثانى مصحح لا يراد صيغة الأمر . ١٠ (سيد) .

بغير الإمضاء والالتقياد ، ولا لأمره بغير الإذعان والامتثال . ثم بنى على تشبيهه هذا^(١) نظم الكلام ، فقال جل وعلا : (وَقِيلَ) ، على سبيل المجاز - أى المرسل - عن الإرادة الواقع بسببها قول القائل . وجعل قرينة المجاز الخطاب للجهاد وهو : يا أرض ويا سماء ! ثم قال كما ترى : يا أرض ويا سماء ، مخاطباً لهما على سبيل الاستعارة للشبه المذكور . ثم استعار لغفور^(٢) الماء في الأرض البلع ، الذى هو أعمال الجاذبة في المطعوم ، للشبه بينهما ، وهو الذهاب إلى مقرّ خفيّ . ثم استعار الماء للغذاء ، استعارة بالكناية ، تشبيهاً له بالغذاء ، لتقوى الأرض بالماء في الإنبات للزروع والأشجار ، تقوى الآكل بالطعام . وجعل قرينة الاستعارة لفظة (ابْلَغِي) لكونها موضوعة للاستعمال في الغذاء دون الماء . ثم أمر على سبيل الاستعارة للشبه المقدم^(٣) ذكره ، وخاطب في الأمر ترشيحاً لاستعارة النداء . ثم قال : (مَاءَكِ) بإضافة الماء إلى الأرض على سبيل المجاز ، تشبيهاً لانصال الماء بالأرض ، بانصال الملك بالمالك . واختار ضمير الخطاب لأجل الترشيح . ثم اختار لاحتباس المطر الإفلاع الذى هو ترك الفاعل الفعل للشبه بينهما في عدم ما كان . ثم أمر على سبيل الاستعارة ، وخاطب في الأمر قائلاً : (أَقْلَمِي) ، لئلا ما تقدم في (ابْلَغِي) . ثم قال : (وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودَى وَقِيلَ بُعْدًا) ، فلم يصرح بمن غاض الماء ، ولا بمن قضى الأمر ، وسوى السفينة . وقال : (بُعْدًا) ، كما لم يصرح بقائل : يا أرض ويا سماء في صدر الآية ، سلوكاً في كل واحد من ذلك سبيل الكناية ، أن^(٤) تلك الأمور العظام لا تقاى إلا من ذى قدرة

(١) يعنى التشبيهين المتقدمين .

(٢) قوله : (ثم استعار لغفور الماء في الأرض البلع) ، جملة في الكشف مستعاراً للكشف ، لدلالته على جذب الأرض ما عليها ، كالبلع بالنسبة إلى الحيوان ، ولأن الكشف فعل الأرض ، والغور فعل الماء . وهذا من دقائق الزخشرى عليه الرحمة .

(٣) يعنى الثانى وهو تشبيه تكوين المراد بالأمر الجزم .

(٤) بيان لسبيل الكناية أو تعليل لـ (سلوكا) بتقدير اللام .

لا يُكِنِّتُهُ . فَهَارَ لَا يَفَالِبُ . فَلَا مَجَالَ لَذَهَابِ الْوَهْمِ إِلَى أَنْ يَكُونَ غَيْرَهُ - جَلَّتْ عِظَمَتُهُ -
قَائِلٌ يَا أَرْضُ وَيَا سَمَاءُ ، وَلَا غَائِضٌ مِثْلُ مَا غَائِضُ ، وَلَا قَاضِيٌ مِثْلُ ذَلِكَ الْأَمْرِ الْهَائِلِ ،
وَأَنْ تَكُونَ تَسْوِيَةً السَّفِينَةِ وَإِقْرَارَهَا ، بِتَسْوِيَةِ غَيْرِهِ وَإِقْرَارِهِ . ثُمَّ خَتَمَ الْكَلَامَ بِالْتَّمْرِيزِ ^(١) ،
تَنْبِيْهًا لِسَالِكِي مَسْلِكِهِمْ فِي تَكْذِيبِ الرِّسْلِ ، ظَالِمًا لِأَنْفُسِهِمْ لَا غَيْرَ ، خَتَمَ إِظْهَارِ ، لِمَكَانِ
السَّخَطِ ، وَلِجَمْعِ اسْتِحْقَاقِهِمْ إِيَّاهُ ، وَأَنْ قِيَامَةَ الطُّوفَانِ ، وَتِلْكَ الصُّورَةُ الْهَائِلَةُ ، مَا كَانَتْ
إِلَّا لَظْمُهُمْ ^(٢) .

وَأَمَّا النَّظَرُ فِيهَا مِنْ حَيْثُ عِلْمُ الْمَعْنَى ، وَهُوَ النَّظَرُ فِي فَائِدَةِ كُلِّ كَلِمَةٍ مِنْهَا ، وَجِهَةٌ كُلُّ تَقْدِيمٍ
وَتَأْخِيرٍ فِيهَا يَبِينُ جَلْمَهَا ، فَذَلِكَ أَنَّهُ اخْتِيرَ (يَا) دُونَ سَائِرِ أَخَوَاتِهَا ، لِكُونِهَا أَكْثَرَ
فِي الِاسْتِمْعَالِ ، وَأَنَّهَا دَالَّةٌ عَلَى بَعْدِ الْمُنَادَى الَّذِي يَسْتَدْعِيهِ مَقَامُ إِظْهَارِ الْعِظَمَةِ ، وَإِبْدَاءِ شَأْنِ
الْعِزَّةِ وَالْجَبْرُوتِ ، وَهُوَ تَبْعِيدُ الْمُنَادَى الْمُؤَذَّنِ بِالتَّهَانِ بِهِ ، وَلَمْ يَقُلْ : يَا أَرْضُ ! بِالْكَسْرِ
لِإِمْدَادِ التَّهَانِ ^(٣) ، وَلَمْ يَقُلْ : يَا أَيَّتُهَا الْأَرْضُ ! لِقَصْدِ الْإِخْتِصَارِ مَعَ الْإِحْتِرَازِ عَمَّا فِي (أَيَّتُهَا)
مِنْ تَسْكَفِ التَّنْبِيْهِ غَيْرِ الْمُنَاسِبِ بِالْمَقَامِ . وَاخْتِيرَ لَفْظَ (الْأَرْضُ) دُونَ سَائِرِ أَسْمَائِهَا ، لِكُونِهِ
أَخْفَ وَأَدْوَرَ ^(٤) . وَاخْتِيرَ لَفْظَ السَّمَاءِ ^(٥) لِمِثْلِ مَا تَقَدَّمَ فِي الْأَرْضِ ، مَعَ قَصْدِ الْمَطَابَقَةِ ^(٦) .
وَاخْتِيرَ لَفْظَ (ابْلَغِي) عَلَى (ابْتَلِغِي) لِكُونِهِ أَخْصَرَ ، وَلِجِيءِ خَطِّ التَّجَانُسِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ (أَقْلَمِي)
أَوْفَرُ . وَقِيلَ : (مَاءُكَ) بِالْإِفْرَادِ دُونَ الْجَمْعِ ، لِمَا كَانَ فِي الْجَمْعِ مِنْ صُورَةِ الِاسْتِكْثَارِ التَّأْنِي عَنْهَا

(١) أَيْ التَّمْرِيزُ بِدَعَاءِ الْهَلَاكِ عَلَى قَوْمِ نُوحٍ . هـ .

(٢) أَيْ كَمَا يَشْعُرُ بِهِ تَعْلِيْقُ الْحَكْمِ بِوَصْفِ يَنَاسِبِهِ . هـ .

(٣) أَيْ لِأَنَّ إِضَافَةَ الْأَرْضِ إِلَى نَفْسِهِ تَقْتَضِي تَشْرِيفًا لِلْأَرْضِ ، وَتَكْرِيْمًا لَهَا ، فَتَرَكَهَا

إِمْدَادًا لِلتَّهَانِ . هـ . (سِيد) . (٤) أَيْ فِي الِاسْتِمْعَالِ مِنَ الْغَبَرَاءِ وَالْمَقَلَّةِ . هـ . (سِيد) .

(٥) أَيْ مِنَ الْخَضِرَاءِ وَالْمِظَلَّةِ . هـ .

(٦) لِأَنَّهَا بِهَذَا الِاسْمِ أَشْهَرُ مُقَابَلَةً لِلْأَرْضِ . هـ . (سِيد) .

مقام إظهار الكبرياء والجبروت ، وهو الوجه في أفراد (الأرض) و (السماء) . وإنما لم يقل : (ابلعي) بدون المفعول ، أن لا يستلزم تركه ما ليس بمراد من تعميم الابتلاع للجبال والفتل والبهار وساكنت الماء بأسرهن ، نظراً إلى مقام ورود الأمر ، الذي هو مقام عظمة وكبرياء . ثم إذا بين المراد اختصر الكلام مع (أَقْلَعِي) احترازاً عن الحشو المستغنى عنه ، وهو - أى الاختصار - الوجه في أن لم يقل : قيل يا أرض ابلعي ماءك فبلعت ، ويا سماء أقلمي فأقلمت . واختير (غيض) على (غيض) المشدد لكونه أخصر ، وقيل (الماء) ، دون أن يقال : ماء طوفان السماء . وكذا الأمر دون أن يقال : أمر نوح ، وهو إنجاز ما كان الله وعد نوحاً من إهلاك قومه ، لقصد الاختصار والاستغناء بحرف التعريف عن ذلك . ولم يقل : سويت على الجودى ، بمعنى أقرت ، على نحو : (قيل) و (غيض) و (قضى) في البناء للمفعول ، اعتباراً^(١) لبناء الفعل للفاعل مع السفينة في قوله (وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ) مع قصد الاختصار في اللفظ . ثم قيل : (بُعْدًا لِلْقَوْمِ) ، دون أن يقال : ليبعد القوم ، طلباً للتأكيد^(٢) مع الاختصار ، وهو نزول (بُعْدًا) وحده ، منزلة ليبعدوا بعداً ، مع فائدة أخرى : وهى استعمال اللام مع (بُعْدًا) الدال على معنى أن البعد حق لهم . ثم أطلق الظلم ليتناول كل نوع ، حتى يدخل فيه ظلمهم أنفسهم ، لزيادة التنبيه على فظاعة سوء اختيارهم في تكذيب الرسل . هذا من حيث النظر إلى تركيب الكلام .

وأما من حيث النظر إلى ترتيب الجمل : فذاك أنه قد قدم النداء على الأمر فقيل : (يَا أَرْضُ اْبْلَعِي ، وَيَا سَمَاءُ أَقْلَعِي !) دون أن يقال : ابلعي يا أرض ، وأقلمي يا سماء ، جرياً على مقتضى اللزم فيمن كان ما موراً حقيقة ، من تقديم التنبيه ، ليكن الأمر الوارد دعيه في نفس المنادى ، قصداً بذلك

(١) أى اعتبار أكون الفعل المقابل للاستقرار ، أعنى الجريان ، منسوباً إلى السفينة على

صيغة المبني للفاعل . اهـ (سيد) .

(٢) أى لتأكيد الفعل .

لمعنى الترشيح^(١). ثم قدم أمر الأرض على أمر السماء ، وابتدئ به لابتداء الطوفان منها^(٢) ، وبزولها لذلك فى القصة منزلة الأصل ، والأصل بالتقديم أولى ، ثم أتبعها قوله : (وغيض الماء) لاتصاله بقصة الماء ، وأخذه بحجزتها . ألا ترى أصل الكلام (قيل يا أرض ابلعى ماءك ، فبلعت ماءها ، وبأسماء أقلمى عن إرسال الماء ، فأقلعت عن إرساله ، وغيض الماء النازل من السماء ، ففاض) ثم أتبعه ما هو مقصود من القصة وهو قوله : (وَفُضِيَ الْأَمْرُ) ، أى أنجز الموعد من إهلاك الكفرة ، وإنجاء نوح ومن معه فى السفينة ، ثم أتبعه حديث السفينة ، وهو قوله (وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ)^(٣) . ثم ختمت القصة بما ختمت^(٤) . هذا كله نظر فى الآية من جانبى البلاغة^(٥) .

وأما النظر فيها من جانب الفصاحة المعنوية ، فهى كما ترى نظم للمعانى لطيف ، وتأدية لها ملخصة مبينة ، لا تعقيد يثر الفكر فى طلب المراد ، ولا التواء يُشيك الطريق إلى المرتاد ، بل إذا جربت نفسك عند استماعها ، وجدت ألفاظها تسابق معانيها ، ومعانيها تسابق ألفاظها . فما من لفظة فى تركيب الآية ونظمها تسبق إلى أذنك ، إلا ومعناها أسبق إلى قلبك .

وأما النظر فيها من جانب الفصاحة اللفظية : فالألفاظ على ما نرى عربية ، مستعملة جارية على قوانين اللغة ، سليمة من التنافر ، بعيدة عن البشاعة ، عذبة على العذبات^(٦) ، سلسلة على الأسلات^(٧) ، كلٌّ منها كالماء فى السلاسة ، وكالعسل فى الحلاوة ، وكالنسيم

- (١) أى ترشيح المكنية فى الأرض والسماء ، حيث شبهتا بالمأمور ، ثم سلك معهما الطريقة التى تسلك معه . انتهى (سيد) .
- (٢) أى من الأرض ، حيث فارتنورها . انتهى .
- (٣) أى لتأخره عنه فى الوجود . انتهى . (٤) أى بالتعريض الذى سبق تحقيقه . انتهى .
- (٥) أى علم المعانى الباحث عن خواص التراكيب ، وعلم البيان الكاشف عن أنواع التشبيه والمجاز والكناية . انتهى (سيد) .
- (٦) جمع عذبة بالتحريك : طرف اللسان .
- (٧) جمع أسلة : المستدق من اللسان . انتهى .

في الرقة . والله در شأن التزويل ! لا يتأمل العالم آية من آياته ، إلا أدرك لطائف لانسع الحصر ولا تظان الآية مقصورة على ماذ كرت ، فلعل ماز كرت أكثر مما ذكرت ، لأن المقصود لم يكن إلا مجرد الإرشاد السكيفية اجتناء ثمرات علمي المعاني والبيان ، وأن لا علم في باب التفسير (بعد علم الأصول) أقرأ منهما على المرء لمراد الله تعالى من كلامه ، ولا أعون على تعاطي تأويل مشتبهاته ، ولا أنفع في درك لطائف نكته وأساره ، ولا أكشف للقناع عن وجه إعجازه ، وهو الذي يوفي كلام رب العزة من البلاغة حقه ، ويصون له في مظان التأويل ماء ورونقه؛ وَلَكُمْ من آية من آيات القرآن، تراها قد ضيقت حقها، واستلبت ماءها ورونقها، إن وقعت إلى من ليسوا من أهل هذا العلم ، فأخذوا بها في مأخذ مردودة ، وحلوا على محامل غير مقصودة ، وهم لا يدرون ، ولا يدرون أنهم لا يدرون ، فتلك الآي من مأخذهم في عويل ، ومن محاملهم على ويل طويل ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا - انتهى كلام السكاكي - .

وقد تصدى أبو حيان أيضاً في تفسيره المسمى بـ(النهر) لللطائفها ، وساق أحدًا وعشرين نوعاً من البديع . وألف السيد محمد بن إسماعيل الأمير رسالة فيها سماها (النهر المورد في تفسير آية هود) أورد تلك الأنواع البديعية أيضاً ، وهي : المناسبة ، والمطابقة ، والمجاز ، والاستعارة ، والإشارة ، والتمثيل ، والإرداف ، والتعليل ، وصحة التقسيم ، والاحتباس ، والإيضاح ، والمساواة ، وحسن النسق ، والإيجاز ، والتسليم ، والتهذيب ، وحسن البيان ، والتمكين ، والتجنيس ، والمقابلة ، والذم ، والوصف .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (وَنَادَىٰ نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِن أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ)

« وَنَادَىٰ نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِن أَهْلِي » إعلام بأن نوحاً حملته شفقة الأبوة ، وتمطف الرحم والقربة ، على طلب نجاته ، لشدة تعلقه به ، واهتمامه بأمره . وقد راعى مع ذلك أدب الحضرة ، وحسن السؤال فقال : « وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ » ، ولم يقل : لا تخلف وعذك بإنجاء أهلي ، وإنما قال ذلك لفهمه من الأهل ذوى القربة الصورية ، والرحم النسبية ، وغفل ، لفرط التأسف على ابنه ، عن استثنائه تعالى بقوله : (إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ) ، ولم يتحقق أن ابنه هو الذى سبق عليه القول ، فاستعطف ربه بالاسترحام ، وعرض بقوله : « وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ » إلى أن العالم العادل والحكيم لا يخلف وعده .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ، إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ)

« قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ » أى الموعود بإنجاؤهم ، بل من المستثنين لكفرهم ، أو ليس منهم أصلاً ، لأن مدار الأهلية هو القربة الدينية ، ولا علاقة بين المؤمن والكافر . قال القاشانى : أى أن أهلك فى الحقيقة هو الذى بينك وبينه القربة الدينية ، واللحمة المعنوية ، والاتصال الحقيقى لا الصورى . كما قال أمير المؤمنين على رضى الله عنه : ألا وإن ولى محمد ، من أطاع الله ، وإن بمدت لحته . ألا وإن عدو محمد ، من عصى الله ، وإن قربت لحته .

« إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ » بين انتفاء كونه من أهله بأنه غير صالح ، تنبيهاً على أن أهله

هم الصالحاء ، أهل دينه وشريعته ، وإنه لتماديه في الفساد والفسق ، كأن نفسه عمل غير صالح ، وتلويحاً بأن سبب النجاة ليس إلا الصلاح ، لا قرابته منك بحسب الصورة ، فمن لا صلاح له ، لا نجاة له . وهذا سر إشار (غَيْرُ صَالِحٍ) على (عمل فاسد) .

وقد قرأ يعقوب والكسائي (عَمِلَ) بلفظ الماضي ، والباقون بلفظ المصدر ، يجعله نفس العمل ، مبالغةً ، كما بينا .

« فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ » أى لا تلتمس منى ملتصقاً أو التماساً لا تعلم أصواب هو أم غير صواب ؟ حتى تقف على كنهه . قالوا : والنهى إنما هو عن سؤال ما لا حاجة له إليه أصلاً ، إما لأنه لا يهيم ، أو لأنه قامت القرائن على حاله ، كما هنا ، لا عن السؤال للاسترشاد .

« إِنِّي أَعْظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ » أى أنهاك أن تكون منهم بسؤالك إياى ما لم تعلم . وقد تنبه ، عليه السلام ، عند ذلك التأديب الإلهي ، والعتاب الرباني ، وتموذب قوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ)

« قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ، وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي » أى ما فرط منى « وَتَرْحَمْنِي » أى بالوقوف على ما تحب وترضى « أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ » أى الذين خسروا أنفسهم ، بالاحتجاج عن علمك وحكمتك .

تنبيه :

ظاهر التنزيل أن ابته المذكور اصلبه . ويروى عن الحسن ومجاهد ومحمد بن جعفر الباقر أنه كان ابن امراته ، ربيبته . وأيده بعضهم بقراءة على : (ونادى نوح ابنها) - والله أعلم - . ثم أنبا تعالى عما قيل لنوح ، بعد أن أرسى السفينة على الجودى ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّنْ مَّعَكَ
وَأُمَمٌ سَخِمَ عَنْهُمْ نُحْمٌ يَّمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ)

« قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ » أى انزل من السفينة « بِسَلَامٍ مِنَّا » أى سلامة « وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّنْ مَّعَكَ » أى فى السفينة على دينك وطريقتك إلى آخر الزمان « وَأُمَمٌ » أى ومنهم أمم « سَخِمَ عَنْهُمْ نُحْمٌ » أى فى الحياة الدنيا لاحتجاجهم بها « يَّمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ » أى فى الدنيا ، أو فى الآخرة ، أو فيهما .

لطيفة :

ذهب العلماء ، فى الطوفان ، مذاهب شتى . فالأكثر على أنه عمّ الأرض بأسرها ، ومن ذاهب إلى أنه لم يعم إلا الأرض المأهولة وقتئذ بالبشر ، ومن جأح إلى أنه لم يعمها كلها ولم يهلك البشر كلهم . ولكل فريق حجج يدعم بها مذهبه :

قال تقي الدين المقرئى فى (الخطط) : إن جميع أهل الشرائع ، أتباع الأنبياء ، من المسلمين واليهود والنصارى قد أجمعوا على أن نوحا هو الأب الثانى للبشر ، وأن العقب من آدم عليه السلام انحصر فيه ، ومنه ذرأ الله جميع أولاد آدم ، فليس أحد من بنى آدم إلا وهو من أولاد نوح ، وخالفت القبط والمجوس وأهل الهند والصين ذلك ، فأنكروا الطوفان . وزعم بعضهم أن الطوفان إنما حدث فى إقليم بابل وما وراءه من البلاد الغربية فقط ، وأن أولاد (كيومرت) الذى هو عندهم (الإنسان الأول) ، كانوا بالبلاد الشرقية من بابل ، فلم يصل الطوفان إليهم ، ولا إلى الهند والصين . والحق ما عليه أهل الشرائع ، وأن نوحا عليه السلام ، لما أنجاه الله ومن معه بالسفينة ، نزل بهم ، وهم ثمانون رجلا سوى أولاده ، فماتوا بعد ذلك ، ولم يعقبوا ، وصار العقب من نوح فى أولاده الثلاثة . وبؤيد هذا قول الله تعالى عن نوح ^(١) : (وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ) اه .

(١) [٣٧ / الصفات / ٧٧] .

ونحوه في السكامل لابن الأثير .

وقال ابن خلدون : اتفقوا على أن الطوفان الذي كان في زمن نوح وبدعوته ، ذهب بممران الأرض أجمع ، بما كان من خراب المعمور ، وهلاك الذين ركبوا معه في السفينة ، ولم يعقبوا ، فصار أهل الأرض كلها من نسله ، وعاد أباً ثانياً للخليقة - انتهى - .

قال بعضهم (في تقرير عموم الطوفان ، مبرهنًا عليه) إن مياه الطوفان قد تركت آثاراً عجيبة في طبقات الأرض الظاهرة ، فيشاهد في أماكن رواسب بحرية ممتزجة بالأصداف ، حتى في قمم الجبال ، ويرى في السهول والمفاوز بقايا حيوانية ونباتية مختلطة بمواد بحرية ، بعضها ظاهر على سطحها ، وبعضها مدفون على مقربة منه . واكتشف في الكهوف عظام حيوانية متخالفة الطباع ، بعيدة الانتماء ، معها بقايا آلات صناعية ، وآثار بشرية ، مما يثبت أن طوفاناً قادها إلى ذاك المكان ، وجمعها قسراً فأباده ، فتغلغلت بين طبقات الطين فتحجرت ، وظلت شهادة على ما كان ، بأمر الخالق تعالى - انتهى - .

وقد سئل مفتي مصر الإمام الشيخ محمد عبده عن تحقيق عموم الطوفان ، وعموم رسالة نوح ، فأجاب بما صورته :

أما القرآن الكريم فلم يرد فيه نص قاطع على عموم الطوفان ، ولا عموم رسالة نوح عليه السلام ، وما ورد من الأحاديث ، على فرض صحة سند ، فهو آحاد لا يوجب اليقين . والمطلوب في تقرير مثل هذه الحقائق هو اليقين لا الظن ، إذا عدّ اعتقادها من عقائد الدين . وأما المؤرخ ، ومريد الاطلاع ، فله أن يحصل من الظن ما ترجحه عنده ثقته بالراوى أو المؤرخ ، أو صاحب الراى . وما يذكره المؤرخون والمفسرون في هذه المسألة لا يخرج عن حد الثقة بالرواية ، أو عدم الثقة بها ، ولا يتخذ دليلاً قطعياً على معتقد ديني . أما مسألة عموم الطوفان في نفسها ، فهي موضوع نزاع بين أهل الأديان ، وأهل النظر في طبقات الأرض . وموضوع خلاف بين مؤرخي الأمم : فأهل الكتاب ، وعلماء الأمة الإسلامية على أن الطوفان كان

عاماً لكل الأرض ، ووافقهم على ذلك كثير من أهل النظر ، واحتجوا على رأيهم بوجود بعض الأصداف والأسماك المتحجرة في أعالي الجبال ، لأن هذه الأشياء مما لا يتكوّن إلا في البحر ، فظهورها في رؤوس الجبال دليل على أن الماء صعد إليها مرة من المرات ، ولن يكون ذلك حتى يكون قد عمّ الأرض . ويزعم غالب أهل النظر من المتأخرين أن الطوفان لم يكن عاماً ، ولهم على ذلك شواهد يطول شرحها . غير أنه لا يجوز لشخص مسلم أن ينكر قضية أن الطوفان كان عاماً ، لجرد حكايات عن أهل الصين ، أو لجرد احتمال التأويل في آيات الكتاب العزيز . بل على كل من يمتدّد بالدين ، ألا يفتي شيئاً مما يدل عليه ظاهر الآيات والأحاديث التي صحّ سندها ، وينصرف عنها إلى التأويل ، إلا بدليل عقليّ يقطع بأن الظاهر غير مراد ، والوصول إلى ذلك في مثل هذه المسألة يحتاج إلى بحث طويل ، وعناء شديد ، وعلم غزير في طبقات الأرض ، وما تحتمل عليه ، وذلك يتوقف على علوم شتى ، عقلية وعقلية . ومن هدى برأيه بدون علم يقينيّ ، فهو مجازف ، ولا يسمع له قول ، ولا يسمح له ببحث جهالاته ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

واسقطهم بعضهم أن الطوفان كان عاماً ، إذ لم يكن العمران قائماً إلا بقوم نوح ، فكان عاماً لهم ، وإن كان من جهة خاصّة بهم ، إذ ليس ثمّ غيرهم ، قال :

هبط آدم إلى الأرض ، وهو ليس بأمة إذا مضت عليها قرون ولدت أمتا ، بل هو واحد تمضى عليه السفن ، بل القرون ، ونحوّ عشيرته لا يكاد يكون إلا كيتقلص الظل قليلاً قليلاً . من آدم إلى نوح ثمانية آباء ، فإن كان ثمانية آباء يعطون من الذرية أضغافاً وآلافاً ، حتى يطؤوا وجه الأرض بالأقدام ، وينشروا العمران في تلك الأيام ، فتلك قضية من أعظم ما يذكره التاريخ أعجوبة للعالمين ؟ أما تلك الجبال التي وجدت فوقها عظام الأسماك ، فإن كانت مما وصل إليه الطوفان ، من المكان الخاص الذي سبق به البيان ، فلا برهان . وإن كانت في غير ذلك المكان ، فإن لم يكن وضعها إنسان ، كما وجدها إنسان ، كان نقل الجوارح

والسكواسر لتلك العظام ، إلى تلك الجبال مما يسوغه الإمكان . بهذا وبغيره مما لا يغيب عن الأنفهام ، تعلم أن الطوفان خاص عام : خاص بمكان ، عام سائر المكان - والله أعلم ^(١) - .
وقوله تعالى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا ، فَاصْبِرْ ، إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ)

« تِلْكَ » إشارة إلى قصة نوح عليه السلام « مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا » أى الإيحاء إليك ، والإخبار بها . وفى ذكركم تنبيه على أنه لم يعلمها ؛ إذ لم يخاطب غيرهم ، وأنهم مع كثرتهم لم يسمعوها ، فكيف بواحد منهم ؟! « فَاصْبِرْ » أى على تبليغ الرسالة ، وأذى قومك ، كما صبر نوح . وتوقع فى العاقبة لك ، ولن كذبك ، نحو ما قبض لنوح ولقومه - كذا فى الكشف - « إِنَّ الْعَاقِبَةَ » أى فى الدنيا بالنصر والظفر ، وفى الآخرة بالنعيم الأبدى ، « لِلْمُتَّقِينَ » أى عن الشرك والمعاصى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ، قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ، إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ)

« وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا » عطف على قوله (نوحاً) . أى : وأرسلنا إلى عاد . و (أخاهم) بمعنى (واحداً) منهم كما يقولون : (يا أخا العرب) ! « قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ »
(١) ترك المؤلف رحمه الله بعد هذا البحث فراغاً قدره ثلاث صفحات وثلاث الصفحات ، مما يدل على أنه كان يريد توسعاً فى دراسته ، وتعمقاً فى تحقيقه .

أى وحده ، « مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنَّ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ » أى باتخاذ الأوثان شركاء ، وجعلها شفعاء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ، إِنَّ أَجْرِي إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

« يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنَّ أَجْرِي إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي » إنما خاطب كل رسول به قومه ، إزاحة للتهمة ، وتمحيصاً للنصيحة ، فإنها لا تنجح ما دامت مشوبة بالمطامع . « أَفَلَا تَعْقِلُونَ » أى تفكرون ، إذ تردون نصيحة من لا يسألكم أجراً ، ولا شيء أنفى للتهمة من ذلك ، أو تدبرون الصواب من الخطأ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ)

« وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ » أى من الوقوف مع الهوى بالشرك « ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ » أى من عبادة غيره ، بالتوجه إلى التوحيد « يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا » أى كثير الدّر ، أى الأمطار . منصوب على الحال من (السماء) . ولم يؤث ، مع أنه من مؤث ، إمالان المراد بالسماء السحاب أو المطر ، فذكر على المعنى ، أو (مفعال) للمبالغة ، يستوى فيه المذكر والمؤنث ، كصبور ، أو الهاء حذفت من (مفعال) على طريق النسب - أفاده السمين - « وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ » أى مضمومة إليها أو معها . أى شدة إلى شدتكم بالقوة البدنية ، أو بالمال أو البنين . وإنما استألمهم إلى الإيمان ، ورغبهم فيه ، بكثرة المطر ، وزيادة القوة ، لأن القوم كانوا أصحاب زروع وبساتين ، حراساً على التقوى بما ذكر ، لثراء ما لهم ،

وترهيب أعدائهم، وقد كانوا مثلاً في القوة، كما قالوا^(١): «(مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً)» وَلَا تَقُولُوا «أَيُّ تَعْرِضُوا عَمَّا أَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ «مُجْرِمِينَ» أَيُّ مُصْرَبِينَ عَلَى إِجْرَامِكُمْ وَأَنَا مَعَكُمْ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ)

« قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ » أي بحجة تدل على صحة دعواك ، وذلك لقصور فهمهم ، وعي بصيرتهم عن إدراك البرهان ، لمكان الغشوات الطبيعية ، وإذا لم يدركوه أنكروه بالضرورة « وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا » أي عبادتها « عَنْ قَوْلِكَ » حال من ضمير (تاركي) أي تركا صادرا عن قولك . أو (عن) للتعامل ، كهي في قوله^(٢) (إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ) أي لأجلها ، فتتعلق (بتاركي) . والأول أبلغ ، لدلالته على كونه علة فاعلية ، ولا يفيد (الباء واللام) . وهذا كقولهم في الأعراف^(٣) (أَجِئْتَنَا لِنُعْبِدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا) .

« وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ » أي مصدقين . إفناط له من الإجابة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (إِنْ تَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ، قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ)

[٥٥] (مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ)

« إِنْ تَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ » أي مسك « بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ » أي بجنون ، لسببك

(١) [٤١ / فصلت / ١٥] . (٢) [٩ / التوبة / ١١٤] .

(٣) [٧ / الأعراف / ٧٠] .

إياها ، وصدق عنها ، وعداوتك لها ، مكافأة لك منها على سوء فعلك ، بسوء الجزاء ، ومن ثم تشكلم بما تشكلم .

قال الزمخشري : دلت أجوبتهم المتقدمة على أنهم كانوا جفاة ، غلاظ الأكباد ، لا يبالون بالبهت ، ولا يلتفتون إلى النصيح ، ولا تلين شكيمتهم للرشد . وهذا الأخير دالٌّ على جهل مفرط ، وبله متناه ، حيث اعتقدوا في حجارة أنها تنقصر وتنقسم .

« قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ » أى على « وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيٌّ مِمَّا تَشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ » قال الزمخشري : من أعظم الآيات أن يواجه ، بهذا الكلام ، رجل واحد أمة عطاشاً إلى إراقة دمه يرمونه عن قوس واحدة ، وذلك لثقتة بربه ، وأنه يعصمه منهم ، فلا تنشب فيه مخالبتهم ، ونحو ذلك قال نوح عليه السلام لقومه ^(١) : (ثُمَّ أَقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ) أكد براءته من آلهتهم وشركهم ووثقها بما جرت به عادة الناس من توثيقهم الأمور بشهادة الله ، وشهادة العباد ، فيقول الرجل : الله شهيد على أنى لا أفعل كذا ، ويقول لقومه : كونوا شهداء على أنى لا أفعله . ولما جاهر بالبراءة مما يعبدون ، أمرهم بالاحتشاد والتعاون في إيصال السكيد إليه ، عليه السلام ، دون إمهال بقواه : « فَسَكِيدُونِي جَمِيعاً » أى أنتم وآلهتكم « ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ » معنى إن صح ما لو حتم به ، من كون آلهتكم لها تأثير في ضرر ، فكونوا معها فيه ، وباشروه أعجل ما تفعلون دون إمهال .

قال أبو السعود : فالفاء لتفريع الأمر على زعمهم في قدرة آلهتهم على ما قالوا ، وعلى البراءة كليهما ، وهذا من أعظم المعجزات ، فإنه عليه الصلاة والسلام كان رجلاً مفرداً بين الجم الغفير ، والجمع الكثير ، من عتاة عاد ، الغلاظ الشداد . وقد خاطبهم بما خاطبهم ، وحقهم وآلهتهم ، وهيجهم على مباشرة مبادئ المضادة والمضارة ، وحثهم على التصدى لأسباب المعازة والمعاراة ، فلم يقدروا على مباشرة شيء مما كلفوه وظهر عجزهم عن ذلك ظهوراً بيناً . كيف لا ، وقد التجأ إلى ركن منيع رفيع ، حيث قال :

(١) [١٠ / يونس / ٧١] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ، مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ،
إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

« إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ » أى فلا تصلون إلى بسوء ، لتوكل على الله
« مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا » أى مالك لها ، قادر عليها ، يصرفها كيف شاء .
قال القاشانى : بين وجوب التوكل على الله ، وكونه حصناً حصيناً ، أولاً بأن ربوبيته
شاملة لكل أحد ، ومن رب يدبر أمر المربوب ويحفظه ، فلا حاجة له إلى كلاءة غيره
وحفظه . ثم بأن كل ذى نفس تحت قهره وسلطانه ، أسير فى يد تصرفه ومملكته وقدرته ،
عاجز عن الفعل والقوة والتأثير فى غيره ، لا حراك به بنفسه ، كالميت فلا حاجة إلى الاحتراز
منه - انتهى - .

والناصية : مثبت الشعر من مقدم الرأس ، وتطلق على الشعر النابت فيها أيضاً ، تسمية
للحال باسم المحل . يقال : نصوت الرجل : أخذت بناصيته .
وفى العناية : وقولهم : ناصيته بيده ، أى منقاد له . والأخذ بالناصية عبارة عن القدرة
والتسلط ، مجازاً أو كناية .

وقوله تعالى : « إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » تعليل لما يدل عليه التوكل ، من عدم
قدرتهم على إضراره . أى هو على طريق الحق والعدل فى ملكه ، فلا يسلطكم على ،
إذ لا يضيع عنده معتصم به ، ولا يفوته ظالم .

قال فى (المنايا) : هو تمثيل واستمارة ، لأنه مطلع على أمور العباد ، مجاز لهم بالثواب
والعقاب ، كاف لمن اعتصم ، كمن وقف على الجادة فحفظها ، ودفع ضرر السابلة بها .

وهو كقوله ^(١) : (إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ) والافتقار على إضافة الرب إلى نفسه ، إما بطريق الاكتفاء ، لظهور المراد ، وإما للإشارة إلى أن اللطف والإعانة مخصوصة به ، دونهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ ، وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا ، إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ)

« فَإِنْ تَوَلَّوْا » أى تمولوا ، بحذف إحدى التاءين « فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ » أى فقامت الحجة عليكم « وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ » استئناف بالوعيد لهم . أى : فيهلكهم ، ويحىء بقوم آخرين يخلفونكم في دياركم وأموالكم « وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا » أى بتوليكم ، لاستحالة ما عليه ، بل تضرون أنفسكم . أو بذهابكم وهلاككم لا ينقص من ملكه شىء . « إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ » أى رقيب عليه ، مهيمن ، فلا تخفى عليه أعمالكم ، فيجازيكم بحسبها . أو حافظ حامكم مستقول على كل شىء ، فلا يمكن أن يضربه شىء .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ)

« وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا » أى عذابنا ، أو أمرنا بالعذاب ، وهو الريح العقيم « نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ » . وقد بين في غير آية ، منها قوله ^(٢) : (وَأَمَّا عَادُ فَاهْلَكُوهَا فِي رِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ) .

(١) [٨٩ / الفجر / ١٤] . (٢) [٦٩ / الحاقة / ٧٦] .

فإن قلت : ما معنى تكرير التنجية ؟ فالجواب : لا تكرير فيه ، لأن الأول إخبار بأن نجاتهم برحمة الله وفضله ، والثاني بيان ما نجوا منه ، وأنه أمر شديد عظيم لا سهل ، فهو للامتنان عليهم ، وتحريض لهم على الإيمان . أو الأول إنجاء من عذاب الدنيا ، والثاني من عذاب الآخرة ، تعريضاً بأن المهلكين كما عذبوا في الدنيا بالسموم ، فهم معذبون في الآخرة بالمعذاب الغليظ . ويرجح الأول بملاءمته لمقتضى المقام .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (وَتِلْكَ عَادٌ ، جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ)

« وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ » تأنيث اسم الإشارة ، باعتبار القبيلة . وصيغة البعيد لتحقيرهم ، أو لتزليلهم منزلة البعيد ، لعدمهم . وإذا كانت الإشارة لمصارعهم ، فهي للبعيد المحسوس . وتعمد الجحود بالباء حملاً له على الكفر ، لأنه المراد . أو بتضمينه معناه ، كما أن (كفر) جرى مجرى (جحد) . فتعمد بنفسه في قوله ^(١) : (كَفَرُوا رَبَّهُمْ) . وقيل : (كفر) كـ (شكر) يتعمد بنفسه وبالحرف . وظاهر كلام القاموس : أن (جحد) كذلك .

والعنى : كفروا بالله ، وأنكروا آياته التي في الأنفس والآفاق الدالة على وحدانيته . وجمع (الرسل) ، مع أنه لم يرسل إليهم غير هود عليه الصلاة والسلام ، تفضيلاً لحالهم ، وإظهاراً لسكال كفرهم وعنادهم ، ببيان أن عصيانهم له ، عليه الصلاة والسلام ، عصيان لجميع الرسل السابقين واللاحقين ، لاتفاق كلمتهم على التوحيد ^(٢) (لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ) - كذا في (العناية) وأبي السعود - .

(١) [١١ / هود / ٦٠] . (٢) [٢ / البقرة / ١٣٦] .

« وَاتَّبِعُوا » أى أطاعوا فى الشرك « أَمَرَ كُلَّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ » لا يستدل بدليل ، ولا يقبله من غيره . يريد رؤساءهم وكبراءهم ، ودعاتهم إلى تكذيب الرسل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ، أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ، أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ)

« وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ » أى جعلت تابعة لهم فى الدارين ، أى لازمة .

قال أبو السعود : والتعبير عن ذلك بالتبعية للمبالغة ، فكأنها لا تفارقهم ، وإن ذهبوا كل مذهب ، بل تدور معهم ، حيثما داروا . ولوقوعه فى حجة اتباعهم رؤساءهم . يعنى : أنهم لما اتبعوهم اتبعوا ذلك جزاءً وفاقاً .

« أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ » إذ عبدوا غيره - وتقدم تعدية (كفر) - « أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ » دعا عليهم بالهلاك أو باللعنة ، وفيه من الإشعار بالسخط عليهم ، والمقت ، ما لا يخفى فظاعته . وتكرير حرف التنبيه ، وإعادة (عاد) للمبالغة فى تهويل حالهم ، والحث على الاعتبار بنبئهم . و (قوم هود) عطف بيان لـ (عاد) فائدته النسبة بذكره عليه السلام ، الذى إنما استحقوا الهلاك بسببه ، كأنه قيل : عاد قوم هود الذى كذبوه . وتناسب الآى بذلك أيضاً ، فإن قبلها ^(١) (وَاتَّبِعُوا أَمَرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ) . وقبل ذلك (حفيظ) و (غليظ) ، وغير ذلك مما هو على وزن (فمیل) المناسب لـ (فعول) فى القوافى - والله أعلم - .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦١] (وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا، قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ، هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ، إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ)

« وَإِلَىٰ ثَمُودَ » عطف على ما سبق بيانه من قوله : (وَإِلَىٰ عَادٍ) أى وأرسلنا إلى ثمود، وهى قبيلة من العرب « أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ » أى كونكم منها وحده ، فإنه خلق آدم ، ومواد النطف التى خلق نسله منها، من التراب « وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا » أى عمركم فيها، أو جعلكم عمارها، أى جعلكم قادرين على عمارتها ، كقوله تعالى فى الأعراف ^(١) : (وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا) ، « فَاسْتَغْفِرُوهُ » أى من الشرك ، « ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ » بالتوحيد « إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ » أى قريب الرحمة لمن استغفره، مجيب دعاءه بالقبول.

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٢] (قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا، أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّآ لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ)

« قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا » أى كانت تلوح فيك مخايل الخير، وأمارات الرشد ، فكنا نرجوك لننفع بك ، وتكون مشاوراً فى الأمور ، ومسترشداً فى التقدير ، فلما نطقت بهذا القول انقطع رجاؤنا عنك ، وعلمنا أن لا خير فيك . كذا فى (الكشاف).

(١) [٧ / الأعراف / ٧٤] .

« أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَمْبُدُ آبَاؤُنَا » أى من الأوثان « وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ » أى من التوحيد « مُرِيبٌ » أى موقع فى الريبة، وهى قلق النفس، وانتفاء الطمأنينة :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُمْ عَلَىٰ يَدَيْنَا مِّن رَّبِّي وَءَاتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن عَصَيْتُهُ ، فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ)

« قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ » أى أخبرونى « إِن كُنتُمْ عَلَىٰ يَدَيْنَا » أى حجة ظاهرة، وبرهان وبصيرة « مِّن رَّبِّي وَءَاتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً » أى هداية ونبوة، « فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ » أى ينجىنى من عذابه، « إِن عَصَيْتُهُ » أى بالمجاراة معكم فى أهوائكم، « فَمَا تَزِيدُونَنِي » أى باستتباعكم إياى، « غَيْرَ تَخْسِيرٍ » أى غير أن تجعلونى خاسراً بتعريضى لسخط الله . أو فما تزيدوننى ، بما تقولون إلا تبصرة بكم بأن أنسبكم إلى الخسران .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٤] (وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ ءَايَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ)

« وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ » الإضافة للتشريف، والإعلام بمباينتها لما يجانسها من حيث الخلقة وأخلق « لَكُمْ ءَايَةٌ » أى معجزة دالة على صدق نبوتى « فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ » من فرط غضب الله عليكم، لاجترائكم على آياته المنسوبة إليه .

ثم أخبر بأنهم لم يسمعوا قوله، ولم يطيعوا، بعد رؤية هذه الآية، فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٥] (فَمَقَرُّوْهَا فَقَالَ تَمْتَمُوْا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ، ذَٰلِكَ وَعَدُّ غَيْرُ مَكْذُوْبٍ) « فَمَقَرُّوْهَا » أى قتلوها « فَقَالَ تَمْتَمُوْا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعَدُّ غَيْرُ مَكْذُوْبٍ » أى مردود .

قال في (الإكليل) : استدل به في إمهال الحصم ونحوه ثلاثة ؛ وفيه دليل على أن لـ (لثلاثة) نظراً في الشرع ، ولهذا شرعت في (الخيار) ونحوه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٦] (فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالدِّينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ)

« فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا » أى عذابنا ، وهو الصيحة ، كما سيبين « نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالدِّينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ » أى بسبب رحمة عظيمة « مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ » وهو هلاكهم بالصيحة « إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ » أى القادر على كل شيء ، والغالب عليه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ)

« وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ » أى من جهة السماء ، فرجفوا لها رجفة الهلاك « فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ » أى هامدين موتى لا يتحركون . ولا يخفى ما فيه من الدلالة على شدة الأخذ وسرعته .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ، أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ ، أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ) « كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا » أى كأنهم لم يقيموا « فِيهَا » أى في مساكنهم « أَلَا إِنَّ ثَمُودَ

كَفَرُوا رَبَّهُمْ » أى فاهلكهم . « أَلَا بُدًّا لِّلْمُودِ » أى هلاكاً ولعنة ، لبعدهم عن صراطه .
وقد قدمنا الكلام على تفصيل نبئهم فى الأعراف ^(١) بما ينفى عن إعادته هنا ، فليراجع .
ثم أشار تعالى إلى نبأ لوط وهلاك قومه ، وهو النبأ الرابع من أنباء هذه السورة بقوله
سبحانه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٩] (وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا ، قَالَ سَلَامٌ ، فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ)

« وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا » أى الملائكة الذين أرسلناهم لإهلاك قوم لوط « إِبْرَاهِيمَ
بِالْبُشْرَى » أى بولدٍ وولده . ثم بين أنهم قدموا على التبشير ما يفيد سروراً ، ليكون
التبشير سروراً فوق سرور ، بقوله تعالى : « قَالُوا سَلَامًا » أى سلمنا عليك سلاماً ، « قَالَ
سَلَامٌ » أى عليكم سلام ، أو سلام عليكم . رفعه ، إجابة بأحسن من تحيتهم ، لأن الرفع
أدل على الثبوت من النصب .

ثم أشار إلى إحسان ضيافتهم بقوله : « فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ » أى مشوى ،
أوسمين يقطر دَ دَكه ، لقوله ^(٢) : (بِعِجْلٍ سَمِينٍ) .

وفى « ما » ثلاثة أوجه : أظهرها أنها نافية ، وفاعل (لبث) إما ضمير (إبراهيم) ،
و (أَنْ جَاءَ) مقدر بحرف جر متعلق به ، أى . ما أبطأ فى ، أو بأن أو عن (أن جاء) .
وإما (أن جاء) أى فما أبطأ ، ولا تأخر مجيئه بعجل . وثانى الأوجه أنها مصدرية . وثالثها
أنها بمعنى (الذى) . وهى فىهما مبتدأ ، و (أن جاء) خبره على حذف مضاف . أى :
فلبثته ، أو الذى لبثه قدر مجيئه .

(١) انظر تفسير الآية ٧٣ بالصفحة رقم ٢٧٨٢ (الجزء السابع) .

(٢) [٥١ / الذاريات / ٢٦] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٠] (فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ، قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ)

« فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ » أى لا يمدون إليه أيديهم « نَكِرَهُمْ » أى أنكرهم ، « وَأَوْجَسَ » أى أحس « مِنْهُمْ خِيفَةً » لظنه أنهم بشر أرادوا به مكروهاً . والضعيف إذا همَّ بفعل لا يأكل من الطعام ، فى عادتهم . « قَالُوا » أى له لما علموا منه الخوف بإخباره لهم ، كما فى آية ^(١) (قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ * قَالُوا لَا تَوَجَّلْ) كما قيل هنا « لَا تَخَفْ » أى إنا لا نأكل لأننا ملائكة ، ولم نزل بالمذاب عليكم « إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ » أى لإهلاكهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧١] (وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاَهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ)

« وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ » أى سروراً بزوال الخيفة ، أو بهلاك أهل الخبائث ، « فَبَشَّرْنَاَهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ » أى يولد له . والاسمان يحتمل وقوعهما فى البشارة ، أو أنها حكيا بمد أن ولداً ومُسمَّياً بذلك . وفى توجيه البشارة إليها ههنا ، مع ورود البشارة إلى إبراهيم فى آية أخرى ، كآية ^(٢) (فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ) (وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ) ^(٣) إيدان بمشاركتها لإبراهيم فى ذلك حين ورودها ، وإشارة إلى أن ذكر أحدهما فيه اكتفاء عن الآخر ، والقام أمس بذكره وأبلغ . أو للتوصل إلى سوق نبئها فى ذلك ، وخرق العادة فيه ، كما لوح به تعجبها فى قوله تعالى :

(١) [١٥ / الحجر / ٥٢ و٥٣] . (٢) [٣٧ / الصافات / ١٠١] .

(٣) [٥١ / الزاريات / ٢٨] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٢] (قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا، إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ)

« قَالَتْ يَا وَيْلَتَا » أى يا عجبي . وأصله للدعاء بالويل ونحوه ، فى جزع التفجع لشدة مكروه يدهم النفس ، ثم استعمل فى التعجب . وألفه بدل من ياء التكلم ، ولذلك أملهأ أبو عمرو وعاصم فى رواية ، وبها قرأ الحسن (ياويلتى) . وقيل : هى ألف الندبة ، ويوقف عليها بهاء السكت .

« أَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ » أى امرأة مسنة - والأفصح ترك الهاء معها - وسمع من بعض العرب (عجوزة) - حكاه يونس - « وَهَذَا بَعْلِي » أى زوجى إبراهيم « شَيْخًا إِنَّ هَذَا » أى التولد من هرمين « لَشَيْءٌ عَجِيبٌ » أى غريب ، لم تجر به العادة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٣] (قَالُوا أَتَمَجِّبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ، رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ،

إِنَّهُ حَمِيدٌ مُجِيدٌ)

« قَالُوا أَتَمَجِّبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ » أى أتستبمدين من شأنه وقدرته خلق الولد من الهرمين؟ قال الزمخشري : وإنما أنكرت عليها الملائكة تعجبها ، لأنها كانت فى بيت الآيات ، ومهبط المعجزات ، والأمور الخارقة للمادات ، فكان عليها أن تتوقر ، ولا يزدهيها ما يزدهى سائر النساء الناشئات فى غير بيت النبوة ، وأن تسبح الله وتمجده ، مكان التعجب . وإلى ذلك أشارت الملائكة، صلوات الله عليهم، فى قولهم : « رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ » أرادوا أن هذه وأمثالها مما يكرمكم به رب العزة ، ويخصكم بالإلنعام به يا أهل بيت النبوة ، فليست بمكان عجب . والكلام مستأنف ، علل به إنكار التعجب ، كأنه قيل : (إياك والتعجب) فإن أمثال هذه الرحمة والبركة متسكرة من الله عليكم - انتهى - .

فالجملة خبرية ، وجوز كونها دعائية . و (أهل البيت) نصب على النداء أو التخصيص ، لأن أهل البيت مدح لهم ، إذ المراد أهل بيت خليل الرحمن .
« إِنَّهُ حَمِيدٌ » أى مستحق للمحامد ، لما وهبه من جلائل النعم « مَجِيدٌ » أى كريم واسع الإحسان ، فلا يبعد أن يعطى الولد بعد الكبر . وهو تذييل بدیع لبيان أن مقتضى حالها أن تحمد مستوجب الحمد المحسن إليها بما أحسن ، وتمجده ؛ إذ شرفها بما شرف .

القوله فى تأويل قوله تعالى :

[٧٤] (فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ)

« فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ » أى خيفة إرادة المكروه منهم بعرفانهم « وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ » أى بدل الروع « يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ » أى فى هلاكهم ، استعطافاً لدفعه .
روى أنه قال : أتهلك البار مع الأئيم ، أتهلكها وفيهم خمسون باراً ؟ حاشا لك !
فقيل له : إن وجد فيهم خمسون باراً فنصفح عن الجميع لأجلهم !

فقال : أو أربعون ؟

فقيل : أو أربعون !

وهكذا إلى أن قال : أو عشرة ، فقيل له : لا نهلكها من أجل العشرة ، إلا أنه ليس فيها عشرة أبرار ، بل جميعهم منهمك فى الفاحشة . فقال : إن فيها لوطاً ! فقيل : نحن أعلم بمن فيها لننجيناه .

و (يُجَادِلُنَا) جواب (لَمَّا) جىء به مضارعاً على حكاية الحال . أو أن (لَمَّا) كـ (لَوْ)
تقلب المضارع ماضياً ، كما أن (إِنْ) تقلب الماضى مستقبلاً . أو الجواب محذوف ، والمذكور دليله أو متعلق به .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ)

« إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ » أى غير عجول على الانتقام من المسىء « أَوَّاهٌ » كثير التأسف « مُنِيبٌ » أى راجع إلى الله فى كل ما يحبه ويرضاه . والمقصود بتعداد صفاته الجميلة المذكورة ، بيان الحامل على المجادلة ، وهو رقة القلب وفرط الترحم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٦] (يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا ، إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ، وَإِنَّهُمْ لَأَتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ)

« يَا إِبْرَاهِيمُ » أى قيل له : يا إبراهيم « أَعْرِضْ عَنْ هَذَا » أى الجدل « إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ » أى حكمه بهلاكهم « وَإِنَّهُمْ لَأَتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ » أى بجدال ، ولا بدعاء ، ولا بغیرها .
فوائد :

قال بعض المفسرين : لهذه الآيات ثمرات : وهى أن حصول الولد المخصص بالفضل نعمة ، وهلاك العاصى نعمة ، لأن البشرى قد فُسِّرَتْ بولادة إسحاق ، كما فى آخر الآية ، وهى ^(١) : (فَبَشِّرْ نَاهَا بِإِسْحَاقَ . . .) الخ وفُسِّرَتْ بهلاك قوم لوط .

ومنها : استجباب نزول المبشِّر على المبشَّر ، لأن الملائكة أرسلهم الله بذلك .

ومنها : أنه يستحب للمبشَّر تلقى ذلك بالطاعة ، شكراً لله تعالى على ما بُشِّر به .

وحكى الأصم أنهم جاؤوه فى أرض يعمل فيها ، فلما فرغ غرز مسحاته ، وصلى ركعتين .

ومنها : أن السلام مشروع ، وأنه ينبغى أن يكون الرد أفضل ، لقول إبراهيم : (سَلَامٌ)

بالرفع ، كما تقدم سره انتهى .

(١) [١١ / هود / ٧١] .

ومنها : مشروعية الضيافة ، والمبادرة إليها ، واستحباب مبادرة الضيف بالأكل منها .
ومنها : استحباب خدمة الضيف ، ولو للمرأة ، لقول مجاهد : وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ - أى
 فى خدمة أضياف إبراهيم . قال فى (الوجيز) : وَكُنْ لَا يَحْتَجِبْنَ ، كمادة العرب ونازلة
 البوادرى ، أو كانت عجوزا ، وخدمة الضيفان من مكارم الأخلاق .
ومنها : جواز مراجعة المرأة الأجانب فى القول ، وأن صوتهما ليس بعمرة . كذا
 فى (الإكليل) .

ومنها : أن امرأة الرجل من أهل بيته ، فيكون أزواجه عليه الصلاة والسلام من
 أهل بيته . ويأتى ذلك أيضاً فى آية ^(١) : (فَاسْرِي بِأَهْلِكَ) . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ)

« وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا » أى بعد منصرفها من عند إبراهيم عليه الصلاة والسلام ،
 وكان مقبلا فى (بلوط تمر) التى بد (حبرون) ، المدينة المعروفة اليوم بد (الخليل) ؛ « سِيءَ
 بِهِمْ » أى ساء مجيئهم ، لأنهم أتوه على صورة مُرْدٍ ، حسان الوجوه ، تخاف أن يقصدهم
 قومه ، لظنه أنهم بشر « وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا » يقال : ضايق بالأمر ذرعه وذرعه ، وضاق به
 ذرعاً ، أى ضعفت طاقته ، ولم يجد من المكروه فيه مخلصاً .

قال الجوهري : أصل الذرع بسط اليد ، فكأنك تريد : مدت يدك إليه فلم تنله .
 وقيل : وجه التمثيل أن القصير الذراع لا ينال ما يناله الطويل الذراع ، ولا يطبق طاقته ،
 فَضْرِبَ مثلاً الذى سقطت قوته ، دون بلوغ الأمر والاقتدار عليه .

وقال الأزهري : الذرع يوضع موضع الطاقة ، والأصل فيه ، أن البعير يذرع بيديه

(١) [١١ / هود / ٨١] و [١٥ / الحجر / ٦٥] .

في سيره ذرعاً ، على قدر سمة خطوه . فإذا حمل عليه أكثر من طوقه ، طاق به ذرعاً عن ذلك وضعف ، ومدّ عنقه . فجعل ضيق الذرع عبارة عن ضيق الوسع والطاقة .
و (ذرعاً) تمييز ، لأنه خرج مفسراً محوّلاً . والأصل : ضاق ذرعى به . وشاهد الذراع قوله ^(١) :

وَإِنْ بَاتَ وَخَشَا لَيْلَةً لَمْ يَضِقْ بِهَا ذِرَاعًا وَلَمْ يُضْبِحْ لَهَا وَهُوَ خَاشِعٌ
« وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ » أى شديد . وكيف لا يشتد عليه ، وقد ألمّ المحذور ، كما قال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٨] (وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ، قَالَ يَاقَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَخْزُونِ فِي ضَعْفِي ، أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ)

« وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ » أى يسرعون كأنما يدفعون دفعاً . وقرئ مبنيًا للفاعل .
« وَمِنْ قَبْلُ » أى قبل مجيئهم « كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ » أى الفواحش ويكثرونها ،

(١) فائله هو حميد بن ثور الهلالي . من قصيدة مطلعها :

تَرَى رَبَّةَ الْبَهْمِ الْفِرَارَ عَشِيَّةً إِذَا مَا عَدَا فِي بَهْمِهَا وَهُوَ ضَائِعٌ
الْبَهْمُ جمع بهمة وهى أولاد الضأن والمعز والبقر . يريد : هى ترى الحرب إذا رأت الذئب .
وعدا ، يعنى الذئب . والضائع ، الجائع .

والبيت الشاهد ، هكذا رواه اللسان . وفى الديوان ص ١٠٤ . . وهو خاضع . وحشا : جائعاً ، لا طعام له . وقوله (ذراعاً) هو مثل قولهم : ضاق بالأمر ذرعاً وذراعاً ، إذا ضعفت طاقته ولم يجد من المكروه فيه مخلصاً . أى مدّ يده إليه فلم ينله .

فرونوا عليها ، وقلّ عندهم استقباحها ، فلذلك جاءوا مسرعين مجاهرين ، لا يكفهم حياء . فالجمله معترضة لتأكيد ما قبلها . وقيل : إنها بيان لوجه ضيق صدره . أى : لما عرف لوط عادتهم فى عمل الفواحش قبل ذلك « قَالَ » أى لوط « يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ » أراد أن يبق أضيافه بيناته ، وذلك غاية الكرم ، أى فتزوجوهن . أو كان ذلك مبالغه فى تواضعه لهم ، وإظهاراً لشدة امتعاضه ، مما أوردوا عليه ، طمعاً فى أن يستحيوا منه ، ويرقوا له إذا سمعوا ذلك ، فيتركوا ضيوفه - هذا ما يخص ما فى (الكشف) - ومن تابعه - وظاهر أنه ، عليه السلام ، كان واثقاً بأن قومه لا يؤثرونهن بوجه ما ، مهما أطرى وأطنب ، وشوق ورغب ، فكان إظهاره وقاية ضيفانه ، وفداءهم بهن ، مع وثوقه المذكور وجزمه - مبالغه فى الاعتناء بحمايتهم ، وقياماً بالواجب فى مثل هذا الخطب الفادح الفاضح ، الذى يدوم عاره وشناره ، من الدفاع عنهم بأقصى ما يمكن ، لكيلا ينسب إلى قصور . وليعلم أن لا غاية وراء هذا لمن لا ركن له من عشيرة أو قبيلة ، فذلك غاية الغايات فى حيطتهم ووقايتهم .

وفى قوله : (هن أطهر لكم) من التشويق ، على مرأى من ضيفانه ومسمع ، ما فيه من زيادة الكرم والإكرام ، ورعاية التمام . وبالجملة فهو ترغيب بمَحَال الوقوع باطناً ، وإعذارٌ لنزلائه ظاهراً - والله أعلم - وفى هذا إرشاد إلى التطهر بالطرق المسنونة ، وهى النكاح . وإشارة إلى تنهاى وقاحة أولئك بما استأهلوا به أخذهم الآتى .

« فَأَتَقُوا اللَّهَ » أى أن تعصوه بما هو أشد من الزنى خبثاً .

« وَلَا تَخْزُونِ فِي ضَيْفِي » أى ولا تهينونى وتفضحونى فى شأنهم ، فإنه إذا خزى ضيف الرجل أو جاره ، فقد خزى الرجل ، وذلك من عراقة الكرم ، وأصالة المروءة . (وتخزون) مجزوم بمحذف النون ، والياء محذوفة اكتفاء بالكسرة . وقرئ بإثباتها على الأصل . « أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ » أى فيرعى عن القبيح ، ويهتدى إلى الصواب .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٩] (قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ)

« قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ » أى حاجة ، إذ لا يريدن . وفي تصدير كلامهم باللام المؤذنة بأن ما بعدها جواب القسم ، أى : والله لقد علمت - إشارة إلى ما ذكرناه من أنه كان وانقافاً جازماً بعدم رغبتهم فيهن . وأيد ذلك قولهم : « وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ » استشهاداً بعلمه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٠] (قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ إِيَّايَ إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ)

« قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ » أى بدفعكم قوة ، بالبدن أو الولد « أَوْ إِيَّايَ إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ » أى عشيرة كثيرة ، لأنه كان غريباً عن قومه ، شبهها بركن الجبل في الشدة والمنعة .
أى : لفعلت بكم ما فعلت ، وصنعت ما صنعت .

تنبيه :

قال الإمام ابن حزم رحمه الله في (الملل) :

ظن بعض الفرق أن ما جاء في الحديث الصحيح من قوله ﷺ (١) : (رحم الله لوطاً ، لقد كان يأوى إلى ركن شديد) إنكاراً على لوط عليه السلام . ولا تخالف بين القولين ، بل كلاهما حق ، لأن لوطاً عليه السلام إنما أراد منعة عاجلة يمنع بها قومه مما هم عليه من الفواحش ، من قرابة أو عشيرة أو أتباع مؤمنين . وما جهل قط لوط عليه السلام أنه يأوى من ربه تعالى إلى أمنع قوة ، وأشد ركن . ولا جناح على لوط عليه السلام في طلب قوة من (١) أخرجه البخارى في : ٦٠ - كتاب الأنبياء ، ١٥ - باب : وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ ... إلخ ونصه . عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال « يغفر الله للوط ، إن كان كَيَّأْوَى إلى ركن شديد » .

الناس، فقد قال تعالى ^(١): (وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ)، فهذا الذى طلب لوط عليه السلام . وقد طلب رسول الله ﷺ من الأنصار والمهاجرين منعه حتى يبلغ كلام ربه تعالى ، فكيف ينكر على لوط أمراً هو فعله عليه السلام . تالله! ما أنكر ذلك رسول الله ﷺ، وإنما أخبر أن لوطاً كان يأوى إلى ركن شديد ، يعنى من نصر الله له بالملائكة . ولم يكن لوط علم بذلك . ومن اعتقد أن لوطاً كان يعتقد أنه ليس له من الله ركن شديد، فقد كفر، إذ نسب إلى نبي من الأنبياء هذا الكفر. وهذا أيضاً ظن سخيف، إذ من الممتنع أن يظن ربّ أراه المعجزات ، وهو دائماً يدعو إليه ، هذا الظن . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٨١] (قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ ، فَاسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرًا تَكُ ، إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ ، إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ ، أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ)

« قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ » أى إلى إضرارك بإضرارنا « فَاسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ » أى بطائفة من آخره . أى ببقية سواد منه عند السحر ، وهو وقت استغراقهم فى النوم ، فلا يمكنهم التعرض له ولا لأهله . وقرئ « فَاسْرِ » بالقطع والوصل .

« وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ » أى لا ينظر إلى ورائه ، لئلا يلحقه أثر ما نزل عليهم « إِلَّا أَمْرًا تَكُ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ » أى من العذاب ، فإنها لما سمعت وجبة العذاب التفت فهلكت .

قال فى (الإكليل) : فيه أن المرأة والأولاد من الأهل .

(١) [٢ / البقرة / ٢٥١] .

« إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ » أى موعدهم بالهلاك الصبح ، والجملة كالتمايل للأمر بالإسراء ، أو جواب لاستعجال لوط واستبطائه العذاب ، أو ذكرت ليتعجل في السير ، فإن قرب الصبح داع إلى الإسراع في الإسراء ، للتباعد عن موقع العذاب .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مِّنْضُودٍ)

فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا « أى عذابنا » جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا « أى فقلبت تلك المدن ونبتها بسكانها جميعاً . » وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ « أى طين متحجر ، كقوله ^(١) : (حِجَارَةً مِّن طِينٍ) ، « مِّنْضُودٍ » أى يرسل بعضه في إثر بعض متتابعاً . قال المايمى : اتصل بعضه ببعض ، ليرجموا رجم الزناة ، بما يناسب قسوتهم ورينهم الذى اتصل بقلوبهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٣] (مُسَوِّمَةٌ عِندَ رَبِّكَ ، وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَبَعِيدٍ)

« مُسَوِّمَةٌ عِندَ رَبِّكَ » مملّمة عنده « وَمَا هِيَ » أى تلك الحجارة « مِنَ الظَّالِمِينَ » أى بالشرك وغيره « بَبَعِيدٍ » ، فإنهم بسبب ظلمهم مستحقون لها ، وملايسون بها . وفيه وعيد شديد لأهل الظلم كافة . وقيل : الضمير للقرى ، أى هى قريبة من ظالمى مكة ، يمرون بها فى أسفارهم إلى الشام ، وقد صار موضع تلك المدن بجرماء أجاج لم يزل إلى يومنا هذا ، ويعرف بـ (البحر الميت) ، لأن مياهه لا تغذى شيئاً من جنس الحيوان ، وبـ (بحر الزفت) أيضاً ، لأنه ينبعث من عمق مقرّه إلى سطحه ، فيطفو فوقه ، وبـ (بحيرة لوط) والأرض التى تليها قاحلة ، لا تنبت شيئاً .

(١) [٥١ / الذاربات / ٣٣] .

قال أبو السمود : وتذكير (بعيد) على تأويل (الحجارة) بالحجر ، أو إجرائه على موصوف مذكر ، أى بشيء بعيد ، أو لأنه على زنة المصدر كـ (الزفير) و (الصهيل) . والمصادر ، يستوى فى الوصف بها ، المذكر والمؤنث .
وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٤] (وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ، قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ، وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ، إِنَّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ)

« وَإِلَىٰ مَدْيَنَ » أى وأرسلنا إلى مدين ، عطف على ما قبله . و (مدين) بلد بين الحجاز والشام ، على مقربة من (معان) ويطلق على أهلها ، وهم قوم من العرب كانوا يعمرونها . « أَخَاهُمْ شُعَيْبًا » قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ « أى لقمبضوا الناس أشياءهم بالباطل . « إِنَّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ » أى نعمة وثرة فى رزقكم ومعيشتكم ، وعافية وتمتع فى وجودكم . معنى : فلا تعرضوا لزوال ذلك عنكم بما تاتونه مما تنهون عنه ، كما قال سبحانه : « وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ » أى مهلك ، أو لا يشد منه أحد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٥] (وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ، وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْمُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ)
« وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ » أى العدل .

قال الزمخشري : فإن قلت : النهى عن النقصان أمر بالإيفاء ، فما فائدة قوله : (أَوْفُوا) ؟

قلت : نهوا أولاً عن عين القبيح الذى كانوا عليه من نقص المكيال والميزان ، لأن فى التصريح بالقبيح نهيًا على المنهى ، وتمييزاً له . ثم ورد الأمر بالإيفاء ، الذى هو حسن فى العقول ، مصرحاً بلفظه لزيادة ترغيب فيه ، وبمث عليه . وجيء به مقيداً (بالقسط) أى ليكن الإيفاء على وجه العدل والتسوية ، من غير زيادة ولا نقصان ، أمراً بما هو الواجب . لأن ما جاوز العدل فضل ، وأمر مندوب إليه . وفيه توقيف على أن الموفى ، عليه أن ينوى بالوفاء القسط ، لأن الإيفاء وجهٌ حسنه أنه قسط وعدل . فهذه ثلاث فوائد . انتهى .

« وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ » أى لا تنقصوهم حقوقهم بطريق من الطرق ، كالكيل والوزن وغيرهما ، فهو تعميم بعد تخصيص ، لأنه أعم من أن يكون فى المقدار وغيره . والبخس : الهضم والنقص . ويقال للمكس : البخس . قال زهير ^(١) :

أف كل أسواق العراق إناوةً وفى كل ما باع امرؤٌ بخسٌ درهم
ألا تستحى منا ملوكٌ وتتقى تحارمنا . لا تتقى الدم بالدم

وروى (مكس درهم) . يريد زهير : أخذ الخراج ، وما هو اليوم فى الأسواق من رسوم وظلم . وكان قوم شعيب يأخذون ، من كل شئ يباع ، شيئاً . كما تفعل السامسة ،

(١) هذان البيتان ليسا فى (ديوان زهير) واستشهد فى (لسان العرب) فى مادة (ات و) بالبيت الأول ونسبه إلى حنّى بن جابر التغلبي .

وأخطأ صاحب (اللسان) فى اسم الشاعر . وإنما هو : جابر بن حنّى التغلبي ، صاحب الفضلية ٤٢ . والبيتان منها هما السابع عشر والثاسع عشر .

وروايتهما : وفى كل مكسٌ درهم
لا يَبُوؤُ الدَّمُ بالدَّمِ

(لا يَبُوؤُ) من قولهم : باء فلان بفلان إذا كان كفاء له ، أن يقتل به .

وقد صحح الأستاذ الرصقى اسمه كذلك فى (رغبة الآمل) بالجزء الخامس ص ٢٢٣ وكان البرد فى (الكامل) قد رواه خطأ ، فقال : عمرو بن حبيّ التغلبي .

أو كانوا يمكسون الناس ، أو كانوا ينقصون من أئمان ما يشترون من الأشياء ، فهموا عن ذلك - كذا في (الكشاف) و (شرحه) .

قال القاشاني : لما رأى شعيب ، عليه السلام ، ضلالتهم بالشرك ، واحتجابهم عن الحق بالجب ، وتهاكهم على كسب الحطام بأنواع الرذائل ، وتناديهم في الحرص على جمع المال بأسوأ الخصال - نهاهم عن ذلك ، وقال : إني أراكم بخير في استعدادكم من إمكان حصول كمال وقبول هداية ، وإني أخاف عليكم إحاطة خطيئاتكم ، لاحتجابكم عن الحق ، ووقوفكم مع الغير ، وصرف أفكاركم بالكلية إلى طلب المعاش ، وإعراضكم عن المعاد ، وقصور همكم على إحراز الفاسدات الفانيات ، عن تحصيل الباقيات الصالحات ، فلازموا التوحيد والعدالة ، واعتزلوا عن الشرك ، والظلم ، الذي هو جماع الرذائل ، وأم القوائيل .

« وَلَا تَعْمُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ » أي لا تعملوا فيها بالفساد . يعم أيضاً تنقيص الحقوق وغيره ، كالسرقة والشرك ، والدعاء إليه ، والصدّة عن الإيمان ونحوها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٦] (بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ، وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ)

« بَقِيَّةُ اللَّهِ » أي ثوابه الباقي على وفاء الكيل والوزن ، أو ما أبقاه عليكم بعد التنزه عن الحرام ، أو ما تفضل عليكم من الربح بعد وفائهم « خَيْرٌ لَّكُمْ » أي في دينكم ودنياكم « إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » فإن المؤمن ببارك له ، إذا تنزه عن الحرام . أو مصدقين بما أقول . وقال القاشاني : أي إن كنتم مصدقين ببقاء شيء ، فإيبق لَكُمْ عند الله من الكمالات والسمادات الأخروية ، خير لكم من تلك المكاسب الفانية التي تشقون بها ، وتشقون على أنفسكم في كسبها وتحصيلها ، ثم تتركونها بالموت ، ولا يبقى منها معكم شيء إلا وبالتبعات والعذاب اللازم ، لما في نفوسكم من رواسخ الهيئات .

« وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ » أي رقيب لأحفظكم عن القبائح وأكفكم عنها بسيطرة . وإنما أنا مبلغ نذير .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٧] (قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَوَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ

فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ، إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ)

« قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَوَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا » أى من الأصنام ، أجابوا به أمرهم بالتوحيد ، على الاستهزاء والتهمك بصلواته ، والإشعار بأن مثله لا يدعو إليه داع عقلى ، وإنما دعاك إليه خطرات ووساوس من جنس ما تواظب عليه . وكان شعيب كثير الصلاة ، فلذلك جمعوا وخصوا الصلاة بالذكر . وقرئ : (أصلاتك) بالإفراد - قاله القاضى - .

« أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ » من نقص ونحوه « إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ » أى الموصوف بالحلم والرشد فى قومك يعنون أن ما تأمر به لا يطابق حالك ، وما شهرت به ، كما قال قوم صالح عليه السلام ^(١) : (قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا) . أو قالوا ذلك تهكمًا به ، والمراد أنه على الضد من ذلك . قيل : وهذا أرجح ، لأنه أنسب بتهكمهم قبله والأدق هو الأول لمماثلته لما خوطب به صالح ، وتعقيبه بمثل ما عَقَّبَ به ، وهو قوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٨] (قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا

حَسَنًا ، وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالَفَكُمْ إِلَّا إِلَىٰ مَا أَنهَاكُم عَنْهُ ، إِنْ أُرِيدُ إِلَّا

الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ، وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ)

« قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي » أى أخبرونى إن كنت على

برهان يقينى مما أنانى ربى من العلم والنبوة « وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا » أى مالا حلالا

(١) [١١ / هود / ٦٢] .

مكتسباً بلا نجس وتطفيف ، أو حكمة ونبوة ، وكلاً وتكميلاً ، بالاستقامة على التوحيد ، هل يصح لى أن أخون الوحي ، وأترك النهى عن الشرك والظلم ، والإصلاح بالتركية والتحلية . وهو اعتذار عما أنكروه عليه من تغيير المألوف ، والنهى عن دين الآباء . وحذف جواب (أرايتم) لما دل عليه فى مثله ، كما مرّ فى نبأ فوح وصالح عليهما السلام ، وعلى خصوصيته هنا من قوله : « وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَأَكُمْ عَنْهُ » أى وما أريد أن آتى ما أنهاكم عنه ، لأستبدّ به دونكم ، فلو كان صواباً لآثرته ، ولم أعرض عنه ، فضلاً عن أن أنهى عنه - أفاده القاضى - .

وفى (التاج) : يقال : خالفه إلى الشيء : عصاه إليه ، أو قصده بعد ما نهاه عنه ، وهو من ذلك .

قال القاشانى : أى ما أقصد إلى جرّ المنافع الدنيوية الفانية ، بارتكاب الظلم الذى أنهاكم عنه .

« إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ » أى إصلاح نفوسكم بالتركية ، والنهيئة لقبول الحكمة ، ما دمت مستطيعاً متمكناً منه . « وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ » أى وما كونى موفقاً للإصلاح إلا بعمونة الله وتأويده . « عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ » أى اعتمد « وَإِلَيْهِ أُنِيبُ » أى أرجع فى السراء والضراء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٩] (وَيَا قَوْمِ لَا يَجْزِيَكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ ، وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنْكُمْ بِبَعِيدٍ)

« وَيَا قَوْمِ لَا يَجْزِيكُمْ شِقَاقِي » أى لا يكسبنكم عداوتى « أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ » من الفرق والريح والصيحة « وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنْكُمْ بِبَعِيدٍ »

قَوْمٌ لَوْ طِ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ « فإن منازلهم قريبة منكم ، وقد علمتم ما نزل بهم من قلب الأرض ، وإمطار الحجارة . وذلك لأن مخالفة الرسل تقتضى أحد هذه الأمور .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٠] (وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ، إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ)

« وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ » أى من عبادة الأصنام « ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ » أى بالتوحيد ، أو بالرجوع عن البخس والتطيف « إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ » أى للمستغفرين التائبين « وَدُودٌ » أى مبالغ فى المحبة لهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩١] (قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْ

رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ، وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ)

« قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ » أى ما نفهم « كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ » كالتوحيد ، وحرمة البخس . يعنون أنهم لا يقبلونه ، أو قالوا ذلك استهانة به ، كما يقول الرجل لمن لا يعبأ بمحدثه : ما أدرى ما تقول ! أو جعلوا كلامه هذياناً وتخليطاً لا يفهمهم كثير منه . (والكثير) مراد به السكل . أو قالوه فراراً من المكابرة .

قال أبو السعود : الفقه معرفة غرض المتكلم من كلامه . أى : ما نفهم مرادك . وإنما قالوه بعد ما سمعوا منه دلائل الحق البين على أحسن وجه وأبلغه ، وضاعت عليهم الحيل ، فلم يجدوا إلى محاورته سبيلاً ، سوى الصدود عن منهاج الحق ، والسلوك إلى سبيل الشقاء ، كما هو ديدن المفحّم المحجوج ، يقابل البينات بالسب والإبراق والإرعاد . فجعلوا كلامه المشتمل على فنون الحكم والوعظ ، وأنواع العلوم والمعارف ، من قبيل ما لا يفهم معناه ، ولا يدرك فحواه ، وأدجوا فى ضمن ذلك أن فى تضاعيفه ما يستوجب أقصى ما يكون من

المؤاخذه والعقاب . ولعل ذلك ما فيه من التحذير من عواقب الأمم السالفة ، ولذلك قالوا : « وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا » أى لا قوة لك ، فتمتنع منا إن أردنا بك سوءًا « وَلَوْلَا رَهْطُكَ » أى قومك وأنهم على ملتقنا « لَرَجَمْنَاكَ » أى قتلناك برى الأحجار ، أو شرفقتله « وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعِزِيزٍ » أى لا تمز علينا ولا تسكرم ، حتى نسكرمك ونمنعك من الرجم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٢] (قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا ، إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ)

« قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ » أى من أمره ووحيه ودينه « وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا » أى نسيتموه وجعلتموه كالشيء المنبوذ وراء الظهر ، لا يعبأ به . و (الظهرى) منسوب إلى الظهر ، والكسر من تميمات النسب ، كما قالوا : (إمسى) بالكسر فى النسبة إلى (أمس) . و (دهرى) ، بالضم ، فى النسبة إلى (الدهر) « إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ » أى عالم ، لا يخفى عليه ، فيجازيكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٣] (وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ، فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ ، وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ)

« وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتَتِكُمْ » أى غاية تمسكنكم واستيطاعتكم ، أو على جهتمكم وحالكم التى أنتم عليها ، من كفركم وعداوتكم « إِنِّي عَامِلٌ » أى على مكائتي التى كنت عليها من الثبات على الإسلام والمصابة .

« فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ » أى منتظر لهلاككم . وفى زيادة (معكم) إظهار منه عليه السلام لكمال الوثوق بأمره .

قال الزمخشري : فإن قلت : أى فرق بين إدخال الفاء ونزعها في (سَوْفَ تَعْلَمُونَ) ؟ قلت : إدخال الفاء وصل ظاهر بحرف موضوع للوصل ، ونزعها وصل خفيّ تقديرى بالاستثناف الذى هو جواب لسؤال مقدر ، كأنهم قالوا : فما يكون إذا علمنا نحن على مكانتنا ، وعملت أنت ؟ فقال : سوف تعلمون ! فوصل تارة بالفاء ، وتارة بالاستثناف ، للتفنن في البلاغة ، كما هو عادة بلغاء العرب ، وأقوى الوصلين وأبلغهما الاستثناف . اهـ - أى للإشعار بأنه مما يسأل عنه ، ويعتنى به ، ولذا كان أبلغ في التحويل .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٤] (وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ)

« وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا » إنما ذكره بالواو ، كما في قصة عاد ، إذ لم يسبقه ذكر وعد يجرى مجرى السبب له بخلاف قصتي صالح ولوط ، فإنه ذكر بعد الوعد ، وذلك قوله ^(١) (وَعْدُهُ غَيْرُ مَسْكُودٍ) ، وقوله ^(٢) (إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصَّيْحَةُ) فلذلك جاء بفاء السببية . أفاده القاضى .

« وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ » أى بالعذاب « فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ » أى ميتين .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٥] (كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ، أَلَا بُعْدًا لِمَدِينٍ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ)

« كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا » أى يقيموا « فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدِينٍ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ » شبههم بهم ، لأن عذابهم كان أيضاً بالصيحة ، وكانوا قريباً منهم في المنزل ، نظراءهم في الكفر ، وقطع الطريق ، وكانوا أعراباً مثلهم .

(١) [١١ / هود / ٦٥] . (٢) [١١ / هود / ٨١] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٦] (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ)

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا » أى التسع « وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ » وهو العصا . وكانت أبهر معجزاته ، فلذا خصت . أو هو الآيات ، والعطف للإشارة إلى الجمع بين كونها آيات وسلطاناً واضحاً على رسالته .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٧] (إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبِعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ)

« إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبِعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ » أى بالكفر بموسى ، أو طريقة فرعون الجائرة .

قال الزمخشري : هذا تجهيل لمتبعيه ، حيث شايعوه على أمره ، وهو ضلال مبين لا يخفى على من فيه أدنى مسكة من العقل . وذلك أنه ادعى الإلهية ، وهو بشر مثلهم ، وجاهل بالمسئف والظلم والشر الذى لا يأتى إلا من شيطان مارد ، فاتبعوه وسلموا له دعواه ، وتتابعوا على طاعته .

« وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ » أى بمشرد ، أو ذى رشد ، وإنما هو غى وضلال .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٨] (يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ، وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ)

« يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » أى يتقدمهم إلى النار ، كما كان يقدمهم فى الدنيا إلى الضلال « فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ » أى يوردهم . وإشار لفظ الماضى للدلالة على تحققه والقطع به . وشبه فرعون بالفارط الذى يتقدم الواردة إلى الماء ، وأتباعه بالواردة ، والنار بالماء الذى يردونه . ثم قيل : « وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ » أى بئس الورد الذى يردونه النار ، لأن الورد - وهو النصب من الماء - إنما يراد لتسكين الظمأ ، وتبريد السكبد ، والنار على الضد من ذلك .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٩] (وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ، بئسَ الرَّفْدُ الْمَرْفُودُ)

« وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ » أى الدنيا « لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ » أى يلعنون فى الدنيا والآخرة ،
فهى تابعة لهم ، أين كانوا . ذ (يوم) معطوف على محل (فى) هذه ، لا ابتداء كلام .
« بئسَ الرَّفْدُ الْمَرْفُودُ » أى بئسَ العطاء المعطى ، وهى اللعنة فى الدارين .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٠] (ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقِصُهُ عَلَيْكَ ، مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ)

« ذَلِكَ » إشارة إلى ما قص من أنباء الأمم « مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى » أى الممالك « نَقِصُهُ عَلَيْكَ » أى بالوحي « مِنْهَا قَائِمٌ » أى باق ينظر إليها ، قد باد أهلها « وَحَصِيدٌ » أى ومنها عاقى الأثر كالزراع المحصود .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠١] (وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ، فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي

يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ، وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ)

« وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ » بإهلاكنا إياهم « وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ » أى بتعريضها لما أوجبه
من الشرك وعبادة الأوثان والظلم « فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ » أى إهلاك ونخسير .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٢] (وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ ، إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ

شَدِيدٌ)

« وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ » إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ » فيه

إشمار بظلمهم وإعلام بسنته تعالى في أخذ الظالمين ، التي لا تتبدل ، وإنذار كل ظالم ظلم نفسه أو غيره ، من سوء العاقبة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٣] (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَنِ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ، ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ)

« إِنَّ فِي ذَلِكَ » أى فيما قصّ في هذه السورة ، أوفى أخذ الظالمين « لَآيَةً » أى لعمرة « لِمَنِ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ » فيعتبر بها عن موجباته « ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ » أى يشهده الأولون والآخرون ، وأهل السماء والأرض .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٤] (وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ)

« وَمَا نُؤَخِّرُهُ » أى ذلك اليوم « إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ » أى لمدة محدودة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٥] (يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ)

« يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ » أى بإذن الله تعالى ، كقوله تعالى ^(١) : (لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا) « فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٦] (فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُّوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ)

« فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُّوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ » الزفير إخراج النفس مع صوت ممدود ، والشهيق : رده . كنى بهما عن الغم والكرب ، لأنه يملو معه النفس غالباً . أو شبهة صراخهم بأصوات الحير .

(١) [٧٨ / النبأ / ٣٨] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٧] (خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ، إِنَّ رَبَّكَ
فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ)

[١٠٨] (وَأَمَّا الَّذِينَ سُمِعُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ
إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ، عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُوزٍ)

« خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَالٌ لِّمَا
يُرِيدُ * وَأَمَّا الَّذِينَ سُمِعُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا
شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُوزٍ » أى غير مقطوع ، ولكنه ممتد إلى غير نهاية .

وفي التوقيت بـ (السموات والأرض) وجهان :

أحدهما : أن يكون عبارة عن التأييد ونفي الانقطاع ، كقول العرب : (ما أقام ثبير) ،
و (ما لاح كوكب) و (ما طاب البحر) ونحوها : لا تعليق قرارهم في الدارين بدوام هذه
السموات والأرض ، فإن النصوص دالة على تأييد قرارهم ، وانقطاع دوامهما .

وثانيهما : أن يراد سموات الآخرة وأرضها ، إذ لا بد لأهلها من مظل ومقل . قال تعالى ^(١) :
(يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضَ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ) وقوله ^(٢) : « وَأَوْرَثْنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ
مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ » .

فإن قلت : ما معنى الاستثناء بالمشيئة ، وقد ثبت خلود أهل الدارين فيهما من غير استثناء ؟
فالجواب : ما قدمناه في قوله تعالى ^(٣) : (قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ
اللَّهُ) يعني أن الاستثناء بالمشيئة قد استعمل في أساليب القرآن ، للدلالة على الثبوت والاستمرار .

(١) [١٤ / إبراهيم / ٤٨] . (٢) [٣٩ / الزمر / ٧٤] .

(٣) [٧ / الأعراف / ١٨٨] .

والنكتة في الاستثناء بيان أن هذه الأمور الثابتة الداعة إنما كانت كذلك بمشيئة الله تعالى لا بطبيعتها في نفسها ، ولو شاء تعالى أن يغيرها لفعل .
وقد أشار لهذا ابن كثير بقوله : يعني أن دوامهم ليس أمراً واجباً بذاته ، بل موكل إلى مشيئته تعالى .

وابن عطية بقوله : هذا على طريق الاستثناء الذي ندب الشارع إلى استعماله في كل كلام كقوله : (لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ)^(١) فليس يحتاج أن يوصف بمتصل ولا منقطع .

والمفسرين هنا وجوه كثيرة ، وما ذكرناه أحقها وأبدعها .
ولما قص تعالى قصص عبدة الأوثان وذكر ما أحله بهم من نقمة ، وما أعد لهم من عذاب قال :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٩] (فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْْبُدُونَ هَؤُلَاءِ ، مَا يَعْْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ ، وَإِنَّا لَمَوْفُوهُمْ نَصِيبُهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ)

« فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْْبُدُونَ هَؤُلَاءِ » أى في شك من عبادتهم ، في أنها ضلال مؤد إلى مثل ما حلّ بمن قبلهم . وفيه تسليمة له صلوات الله عليه ، وعدة بالانتقام ، ووعيد لهم . « مَا يَعْْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ » أى فهم سواء في الاشرار ، وقد بلغك ما نزل بأبائهم ، فسيحلّ بهم مثله . وهو استئناف معلل للنهي عن المرية . « وَإِنَّا لَمَوْفُوهُمْ نَصِيبُهُمْ » أى من العذاب ، كما وفي آياتهم « غَيْرَ مَنْقُوصٍ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٠] (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ ، وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ

رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ، وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ)

« وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ » أى التوراة « فَاخْتَلَفَ فِيهِ » أى آمن به قوم ، وكفر به آخرون ، كما اختلف هؤلاء فى القرآن . « وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ » يعنى ما أشير إليه فى قوله تعالى (١) : (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ) « لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ » أى باستئصالهم . « وَإِنَّهُمْ » أى هؤلاء ، وهم كفار مكة « لَفِي شَكٍّ مِنْهُ » أى القرآن « مُرِيبٍ » أى موقع للناس فى الريبة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١١] (وَإِنْ كُنَّا لَمَّا لِيُوقِنَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ ، إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)

« وَإِنْ كُنَّا لَمَّا لِيُوقِنَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ » إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ » أى فلا يخفى عليه شئ منه ، وسيجزىهم عليه . والتنوين فى (كُنَّا) عوض عن المضاف ، أى وإن كل المختلفين فيه .

تفسيه :

فى هذه الآية قراءات : قرأ (إن) و (لما) مخففتين ومشددتين ، وبتخفيف (إن) وتشديد (لما) ، وبمعكسها . وهذه الأربع قراءات كلها متواترة .

فأما الأولى : فيها إعمال (إن) الخففة ، وهى لغة ثابتة عن العرب ، واللام فى (لما) لأمر الابتداء ، داخلية فى خبر (إن) . و (ما) إما موصولة بمعنى (الذين) واقعة على من يعقل ، واللام فى (ليوفينهم) جواب قسم مضمرة . أى : وإن كُنَّا للذين ، والله ! ليوفينهم . وإما نكرة موصوفة ، والجملة القسمية وجوابها صفة (ما) . أى : وإن كُنَّا لخلق ، أو

(١) [٨ / الأنفال / ٣٣] .

لفريق ، والله ! ايوفينهم . وقيل : اللام الأولى موطئة للقسم ، ولما اجتمع اللامان ، واتفقا في اللفظ ، فصل بينهما بـ (ما) ، فهي زائدة لإصلاح اللفظ . وقيل : اللام المذكورة هي الفارقة بين الخففة والنافية . وقيل : إنها جواب القسم كررت تأكيذاً .

وأما الثانية : وهي تشديدهما ، فـ (إن) على حالها ، وما بعدها منصوب على أنه اسمها ، و (لَمَّا) بمعنى (إلاً) أو جازمة بمعنى (لم) ومجزؤها محذوف . أى : لما يمهلوا ، أو لما يوفوا أعمالهم إلى الآن ، وسيوفونها .

وأما الثالثة : وهي تخفيف (إن) وتشديد (لَمَّا) ، فـ (إن) مخففة عاملة كما تقدم ، و (لَمَّا) بمعنى (إلاً) أو جازمة أيضاً . أو (إن) نافية بمنزلة (ما) و (لَمَّا) بمعنى (إلاً) و (كُلاً) منصوب بمضمر ، أى : وما أرى كُلاً إلا .

وأما الرابعة : وهي تشديد (إن) وتخفيف (لَمَّا) فواضحة . فـ (إن) هي الشددة عملت عملها .

والكلام في (اللام) و (ما) مثل ما تقدم أولاً من الوجوه الأربعة في (اللام) والثلاثة في (ما) .

وتمت قراءات آخر فلتراجع في (السمين) وغيره .
وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٢] (فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا ، إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

« فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ » أى في القرآن ، و (الكاف) للتشبيه ، أو بمعنى (على) « وَمَنْ تَابَ مَعَكَ » أى من الشرك ، وهم المؤمنون . « وَلَا تَطْغَوْا » أى تجاوزوا حدود الله « إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » أى فيجازيكم به . قال ابن كثير : يأمر تعالى رسوله والمؤمنين بالثبات والدوام على الاستقامة ، وذلك من أكبر العون على النصر ، وينهى عن الطغيان ، وهو البغي ، فإنه مصرعة ، ولو كان على مشرك .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٣] (وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءٍ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ)

« وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا » أى أنفسهم بالشرك والمعاصى . أى : لا تسكنوا إليهم . ولا تطمئنوا إليهم ، لما يفضى الركون من الرضا بشرهم وتقويتهم ، وتوهين جانب الحق . « فَتَمَسَّكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءٍ » أى أنصار يمنعون عذابه عنكم بركونكم إليهم . « ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ » أى لا تمنعون مما يراد بكم . والقصد تبعيد المؤمنين عن موادة المشركين المحاذين لله ولرسوله ، والثقة بهم ، وهم أعظم عقبة في الصدة عن سبيل الله ، لأن ذلك ينافى الإيمان .

قيل : الآية أبلغ ما يتصور في النهى عن الظلم ، والتهديد عليه ، لأن هذا الوعيد الشديد إذا كان فيمن يركن إلى أهله ، فكيف بمن يغمس في حماته ؟

تنبيه :

قال بعض المفسرين البنانين : الآية صريحة بأن الركون إلى الظلمة محرّم وكبيرة ، لأنه تعالى توعد بالنار . ولكن ما هو الركون الذى أراده تعالى ؟ قلنا : فى ذلك وجوه ؟
فروى عن ابن عباس والأصم أن المعنى : لا تميلوا إلى الظلمة فى شيء من دينكم .
وقيل : ترضوا بأعمالهم - عن أبى العالية - .
وقيل : تلحقوا بالمشركين - عن قتادة - .
وقيل : تداهنوا بالظلمة - عن السدى وابن زيد - .

وقيل : الدخول معهم فى ظلمهم ، وإظهار الرضا بفعلهم ، وإظهار موالاتهم . فأما إذا دخل عليهم لدفع شرهم ، فيجوز ، لأنه تعالى أمر بالرفق فى مخالطة الكفار ، والظلمة أولى . قال الزمخشري : النهى يتناول الانحطاط فى هواهم ، والانتقطاع إليهم ، ومصاحبتهم ومجالستهم وزيارتهم ومداهنتهم ، والرضا بأعمالهم ، والتشبه بهم ، والتزّي بزيتهم ، ومد العين

إلى زهرتهم ، وذكركم بما فيه تعظيم لهم . وتأمل قوله : (وَلَا تَرَوْا كُنُوفًا) فإن الركون هو الميل اليسير . وقوله : (إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا) أى إلى الذين وجد منهم الظلم ، ولم يقل : إلى الظالمين .

وحكى أن الموفق صلى خلف الإمام ، فقرأ بهذه الآية ، فغشى عليه ، فلما أفاق قيل له ، فقال : هذا فيمن ركن إلى من ظلم ، فكيف بالظالم ؟ ! انتهى .

قال البيهقي : قد وسع العلماء في ذلك وشددوا ، والحالات تختلف ، والأعمال بالنيات ، والتفصيل أولى ، فإن كانت المخالطة لدفع منكر ، أو استمانة عليه ، أو رجاء تركهم الظلم ، أو استكفاء ضرورهم فلا حرج في ذلك ، وربما وجب . وإن كان لإيئاسهم وإقراهم فلا . انتهى - .

وأقول : كل هذا مبنى على عموم الآية ، وأما إن كانت في مشركى مكة ، اعتماداً على سباق الآية وسياقها ، فالمراد منها ما ذكرناه أولاً - والله أعلم - .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٤] (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلَّذِينَ كَرِهُوا)

« وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ » أى غدوة وعشية « وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ » أى وساعات منه ، وهى ساعاته القريبة من آخر النهار . من (أزلفه) إذا قربه ، وأزدلف إليه . وصلاة الغدوة : الفجر . وصلاة العشي : الظهر والعصر ، لأنهما بعد الزوال عشي ، وصلاة الزايف المغرب والعشاء - كذا فى الكشف - .

والآية كقوله تعالى (٢) : (أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ)

في جمعهما للصلوات الخمس جمعا بالغا غاية اللطف في بلاغة الإيجاز . وانتصاب (طرفي النهار) على الظرف لإضافته إليه . و (زلفا) قرأها العامة بضم ففتح ، جمع زلفة ، كظلمة وظلم . وقرئ بضمهما ، إما على أنه جمع زلفة أيضا ، ولـكن ضمت عينه إتباعاً لفائه ؛ أو على أنه اسم مفرد كعنق . أو جمع زليف بمعنى زلفة كزغيف وزغف .

وقرئ بإسكان اللام ، إما بالتخفيف ، فيكون فيها ماتقدم ، أو على أن السكون على أصله ، فهو كبسرة وبسر ، من غير إتباع .

وقرئ (زلفي) كحلبى ، بمعنى قريبة ، أو على إبدال الألف من التنوين ، إجراء للوصل مجرى الوقف . ونصبه إما على الظرفية ، بمعطفه على (طرفي النهار) لأن المراد به الساعات ، أو على عطفه على (الصلاة) ، فهو مفعول به .

والزلفة عند ثعلب ، أول ساعات الليل .

وقال الأخفش : مطلق ساعات الليل ، وأصل معناه القرب . يقال ازدلف أى اقترب .

و (من الليل) صفة زلفا - كذا في العناية - .

« إِنَّ الْحَسَنَاتِ » أى التى من جملتها ، بل عمدتها ، ما أمرت به من الصلوات « يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ » أى التى قلما يخلو منها البشر ، أى يكفرنها . « ذَلِكَ » أى إقامة الصلوات فى الأوقات المذكورة ، « ذِكْرَىٰ لِلَّذِينَ كَرِهُوا » أى ذكرى له تعالى ، وإحضار للقلب معه ، وتصفية من كدورات اللهو والنسيان لمعظمته .

وقد روى عن ابن مسعود رضى الله عنه ؛ أن رجلا جاء إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ! إنى عالجت امرأة فى أقصى المدينة ، وإنى أصبت منها ما دون أن أمسها ، وأنا هذا . فاقض فى ما شئت ! فقال له عمر رضى الله عنه : لقد سترك الله تعالى لو سترت على نفسك . قال فلم يرد النبي ﷺ شيئا . فقام الرجل ، فانطلق فأتبعه النبي ﷺ رجلا فدعاه ، وتلا عليه هذه الآية (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَى النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ) الخ .

فقال رجل من القوم : يا رسول الله ! هذا له خاصة ؟ قال : بل للناس كافة - أخرجه البخارى^(١) وغيره .

وفى رواية عن أبى أمامة^(٢) قال له ﷺ : أتممت الوضوء وصليت معنا ؟ قال : نعم . قال : فإنك من خطيئتك كما ولدتك أمك ، فلا تَعُدْ . وقرأ الآية .

وفى رواية : فنزلت الآية ، والمراد بالنزول شمولها ، بنزولها المتقدم ، لا وقع ، لأنها كانت سبباً فى النزول - كما بيناه غير مرة - .

وفى الصحيح^(٣) عن أبى هريرة عن النبي ﷺ قال : أرايتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات ، هل يبقى من دونه شيء ؟ قالوا : لا . قال : فذلك مثل الصلوات الخمس ، يحج الله بها الخطايا . ورواه البخارى أيضاً عن جابر ، ورؤى نحوه عن عثمان وسلمان .

والإمام أحمد^(٤) عن معاذ ؛ أن رسول الله ﷺ قال : أتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن .

(١) أورده البخارى ، موجزاً ، فى : ٦٥ - كتاب التفسير ، ١١ - سورة هود ، ٦ - باب وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَى النَّهَارِ وَزُلُفًا مِّنَ اللَّيْلِ ، حديث رقم ٣٤٢ .

أما النص الذى ساقه المؤلف ، فهو ما أخرجه مسلم فى صحيحه فى ٤٩٠ - كتاب التوبة ، ٧ - باب قوله تعالى : إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ، حديث رقم ٤٢ (طبعنا) .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٤٩ - كتاب التوبة ، حديث رقم ٤٥ (طبعنا) .

(٣) أخرجه البخارى فى ٩ - كتاب مواقيت الصلاة ، ٦ - باب الصلوات الخمس

كفارة ، حديث ٣٤٤ . (٤) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة ٢٢٨ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) .

وله عن أبي ذر^(١) مرفوعاً (إذا عملت سيئة فأتبعتها حسنة تمحها) قلت : يا رسول الله أمن الحسنات لا إله إلا الله ؟ قال (هى أفضل الحسنات) أى : فالحسنات مثل الصلاة والذكر والصدقة والاستغفار ، ونحو ذلك من أعمال البر .

لطيفة :

أشار القاشانى عليه الرحمة ، إلى سر الصلوات الخمس فى أوقاتها بما يجدر الوقوف عليه ، فقال :

لما كانت الحواس الخمس شواغل تشغل القلب بما يرد عليه من الهيئات الجسمانية ، وتجذبه عن الحضرة الرحمانية ، وتحجبه عن النور والحضور ، بالإعراض عن جناب القدس ، والتوجه إلى معدن الرجس ، وتبدله الوحشة بالأنس ، والسكورة بالصفاء - فرضت خمس صلوات ، يتفرغ فيها العبد للحضور ، ويسد أبواب الحواس ، لئلا يرد على القلب شاغل يشغله ، ويفتح باب القلب إلى الله تعالى بالتوجه والنية ، لوصول مدد النور ، ويجمع همه عن التفرق ، ويستأنس بربه عن التوحش ، مع اتحاد الوجهة ، وحصول الجمعية ، فتكون تلك الصلوات خمسة أبواب مفتوحة للقلب ، على جناب الرب ، يدخل عليه بها النور بإزاء تلك الخمسة المفتوحة إلى جانب الغرور ، وداراً للعين الغرور ، التى تدخل بها الظلمة لبُذْهِبَ النور الوارد آثار ظلماتها ، ويكسح غبار كدوراتها . وهذا معنى قوله : (إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ) :

وقد ورد فى الحديث^(٢) (إن الصلاة إلى الصلاة كفارة ما بينهما ما اجتنبت الكبائر) وأمر بإقامتها طرفى النهار ، لينسحب حكمها ببقاء الجمعية ، واستيلاء الهيئة النورية ، فى أوله إلى سائر الأوقات ، فعسى أن يكون من الذين هم على صلاتهم دائمون ، لدوام ذلك الحضور ،

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة رقم ١٥٣ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي).

(٢) أخرجه مسلم فى ٢٠ - كتاب الطهارة ، حديث رقم ١٦ (طبعنا) عن أبى هريرة .

وبقاء ذلك النور، ويكسح ويزيل في آخره ما حصل في سائر الأوقات من التفرقة والكدورة. ولما كانت القوى الطبيعية المدبرة لأمر الغذاء ، سلطانها في الليل ، وهي تجذب النفس إلى تدبير البدن بالنوم عن عالمها الروحاني ، وتجزئها عن شأنها الخاص بها ، الذي هو مطالعة عالم القدس بشغلها باستعمال آلات الغذاء ، لمارة الجسد ، فتسلبها اللطافة ، وتكدرها بالفساوة - احتيج إلى تلطيفها وتصفيتها باليقظة ، وتنويرها بالصلاة ، فقال : (وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ) . انتهى . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٥] (وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ)

« وَاصْبِرْ » أى على مشاق ما أمرت به من التبليغ ، أو على ما يقولون ، أو على الصلاة كقوله ^(١) : (وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا) ولا مانع من شموله للكل .

« فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ » أى في أعمالهم فيوفيه أجورهم من غير بخس . قال أبو السمود : وإنما عبر عن ذلك بنفي الإضاعة ، لبيان كمال نزاهته تعالى عن ذلك ، بتصويره بصورة ما يتمتع صدوره عنه سبحانه ، وإبراز الإثابة في معرض الأمور الواجبة ، مع الإيماء إلى أن الصبر على ما ذكر من باب الإحسان . انتهى .

وأشار الشهاب في (الغاية) هنا إلى لطيفة من البلاغة القرآنية ، وهو أن الأوامر بأفعال الخير أفردت للنبي ﷺ ، وإن كانت عامة في المعنى ، وفي النهيات جمعت للأمة . وقوله تعالى :

(١) [٢٠ / طه / ١٣٢] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٦] (فَالْوَلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ ، وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ)

« فَالْوَلَا كَانَ » أى فهلا وجد « مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ » أى بعمل الشرور والمنكرات ، فإنه لو كان منهم ناهون لم يؤخذ الباقون « إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ » استثناء منقطع . أى لكن قليلاً ممن أنجينا من القرون نهوا عن الفساد ، وسائرهم تاركون للنهي .
لطيفة :

(البقية) إما بمعنى الباقية ، والتأنيث لمعنى الخصلة أو القطعة . أو بقية من الرأى والعقل . أو بمعنى الفضيلة ، والتاء للنقل إلى الاسمية كالديحة . وأطلق على الفضل (بقية) استعارة من البقية التى يصطفى المرء لنفسه ، ويدخرها مما ينفعه ، فإنه يفعل ذلك بأنفسها . ولذا قيل : (فى الزوايا خبايا ، وفى الرجال بقايا) ، و (فلان من بقية القوم) أى من خيارهم . وجوز كون (البقية) مصدراً بمعنى (البقوى) ، كالتقية بمعنى التقوى . أى فهلا كان منهم ذوو إبقاء على أنفسهم ، وصيانة لها من سطخه تعالى وعقابه .

« وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ » أى ما صاروا منغمين فيه من الشهوات ، حتى فجأهم العذاب ، واتباعه كناية عن الاهتمام به ، وترك غيره ، كما هو دأب التابع للشيء . و (الَّذِينَ ظَلَمُوا) أعم من المباشرين بأنفسهم للفساد ، ومن تاركى النهى عنه . وقصره الزمخشري على الثانى ، لأنهم المقصود بالنهى قبله ، حيث قال : أراد به (الذين ظلموا) تاركى النهى عن المنكرات ، أى لم يهتموا بما هو ركن عظيم من أركان الدين وهو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وعقدوا همهم بالشهوات ، واتبعوا ما عرفوا فيه النعم والتترف ، من حب الرئاسة والثروة ، وطلب أسباب العيش الهنىء ، ورفضوا ما وراء ذلك ، ونبدؤوا وراء ظهورهم .

«وَكَاْنُوا مُجْرِمِيْنَ» أى باتباعهم المذكور ، أو كافرين . قال القاضى : كأنه أراد أن يبين ما كان السبب لاستئصال الأمم السالفة ، وهو فشو الظلم فيهم ، واتباعهم للهوى ، وترك النهى عن المنكرات مع الكفر ، وقد أشير لذلك بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٧] (وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ)

« وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ » أى بأمرهم بالمعروف ، ونهيهم عن المنكر . و (بظلم) الباء فيه إما للملابسة ، وهو حال من الفاعل ، أى استحالة فى الحكمة أن يهلك القرى ظالماً لها ، وتنكيره للتفخيم ، والإيذان بأن إهلاك المصلحين ظلم عظيم . أو للسببية ، والظلم : الشرك . أى لا يهلك القرى بسبب إشراك أهلها وهم مصلحون ، يتماطون الحق فيما بينهم ولا يضمنون إلى شركهم فساداً آخر ، وذلك لفرط رحمته ، ومساعدته فى حقوقه تعالى . ولذا قيل : (يبقى الملك مع الشرك ، ولا يبقى مع الظلم) وهذا ، وإن كان صحيحاً ، إلا أن مقام دعوة الرسل إلى التوحيد ، ومحو الشرك أولاً ، ثم إلى الاستقامة فى المعاملات ثانياً - يقضى بحمل (الظلم) هنا على ما هو أعم من الشرك ، وأصناف المعاصى . وحمل الإصلاح على إصلاحه ، والإفلاخ عنه بكون بعضهم متصدين للنهى عنه ، وبعضهم متجهين إلى الانماط ، غير مصرين على ما هم عليه من الشرك ونحوه - كذا أشار له أبو السعود .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٨] (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ، وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ)

« وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً » أى مجمعة على الحق والإيمان والصلاح ، ولكنه لم يشأ ذلك « وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ » أى فى الحق ، منهم المؤمن به ، ومنهم الكافر به .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٩] (إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ ، وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ، وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)

«إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ» أى لكنّ ناسا رحمهم بهدايتهم إلى التوحيد ، وتوفيقهم للكمال ، فاتفقوا فى المذهب والمقصد ، ووافقوا فى السيرة والطريقة ، قبلتهم الحق ، ودينهم التوحيد والمحبة .

وقوله تعالى : « وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ » فى المشار إليه أقوال . أظهرها أنه للاختلاف الدال عليه (مختلفين) . فالضمير حينئذ للناس ، أى لثمره الاختلاف ، من كون فريق فى الجنة ، وفريق فى السعير ، خلقهم . واللام لام العاقبة والصوره ، لأن حكمة خلقهم ليس هذا ، لقوله تعالى ^(١) : (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) ولأنه لو خلقهم له ، لم يعذبهم عليه . أو الإشارة له وللرحمة المفهومة من (رحم) لتأويلها (أن والفعل) أو كونها بمعنى الخير . وتسكون الإشارة لائنين ، كما فى قوله ^(٢) (عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ) . والمراد لاختلاف الجميع ورحمة بعضهم ، خلقهم . وهذا معزوّ إلى ابن عباس رضى الله عنهما . وإن كان الضمير (من) فالإشارة للرحمة بالتأويل السابق - كذا فى العنايه - .

وأشار القاشانى إلى بقاء اللام على معناها ، وهو التعليل بوجه آخر ، حيث قال : وللاختلاف خلقهم ليستعمل كل منهم لشأن وعمل ، ويختار بطبعه أمرا وصنعة ، ويستقبح بهم نظام العالم ، ويستقيم أمر المعاش ، فهم محامل لأمر الله ، حمل عليهم حمول الأسباب والأرزاق ، وما يتعيش به الناس ، ورتب بهم قوام الحياة الدنيا ، كما أن الفئة المرحومة مظاهر لكماله ، أظهر الله بهم صفاته وأفعاله ، وجعلهم مستودع حكمه ومعارفه وأسراره .

(١) [٥١ / الذاريات / ٥٦] . (٢) [٢ / البقرة / ٦٨] .

وقوله تعالى : « وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ » أى أحكمت وأبرمت وثبتت وهى هذه : « لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ » والمراد من (الْجِنَّةِ النَّاسِ) عصاتهم ، والتعريف للعهد ، والقرينة عقلية ، لما علم من الشرع أن العذاب مخصوص بهم ، وأن الوعيد ليس إلا لهم ، ولا حاجة إلى تقدير مضاف كما قيل . بـ (أَجْمَعِينَ) حينئذ ظاهر ، وإن لم يحمل على العهد ، وأبقى على إطلاقه فائدة التأكيـد ببيان أن ملء جهنم من الصنفين ، لا من أحدهما فقط ، ويكون الداخـلـوها منهما مسكوتاً عنه ، موكولاً إلى علمه تعالى ، فاندفع ما أورد على ظاهرها من اقتضائه دخول جميع الفريقين جهنم . وبطلانه معلوم بالضرورة . أما على الأول فظاهر ، وأما على الثانى فالمراد بلفظ (أَجْمَعِينَ) تعميم الأصناف ، وذلك لا يقتضى دخول جميع الأفراد ، كما إذا قلت : ملأت الجراب من جميع أصناف الطعام ، فإنه لا يقتضى ذلك إلا أن يكون فيه شيء من كل صنف من الأصناف ، لا أن يكون فيه جميع أفراد الطعام . كقولك : امتلأ المجلس من جميع أصناف الناس ، لا يقتضى أن يكون فى المجلس جميع أفراد الناس ، بل يكون من كل فرد صنف ، وهو ظاهر . وعلى هذا تظهر فائدة لفظ (أجمعين) إذ فيه ردّ على اليهود وغيرهم ، ممن زعم أنه لا يدخل النار - كذا فى العناية - . ولما ذكر تعالى فيما تقدم من أنباء الأمم الماضية ، والقرون الخالية ، ما جرى لهم مع أنبيائهم - أشار هنا إلى سر ذلك وحكمته ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٠] (وَكَلَّا نَقْصُصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ، وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ)

«وَكَلَّا نَقْصُصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ» أى تقوى به قلبك لتصبر على أذى قومك ، وتتأسى بالرسـل من قبلك ، وتعلم أن العاقبة لك ، كما كانت لهم . و (كَلَّا) مفعول (لنقصص) و (من أنباء) بيان له . و (ما ثبت) بدل من (كَلَّا) أو خبر محذوف .

« وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ » أى السورة ، أو الأنباء المقتصة « الْحَقُّ » أى القصص الحق الثابت « وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ » أى عبرة لهم يحترزون بها عما أهلك الأمم ، وتذكير لما يجب أن يتدينوا به ، ويجملوه طريقهم وسيرتهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢١] (وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ)

« وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ » أى بهذا الحق ، ولا يتعظون ولا يتذكرون « اَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ » أى حالكم من اتباع الأهواء « إِنَّا عَامِلُونَ » أى على حالنا من اتباع ما جاءنا والاعتاظ والتذكر به .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٢] (وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ)

« وَانْتَظِرُوا » أى العواقب « إِنَّا مُنْتَظِرُونَ » أى ما وعدنا به من الفتح . وقد أنجز الله وعده . ونصر عبده ، فله الحمد وحده .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٣] (وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ، وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

« وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى فلا تخفى عليه خافية مما يجرى فيهما ، فلا تخفى عليه أعمالكم . « وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ » أى أمر العباد فى الآخرة ، فيجازيهم بأعمالهم . وفيه تسلية للنبي ﷺ ، وتهديد للكفار بالانتقام منهم . « فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ » فإنه كافيك « وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ » بالياء التحمية فى قراء الجمهور ، مناسبة لقوله « لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ » وفى قراءة بالتاء الفوقية على تغليب المخاطب ، أى أنت وم . أى فيجازى كلاً بما يستحقه - والله أعلم - .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٢ - سورة يوسف

سميت به ، لأن معظم قصته مذكورة فيها ، ومعظم ما فيها قصته .
قال الشهاب : لما ختمت السورة التي قبلها بقوله ^(٢) : (وَكَلاَّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ) ، ذكرت هذه بعدها ، لأنها من أنبأهم . وقد ذكر أولاً ما لقي الأنبياء عليهم السلام من قومهم ، وذكر في هذه ما لقي يوسف من إخوته ، ليعلم ما فاسوه من أذى الأجانب والأقارب ، فبينهما أتم المناسبة . والمقصود تسلية النبي ﷺ بما لاقاه من أذى القريب والبعيد . انتهى .

و (يوسف) اسم عبراني ، تعريبه يزيد ، أو زيادة . وذلك لما روى أن أمه (راحيل) كانت قعدت عن الحمل مدة ، ولحقها الحزن تلقاء ضراتها الوالدات . ولما وهبها تعالى ، بعد سنين ، ولدأ سمته (يوسف) وقالت : يزيدني به ربى ولدأ آخر .

وهذه السورة مكية اتفاقاً ، وآيها مائة وإحدى عشرة بلا خلاف .

وقد روى البيهقي في (الدلائل) أن طائفة من اليهود ، حين سمعوا رسول الله ﷺ يتلو هذه السورة ، أسلموا لموافقتها ما عندهم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ)

«الر» تقدم الكلام على مثله ، وأنها إما حروف مسرودة على نمط التمديد ، والإشارة في قوله : «تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ» إلى آيات السورة ، نزل ما بعده ، لكونه مترقياً ، منزلة المتقدم . والإشارة بالبعيد لعظمته ، وبعد مرتبته . وإما اسم للسورة ، والإشارة في (تلك) إليها . والمراد بـ (الكتاب) السورة لأنه بمعنى المكتوب ، فيطلق عليها . أو القرآن ، لأنه كما يطلق على كله ، يطلق على بعضه . و (المبين) بمعنى الظاهر أمرها وإعجازها ، إن أخذ من (بان) لازماً بمعنى ظهر ؛ وإن أخذ من المتعدى فالفعلول مقدر ، أي أنها من عند الله تعالى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢] (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)

«إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ» أي الكتاب المنعوت بما ذكر «قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ» أي لكي تفهموه ، وتحيطوا بمعانيه ، ولا يلتبس عليكم . كما قال تعالى ^(١) : (وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ) . أو لتستعملوا فيه عقولكم ، فتعلموا أن اقتصاصه كذلك ، ممن لم يتعلم القصص ، معجز ، لا يمكن إلا بالإيجاء . أو (لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) بإزالة عريتها ، ما تضمن من المعاني والأسرار ، التي لا يتضمنها ولا يحتملها غيرها من اللغات . وذلك لأن لغة العرب أفصح اللغات وأبينها وأوسعها ، وأكثرها تأدية للمعاني التي تقوم

(١) [٤١ / فصلت / ٤٤] .

بالنفوس . قال بعضهم : نزل أشرف الكتب ، بأشرف اللغات ، على أشرف الرسل ، بسفارة أشرف الملائكة ، وكان ذلك في أشرف بقاع الأرض ، وفي أشرف شهور السنة ، وهو رمضان ، فأكمل له الشرف من كل الوجوه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣] ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾

« نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ » أى أبدعه طريقة ، وأعجبه أسلوباً ، وأصدقه أخباراً ، وأجمه حكماً وعبراً « بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ » أى بإيحاءنا إليك « هَٰذَا الْقُرْآنَ » وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ « أى عنه ، لم يخطر ببالك . والتعبير عن عدم العلم بالغفلة لإجلال شأن النبي ﷺ . وقد جوز في هذا أن يكون مفعول نقص ، على أن (أحسن) نصب على المصدر . وأن يكون مفعول (أوحينا) على أن مفعول نقص (أحسن) أو محذوف . وأن يكون بدلاً من (ما) على أنها موصولة أو خبر محذوف كذلك .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾

« إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ » يعنى يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام . والظرف بدل من المفعول قبله بدل اشتمال ، أو مفعول لمحذوف . « يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ » إنما ناجى يوسف أباه بهذه الرؤيا ، لاعتقاده كمال علمه ، وشفقته عليه ، بحيث لو كانت رؤياه تسوءه لأمكنه صرفها عنه .

قال القاشانى : هذه من المنامات التى تحتاج إلى تعبير ، لانتقال المتخيلة من النفوس

الشريفة التي عرض على النفس من الغيب سجودها له ، إلى السكواكب والشمس والقمر ، وما كانت في نفس الأمر إلا أبويه وإخوته . (يا أبت) أصله يا أبى ، فعوض عن الياء تاء التأنيث لتناسبهما في الزيادة ، وكسرهما لأنه عوض عن حرف يناسبها . وقرئ بفتحها لأنها حركة أصلها ، أو لأنه كان (يا أبتاً) فحذف الألف ، وبقي الفتحة . وقرئ بالضم إجراء لها مجرى الأسماء المؤنثة بالتاء ، من غير اعتبار التعميض . وقوله : (رأيتم) استئناف لبيان حالهم التي رآهم عليها ، فلا تكرير : أو تأكيد للأولى تطرية لطول العهد ، كما في قوله ^(١) : (أَيْمِدْكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مُتُّمْ وَكُنْتُمْ تَرَابًا وَعِظَامًا أَنْكُمْ مُخْرَجُونَ) . وإنما أجريت مجرى العقلاء في ضميرهم وجمع صفتهم جمعاً سالماً ، لوصفها بوصفهم ، وهو السجود . قال المهاييمى : ولو صح كونها ناطقة فلا إشكال . قال : ولم أرَ مَنْ تعرض لهيأة السجود ، ولعله تحريك جانبها الأعلى إلى الأسفل ، مستديرة ظهرت أو مستطيلة اهـ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] (قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ، إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ)

« قَالَ يَا بُنَيَّ » صغره لصغر سنه ، وللشفقة عليه ، ولمذبوبة المصغّر ، « لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا » أى فيفعلوا لأجلك أو لإهلاكك تحيلاً عظيماً متلفاً لك . « إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ » أى ظاهر المداوة ، فلا يألو جهداً في إغواء إخوتك وحملهم على ما لا خير فيه .

قال القاشانى : هذا النهى من الإلهامات المجملة ، فإنه قد يلوح صورة الغيب من المجردات الروحانية في الروح ، ويصل أثره إلى القلب ، ولا يتشخص في النفس مفصلاً ،

(١) [٢٣ / المؤمنون / ٣٥] .

حتى يقع العلم به كما هو ، فيقع في النفس منه خوف واحتراز إن كان مكروهاً ، وفرح وسرور إن كان مرغوباً . ويسمى هذا النوع من الإلهام ، إنذارات وبشارات . نخاف ، عليه السلام ، من وقوع ما وقع قبل وقوعه ، فنهاه عن إخبارهم برؤياه احترازاً ، ويجوز أن يكون احترازه كان من جهة دلالة الرؤيا على شرفه وكرامته ، وزيادة قدره على إخوته ، نخاف من حسدهم عليه عند شعورهم بذلك . انتهى .

تنبيه :

قال السيوطي في (الإكليل) . قال السكيا : هذا يدل على جواز ترك إظهار النعمة لمن يخشى منه حسد ومكروه .

وقال ابن العربي : فيه حكم بالعادة أن الإخوة والقرابة يحسدون . قال : وفيه أن يعقوب عرف تأويل الرؤيا ولم يبال بذلك ، فإن الرجل يود أن يكون ولده خيراً منه ، والأخ لا يود ذلك لأخيه .

وقال بعض المفسرين اليمانيين : قال الحاكم : هذا يدل على أنه يجب في بعض الأوقات إخفاء فضيلة ، تحرز من الحسود . وهذا داخل في قولنا : إن الحسن إذا كان سبباً للقبیح فبج . ومنه آية الأنعام^(١) : (وَلَا تَسْبُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسْبُوا اللَّهَ عَدُوًّا بِغَيْرِ عِلْمٍ) وفي هذا ما ذكر عن زين العابدين :

إني لأكتم من علمي جواهره كي لا يرى الحق ذو جهل فيفتننا

الآيات المعروفة ، ذكرها عن زين العابدين ، الغزالي في (منهاج العابدین) والديلمی في كتاب (التصفية) . وهذا يعقوب صلوات الله عليه أمر يوسف أن لا يقص رؤياه على إخوته ، والمعنى واحد ، فلا معنى للإنكار من ينكر ويزعّم أن العلم لا يحل كتمه . انتهى . ومقصوده أن خوف شر الأشرار من الصوارف عن الصدع بالحق .

(١) [٦ / الأنعام / ١٠٨] .

قال السيد ابن المرتضى اليماني في (إيثار الحق) : مما زاد الحق عموضاً وخفاءً خوف
العارفين ، مع قلتهم ، من علماء السوء ، وسلاطين الجور ، وشياطين الخلق ، مع جواز التقية
عند ذلك ، بنص القرآن ، وإجماع أهل الإسلام . وما زال الخوف مانعاً من إظهار الحق ،
وما برح الحق عدواً لأكثر الخلق .

وذكر رحمه الله قبل في الاستدلال على التقية ؛ أنه تعالى أننى على مؤمن آل فرعون ،
مع كتم إيمانه ، وسميت به سورة (المؤمن) . وصح أمر عمار به ، وتقريه عليه ، ونزلت
فيه ^(١) : (إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ) . وقد صح عن أبي هريرة ^(٢) أنه
قال في ذلك العصر الأول : حفظت من رسول الله ﷺ وعاءين ، أما أحدهما فبثنته لكم ،
وأما الآخر فلو بثنته لقطع هذا البلعوم . قال الغزالي في خطبة (المقصد الأسنى) : من
خالط الخلق جدير بأنه يتحاشى . لكن من أبصر الحق عسير عليه أن يتعاضى . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦] (وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ
عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ
وإِسْحَاقَ ، إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

« وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ » أى مثل ذلك الاصطفاء ، بإراءة هذه الرؤيا العظيمة
الشأن ، بصطفيك للنبوّة والسيادة « وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ » أى تعبير المنامات ،
وإنما سمي التعبير تأويلاً ، لأنه جعل المرثى آيلاً إلى ما يذكره المعبر بصدد التعبير ، وراجعاً
إليه . والأحاديث اسم جمع للحديث ، سميت به الرؤيا لأنها إلهام حديث ملك أو نفس أو شيطان .

(١) [١٦ / النحل / ١٠٦] . (٢) أخرجه البخاري في : ٣ - كتاب العلم ،

٤٢ - باب حفظ العلم ، حديث رقم ١٠٣ .

« وَبِئْسَ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ » أى بما سيؤول إليه أمرك « وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ » وهم أهله من بنيه ، وحاشيتهم ، أى يسبح نعمته عليهم بك « كَمَا أَنَّهُمَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ » بمن هو مستحق للاجتماع « حَكِيمٌ » فى صنعه .

تنبيهات :

الأول - قال أبو السعود ؛ كأن يعقوب عليه السلام أشار بقوله : (وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ) إلى ما سيقع من يوسف عليه السلام ، من تعبيره لرؤيا صاحبي السجن ، ورؤيا الملك ، وكون ذلك ذريعة إلى ما يبلغه الله إليه من الرياسة العظمى التى عبر عنها بإتمام النعمة . وإنما عرف يعقوب عليه السلام ذلك منه من جهة الوحي . أو أراد كون هذه الخصلة سبباً لظهور أمره عليه السلام على الإطلاق ، فيجوز حينئذ أن تكون معرفته بطريق الفراسة ، والاستدلال من الشواهد والدلائل والأمارات والخيال ، بأن من وفقه الله تعالى لمثل هذه الرؤيا ، لابد من توفيقه لتعبيرها ، وتأويل أمثالها ، وتمييز ما هو آفاق منها ، مما هو أنفسي كيف لا ، وهى تدل على كمال تمكن نفسه عليه السلام فى عالم المثال ، وقوة تصرفاتها فيه ، فيكون أقبل لفيضان المعارف المتعلقة بذلك العالم ، وبما يحاكيه من الأمور الواقعة بحسبها فى عالم الشهادة ، وأقوى وقوفاً على النسب الواقعة بين الصور الماينة فى أحد ذينك العالمين ، وبين الكائنات الظاهرة على وفقها فى العالم الآخر . وإن هذا الشأن البديع ، لابد أن يكون أنموذجاً لظهور أمر من اتصف به ، ومداراً لجريان أحكامه ، فإن لكل نبي من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام معجزة ، بها تظهر آثاره ، وتجرى أحكامه .

الثانى - استدل بالآية على أن (الجد) يطلق عليه اسم (الأب) ، فيدل أن من نسب رجلاً إلى جده وقال : (يا ابن فلان) ! أنه لا يكون قذفاً .

الثالث - قال المهايى : من فوائد هذا المقام استعجاب كتمان السر ، وجواز التحذير

عن شخص بِمَعْنَاهُ ، ومدح الشخص في وجهه إذا لم يضره ، واعتبار السبب وإن لم يؤثر؛ وأن لكل حادث تأويلًا عند الأولياء ، وأنه تعبر الرؤيا من الصغار ، وإن كان من عالم الخيال ، إذ تصور المخيلة معاني معقولة ، بصور محسوسة ، فترسلها إلى الحس المشترك فيشاهدها . والصادقة منها ما تكون باتصال النفس عند فراغها من تدبير البدن أدنى فراغ ، فيتصور بما فيها مما يناسب المعاني ، فإن كانت شديدة المناسبة استغنت عن التعبير ، وإلا احتاجت إليه فالأخبار عن هذه الرؤيا آية ، وعمّا ترتب عليها آيات .

بحث في الرؤيا

قال الإمام الراغب الأصفهاني في كتابه (الذريعة) في بحث (الفراسة) ما مثاله : ومن الفراسة علم الرؤيا . وقد عظم الله تعالى أمرها في جميع الكتب المنزلة ، وقال ^(١) لنبيه ﷺ (وَمَا جَمَعْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ) . وقال ^(٢) (إِذْ يُبَيِّنُ اللَّهُ لُكُلِهِ فِي مَنَامِكَ ...) الآية - وقال ^(٣) في قصة إبراهيم : (يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ) وقوله ^(٤) : (يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا) .

والرؤيا هي فعل النفس الناطقة ، ولو لم يكن لها حقيقة لم يكن لإيجاد هذه القوة في الإنسان فائدة . والله تعالى يتعالى عن الباطل . وهي ضربان : ضرب وهو الأكثر ، أضغاث أحلام وأحاديث النفس بالخواطر الردية ، لكون النفس في تلك الحال كالماء المتموج ، لا يقبل صورة .

وضرب وهو الأقل ، صحيح ، وذلك قسمان : قسم لا يحتاج إلى تأويل ، ولذلك يحتاج المعبر إلى مهارة ، يفرق بين الأضغاث وبين غيرها ، ولتمييز بين الكلمات الروحانية والجسمانية ،

(١) [١٧ / الإسراء / ٦٠] . (٢) [٨ / الأنفال / ٤٣] .

(٣) [٣٧ / الصافات / ١٠٢] . (٤) [١٢ / يوسف / ٤] .

ويفرق بين طبقات الناس ، إذ كان فيهم من لا تصح له رؤيا ، وفيهم من تصح رؤياه . ثم من صح له ذلك ، منهم من يرشح أن تلقى إليه في المنام الأشياء العظيمة الخطيرة ، ومنهم من لا يرشح له ذلك . ولهذا قال اليونانيون . يجب أن يشتغل العبر بعبارة رؤيا الحكماء والملوك دون الطعام ، وذلك لأن له حظاً من النبوة . وقد قال عليه الصلاة والسلام ^(١) : (الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة) وهذا العلم يحتاج إلى مناسبة بين متحريه وبينه ، فرب حكيم لا يرزق حدقاً فيه ورب نزر الخط من الحكمة وسائر العلوم ، توجد له فيه قوة عجيبة . انتهى .

وقال الأستاذ ابن خلدون : حقيقة الرؤيا مطالعة النفس الناطقة ، في ذاتها الروحانية ، لحظة من صور الواقعات . فإنها عند ما تكون روحانية تكون صور الواقعات فيها موجودة بالفعل ، كما هو شأن الذوات الروحانية كلها ، وتصير روحانية بأن تتجرد عن المواد الجسمية ، والمدارك البدنية . وقد يقع لها ذلك لحظة بسبب النوم ، كما نذكر ، فتقتبس بها علم ما تشوف إليه من الأمور المستقبلية ، وتعود به إلى مداركها . فإن كان ذلك الاقتباس ضعيفاً ، وغير جليّ بالمحاكاة ، والمثال في الخيال لتخلطه فيحتاج من أجل هذه المحاكاة إلى التعبير . وقد يكون الاقتباس قوياً يستغنى فيه عن المحاكاة ، فلا يحتاج إلى تعبير لخلوصه من المثال والخيال والسبب في وقوع هذه اللحظة للنفس ، أنها ذات روحانية بالقوة ، مستكملة بالبدن ومداركه ، حتى تصير ذاتها تعقلاً محضاً ويكمل وجودها بالفعل ، فتكون حينئذ ذاتاً روحانية مدركة بغير شيء من الآلات البدنية ، إلا أن نوعها من الروحانيات دون نوع الملائكة ، أهل الأفق الأعلى ، على الذين لم يستكملوا ذواتهم بشيء من مدارك البدن ،

(١) أخرجه البخاري في : ٩١ - كتاب التعبير ، ٢ - باب رؤيا الصالحين ، حديث

٢٥٣٦ ونصه : عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال « الرؤيا الحسنة من الرجل الصالح . . . » .

ولا غيره . فهذا الاستعداد حاصل لها ما دامت في البدن . ومنه خاص ، كالذى للأولياء . ومنه عام للبشر على العموم ، وهو أمر الرؤيا . وأما الذى للأنبياء فهو استعداد بالانسلاخ من البشرية إلى الملكية المحضة التى هى أعلى الروحانيات . ويخرج هذا الاستعداد فيهم متكرراً في حالات الوحي ، وهى عندما يمرج على المدارك البدنية ، ويقع فيها ما يقع من الإدراك ، شبيهاً بحال النوم شبيهاً بيناً ، وإن كان حال النوم أدون منه بكثير . فلأجل هذا الشبه عبر الشارع عن الرؤيا بأنها (جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة) - وفى رواية (ثلاثة وأربعين) ، وفى رواية (سبعين) وليس العدد فى جميعها مقصوداً بالذات ، وإنما المراد الكثرة فى تفاوت هذه المراتب ، بدليل ذكر السبعين فى بعض طرقه ، وهو للتكثير عند العرب ، وما ذهب إليه بعضهم فى رواية (ستة وأربعين) من أن الوحي كان فى إيمقائه بالرؤيا ستة أشهر ، وهى نصف سنة ومدة النبوة كلها بمكة والمدينة ثلاث وعشرون سنة ، فنصف السنة منها جزء من ستة وأربعين - فكلام بعيد من التحقيق . لأنه إنما وقع ذلك للنبي ﷺ . ومن أين لنا أن هذه المدة وقمت لغيره من الأنبياء ؟ مع أن ذلك إنما يعطى نسبة زمن الرؤيا من زمن النبوة ، ولا يعطى نسبة حقيقة النبوة من حقيقة النبوة . وإذا تبين لك هذا مما ذكرناه أولاً ، علمت أن معنى هذا الجزء نسبة الاستعداد الأول الشامل للبشر ، إلى الاستعداد القريب الخاص بصنف الأنبياء الفطرى لهم ، صلوات الله عليهم ، إذ هو الاستعداد البعيد . وإن كان عامّاً فى البشر ، ومعه عوائق وموانع كثيرة من حصوله بالفعل . ومن أعظم تلك الموانع الحواس الظاهرة ، ففطر الله البشر على ارتفاع حجاب الحواس بالنوم ، الذى هو جبلى لهم ، فتمرض النفس عند ارتفاعه إلى معرفة ما تتشوف إليه فى عالم الحق ، فتدرك بعض الأحيان منه لمحة يكون فيها الظفر بالمطوب . ولذلك جعلها الشارع من المبشرات فقال^(١) : (لم يبق من النبوة إلا المبشرات) ! قالوا : وما المبشرات يا رسول الله ! قال (الرؤيا الصالحة ، يراها الرجل الصالح ، أو ترى له) .

(١) أخرجه البخارى فى : ٩١ - كتاب التعبير ، باب المبشرات ، حديث ٢٥٤١

وأما سبب ارتفاع حجاب الحواس بالنوم ، فعلى ما أصفها لك : وذلك أن النفس الناطقة إنما إدراكها وأفعالها بالروح الحيوانى الجسمانى ، وهو بخار لطيف ، مركزه بالتجويف الأيسر من القلب - على ما فى كتب التشريح للجالينوس وغيره - وينبعث مع الدم فى الشريانات والعروق ، فيعطى الحس والحركة ، وسائر الأفعال البدنية ، ويرتفع لطيفه إلى الدماغ ، فيعدل من برده ، وتم أفعال القوى التى فى بطونه . فالنفس الناطقة إنما تدرك وتمثل بهذا الروح البخارى ، وهى متعلقة به ، لما اقتضته حكمة التكوين فى أن اللطيف لا يؤثر فى الكثيف . ولما لطف هذا الروح الحيوانى من بين المواد البدنية ، صار محلاً لآثار الذات المباشرة له فى جسمانيته ، وهى النفس الناطقة ، وصارت آثارها حاصلة فى البدن بواسطة .

وقد كنا قدّمنا أن إدراكها على نوعين : إدراك بالظاهر وهو بالحواس الخمس ، وإدراك بالباطن وهو بالقوى الدماغية . وأن هذا الإدراك كله صارف لها عن إدراكها ما فوقها من ذواتها الروحانية ، التى هى مستعدة له بالفطرة . ولما كانت الحواس الظاهرة جسمانية ، كانت معرضة للوسن والفشل ، بما يدركها من التعب والكلال ، وتغشى الروح بكثرة التصرف ، فخلق الله لها طلب الاستجمام ، لتجرد الإدراك على الصورة الكاملة . وإنما يكون ذلك بانخاس الروح الحيوانى من الحواس الظاهرة كلها ، ورجوعه إلى الحس الباطن . ويعين على ذلك ما يفسى البدن من البرد بالليل ، فقطلب الحرارة الغريزية أعماق البدن ، وتذهب من ظاهره إلى باطنه ، فتكون مشيعة مركبها ، وهو الروح الحيوانى ، إلى الباطن . ولذلك كان النوم للبشر فى الغالب إنما هو بالليل . فإذا انخس الروح عن الحواس الظاهرة ، ورجع إلى القوى الباطنة ، وخفت عن النفس شواغل الحس وموانعه ، ورجعت إلى الصورة التى فى الحافظة ، تمثل منها بالتركيب والتحليل صورة خيالية ، وأكثر ما تكون معتادة ، لأنها منتزعة من المدركات المتعاهدة قريباً . ثم ينزلها الحس المشترك ، الذى هو جامع الحواس الظاهرة ، فيدركها على أنحاء الحواس الخمس الظاهرة .

وربما التفتت النفس لفتة إلى ذاتها الروحانية ، مع منازعتها القوى الباطنية ، فتدرك بإدراكها الروحانيّ ، لأنها مفطورة عليه . وتقبس من صور الأشياء التي صارت متعلقة في ذاتها حينئذ ، ثم يأخذ الخيال تلك الصور المدركة ، فيمثلها بالحقيقة أو المحاكاة في القوالب المهيودة . والمحاكاة من هذه هي المحتاجة للتعبير ، وتصرّفها بالتركيب والتحليل في صور الحافظة ، قبل أن تدرك من تلك اللمحة ما تدركه هي - أضغاث أحلام .

وفي الصحيح أن النبي ﷺ قال ^(١) : (الرؤيا ثلاث : رؤيا من الله ، ورؤيا من الملك ، ورؤيا من الشيطان) وهذا التفصيل مطابق لما ذكرناه . فالجلى من الله ، والمحاكاة الداعية إلى التعبير من الملك ، وأضغاث الأحلام من الشيطان ، لأنها كلها باطل ، والشيطان ينبوع الباطل . هذه حقيقة الرؤيا ، وما يسببها ويشيمها من النوم . وهي خواص للنفس الإنسانية ، موجودة في البشر على العموم ، لا يخلو عنها أحد منهم ، بل كل واحد من الإنسان رأى في نومه ما صدر له في يقظته ، مراراً غير واحدة ، وحصل له القطع أن النفس مدركة للغيب في النوم ، ولا بد . وإذا جاز ذلك في عالم النوم ، فلا يمتنع في غيره من الأحوال ، لأن الذات المدركة واحدة ، وخواصها عامة في كل حال . انتهى .

وذكر رحمه الله عند بحث (علم تعبیر الرؤيا) أن التعبير لها كان موجوداً في السلف ، كما هو في الخلف ، وأن يوسف الصديق ، صلوات الله عليه ، كان يعبّر الرؤيا ، كما وقع في القرآن ، وكذلك ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ ، وعن أبي بكر رضي الله عنه . والرؤيا مدركة من مدارك الغيب كما تقدم . وأما معنى التعبير ، فاعلم أن الروح العقليّ ، إذا أدرك مدركه ، وألقاه إلى الخيال فصوره ، فإنما يصوره في الصور المناسبة لذلك المعنى بعض الشيء . ومن المرئى ما يكون صريحاً لا يفتقر إلى تعبیر ، لجلائها ووضوحها ، أو اقرب الشبه فيها بين المدرك وشبهه . وللبحث تمة سابعة ، انظرها تمة .

(١) أخرجه البخاري عن أبي هريرة في : ٩١ - كتاب التعبير ، ٢٦ - باب القيد في

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧] (لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلِّسَّائِلِينَ)

« لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ » أى فى قصتهم وحديثهم « آيَاتٌ » أى دلائل على قدرته تعالى ، وحكمته فى كل شىء « لِلِّسَّائِلِينَ » أى لمن سأل عن نبئهم . أو آيات على نبوته صلوات الله عليه ، لمن سأل عن نبئهم ، فأخبرهم بالصحة من غير تلقى عن بشر أو أخذ عن كتاب .

وقال القاشانى : أى آيات معظمت لمن يسأل عن قصتهم ويعرفها ، تدلهم أولاً : على أن الاصطفاء المحض أمر مخصوص بمشيئة الله تعالى ، لا يتعلق بسعى ساعٍ ، ولا إرادة مريدٍ ، فيملكون مراتب الاستعدادات فى الأزل .

وثانياً : على أن من أراد الله به خيراً ، لم يمكن لأحد دفعه . ومن عصمه الله ، لم يمكن لأحد رميه بسوء ، ولا قصده بشر ، فيقوى بقينهم وتوكلهم .

وثالثاً : على أن كيد الشيطان وإغواءه أمر لا يأمن منه أحد ، حتى الأنبياء ، فيكونون منه على حذر . وأقوى من ذلك كله أنها تطلهم من طريق الفهم ، الذى هو الانتقال الذهنى ، على أحوالهم فى البداية والنهاية ، وما بينهما ، وكيفية سلوكهم إلى الله ، فتثير شوقهم وإرادتهم ، وتشجذ بصيرتهم ، وتقوى عزيمتهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)

(ضَلَالٍ مُّبِينٍ)

« إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ » وهو بنيامين شقيقه ، وأمهما راحيل بنت لابان ، خال يعقوب . « أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ عُصْبَةٌ » أى والحال أنا جماعة أقوياء ، أحق بالمحبة

من صغيرين ، لا كفاية فيهما . والعصبة والعصابة : الجماعة من الرجال - عشرة فصاعداً - سموا بذلك لكون الأمور تعصب بهم ، أى تشد فتقوى . وذكرها ليس لإفادة العدد فقط ، بل للإشعار بالقوة ، ليكون أدخل في الإنكار ، لأنهم قادرون على خدمته ، والجد في منفعته فكيف يؤثر عليهم من لا يقدر على ذلك ؟ .

«إِنَّ أَبَانَا لَكَيْفَ ضَلَّالٍ مُبِينٍ» أى ذهب عن طريق الصواب في ذلك لتفضيله المفضل بزعمهم . وغاب عنهم أنه كان يحب يوسف لما يرى فيه من الخايل ، لا سيما بعد تلك الرؤيا . وبنيامين لكونه شقيقه وأصغرهم . ومن المعروف زيادة الميل لأصغر البنين . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (اقتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ)

«اقتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا» من مقول قولهم المحكى قبل . وإنما قالوا هذا لأن خبر المنام بلغهم . وروى أنه قصه عليهم ، فتشاوروا في كيد ، وقالوا ذلك ، وقالوا : لنرى بعد ما يكون من أحلامه ، سخرية واستهزاء . وتفكير (أرضاً) وإخلاؤها من الوصف ، للإيهام . أى في أرض مجهولة ، لا يعرفها الأب ، ولا يمكن ليوسف أن يعرف طريق الوصول إليه .

وقوله : «يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ» جواب الأمر ، كناية عن خلوص محبته لهم ، لأنه بدل على إقباله عليهم بكليته ، وعلى فراغه عن الشغل بيوسف ، فيشتغل بهم . «وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ» أى من بعد الفراغ من قتله أو طرحه «قَوْمًا صَالِحِينَ» أى تائبين إلى الله عما جنبتهم ، فيكون صلاحكم فداء عن موصية قتله أو طرحه . أو تصلح دنياكم ، وتنظم أموركم بعده بخلو وجه أبيكم .

تنبيهات :

الأول - قال ابن إسحاق : لقد اجتمعوا على أمر عظيم من قطيمة الرحم ، وعقوق الوالد ، وقلة الرأفة بالصغير ، الذى لا ذنب له ، وبالكبير الفانى ، ذى الحق والحرمة والفضل ، والده ، ليفرقوا بينه وبين ابنه على صغر سنه ، وحاجته إلى لطف والده ، وسكونه إليه . يغفر الله لهم !

الثانى - قال ابن كثير : اعلم أنه لم يقم دليل على نبوة إخوة يوسف : وظاهر السياق يدل على خلاف ذلك . ومن الناس من يزعم أنهم أوحى إليهم بعد ذلك ، وفى هذا نظر . ويحتاج مدعى ذلك إلى دليل . ولم يذكر سوى قوله تعالى ^(١) : (قُولُوا ءَامَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ) وهذا فيه احتمال ، لأن بطون بنى إسرائيل يقال لهم الأسباط ، كما يقال للعرب قبائل ، وللمعجم شعوب . يذكر تعالى أنه أوحى إلى الأنبياء من أسباط بنى إسرائيل ، فذكرهم إجمالاً لأنهم كثيرون ، ولكن كل سبط من نسل رجل من إخوة يوسف . ولم يقم دليل على أعيان هؤلاء أنهم أوحى إليهم . والله أعلم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنْتُمْ فَاعِلِينَ)

« قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ » أى صريحاً ورضى به الباقون « لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ » أى لأن القتل من الكبائر التى يخاف معها سد باب الصلاح . وإنما أظهره فى مكان الإضمار استجلاباً لشفتهم عليه ، أو استعظاماً لقتله . « وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ » أى فى غوره . و (الجب) : البئر التى لا حجارة فيها . « يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ » أى بعض الأقوام الذين يسرون

(١) [٢ / البقرة / ١٣٦] .

في الأرض، فيتملكه، فلا يمكنه الرجوع إلى أبيه، فيحصل مطلوبكم من غير ارتكاب كبيرة يخاف معها سد باب الصلاح .

« إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ » أى عازمين مصرين على أن تفرقوا بينه وبين أبيه . وقد روى أن القائل هو أخوهم الأكبر ، بكر يعقوب (رؤووين) .
ولما تواطأوا على رأيه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١] (قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ)

« قَالُوا » أى لأبيهم « يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ » أى لم نخافنا عليه ، ونحن نريد له الخير ونحبه ونشفق عليه ؟ أرادوا بذلك استنزاله عن عادته في حفظه منهم . وفيه دليل على أنه أحسن منهم بما أوجب أن لا يأمنهم عليه - كذا في الكشف - .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢] (أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)

« أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » (الرتع) : الأكل والشرب ، والسمي والنشاط ، حيث يكون الخضر والمياه والزرع . يريدون : أن إلزامك إياه أن يكون بمكانك ، موجب لملا له القاطع انشباطه على العبادة ، واكتساب الكمالات .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣] (قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ)

« قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ »

يعنى : وإن زعتم أنكم له حافظون ، فحفظكم إنما يكون ما دتم ناظرين إليه ، لكن لا يخلو الإنسان عن الغفلة ، فأخاف غفلتكم عنه .

قال الزمخشري : اعتذر إليهم بشيئين :

أحدهما : أن ذهابهم به ، ومفارقتهم إياه ، مما يحزنه ، لأنه كان لا يصبر عنه ساعة .

والثاني : خوفه عليه من عدوة الذئب إذا غفلوا عنه ، برعيهم ولعبهم ، أو قلّ به اهتمامهم ،

ولم تصدق بحفظه عنايتهم .

قال الناصر : وكان أشغل الأمرين لقلبه خوف الذئب عليه ، لأنه مظنة هلاكه . وأما

حزنه لمفارقتهم ربّما يرتع ويلعب ويعود سالماً إليه عما قليل ، فأمر سهل . فسكانهم لم يشتغلوا

إلا بتأمينه وتطمينه من أشد الأمرين عليه . انتهى - أى فيما حكى عنهم بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (قَالُوا لَيْتَ أَكَلَهُ الذَّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذَا لَخَامِرُونَ)

« قَالُوا لَيْتَ أَكَلَهُ الذَّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ » أى جماعة أقوياء ، يمكننا أن نزرعه من

يد الذئب « إِنَّا إِذَا لَخَامِرُونَ » أى هالكون ضعفاً وجبناً . أو عاجزون ، أو مستحقون

لأن يدعى عليهم بالخسارة والدمار .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْتَمَعُوا أَن يُجْهَلُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ ، وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ

لَتَنْبِئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

« فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ » أى بعد مراجعة أبيهم فى شأنه « وَاجْتَمَعُوا أَن يُجْهَلُوهُ فِي غِيَابَةِ

الْجُبِّ » فيه تمظيم لما أزمعوا ، إذ أخذوه ليكرموه ، ويدخلوا السرور على أبيه ، ومكروا

بمكروا . « وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتَنْبِئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا » أى أعلمناه بإلقاء فى روعه ،

أو بواسطة ملك عند ذلك تبشيراً له ، بأنك ستخلص مما أنت فيه ، وتحذيرهم بما فعلوا بك .

وقوله : « وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ » إما متملق بـ (أوحينا) أى أوحينا إليه ذلك وهم لا يشعرون ، إيناساً له ، وإزالة للوحشة؛ أو حال من الهاء في (لتنبئهم) ، أى : لتحدثهم بذلك وهم لا يشعرون أنك يوسف ، لعلو شأنك ، كما سيأتى في قوله تعالى^(١) : (فَمَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ) .

روى أنهم نزعوا قميص يوسف الموشى الذى عليه ، وأخذوه ، وطرحوه فى البئر ، وكانت فارغة لا ماء بها ، وجلسوا بعدد ، يأكلون ويلهون إلى المساء .
جواب (لما) فى الآية محذوف ، مثل فعلوا ما فعلوا ، أو طرحوه فيها . وقيل : الجواب (أوحينا) والواو زائدة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ)

« وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ » بيان لمكرم بأبيهم بطريق الاعتذار الموهوم موته القاطع عنه متمناه ، اتفق قطع محبته عنه ، ولو بعد حين ، فيرجع إليهم بالحب الكلى . وقدموا عشاء لكونه وقت الظلمة المانعة من احتشامه فى الاعتذار الكذب ، ومن تفرسه من وجوههم الكذب . وأوهموا ، ببكائهم وتفجهم عليه ، إفراط محبتهم له المانعة من الجراءة عليه . ثم نادوه باسم (الأب) المضاف إليهم ليرحمهم ، فترك غضبه عليهم ، الداعى إلى تكذيبهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ)

« قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ » أى فى العدو والرمى بالنصل « وَتَرَكْنَا يُوسُفَ »

(١) [١٢ / يوسف / ٥٨] .

عِنْدَ مَتَاعِنَا « أَى مَا يَتَمَتَّعُ بِهِ مِنَ الثِّيَابِ وَالْأَزْوَادِ وَغَيْرِهَا لِيَحْفَظَهُ » فَأَكَلَهُ الذَّبُّ « أَى كَمَا حَدَّثَتْ .

وقوله تعالى : « وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ » تُلطف عظيم في تقرير ما يحاولونه . يقولون : ونحن نعلم أنك لاتصدقنا في هذه الحالة ، ولو كنا عندك صادقين ، فكيف وأنت تتهمنا ، وغير واثق بقولنا ؟ .

وقد استفيد من الآية أحكام :

منها : أن بكاء المرء لا يدل على صدقه ، لا حتمال أن يكون تصنعاً - نقله ابن العربي - .

ومنها : مشروعية المسابقة . وفيه من الطب رياضة النفس والدواب ، وتعمير الأعضاء

على التصرف - كذا في الإكليل - .

قال بعض اليمانيين : اللعب إن كان بين الصغار جاز بما لا مفسدة فيه ، ولا تشبه بالفسقة .

وأما بين الكبار ، ففيه ثلاثة أقسام :

الأول : أن يكون في معنى القمار ، فلا يجوز .

الثاني : أن لا يكون في معناه ، وفيه استعانة وحث على القوة والجهاد ، كالناضلة بالنسي ،

والمسابقة على الخيل ، فذلك جائز وفاقاً .

الثالث : أن لا يكون فيه عوض كالصارعة ونحوها . ففي ذلك قولان للشافعية . رجح

الجواز ، إن كان بغير عوض ، أو بموض يكون دفعه على سبيل الرضا ، لأنه ﷺ ^(١) صارع

يزيد بن ركانة .

وروى أن عائشة قالت ^(٢) : سأبت رسول الله ﷺ مرتين ، فسبقتة في المرة الأولى ،

فلما بدنتُ سبقتي وقال : هذه بثلثك .

وفي الحديث ^(٣) : ليس من اللهو ثلاثة : ملاعبة الرجل أهله ، وتأديبه فرسه ، ورميه بقوسه . انتهى .

(١) أخرجه أبو داود في : ٣١ - كتاب اللباس ، ٢١ - باب في المائم ، حديث ٤٠٧٨

(٢) أخرجه ابن ماجة في : ٩ - كتاب النكاح ، ٥٠ - باب حسن معاشره النساء ، حديث

رقم ١٩٧٩ (طبعنا) . (٣) أخرجه أبو داود ، من حديث طويل ، عن عقبه بن عامر ،

في : ١٥ - كتاب الجهاد ، ٢٣ - باب في الرمي ، حديث رقم ٢٥١٣ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨] (وَجَاءُوا عَلَىٰ قِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ، قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ، فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ)

« وَجَاءُوا عَلَىٰ قِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ » ييان لما تآمروا عليه من المكيدة ، وهو أنهم أخذوا قيصه الموشى ، وغمسوه في دم مَعَزٍ كانوا ذبحوه . و (كذب) مصدر بتقدير مضاف ، أى : ذى كذب . أو وصف به مبالغة ، كرجل عدل . و (على) ظرف لـ (جاءوا) مشعر بضمينه معنى (افتروا) .

وقوله : « قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا » أى من تغيب يوسف ، وتفرقه عنى ، والاعتذار الكاذب .

قال الناصر : وقواه على اتهامهم ، أنهم ادعوا الوجه الخاص الذى خاف يعقوب ، عليه السلام ، هلاكه بسببه أولاً ، وهو أكل الذئب ، فاتهمهم أن يكونوا تلقفوا العذر من قوله لهم : (وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذَّئْبُ) ، وكثيراً ما تتفق الأعداء الباطلة ، من قلق فى المخاطب المعتذر إليه ، حتى كان بعض أمراء المؤمنين يلقنون السارق الإنكار . انتهى .

وفى (الإكليل) : استنبط ، من هذا ، الحكم بالأمارات ، والنظر إلى التهمة ، حيث قال : (بَلْ سَوَّلَتْ . . .) الآية .

لطائف :

قال المهيمن : فى الآية من الفوائد أن الجاه يدعو إلى الحسد ، كاللأل ، وهو يمنع من المحبة الأصلية من القرابة ونحوها ، بل يجعل عداوتهم أشد من عداوة الأجانب . وأن الحسد يدعو إلى المكرب بالحسود ، وبمن يراعيه ، وأنه إنما يكون برؤية الماكر نفسه أكل عقلاً من المكور به . وأن الحاسد إذا ادعى النصح والحفظ والمحبة ، بل أظهره فعلاً ، لم يعتمد عليه .

وكذا من أظهر الأمانة قولاً وفعلًا يفعل الخيانة . وأن الإذلال والإعزاز بيد الله ، لا الخلق . وأن من طلب مراده بمعصية الله بعد عنه . وأن الخوف من الخلق يورث البلاء ، وأن الإنسان ، وإن كان نبياً ، يُخلق أولاً على طبع البشرية . وأن اتباع الشهوات يورث الحزن الطويل . وأن القدر كائن . وأن الحذر لا يغنى عن القدر .
 قيل للهدد : كيف ترى الماء تحت الأرض ، ولا ترى الشبكة فوقها ؟ قال : إذا جاء القضاء عمى البصر .

(و) (التسويل) تزيين النفس للمرء ما يحرص عليه ، وتصوير القبيح بصورة الحسن .
 « فَصَبْرٌ جَمِيلٌ » (صبر) خبر أو مبتدأ ، لكونه موصوفاً ، أى فشأنى صبر جميل .
 أو فصبر جميل أجل . والصبر قوة للنفس على احتمال الآلام كالمصائب إذا عرضت ، والجمل منه هو ما لا شكوى فيه إلى الخلق ولا جزع ، رضا بقضاء الله ، ووقوفاً مع مقتضى المبودية .
 « وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ » أى المطلوب منه العون على احتمال ما تصفون من هلاك يوسف - كذا قدره - وحق أبو السمود ؛ أن المعنى على إظهار حال ما تصفون ، وبيان كونه كذباً ، وإظهار سلامته ، فإنه علم في الكذب . قال سبحانه ^(١) : (سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ) وهو الأليق بما سيحىء من قوله تعالى ^(٢) : (فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا) وتفسير المستعان عليه باحتمال ما يصفون من هلاك يوسف ، والصبر على الرزء فيه - يأباه تكذيبه عليه السلام لهم في ذلك ، ولا تساعده الصيغة ، فإنها قد غلبت في وصف الشيء بما ليس فيه ، كما أشير إليه . انتهى .

وفي قوله : (وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ) اعتراف بأن تلبسه بالصبر لا يكون إلا بمعونه تعالى .
 قال الرازى : لأن الدواعى النفسانية تدعوه إلى إظهار الجزع ، وهى قوية . والدواعى الروحانية تدعوه إلى الصبر والرضا . فكأنهما في تحارب وتجالد . فما لم تحصل إغاثة تعالى ،

(١) [٣٧ / الصافات / ١٨٠] . (٢) [١٢ / يوسف / ١٨ و ٨٣] .

لم تحصل الغلبة . فقوله : (فَصَبْرٌ جَمِيلٌ) يجرى مجرى قوله : (إِيَّاكَ نَعْبُدُ) . وقوله : (وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ) يجرى مجرى قوله : (وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) . انتهى .
ثم ذكر تعالى ما جرى على يوسف في الحب ، بعد ما تقدم بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩] (وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ ، قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ ،
وَأَسْرُوهُ بِضَاعَةً ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ)

« وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ » أى الذى يرد الماء ويستقى لهم « فَأَدْلَى دَلْوَهُ »
أى أرسلها فى الحب ليلأها ، فتملق بها يوسف للخروج ، فلما رآه « قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا
غُلَامٌ » وقرئ (يَا بُشْرَى) بالإضافة والمنادى محذوف . أو نزلت منزلة من ينادى .
ويقال : إن هذه الكلمة تستعمل للتبشير من غير قصد إلى النداء .

قال الزجاج : معنى النداء فى هذه الأشياء التى لا تجيب هو تنبيه المخاطبين ، وتوكيد
القصة . فإذا قلت : يا عجباه ! فكأنك قلت : اعجبوا .

و (الغلام) : الطار الشارب . أو من ولادته إلى أن يشب . والتنوين للتعظيم .
« وَأَسْرُوهُ بِضَاعَةً » أى أخفوه متاعاً للتجارة . ف (بضاعة) حال . وفى (الفرائد) :
أنه ضمن (أَسْرُوهُ) معنى (جَعَلُوهُ) أى جعلوه بضاعة مسرين ، فهو مفعول به ، أو
مفعول له . أى : لأجل التجارة . و (البضاعة) من البضع ، وهو القطع لأنه قطعة
وافرة من المال تقضى للتجارة : « وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ)
« وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ » الضمير

في (أَسْرُوهُ) و (شَرَوْهُ) للسيارة، لأنها بمعنى القوم السائرين. وقد روى أنهم كانوا تجار من بلدة مدين، فلما أصعدوا ردهم يوسف، وضمّوه إلى بضاعتهم، باعوه لقافلة مرت بهم سائرة إلى مصر بعشرين ذهما من الفضة، ثم أتوا بيوسف إلى مصر. و (دراهم) بدل من الثمن. و (المعدود)، كناية عن القليل، لأن الكثير يوزن عقدهم. و (الزهد) فيه بمعنى الرغبة عنه.

فوائد :

قال في (الإكليل)، استنبط الناس من هذه الآية أحكام اللقيط، فأخذوا منها أن اللقيط يؤخذ ولا يترك. ومن قوله : (هذا غلام) أنه كان صغيراً، وأن الالتقاط خاص به، فلا يلتقط الكبير. وكذا قوله (وَأَخَافُ أَنَّ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ) لأن ذلك أمر يختص بالصغار. ومن قوله : (وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ) أن اللقيط يحكم بحريته. وأن ثمن الحرّ حرام. قال بعضهم : وجه الاستدلال أنهم باعوه بثمن حقير لكونه لقطياً، وهو لا يملك، إذ لو ملك استوفوا ثمنه.

قال بعض الزيدية، وردّ هذا الاستدلال بأن فعلهم ليس شريعة. وأما الآن فلا شبهة أن ظاهر اللقيط الحرية، كما أن ظاهره الإسلام. اهـ.

قال المهايغي : ومن الفوائد أن الفرج قد يحصل من حيث لا يحتسب. وأنه ينتظر للشدة. وأن من خرج لطلب شيء قد يجد ما لم يكن في خاطره. وأن الشيء الخطير قد يمرض فيه ما يهونه. وأن البشري قد يعقبها الحزن، والعزة قد يعقبها الذلة، وبالعكس. اهـ.

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢١] (وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ، وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)
« وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا »
يخبر تعالى عن لطفه بيوسف ، إذ يسر له من اشتراه في مصر ، فاعقنى به ، وأوصى أهله ، وتوسم فيه الخير والصلاح . ومعنى (أَكْرِمِي مَثْوَاهُ) اجعلي مقامه حسناً مرضياً . (المثوى) محل الثواء ، وهو الإقامة .

قال الشهاب : وإكرامُ مَثْوَاهُ كناية عن إكرامه على أبلغ وجه وأتمه ، لأن من أكرم المحل بإحسان الأسرة ، واتخاذ الفراش ونحوه ، فقد أكرم ضيفه بسائر ما يكرم به . أو (المثوى) مقحم . كما يقال : المقام السامى .

روى أن القافلة لما نزلت مصر اشتراه منهم رئيس الشرط عند ملك مصر ، فأقام في بيت سيده ، والعناية الربانية تحفه ، والنجاح يحوطه . فكان يرى سيده أن كل ما يأتى به ينجح به الله تعالى على يده ، فنال حظوة لديه ، وأقامه قيماً على كل ما يملكه ، وضاعف تعالى البركة في زرعه وماله وحوزته .

« وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ » أى كما جعلنا له مثوى كريماً في منزل العزيز وقلبه . جعلنا له تصرفاً بالأمر والنهى ، ومكانة رفيعة في أرض مصر ، ووجاهة في أهلها ، ومحبة في قلوبهم ، ليكون عاقبة ذلك تعليمه تأويل الرؤيا التي ستقع من الملك ، وتفضى بيوسف إلى الرياسة العظمى .

« وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ » أى لا يُمنَعُ عما يشاء ، رلا يُنْزَعُ فيما يريد . أو على أمر يوسف ، أريد به من الفتنة ما أريد غير مرة ، فلم يكن إلا ما أراد الله له من العاقبة الحميدة .

« وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » أى أن الأمر كله بيده ، فيأتون ويدرون زعماً أن لهم شيئاً من الأمر . أو لا يعلمون لطائف صنعه ، وخفايا لطفه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ، وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)
« وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ » هذه الآية كالتى قبلها ، تخللت تضاعيف نظم القصة لمعنى بديع ، وهو البدار إلى الإعلام بنتائج صبر يوسف ، وثمرات مجاهداته ، وعجائب صنع الله تعالى فى مراداته ، إذ طوى له المنح فى تلك المحن ، وذخر له السيادة فى تلك المبودية . ومعنى (بَلَغَ أَشُدَّهُ) أى زمان اشتداد جسمه وقوته .

قال أبو عبيدة : العرب تقول: بلغ فلان أشده ، إذا انتهى منتهاه فى شبابه وقوته قبل أن يأخذ فى النقصان . و (الحكم) إما الحكمة ، وهو العلم المؤيد بالعمل ، أو الحكم بين الناس . قال الزمخشري : وفى قوله تعالى : (وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) تنبيه على أنه كان عسناً فى عمله ، متقياً فى عففوان أمره ، وأن الله آتاه الحكم والعلم جزاء على إحسانه . وعن الحسن : من أحسن عبادة ربه فى شبابه ، آتاه الله الحكمة فى اكتماله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (وَرَأَوْدَتُهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ، قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ)
« وَرَأَوْدَتُهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ، قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ » هذا رجوع إلى شرح ماجرى على يوسف فى منزل العزيز بعد ما أمر امرأته بإكرام مثنواه ، من مراودتها له وإيائه .

والمرادة : المطالبة . أى : طلبت منه أن يواقعها . وتمديتها بـ (عن) لتضمينها معنى المخادعة .
والعدول عن التصريح باسمها للمحافظة على السر والستر . وإيراد الموصول دون امرأة العزيز ،
لتقرير المرادة ، فإن كونه في بيتها مما يدعو إلى ذلك . قيل لامرأة : ما حملك على ما لا خير
فيه ؟ قالت : قرب الوساد ، وطول السواد . ولإظهار كمال نزاهته عليه السلام - كما سيأتى - .
(هَيْتَ) قرأب كـ (لَيْتَ وَقِيلَ وَحَيْثُ) ، وبكسر الهاء وبهمزة سا كنة بعدها ،
وفتح التاء وضمتها . وهى فى هذه اللغات اسم فعل بمعنى (تعال) . واللام لتبيين المفعول
أى المخاطب . ونقل عن الفراء أنها لغة لأهل حوران سقطت إلى مكة فتكلموا بها .
قال ابن الأثيرى : هذا وفاقٌ بين لغة قريش وأهل حوران ، كما اتفقت لغة العرب
والروم فى (القسطاس) ونحوه .

و « مَعَاذَ اللَّهِ » منصوب على المصدر . أى : أعوذ بالله معاذاً مما تدعيني إليه ، لكونه
زنى وخيانة فيما أوثقت عليه ، وضراً لمن توقع النفع ، وإساءة إلى المحسن .
قال أبو السعود : وهذا اجتنب منه على آتم الوجوه ، وإشارة إلى التعليل بأنه منكر
هائل ، يجب أن يعاذ بالله تعالى للخلاص منه ، وما ذاك إلا لأنه عليه السلام قد شاهده بما
أراه الله تعالى من البرهان القبر على ما هو عليه فى حد ذاته من غاية القبح ، ونهاية السوء .
وقوله : (إِنَّهُ رَبِّى أَحْسَنَ مَثْوَاىَ) تعليل للامتناع ببعض الأسباب الخارجية ،
مما عسى أن يكون مؤثراً عندها ، وداعياً لها إلى اعتباره بعد التنبيه على سببه الذاتى الذى تكاد
تقبله لما سولته لها نفسها . والضمير للشأن . وفائدة تصدير الجملة به الإيذان بفخامة مضمونها ،
مع ما فيه من زيادة تقريره فى الذهن ، فإن الضمير لا يفهم منه من أول الأمر إلا شأن مبهم
له خطر ، فيبقى الذهن مترقباً لما يعقبه ، فيتمكن عند وروده له فضل تمكن . فكأنه قيل :
إن الشأن الخطير هذا ، وهو ربى ، أى سيدى العزيز ، أحسن مثواى ، أى تعهدى ، حيث
أمرك يا كرامى ، فكيف يمكن أن أسمى إليه بالخيانة فى حرمه ؟ وفيه إرشاد لها إلى رعاية

حق العزيز بألف وجه . وقيل : الضمير لله عز وجل ، و (رَبِّي) خبر (إِنَّ) ، و (أَحْسَنَ مَثْوَايَ) خبر ثان . أو هو الخبر والأول بدل من الضمير . والمعنى : أن الحال هكذا ، فكيف أعصيه بارتكاب تلك الفاحشة الكبيرة ؟ وفيه تحذير لها من عقاب الله عز وجل . وعلى التقديرين ، ففي الاختصار على ذكر هذه الحالة من غير تعرض للامتناع عما دعت إليه ، إيذان بأن هذه المرتبة من البيان كافية في الدلالة على استحالتها ، وكونه مما لا يدخل تحت الوقوع أصلاً .

وقوله تعالى : « إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ » تعليل للامتناع المذكور ، غِبّ تعليل . و (الفلاح) الظفر ، أو البقاء في الخير . ومعنى (أفلح) دخل فيه ، كأصبح وأخواته . والمراد بـ (الظالمين) كل من ظلم ، كائنًا من كان ، فيدخل في ذلك المجازون للإحسان بالإساءة ، والمصاة لأمر الله تعالى ، دخولًا أوليًا . وقيل : الزناة ، لأنهم ظالمون لأنفسهم ، وللعزنى بأهله . انتهى .

وقال بعض اليمانيين : ثمرات هذه الآية ثلاث :

الأولى - أن الواجب عند الدعاء إلى المعصية الاستمادة بالله من ذلك ، ليعصمه منها ، ويدخل فيه دعاء الشيطان ، ودعاء شياطين الإنس ، ودعاء هوى النفس .

الثانية - أن السيد والمالك يسمى (رَبًّا) .

الثالثة - أنه يجوز ترك القبيح لقبحه ، ورعاية حق غيره ، وخشية العار ، أو الفقر ، أو الخوف ، ونحو ذلك . ولا يقال : التشريك غير مفيد في كونه تاركًا للقبيح ، وأنه لا يثاب . وتدل أيضاً على لزوم حسن المكافأة بالجميل ، وأن من أخل بالمكافأة عليه ، كان ظالمًا . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ، وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ، كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ، إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ)

« وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ، وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ، كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ، إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ » (الهم) : يكون بمعنى القصد والإرادة ، ويكون فوق الإرادة ودون العزم ، إذا أريد به اجتماع النفس على الأمر والإجماع عليه ، وبالعزم : القصد إلى إتمامه . فهو أول العزيمة . وهذا معنى قولهم : الهم هان : هم ثابت معه عزم وعقد ورضا وهو مذموم مؤاخذ به ؛ وهمٌ بمعنى خاطر ، وحديث نفس ، من غير تصميم ، وهو غير مؤاخذ به . لأن خطور المناهى في الصدور ، وتصورها في الأذهان ، لا مؤاخذة بها ما لم توجد في الأعيان .

روى الشيخان^(١) وأهل السنن عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ، ما لم تتكلم به ، أو تعمل به . ورواه الطبراني عن عمران ابن حصين رضى الله عنهما .

فمعنى قوله تعالى : (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ) أى بمخالطته ، أى قصدها وعزمت عليها عزماً جازماً ، لا يلويها عنه صارف ، بعد ما باشرت مبادئها من المراودة ، وتغليب الأبواب ، ودعوته إلى الإسراع إليها بقولها (هَيْتَ لَكَ) مما اضطره إلى الهرب إلى الباب . ومعنى قوله (وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ) أى لولا رؤيته برهان ربه لهم بها ، كما همت به ، لتوفر الدواعى . ولما رأى من تأييد الله له بالبرهان ما صرف عنه السوء والفحشاء .

(١) أخرجه البخارى في : ٤٩ - كتاب العتق ، ٦ - باب الخطأ والنسيان في العتاقة

والطلاق ونحوه ، حديث رقم ١٢٤٢ .

وأخرجه مسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث رقم ٢٠١ و ٢٠٢ (طبعنا) .

قال أبو حيان : ونظيره (قارفتَ الإثمَ لولا أن الله عصمك) . ولا نقول : إن جواب (لولا) يتقدم عليها ، وإن لم يقدّم دليل على امتناعه ، بل صريح أدوات الشرط العاملة مختلف فيها ، حتى ذهب الكوفيون وأعلام البصريين إلى جواز تقدمه ، بل نقول : هو محذوف لدلالة ما قبله عليه ، لأن المحذوف في الشرط يقدر من جنس ما قبله . انتهى .

فالآية حينئذ ناطقة بأنه لم يهيم أصلاً . وقيل : جواب (لولا) لنشيتها ونحوه . فغنى (الهم) حينئذ ما قاله الإمام الرازي : من أنه خطور الشيء بالبال ، أو ميل الطبع ، كالصائم في الصيف ، يرى الماء البارد ، فتحمله نفسه على الميل إليه ، وطلب شربه ، ولكن يمنعه دينه عنه . وكلمة الفائقة حسناً وجمالاً ، تنهياً للشباب الناهي القوى ، فتقع بين الشهوة والعفة ، وبين النفس والعقل ، مجاذبة ومنازعة . (فالهم) هنا عبارة عن جواذب الطبيعة ، ورؤية البرهان جواذب الحكمة . وهذا لا يدل على حصول الذنب ، بل كلما كانت هذه الحال أشد ، كانت القوة على لوازم العبودية أكمل . انتهى .

وكذا قال أبو السعود : إن همها بمعنى ميله إليها ، بمقتضى الطبيعة البشرية ، وشهوة الشباب وقرمه ، ميلاً جبلياً ، لا يكاد يدخل تحت التكليف ، لأنه قصدها قصداً اختيارياً . ألا يرى إلى ما سبق من استعصامه النبي عن كمال كراهيته له ، ونفرته عنه ، وحكمه بعدم إفلاح الظالمين ؟ وهل هو إلا تسجيل باستحالة صدور الهم منه - عليه السلام - تسجيلاً محكماً ؟ وإنما عبر عنه بالهم ، لمجرد وقوعه في صحبة همها في الذكر ، بطريق المشاكلة ، لا لشبهه به كما قيل . واند أشير إلى تباينهما ، حيث لم يُلزَمَ في قرآن واحد من التعبير ، بأن قيل : ولقد هما بالخاطلة ، أو هم كل منهما بالآخر . وصدر الأول بما يقرر وجوده من التوكيد القسمي ، وعقب الثاني بما يعمق أثره من قوله عز وجل : (لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ) ، أي حجته الباهرة ، الدالة على كمال قبح الزنى ، وسوء سبيله . والمراد برؤيته لها كمال إيقانه بها ، ومشاهدته لها مشاهدة واصله إلى مرتبة عين اليقين . وكأنه عليه السلام قد شاهد الزنى

بموجب ذلك البرهان النير ، على ما هو عليه في حد ذاته أقيح ما يكون ، وأوجب ما يجب أن يحذر منه ، ولذلك فعل ما فعل من الاستعصام ، والحكم بعدم إفلاح من يرتكبه .

وجواب (لولا) محذوف ، يدل عليه الكلام . أى : لولا مشاهدة برهان ربه في شأن الزنى لجرى على موجب ميله الجبلى ، ولكن حيث كان مشاهداً له من قبل ، استمر على ما هو عليه من قضية البرهان . وفائدة هذه الشرطية بيان أن امتناعه عليه السلام ، لم يكن لعدم مساعدة من جهة الطبيعة ، بل لمحض العفة والنزاهة ، مع وفور الدواعى الداخلية ، وترتيب المقدمات الخارجية ، الموجبة لظهور الأحكام الطبيعية . انتهى .

فاتضح أن لا شبهة فيها على عصمة يوسف عليه السلام ، فإن الأنبياء ليسوا بمعصومين من حديث النفس ، وخواطر الشهوة الجبلىة ، ولكنهم معصومون من طاعتها ، والانقياد إليها . ولولم توجد عندهم دواع جبلىة ، لكانوا إما ملائكة أوعالماً آخر . وأما كانوا مأجورين على ترك المناهى ، لأنهم يكونون مقهورين على تركها طبعاً . والعين لا يؤجر ويثاب على ترك الزنى ؛ لأن الأجر لا يكون إلا على عمل ، والترك بغير داعية ليس عملاً ، وأما الترك مع الداعية ، فهو كف النفس عما تتشوف إليه ، فهو عمل نفسى .

وحقيقة عصمة الأنبياء هى نزاهتهم ، وبُعدهم عن ارتكاب الفواحش والمنكرات التى بعثوا لتزكية الناس منها ، لئلا يكونوا قدوة سيئة ، مفسدين للأخلاق والآداب ، وحبسة للسفهاء على انتهاك حرمت الشرائع ، وليس معناها أنهم آلهة منزهون عن جميع ما يقتضيه الطبع البشرى .

هذا وقد ألقى هنا بعض المفسرين الولمين بسرد الروايات ، ما تلقوه من أهل الكتاب ، ومن المتصوّلين ، من تلك الأقاصيص المختلفة على يوسف عليه السلام ، فى همه ، التى أزه تأليفى عن نقلها ، بردها ، وكأها - كما قال العلامة أبو السمود - خرافات وأباطيل ، تمجها الآذان ، وتردها المقول والأذهان ، ويل لمن لا كها ولفقها ، أو سمعها وصدقها . وسبقه

الزخشرى ، فجود الكلام فى ردها ، فليُنظر ، فإنه مما يسر الواقف عليه .
 و (السوء) : المنكر والفجور والمكروه . (والفحشاء) : ما تنهى قبحه
 قال أبو السعود : وفى قوله تعالى (لِنَصْرِفَ عَنْهُ ...) الخ آية بينة ، وحجة قاطعة
 على أنه عليه الصلاة والسلام لم يقع منه هم بالمعصية ، ولا توجه إليها قط ، وإلا لقليل :
 لنصرفه عن سوء والفحشاء . وإنما توجه إليه ذلك من خارج ، فصرفه الله تعالى بما فيه
 من موجبات العفة والمصمة . فتأمل .
 و (المخلصين) قرئ بكسر اللام ، بمعنى الذين أخلصوا دينهم لله ، وبالفتح أى الذين
 أخلصهم الله لطاعته بأن عصمهم .
 قال الشهاب : قيل : إن كل من له دخل فى هذه القصة شهد ببراءته عليه السلام . فشهد
 الله تعالى بقوله (لِنَصْرِفَ ...) الخ ، وشهد هو على نفسه بقوله : (هِيَ رَاوَدَتْنِي) ونحوه ،
 وشهدت امرأة العزيز بقولها : (وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ) ، وسيدها بقوله :
 (إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الْخَاطِئِينَ) وإبليس بقوله : (لَاغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ
 الْمُخْلَصِينَ) فتضمن إخباره بأنه لم يُغْوِه ، ومع هذا كله لم يبرئه أهل القصص . انتهى .
 عفا الله عنهم !

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَيْصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ ، قَالَتْ
 مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

« وَاسْتَبَقَا الْبَابَ » متصل بقوله : (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ...) الخ ، وقوله : (كَذَلِكَ) الخ ،
 اعتراف جى به بين المطوفين تقريراً لنزاهته . والمعنى : ولقد همت به ، وأبى هو ،
 واستبقا الباب ، أى قصد كلٌ سبق الآخر إلى الباب : فيوسف عليه السلام ليخرج ، وهى
 لتمتع من الخروج ووحد (الباب) هنامع جمعه أولاً ؛ لأن المراد بالباب البرانى الذى منه المخلص .

« وَقَدْ كُنْتَ قَائِمًا عَلَىٰ عِصَّةٍ مِّنْ دُونِهَا » أي اجتنبته من خلفه فانقذ ، أي انشق قيصه .
 « وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَىٰ الْبَابِ » أي صادقاً بملها تمت قادماً .
 « قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » تبرئة
 لساحتها ، وإغراء عليه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (قَالَ هِيَ رَاوْدَتْنِي عَنْ نَفْسِي ، وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَيِّصُهُ قُدٌّ مِّنْ قَبْلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكََاذِبِينَ)
 « قَالَ هِيَ رَاوْدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَيِّصُهُ قُدٌّ مِّنْ قَبْلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكََاذِبِينَ » لأن قدّه منه أماره الدفع عن نفسها به ، أو تمثله
 في مقام قيصه بسبب إقباله عليها ، فقدّ لإسراعه خلفها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (وَإِنْ كَانَ قَيِّصُهُ قُدٌّ مِّنْ دُونِ فَكَذَّبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ)
 « وَإِنْ كَانَ قَيِّصُهُ قُدٌّ مِّنْ دُونِ فَكَذَّبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ » لأنه أماره إدباره
 عنها بسبب أنها تبعته ، واجتذبت ثوبه إليها فقدّته .

ومن اللطائف ما قيل : إن هذا الشاهد أراد ألا يكون هو الفاضح لها ، ووثق بأن
 انقطاع قيصه إنما كان من دبر ، فنصبه أماره لصدقه وكذبها . ثم ذكر القسم الآخر ، وهو
 قدّه من قبل ، على علم بأنه لم ينقدّ من قبل حتى ينفي عن نفسه التهمة في الشهادة ، وقصد
 الفضيحة ، وينصفهما جميعاً ، فيذكر أماره على صدقها المعلوم نفيه ، كما ذكر أماره على صدقه
 المعلوم وجوده . ومن ثمّ قدم أماره على صدقها ، على أماره صدقه في الذكر ، إزاحة للتهمة ،
 ووثوقاً بأن الأماره الثانيه هي الواقعة ، فلا يضره تأخيرها . وهذه اللطيفة بعينها - والله أعلم -

هى التى راعاها مؤمن آل فرعون فى قوله ^(١) : (وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ) . فقدم قسم الكذب على قسم الصدق ، إزاحة للتهمة التى خشى أن تتطرق إليه فى حق موسى عليه السلام ، ووثوقاً بأن القسم الثانى وهو صدقه ، هو الواقع ، فلا يضره تأخيرهُ فى الذكر لهذه الفائدة . ومن ثم قال : (بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ) ، ولم يقل : كل ما يعدكم ، تعريضاً بأنه معهم عليه ، وأنه حريص على أن يبخسه حقه . وينحو هذا النحو تأخير يوسف عليه السلام ، لكشف وعاء أخيه الآتى ذكره ، لأنه لو بدأ به لفطنوا أنه هو الذى أمر بوضع السقاية فيه - والله أعلم - .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (فَلَمَّا رَأَىٰ قَيْصَهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ، إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ)

« فَلَمَّا رَأَىٰ قَيْصَهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ » يعنى بالكيد : الحيلة والمكر . وإنما استعظم كيدهن ، لأنه ألطف وأعلق بالقلب ، وأشد تأثيراً فى النفس ، ولهن فيه نيفة ورفق ، وبذلك يغلبن الرجال .

تنبيه :

قال ابن الفرس : يحتاج بالآية من يرى الحكم بالآمارات والعلامات ، فيما لا تحضره البينات ، كاللُّقطة والسرقفة والوديعة ومما قد الحيطان والسقوف وشبهها .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ، وَاسْتَغْفِرِ لِذَنبِكَ ، إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الْخَاطِئِينَ)

« يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا » نودى بحذف حرف النداء ، لقربه وكال تطفنه للحديث .

(١) [٤٠ / غافر / ٢٨] .

أى : يا يوسف أعرض عن هذا الأمر واكتمه ، ولا تحدث به .
« وَاسْتَفْهِرِي لِذَنبِكِ » أى الذى وقع منك من إرادة السوء بهذا الشاب ، ثم قذفه بما هو برى منه .

« إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الْخَاطِئِينَ » أى من جملة القوم المتعمدين للذنب . يقال : خطئ إذا أذنب متعمداً ، وأخطأ إذا فعله من غير تعمد . ولهذا يقال : أصاب الخطأ ، وأخطأ الصواب ، وأصاب الصواب . وإيثار جمع السالم تغليياً للذكور على الإناث . ودل هذا على أن العزيز كان رجلاً حليماً ، إذا اكتفى من مؤاخذتها بهذا المقدار .

قال ابن كثير : أو أنه عذرها لأنها رأت ما لا صبر لها عنه . ويقال : إنه كان قليل الغيرة . قال الشهاب : وهى لطف من الله تعالى بيوسف عليه السلام .

وقال أبو حيان : إنه مقتضى تربة مصر . انتهى .

وقد تقرر لدى المحققين أن لاختلاف أحوال العمران فى الخصب والجذب ، وأقاليمه فى الحرارة والبرودة وتوابعها - أثراً فى أخلاق البشر وأبدانهم - انظر المقدمة الرابعة والخامسة من (مقدمة ابن خلدون) .

ثم ذكر تعالى أن خبر يوسف وامرأة العزيز شاع فى المدينة - وهى مصر - بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ ، قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ، إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)

« وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ » العزيز : الأمير ، مأخوذ من (العز) وهو الشدة والقهر . وقد غلب على أمير مصر والإسكندرية .

« قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا » أى خرق حبه شغاف قلبها ، حتى وصل إلى الفؤاد . و (الشغاف) كسحاب ، حجاب القلب .

« إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ » أى فى خطأ عن طريق الرشد والصواب . وإقحام الرؤية ، للإشعار بأن حكمهن بضلالها صادر عن رؤية وعلم ، مع التلويح إلى تنزههن عن مثل ذلك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] (فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكَثِّاتٍ أَتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ) « فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ » أى اغتياهن ، وسوء قالتن . استعير (المكر) (للعقبة)

لشبهها له فى الإخفاء . أو (المكر) على حقيقته ، وكن قلن ذلك لترهين يوسف .

« أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ » أى تدعوهن للضيافة ، مكرأ بهن ، « وَأَعْتَدَتْ » أى أحضرت وهيات ، « لَهُنَّ مُتَكَثِّاتٍ » أى ما يتكئن عليه من الوسائد ، « وَأَتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا » أى ليعالجن بها ما يأكلن من الفواكه ونحوها . « وَقَالَتِ » أى ليوسف « اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ » أى ابرز إليهن .

قال الزمخشري : قصدت بملك الهياة - وهى قمودهن متكثات ، والسكاكين فى أيديهن - أن يدهشن ويُبَهَتْنَ عند رؤيته ، ويشغلن عن نفوسهن ، فتقع أيديهن على أيديهن فيقطعنها ، لأن التسيك إذا بُهتَ لشيء وقعت يده على يده ، فتبكنهن بالحجة ، وقد كان ذلك كما قال تعالى : « فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ » أى أعظمته ، وهبن حسنه الفائق ، « وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ » أى جرحنها ، كما تقول : كنت أقطع اللحم فقطعت يدي ، تريد : جرحتها . « وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ » حاش : أصله حاشا ، وحذفت ألفه تخفيفاً ، وبها قرأ أبو عمرو فى الدرج ، أى تنزيهاً له سبحانه عن صفات النقص والعجز ،

وتمجّبا من قدرته على مثل ذلك الصنع البديع . وإنما تفين عنه البشرية لغرابة جلاله ، وأثبتن له الملكية ، على نهج القصر ، بناء على ما ركز في الطباع ألا أحسن من الملك ، كإركز فيها ألا أفتح من الشيطان . ولذلك يشبه ، كل مقتناه في الحسن والقبح ، بهما .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَنِي فِيهِ ، وَلَقَدْ رَاودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ،

وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرُهُ لَيُصْجَبَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ)

« قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَنِي فِيهِ » أى فى الافتتان به ، « وَلَقَدْ رَاودْتُهُ عَنْ نَفْسِي فَاسْتَعْصَمَ » أى امتنع ، طالبا للعصمة ، مستزيدا منها .

قال الزمخشري : الاستعصام بناء مبالغة ، يدل على الامتناع البليغ ، والتحفظ الشديد ، كأنه فى عصمة ، وهو يجتهد فى الاستزادة منها . ونحوه : استمسك ، واستوسع الفتق ، واستجمع الرأى ، واستفحل الخطب . وهذا بيان لما كان من يوسف عليه السلام ، لا مزيد عليه ، وبرهان لا شىء أنور منه ، على أنه برىء مما أضاف إليه أهل الحشو ، مما فسروا به الهمم والبرهان . انتهى .

« وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرُهُ لَيُصْجَبَنَّ » أى ليعاقبن بالسجن والحبس « وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ » أى الأذلاء المهانين .

ولما سمع يوسف تهديدها :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ، وَإِلَّا تَصْرِفَ عَنِّي

كَيْدَهُنَّ أَضَبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ)

« قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ » أى من مواعيتها ، لأنه مشقة قليلة ،

تعبها راحت أبدية . ثم فرع إلى الله تعالى في طلب العصمة بقوله «وَالَّا تَصْرِفُ عَنِّي كَيْدَهُنَّ»
يعنى : ما أردن منى «أَصْبُ إِلَيْهِنَّ» أى أَمِلْ إلى إجابتهن بمقتضى البشرية «وَأَكُنْ مِنْ
الْجَاهِلِينَ» أى بسبب ارتكاب ما يدعوننى إليه من القبيح .

قال أبو السمود : هذا فرع منه ، عليه السلام ، إلى أطفاف الله تعالى ، جريا على سنن
الأنبياء والصالحين ، فى قصر نيل الخيرات ، والنجاة من الشرور ، على جناب الله عز وجل ،
وسلب القوى والقدر عن أنفسهم ، ومبالغة فى استدعاء لطفه فى صرف كيدهن بإظهار أن
لا طاقة له بالمداومة ، كقول المستغيث : أدركنى وإلا هلكت . لأنه يطلب الإيجاب والإجاء
إلى العصمة والمعة ، وفى نفسه داعية تدعوه إلى هوان . انتهى .

قال القاشانى : وذلك الدعاء هو صورة افتقار القلب الواجب عليه أبدا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

« فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ » أى أجاب له دعاءه « فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ » أى أبده
بالتأييد القدسى ، فصرفه إلى جناب القدس ، ودفع عنه ، بذلك ، كيدهن « إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ »
أى لدعاء المتضرعين إليه ، « الْعَلِيمُ » أى بما يصلحهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيْسَجُنَّهُ حَتَّى حِينٍ)

« ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ » أى ظهر للعزيز وأهله ، « مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ » أى الشواهد على
براءته ، « لَيْسَجُنَّهُ حَتَّى حِينٍ » أى إلى مدة يرون رأيهم فيها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانٍ ، قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا ، وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ ، نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ ، إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ)

« وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانٍ » روى أنهما غلامان كانا لفرعون مصر ، أحدهما رئيس سقاته والآخر رئيس طعامه ، غضب عليهما فحبسهما ، فساكناهما مع يوسف ، ثم رآهما يوماً وهما مهمومان فسألها عن شأنهما ، فذكر له أنهما رآيا رؤيا غمتهما ، وليس لهما من يعبرها . فقال لهما : أليس التأويل لله ؟ فصا على ! فذلك قوله تعالى : « قَالَ أَحَدُهُمَا » وهو صاحب شرابه : « إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا » أى عنباً ، تسمية للعنب بما يؤول إليه . أو الخمر بلغة عمان اسم للعنب ، وذلك أنه قال : رأيت في المنام كأن بين يدي وعاء فيه ثلاثة قضبان عنب ، ثم نضجت عناقيدها وصارت عنباً ، وكانت كأس فرعون في يدي ، فأخذت العنب ، وعصرته في الكأس ، وناولتها لفرعون .

« وَقَالَ الْآخَرُ » وهو صاحب طعامه : « إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ » وذلك أنه قال له : رأيت كأن فوق رأسي ثلاث سلال حواري ، والطير تأكل من السلة العليا فوق رأسي .

« نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ » أى أخبرنا بتفسير ما رأينا ، وما يؤول إليه أمر هذه الرؤيا « إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ » أى الذين يحسنون عبارة الرؤيا ، أو من المحسنين إلى أهل السجن ، تداوى مريضهم ، وتعزى حزينهم ، وتوسع على فقيرهم ، فأحسن إلينا بكشف غمتنا ، إن كنت قادراً على ذلك .

ثم أشار ، عليه السلام ، لهما بأن ما رآياه سهل التأويل ، لوجود مثاله في المنام ، وأن له علماً فوقه ، وهو أنه يبين لهما كل جليل ودقيق من الأمور المستقبلية ، وإن لم يكن هناك

مقدمة المنام ، حتى إن الطعام الموظف الذى يأتيهما كل يوم ، يبينه لهما قبل إتيانه ، وإن ذلك ليس من باب السكينة ، بل من الفضل الربانى لمن يصطفيه بالنبوة ، وهذا معنى قوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا، ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ، إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ)

« قَالَ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا » أى قبل أن يصلحكما . والمراد بالطعام ما يبعث إلى أهل السجن . وتأويله ذكر ماهو ، بأن يقول : يأتيكما طعام كيت وكيت ، فيجدهانه كذلك . وحقيقة (التأويل) تفسير الألفاظ المراد منها خلاف ظاهرها ببيان المراد .

قال أبو السعود : فإطلاقه على تعيين ما سيأتى من الطعام ، إما بطريق الاستعارة ، فإن ذلك بالنسبة إلى مطلق الطعام المبهم بمنزلة التأويل ، بالنظر إلى ما رُئى فى المنام ، وشبيه له ؛ وإما بطريق المشاكلة ، حسبما وقع فى عبارتهما من قولهما : (نَبَّأْنَا بِتَأْوِيلِهِ) . ومراده عليه السلام بذلك : بيان كل ما يهمهما من الأمور المترتبة قبل وقوعها . وإنما تخصيص الطعام بالذكر لكونه عريقاً فى ذلك ، بحسب الحال ، مع ما فيه من مراعاة حسن التخلص إليه مما استعبراه من الرؤيَيْن المتعلقتين بالشراب والطعام .

« ذَٰلِكُمَا » أى ذلك التأويل والإخبار بالمغيبات « مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي » أى بالوحي والإلهام ، لا من التيسر والتنجيم . وفيه إشعار بأن له علوماً جمة ، ما سماه شذرة من جواهرها . وقوله تعالى : « إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ، مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِإِلَهِ مِنْ شَيْءٍ ، ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ)

« وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ، مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ، ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ »
 هذه الجملة إما مسوقة لبيان علة تعليم الله له بالوحي والإلهام، أى خصنى بذلك لترك الكفر، وسلوك طريق آبائى المرسلين. أو كلام مستأنف، ذكر تمهيداً للدعوة، وإظهار أنه من بيت النبوة، لتقوى رغبتهما فى الاستماع إليه، والوثوق به. والمراد بتركه ملة الكفر الامتناع عنها رأساً، كما يفصح عنه قوله : (مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ) ، أى ماصح ولا استقام ذلك لنا ، فضلاً عن الوقوع. وإنما عبر عنه بذلك ، لكونه أدخل بحساب الظاهر فى اقتدائهما به عليه السلام. والتخصيص بهم ، مع أن الشرك لا يصح من غيرهم أيضاً ، لأنه يثبت بالطريق الأولى. أو المراد نفي الوقوع منهم لمصمتهم. وتكرير (هُمْ) للدلالة على اختصاصهم ، وتأكيدهم كفرهم بالآخرة. وزيادة (من) فى المفعول ، أعنى (مِنْ شَيْءٍ) لتأكيد العموم ، أى لا نشرك به شيئاً من الأشياء، قليلاً أو كثيراً ، صنّاً أو ملكاً أوجنياً أو غير ذلك .

وقوله : (ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ) يعنى عدم الإشراك بالله ، وهو التوحيد ، من نعم الله العامة ، التى يجب شكره تعالى على الهداية لها بالفطر السليمة، ونصب الدلائل الأنفسية والآفاقية .

ثم بين أن أكثر الناس نبذوا هذه النعمة بعد ما حق عليهم شكرها .
 ولما ذكر ، عليه السلام ﷺ ، ماهو عليه من الدين القويم ، تطف فى الاستدلال على بطلان ما عليه قومهما من عبادة الأصنام ، فضرب لها مثلاً يتضح به الحق حق انتصاح بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (يَا صَاحِبِ السِّجْنِ أَرَأَيْتَ إِنْ بَابُ مُتَقَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ)

« يَا صَاحِبِ السِّجْنِ أَرَأَيْتَ إِنْ بَابُ مُتَقَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ » وصفهما بالصحبة الضرورية المقتضية للعودة ، وبذل النصيحة . أى : يا صاحبي فيه . فجعل الظرف توسعاً ، مفعولاً به . أى : أَرَأَيْتَ شَيْءٌ تَسْتَعْبِدُ النَّاسَ خَيْرٌ لَهُمْ ، أَمْ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ رَبٌّ وَاحِدٌ قَهَّارٌ لَا يَفَالُ ؟

قال بعضهم : دلت الآية على أن الشرع كما جاء مطالباً بالاعتقاد ، جاء هادياً لوجه الحسن فيه . وذلك أن هذه الآية تشير إشارة واضحة إلى أن تفرق الآلهة يفرق بين البشر في وجهة قلوبهم إلى أعظم سلطان يتخذونه فوق قوتهم . وهو يذهب بكل فريق إلى التمصب لما وجه قلبه إليه ، وفي ذلك فساد نظامهم كما لا يخفى . أما اعتقاد جميعهم بإله واحد ، فهو توحيد لمنازع نفوسهم إلى سلطان واحد ، يخضع الجميع لحكمه ، وفي ذلك نظام أخوتهم ، وهي قاعدة سعادتهم . فالشرع جاء مبيناً للواقع في أن معرفة الله بصفاته ، حسنة في نفسها ، فهو ليس مُحَدِّثُ الْحَسَنِ . انتهى .

وفي قوله : (أَرَأَيْتَ إِنْ بَابُ مُتَقَرِّقُونَ) إشارة إلى ما كان عليه أهل مصر لمعهده عليه السلام ، من عبادة أصنام شتى .

يقول بعضهم : كما أن مصر كانت تغلبت في العلوم والسلطة ، كذلك في عبادة الأصنام ، فإن أهلها فاقوا كل من سوام في الضلال ، فكانوا يسجدون للشمس والقمر والنجوم والأشخاص البشرية والحيوانات ، حتى الهوام وأدنى حشرات الأرض .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ، إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ ، أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

« مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ » أى من دون الله « إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ »
يعنى أنكم سميتم ، ما لا يستحق الإلهية ، آلهة ، ثم طفقتم تعبدونها ، فكأنكم لا تعبدون
إلا أسماء فارغة لا مسميات تحتها « مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ » أى حجة تدل على صحتها
« إِنَّ الْحُكْمَ » أى فى أمر العبادة والدين « إِلَّا لِلَّهِ » لأنه مالك ، وهو لم يحكم بعبادتها ،
لأنه « أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ » لأن العبادة غاية التذلل ، فلا يستحقها إلا من له غاية
المعظمة ، « ذَلِكَ » أى التوحيد الدال على كمال عظمة الله ، بحيث لا يشاركه فيها غيره
« الدِّينُ الْقَيِّمُ » أى الحق المستقيم الثابت ، « وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » أى
لجهلهم ، ولذا كان أكثرهم مشركين .

تنبية :

لا يخفى أن قوله تعالى : (قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ) إلى هنا ، مقدمة لجواب سؤالها
عن تعبير رؤياها ، مهد ، عليه السلام ، بها له ليدعوها إلى التوحيد ، ليزدادا علماً بعظم شأنه ،
وثقة بأمره ، توسلاً بذلك إلى تحقيق ما يتوخاه من هدايتهما ، لاسيما وأن أحدهما ستماجله
مفيته بالصلب ، فرجاً أن يختم له بخير .

قال الزمخشري : لما استعبراه ووصفاه بالإحسان ، افترض ذلك ، فوصل به وصف نفسه
بما هو فوق علم العلماء ، وهو الإخبار بالغيب ، وأنه ينبئهما بما يحمل إليهما من الطعام ،
وجمل ذلك تخلصاً إلى أن يذكر لهما التوحيد ، ويعرض عليهما الإيمان ، ويزينه لهما ،
ويقبح إليهما الشرك بالله . وهذه طريقة ، على كل ذى علم أن يسلكها مع الجهال والفسقة

إذا استفقاه واحد منهم ، أن يقدم الهداية والإرشاد والموعظة الحسنة والنصيحة أولاً ، ويدعوه إلى ما هو أولى به ، وأوجب عليه مما استفقاه فيه ، ثم يفتيه بعد ذلك . وفيه ، أن العالم إذا جهلت منزلته في العلم ، فوصف نفسه بما هو بصده - وعرضه أن يقتبس منه ، وينتفع به في الدين - لم يكن من باب التزكية . انتهى .

وبعد تحقيق الحق ، ودعوتها إليه ، وبيانها لها مرتبة علمه ، شرع في تفسير ما استفسراه . ولكونه بحثاً مغايراً لما سبق ، فصله عنه بتكرير الخطاب فقال :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤١] (يَا صَاحِبِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمْ فَتَسْقَى رَبَّهُ خَمْرًا، وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ، قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ)

« يَا صَاحِبِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمْ فَتَسْقَى رَبَّهُ خَمْرًا » أى يخرج من السجن ، ويمود إلى ما كان عليه من سقى سيده الخمر ، « وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ » أى فيقتل ويلقى على خشبة ، فتأكل الطير من لحم رأسه .

« قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ » أى قطع وتم ما تستفتيان فيه . معنى : مآله ، وهو نجاة أحدهما ، وهلاك الآخر . والتعبير عنه بـ (الأمر) ، وعن طلب تأويله بـ (الاستفتاء) تهويلاً لأمره ، وتفخياً لشأنه ، إذ الاستفتاء إنما يكون في النوازل المشككة الحكم ، المهمة الجواب ، وإيثار صيغة الاستقبال ، مع سبق استفتائهما في ذلك ، لما أنهما بصده ، إلى أن يقضى عليه السلام من الجواب وطره .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ

ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السَّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ)

« وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ » أى قال يوسف للذى علم نجاته من الفتيين ، أى خلوصه من السجن والقتل ، وهو الساق : (اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ) أى : اذكر حالى وصفتى ، وعلى بالرؤيا ، وما جرى علىّ ، عند الملك سيدك ، عسى يخلصنى مما ظلمت به .

و (الظن) بمعنى العلم واليقين ، ورد كثيراً ، والتعبير به إرخاء للامنان ، وتأدب مع الله تعالى . وقيل : الظن بمناء المروف ، بناء على أن تأويل يوسف بطريق الاجتهاد ، والحكم بقضاء الأمر اجتهادى أيضاً ، والأول أنسب بالسياق .

تنبية :

دلت الآية على جواز الاستمانعة بمن هو مظنة كشف الغمة ، ولو مشركا . وقد جاء ذلك فى قوله تعالى ^(١) : (وَتَمَآوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى) . وقوله حكاية عن عيسى ^(٢) : (مَنْ أَنْصَارِى إِلَى اللَّهِ) . وفى الحديث ^(٣) : (والله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه) . وجلى أن ذلك من نظام الكون ، وال عمران البشرى ، ولذلك ميز الإنسان بالنطق .

وأما ما رواه ابن جرير عن ابن عباس مرفوعا : لو لم يقل - يعنى يوسف - الكلمة التى قال ، ما لبث فى السجن طول ما لبث ، حيث يبتغى الفرج من عند غير الله تعالى - فقال الحافظ ابن كثير : حديث ضعيف جداً ، وذكر من رجاله الضعفاء راويين سماهما . ثم قال :

(١) [٥ / المائدة / ٢] . (٢) [٣ / آل عمران / ٥٢] و [٦١ / الصف / ١٤] .

(٣) أخرجه مسلم فى ٤٨ - كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، حديث رقم ٣٨ (طبعتنا) من حديث طويل لأبى هريرة .

وروى أيضا مرسلًا عن الحسن وقتادة . قال : وهذه الرسائل هاهنا لا تقبل ، لو قُبِلَ المرسل من حيث هو ، في غير هذا الوطن . - والله أعلم - انتهى . ولقد أجاد وأفاد عليه الرحمة .

وقوله تعالى : « فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ » يعنى : فشغله الشيطان حتى نسى ذكر يوسف عند الملك . « فَلَبِثَ » أى مكث يوسف « فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ » أى طائفة منها . ولأهل اللغة أقوال فى (البضع) : ما بين الثلاث إلى التسع ، أو إلى الخمس ، أو ما لم يبلغ المقد ولا نصفه ، أى معنى ما بين الواحد إلى الأربعة ، وقيل غير ذلك .

ولما دنا الفرج من يوسف عليه السلام ، برحمته تعالى ، وما هبأه من الأسباب : رأى فرعون مصر هذه الرؤيا التى أشار إليها تعالى بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ ، يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ)

« وَقَالَ الْمَلِكُ » أى للملئ : « إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ » أى هالكات من الهزال . جمع عجفاء ، بمعنى المهزولة ، ضد السمينة ، « وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ » أى وأرى رؤيا ثانية سبع سنبلات « خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ » أى وسبعًا آخر يابسات دقيقة ، أى نبقت وراءها ، فابتلعت السنابل الخضر الممتلئة وإنما استغنى عن عددها وإعدامها للخضر ، للاكتفاء بما ذكر من حال البقرات لأنها نظيرتها .

وقوله : « يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ » خطاب للأشراف من قومه ، وكان دعا ، إثر استيقاظه ، سحرة مصر وحكماءها ، وقص عليهم رؤياه هذه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ ، وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ)

« قَالُوا » أى الملائكة للملك « أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ » أى تخاليطها ، جمع (ضغث) . وهو فى الأصل ما جمع من أخلاط النبات وحُرِّمَ ، ثم استعير لما تجمعه القوة التخيلية من أحاديث النفس ، ووساوس الشيطان ، وترىها فى المنام . و(الأحلام) جمع (حلم) ، وهو ما يراه النائم ، فهو مرادف للرؤيا ، إلا أنها غلبت فى رؤيا الخير ، والشئ الحسن ، وغلب الحلم على خلافه . وفى الحديث ^(١) ؟ الرؤيا من الله ، والحلم من الشيطان .

قال التوربشتى : الحلم عند العرب يستعمل استعمال الرؤيا ، والتفريق من الاصطلاحات التى سنّها الشارع للفصل بين الحق والباطل ، كأنه كره أن يسمى ما كان من الله ، وما كان من الشيطان باسم واحد ، فجعل الرؤيا عبارة عن الصالح منها ، لما فى الرؤيا من الدلالة على المشاهدة بالبصر أو البصيرة ، وجعل الحلم عبارة عما كان من الشيطان ، لأن أصل الكلمة لم يستعمل إلا فيما يخيل للحالم فى منامه من قضاء الشهوة ، مما لا حقيقة له . انتهى .

والمراد بالجمع فى (الأحلام) ما فوق الواحد ، لأنهما حلمان ، رأى كل واحد منهما إثر استيقاظه منه ، كما روى . وفهم بعضهم أنه حلم واحد ، فالتمس للجمع نكتة فقال : إما المبالغة فى وصفه بالبطلان ، أو تضمنه أشياء مختلفة . ولا حاجة إليه ، كما بينا .

« وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ » يمتثل أن يريدوا ب(الأحلام) المنامات الباطلة خاصة . أى : ليس لها تأويل عندنا ، وإنما التأويل للرؤيا الصادقة ، وأن يمتدحوا بقصور علمهم ، وأنهم ليسوا فى التعبير بنحارير .

قال الناصر : وهذا هو الظاهر . وحمل الكلام على الأول بصيره من وادى :

* على لا حيب لا يهتدى بمناره *

(١) أخرجه البخارى فى : ٩١ - كتاب التعبير ، ١٠ - باب من رأى النبى ﷺ فى المنام ، حديث ١٥٥٤ ، عن أبى قتادة .

كَأَنَّهُمْ قَالُوا : وَلَا تَأْوِيلَ لِلْأَحْلَامِ الْبَاطِلَةِ ، فَتَكُونُ بِهِ عَالِمِينَ . وَقَوْلَ الْمَلِكِ لَهُمْ أَوَّلًا : (إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ) دليل على أنهم لم يكونوا في علمه عَالِمِينَ بِهَا ، لَأَنَّهُ أَتَى بِكَلِمَةِ الشَّكِّ ، وَجَاءَ اعْتِرَافُهُمْ بِالْقُصُورِ مُطَابَقًا لَشَكِّ الْمَلِكِ الَّذِي أَخْرَجَهُ مَخْرَجَ اسْتِفْهَامِهِمْ عَنْ كُونِهِمْ عَالِمِينَ بِالرُّؤْيَا أَوَّلًا . وَقَوْلَ الْفَتَى : (أَنَا أَنْبِئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ) إِلَى قَوْلِهِ (لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ) دليل أيضاً على ذلك - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمْ أَوَادُ كَرِهُتُمْ أُمَّةً أَنَا أَنْبِئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ) « وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا » أى من صاحبي السجين ، وهو الساقى ، « وَادُ كَرِهُتُمْ أُمَّةً » أى تذكر بعد مدة . وكان تذكره ، على ما روى ، بعد سنتين « أَنَا أَنْبِئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ » أى أخبركم به بالتلقى عن عنده علمه ، لا من تلقاء نفسى ، ولذلك لم يقل : أنا أفتيكم فيها ، وعقبه بقوله « فَأَرْسِلُونِ » أى فابعثونى إلى يوسف ، وإنما لم يذكره ، ثقة بما سبق من التذكر ، وما لحق من قوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ عِجَافٍ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ)

« يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ » أى أرسل إليه ، فأناؤه فقال : يا يوسف ! ووصفه بالمبالغة فى الصدق ، حسبما ذاق أحواله ، وتعرف صدقه فى تأويل رؤياه ، ورؤيا صاحبه ، حيث جاء كما أول ، لكونه بصدد اغتنام معارفه ، فهو من باب براعة الاستهلال « أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ عِجَافٍ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ » أى فى

تأويل رؤيا ذلك . ولم يغير لفظ الملك ، لأن التعمير يكون على وفقه ، كما بينوه . وفي قوله : (أَفْتِنَا) مع أنه المستفتى وحده إشعار بأن الرؤيا ليست له ، بل لغيره ممن له ملاسة بأمور العامة ، وأنه في ذلك معبر وسفير ، كما آذن بذلك قوله : « لَعَالَى أَرْجَعُ إِلَى النَّاسِ » أى إلى الملك ومن عنده « لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ » أى ذلك : فيعملون بمقتضاه ، أو يعلمون فضلك ومكانك من العلم ، فيطلبوك ويخلصوك من محنتك . وإنما لم يبت الكلام ، بل قال (لعل) و (لعلهم) مجازاة معه على نهج الأدب ، واحترازاً عن المجازفة ، إذ لم يكن على يقين من الرجوع ، فربما اخترم دونه .

* لعل النايا دون ما تعدانى *

ولا من علمهم بذلك ، فربما لم يعلموه - أشار إليه أبو السعود - .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ)

[٤٨] (ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَخَصِمُونَ)

[٤٩] (ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يَغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْرِشُونَ)

« قَالَ » أى يوسف له فى تأويلها « تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا » أى دائبين مواظبين كل عام منها « فَمَا حَصَدْتُمْ » أى من الزرع « فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ » أى لا تدرسوه ، فإنه أبقى له « إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ » أى فى تلك السنين ، يعنى بقدر ما تأكلون .

« ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ » أى السبع المذكورات « سَبْعٌ شِدَادٌ » أى سبع سنين صعاب على الناس ، لقوة القحط « يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ » أى ما رفقتم لهن من الحبوب

المتركة في سنا بلها . ولما عبر عن البقرات بالسنين ، نسب الأكل إلى السنين . كما رأى في الواقعة البقرات يأكلن حتى يحصل التطابق بين المعبر وهو المرئي في المنام ، والمعبر به ، وهو تأويله . ولا يتعين المجاز العقلي - أى يؤكل فيها - كما في : (نهارة صائم) لجواز أن يكون مشاكلة حينئذ . « إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا شُحْصِنُونَ » أى تحرزون وتحبثون للزراعة .
 « ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ » أى السنين الموصوفة بالشدّة ، وأكل الفلال المدخرة « عَامٌ فِيهِ يُغَاتُّ النَّاسُ » أى يغطون من القيث ، أو يغاثون من القحط ، أو يرفع عنهم مكروهه من الفوت « وَفِيهِ يَمْعِرُونَ » أى ما كانوا يمعرونه على عادتهم من غنّ وزيتون ونحوها .

قال أبو السعود : والتعرض لذكر (العصر) ، مع جواز الاكتفاء عنه بذكر (القيث) المستلزم له عادة ، كما اكتفى به عن ذكر تصرفهم في الحبوب ، إما لأن استلزام القيث له ليس كاستلزامه للحبوب ، إذ المذكورات يتوقف صلاحها على مبادئ أخر غير المطر . وإما لمراعاة جانب المستغنى باعتبار حالته الخاصة به ، بشارته له ، وهى التى يدور عليها حسن موقع تغليبها على الناس ، فى القراءة بالفوقانية . وقيل : معنى (يَمْعِرُونَ) يحلبون الضروع . انتهى .

واللفظ بعموم معناه يشمله ، لأن الحلب فيه عصر الضرع ليخرج الدرة .
 قال الزمخشري : تأويل البقرات السمان والسنبيلات الخضر بسنين مخصبة ، والمعجاف واليابسات بسنين مجدبة ، ثم بشرهم بعد الفراغ من تأويل الرؤيا بأن العام الثامن يجيء مباركاً خصيباً ، كثير الخير ، غزير النعم ، وذلك جهة الوحى .

تنبيه .

قال فى (الإكمال) : هذه الآية من أصول التعبير . وفيها أيضاً صحة رؤيا الكفار ، وجواز تسميته ملكاً ، وأن قولنا (الرؤيا لأول عابر) ليس عاماً فى كل رؤيا ، لأنهم قالوا :

(أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ) ، ولم تسقط بقولهم ذلك ، فتخص القاعدة بما يحتمل من الرؤيا وجوهاً فيعبر بأحدها ، فيقع عليه . وفي قوله : (ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ ...) الخ زيادة على ما وقع السؤال عنه ، فيستدل به على أنه لا بأس بذلك في تعبير الرؤيا والقوى . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (وَقَالَ الْمَلِكُ انْتَوْنِي بِهِ ، فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ)

« وَقَالَ الْمَلِكُ انْتَوْنِي بِهِ » أى أخرجوه من السجن وأحضروه ، لما علم من علمه وفضله ، « فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ » أى يستدعيه إلى الملك « قَالَ » أى يوسف له : « ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ » أى سيدك الملك ، « فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ » أى ما شأنهن وخبرهن ؟ أمره بأن يسأله ويستفهمه عن ذلك ، ولم يكشف له عن القصة ، ولا أوضحها له ، لأن السؤال مجملًا ، مما يهيج الملك على الكشف والبحث والاستعلام ، فتحصل البراءة . وإنما كان السؤال المجمل يهيج الإنسان ، ويحركه للبحث عنه . لأنه يأنف من جهله وعدم علمه به ، ولو قال : سله أن يفتش عن ذلك ، لكان طلباً للفحص عنه ، وهو مما يتسامح ويتساهل به ، وفيه جراءة عليه ، وربما امتنع منه ، ولم يلتفت إليه .

قال الزمخشري : إنما تأتى وثبتت في إجابة الملك ، وقدم سؤال النسوة ، ليظهر براءة ساحته عما قرف به وسجن فيه ، لئلا يتسلق به الحاسدون إلى تقبيح أمره عنده ، ويجملوه سلماً إلى حط منزلته لديه ، ولئلا يقولوا : ما خلد في السجن إلا لأمر عظيم ، وجرم كبير ، حق به أن يسجن ويعذب ، ويستكف ثمره ، وفيه دليل على أن الاجتهاد في نفي التهم واجب وجوب اتقاء الوقوف في موافقها . قال عليه السلام ^(١) : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقفن

(١) لم أهتد إلى هذا الحديث .

موافق التهم . ومنه قال ^(١) رسول الله ﷺ للمارين به في معتكفه ، وعنده بعض نسائه : هي فلانة ، اتقاء للثمة .

وعن النبي ﷺ : لقد عجبت من يوسف وكرمه وصبره ، والله يغفر له ، حين سئل عن البقرات المجاف والسمان . ولو كنت مكانه ما أخبرتهم حتى أشرط أن يخرجوني . ولقد عجبت منه حين أتاه الرسول فقال : (ارجعْ إِلَى رَبِّكَ) ، ولو كنت مكانه ولبثت في السجن ما لبثت ، لأسرعت الإجابة ، وبادرته الباب ، ولما ابتغيت العذر . إن كان لحليماً ذا أناة . انتهى .

رواه عبد الرزاق في مصنفه مرسلًا عن عكرمة .

وقد روى في المسند والصحيجين ^(٢) مختصراً عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : لو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي - مدحه النبي ﷺ على هذه الأناة ، وكان في طي هذه المدحة بالأناة والتثبت تنزيهه وتبرئته مما لعله يسبق إلى الوهم أنه همٌ بامرأة العزيز همًّا يؤاخذ به ، لأنه إذا صبر وتثبت فيما له ألا يصبر فيه ، وهو الخروج من السجن ، مع أن الدواعي متوافرة على الخروج منه ، فَلَأَنْ يصبر فيما عليه أن يصبر فيه من الهم ، أولى وأجسدر - أفاده الناصر .

قال أبو السمود : وإنما لم يتعرض لامرأة العزيز ، مع ما لقي منها ما لقي ، من مقاساة

(١) أخرجه البخاري في : ٣٣ - كتاب الاعتكاف ، ٨ - باب هل يخرج المعتكف لحوائجه إلى باب المسجد ، حديث ١٠٣١ ، عن صفية ، زوج النبي ﷺ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند بالصفحة ٣٢٦ من الجزء الثاني (طبعة الحلبي) : وأخرجه البخاري في : ٦٠ - كتاب الأنبياء ، ١١ - باب قوله عز وجل : وَنَبِّئُهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ، حديث رقم ١٥٩٣ .

وأخرجه مسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث رقم ٢٣٨ (طبعتنا) .

الأحزان ، محافظة على مواجب الحقوق ، واحتراراً عن مكرها ، حيث اعتقدتها مقيمة في عدوة العداوة ، وأما النسوة فقد كان يطمع في صدعهن بالحق ، وشهادتهن بإقرارها بأنها راودته عن نفسه فاستمعن ، ولذلك اقتصر على وصفهن بقطع الأيدي ، ولم يصرح براودتهن له ، وقولهن (أطمع مولاتك) واكتفى بالإيحاء إلى ذلك بقوله : « إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ » يعني ما كدنه به . وفي إضافة علمه إلى الله إشارة إلى عظمه ، وأن كنهه غير مأمول الوصول إليه ، لكن ما لا يدرك كله ، لا يترك كله . وفيه تشويق وبعث على معرفته ، فهو تميم لقوله : (اسأل) ، ودلالة على أنه برىء مما قرف به ، للاستشهاد بعلمه تعالى عليه ، وفيه الوعيد لمن على كيدهن ، وأنه تعالى مجازٍ عليه . وقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥١] (قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ)

« قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ » استئناف مبني على السؤال ، كأنه قيل : فإذا كان بعد ذلك ؟ فقيل : قال الملك : ما خطبكن - أي شأنكن - إذ راودتن يوسف يوم الضيافة ؟ يعني : هل وجدتن منه ميلاً إليكن ؟

« قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ » أي قبيح . بالئن في نفى جنسه عنه بالنكير ، وزيادة (من) « قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ » أي ثبت واستقر وظهر بعد خفائه ، « أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ » أي في قوله : هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي .

قال الزمخشري : ولا مزيد على شهادتهن له بالبراءة ، والنزاهة ، واعترافهن على أنفسهن ، بأنه لم يفعل بشيء مما قرفنه به ، لأنهن خصومه . وإذا اعترف الخصم بأن صاحبه على الحق ، وهو على الباطل ، لم يبق لأحد مقال . انتهى - * والفضل ما شهدت به الأعداء *

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ، وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ)
 « ذَلِكَ » تقول امرأة العزيز : ذلك الذي اعترفت به على نفسي « لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ
 بِالْغَيْبِ » أى ليعلم يوسف أنى لم أكذب عليه فى حال الغيبة ، وجئت بالصحيح والصدق
 فيما سئلت عنه ، أو ليعلم زوجى أنى لم أخنه بالغيب فى نفس الأمر ، ولا وقع المحذور الأكبر ،
 وإنما راودت هذا الشاب مراودة فامتنع ، فاعترفت ليعلم أنى بريئة .
 « وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ » أى لا يرضاه ولا يسدده .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ)

« وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي » ، إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ
 رَحِيمٌ » تريد : وما أبرئ نفسي مع ذلك ، فإن النفس تتحدث وتتمنى ، ولهذا راودته .
 أو تمنى : أنى ما أبرئ نفسي من الخيانة ، فإنى قد خنته حين قرفته وقلت : مَا جَزَاءُ مَنْ
 أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ ؟ وأودعته السجن . تريد الاعتذار مما كان منها أن كل
 نفس لأماراة بالسوء ، إلا نفساً رحمها الله بالمصمة ، كنفس يوسف .

ثم إن تأويل قوله تعالى : (ذَلِكَ لِيَعْلَمَ ...) الآية - على أنه حكاية قول امرأة العزيز -
 قال ابن كثير : هو القول الأشهر والأليق والأنسب بسياق القصة ، ومعانى الكلام .
 وقد حكاه الماوردى فى تفسيره ، وانتدب لنصره الإمام أبو العباس ابن تيمية رحمه الله ،
 فأفرده بتصنيف على حدة . وقد قيل : إن ذلك من كلام يوسف ، ولم يحك ابن جرير وابن
 أبى حاتم سواه . والمعنى : ذلك الثبوت والتأني والتشمر لظهور البراءة ، ليعلم العزيز أنى لم أخنه
 بظهر الغيب فى أهله ، أو ليعلم الله أنى لم أخنه ، لأن المعصية خيانة . ثم أكد أمانته بقوله :

(وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ) ، وأنه لو كان خائناً لما هدى الله عز وجل أمره ، أى : سدده وأحسن عاقبته . وفيه تعريض بامرأة العزيز فى خيانتها أمانته ، وبالعزيز فى خيانة أمانة الله تعالى ، حين ساعدها بعد ظهور الآيات على حبسه . ثم أراد أن يتواضع لله ، ويهضم نفسه ، لئلا يكون لها مزيكياً ، وبجالتها فى الأمانة معجباً ومفتخراً ، وليبين أن ما فيه من الأمانة ليس به وحده، وإنما هو بتوفيق الله ولطفه وعصمته ، فقال : (وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي) أى لا أنزهها من الزلل ، ولا أشهد لها بالبراءة الكلية ، ولا أزيكها ، فإن النفس البشرية تأمر بالسوء ، وتحمل عليه بما فيها من الشهوات ، إلا مارحم الله من النفوس التى يعصمها من الوقوع فى المساوىء .

هذا خلاصة ما قرره على أنه من كلام يوسف . قال ابن كثير : والقول الأول أقوى وأظهر ، لأن سياق الكلام كله من كلام امرأة العزيز بحضرة الملك ، ولم يكن يوسف عليه السلام عندهم ، بل بعد ذلك أحضره الملك - والله أعلم - .

لطائف :

الأولى - محل قوله : (بِالْغَيْبِ) الحال من الفاعل أو المفعول ، على معنى - وأنا غائب أو غائبة عنه ، أو وهو غائب عني خفي عن عيني . أو هو ظرف ، أى بمكان الغيب ، وهو الخفاء والاستتار وراء الأبواب .

الثانية - قيل : معنى (لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ) أى : لا يهديهم بسبب كيدهم ، أوقعت الهداية المنفية على الكيد ، وهى واقعة عليهم تجوزاً ، للمبالغة ، لأنه إذا لم يهد السبب ، علم منه عدم هداية مسببه بالطريق الأولى .

وقيل : المعنى لا يهديهم فى كيدهم ، كقوله تعالى ^(١) : (يُضَاهِيُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا) أى فى قولهم .

(١) [٩ / التوبة / ٣٠] .

وقيل : هداية الكيد مجاز عن تنفيذ وتسيده .

الثالث - قال في (الإكليل) : (وَمَا أَبْرَأُ نَفْسِي) أصل في التواضع ، وكسر النفس وهضمها .

الرابعة - قال الزمخشري : لقد افقت المبطلة روايات مصنوعة - ثم ساقها - وقال : وذلك لتهالكهم على بهت الله ورسله .

قال الناصر : ولقد صدق في التوريك على نقلة هذه الزيادات بالبهت ، وذلك شأن المبطلة من كل طائفة . ويحق الله الحق بكلماته ويبطل الباطل .

الخامسة - رأيت لابن القيم في (الجواب السكافي) في عجيب صبر يوسف وعفته ، مع الدواعي من وجوه ، قال عليه الرحمة ، بعد أن مهد مقدمة في مفاسد عشق الصور العاجلة والآجلة : إنها أضعاف ما يذكره ذاكر ، فإنه يفسد القلب بالذات ، وإذا فسد فسدت الإرادات والأقوال والأعمال ، وفسد ثمر التوحيد . والله تعالى إنما حكى هذا المرض عن طائفتين من الناس : وهم اللوطية والنساء . فأخبر عن عشق امرأة العزيز ليوسف ، وما راودته ، وكادته به ، وأخبر عن الحال التي صار إليها يوسف ، لصبره وعفته وتقواه ، مع أن الذي ابتلى به أمر لا يصبر عليه إلا من صبره الله عليه . فإن موافقة الفعل ، بحسب قوة الداعي ، وزوال المانع ، وكان الداعي ههنا في غابة القوة وذلك لوجوه :

أحدها - ما ركب الله سبحانه في طبع الرجل من ميله إلى المرأة كما يميل العطشان إلى الماء ، والجائع إلى الطعام ، حتى إن كثيراً من الناس يصبر عن الطعام والشراب ، ولا يصبر عن النساء . وهذا لا يذم إذا صادف حلالاً بل يحمده .

الثاني - أن يوسف عليه السلام كان شاباً ، وشهوة الشباب وحدته أقوى .

الثالث - أنه كان عزباً لا زوجة له ولا سرية تكسر شدة الشهوة .

الرابع - أنه كان في بلاد غربة يتأتى للغريب فيها من قضاء الوطر مالا يتأتى لغيره في وطنه ، وبين أهله ومعارفه .

الخامس - أن المرأة كانت ذات منصب وجمال بحيث أن كل واحد من هذين الأمرين يدعو إلى موافقتها .

السادس - أنها غير آبية ولا ممتنعة ، فإن كثيراً من الناس يزيل وغبته في المرأة بإيائها وامتناعها ، لما يجد في نفسه من ذل الخضوع والسؤال لها ، وكثير من الناس يزيده الإباء والامتناع زيادة حب ، كما قال الشاعر :

وزادني كَفْأً في الحب أن مُنِمَتَ أَحَبُّ شَيْءٍ إلى الإنسان ما مُنِمَا

فطباع الناس مختلفة في ذلك : فمنهم من يتضاعف حبه عند بذل المرأة ورغبتها ، وتضمحل عند إياها وامتناعها ، ومنهم من يتضاعف حبه وإرادته بالمنع ، ويشقد شوقه بكل ما منع ، ويحصل له من اللذة بالظفر نظير ما يحصل من لذة الظفر بالضد بعد امتناعه ونقاره . واللذة بإدراك المسألة بعد استصعابها ، وشدة الحرص على إدراكها .

السابع - أنها طلبت وأرادت وبذلت الجهد ، فكففته مؤنة الطلب ، وذل الرغبة إليها ، بل كانت هي الراغبة الذليلة ، وهو العزيز المرغوب إليه .

الثامن - أنه في دارها ، وتحت سلطانها وقهرها ، بحيث يخشى ، إن لم يطاوعها ، من أذاها له ، فاجتمع داعي الرغبة والرغبة .

التاسع - أنه لا يخشى أن تنمى عليه هي ، ولا أحد من جهتها ، فإنها هي الطالبة والرغبة ، وقد غلقت الأبواب ، وغيبت الرقباء .

العاشر - أنه كان مملوكاً لها في الدار ، بحيث يدخل ويخرج ويحضر معها ، ولا ينكر عليه ، وكان الأُنس سابقاً على الطلب ، وهو من أقوى الدواعي ، كما قيل لامرأة من العرب : ما حملك على كذا؟ قالت : قرب الوساد ، وطول السواد . تعني : قرب وساد الرجل من وسادتي ، وطول السواد بيننا .

الحادي عشر - أنها استعانت عليه بأئمة السكر والاحتتيال ، فآثرته إياهن ، وشكت

حالها إليهن ، لتستعين بهن عليه ، فاستعان هو بالله عليهن ، فقال ^(١) : (وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ) .

الثاني عشر - أنها توعده بالسجن والصغار ، وهذا نوع إكراه ، إذ هو تهديد ممن يغلب على الظن وقوع ما هدد به ، فيجتمع داعي الشهوة ، وداعي السلامة ، من ضيق السجن والصغار .

الثالث عشر - إن الزوج لم يظهر من الغيرة والقوة ما يفرق به بينهما ، ويبعد كلا منهما عن صاحبه ، بل كان غاية ما خاطبهما به أن قال ليوسف ^(٢) : (أَعْرِضْ عَنْ هَذَا) ، والمرأة ^(٣) : (اسْتَغْفِرِي لِدُنْيِكَ إِنَّكَ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ) . وشدة الغيرة للرجل من أقوى الموانع ، وهنا لم يظهر منه غيرة .

ومع هذه الدواعي فآثر مرضاة الله وخوفه ، وحمله حبه لله على أن اختار السجن على الزنى ، فقال ^(١) : (رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ) وعلم أنه لا يطيق صرف ذلك عن نفسه ، وأن ربه تعالى إن لم يعصمه ويصرف عنه كيدهن صبا إليهن بطبعه ، وكان من الجاهلين . وهذا من كمال معرفته بربه وبنفسه . وفي هذه القصة من العبر والفوائد والحكم ما يزيد على ألف فائدة . انتهى كلام ابن القيم .

ثم أشار تعالى إلى ما امتن به على يوسف من رفع قدره بصبره ، وإعلاء منزلته برحمته ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي ، فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ)

« وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي » أي أخصه بها ، دون العزيز ، جرياً على عادة الملوك من الاستئثار بالنفيس العزيز . قال ذلك لما تحقق براءته مما نسب إليه ، وكرم

(١) [١٢ / يوسف / ٣٣] . (٢) [١٢ / يوسف / ٢٩] .

نفسه ، وسعة علمه . « فَلَمَّا كَلَّمَهُ » أى فلما أتوا به ، وكلمه ، أى خاطبه الملك وعرفه ، وشاهد فضله وحكمته وبراعته - وجوز أن يكون فاعل (كَلَّمَهُ) يوسف عليه السلام - « قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ » أى ذو مكانة ومنزلة « أَمِينٌ » أى مؤتمن على كل شئ . روى أن يوسف عليه السلام ، لما حضر الملك ، وعبر له رؤياه ابتهج بحديثه هو وخاصة ، وقال لهم : هل نجد مثله رجلاً مَهَبْطاً للإمداد الربانى ؟ وقال ليوسف : بعد أن عرفك الله هذا فلا يكون حكيم مثلك ، وأنت على بيتى ، وإلى كلمتك تنقاد رعييتى ، ولا أكون أعظم منك إلا بعرضى ، وقد أقمْتُك على جميع أرض مصر . ونزع خاتمه من يده ، ووضعها في إصبعه ، وألبسه ثياب بزّ ، وجعل طوقاً من ذهب في عنقه وأركبه مركبته ، وأمر أن يطاق به في شوارع مصر ، وينادى أمامه بالخضوع له . وقال له الملك : لا يعضى أمر ، ولا ينفذ شأن في مصر إلا برأيك ومشورتك ، وسماه مخلص العالم ، وزوجه بنت أحد العظماء لديه . وكان يوسف وفتنئذ ابن ثلاثين سنة - والله أعلم - .

قال بعضهم : إن من أمعن النظر في قصة يوسف عليه السلام ، علم يقيناً أن التقى الأمين لا بضيق الله سعيه ، بل يحسن عاقبته ، ويعلى منزلته في الدنيا والآخرة ، وأن المعتصم بالصبر لا يخشى حدثان الدهر وتجاربه ، ولا يخاف صروفه ونوائبه ، فإن الله يمضده ويُنْجِح مسعاه ويخلد ذكره العاطر على ممر الأدهار ؛ فإن يوسف عليه السلام لما لم يخش للنوائب وعيماً ، ولا للتجارب تهديداً ، ولم يخف للسجن ظمأً وشرّاً ، ولا للتنكيل به ألماً وضراً ، بل ألقى توكله على الرب ، وصبر إزاء تلك البلية ثابت القلب - نال بطهارته وتقواه تاج الفخر ، ولسان الصدق طول أيام الدهر . وها إن فضيلته لم يعف جميل ذكراها مرور الأيام ، ولم يعبت بنضارتها كرور الأعوام ، بل ادخرت لنا مثالا نتقفى أثره عند طرود التجارب ، وملاذا نعوذ به في المحن والمصائب ، ومقصدى نتدرب به على التثبت في مواقف العثار ، ونهيج منهاجه في التقوى وطيب الإزار ، فننال في الدنيا سمة المجد ، ونفوز في الآخرة بدار الخلد .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٥] (قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ ، إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ)

« قَالَ » أى يوسف للملك « اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ » أى ولّنى خزائن أرضك . يعنى جميع الغلات لما يستقبلونه من السنين التى أخبرهم بشأنها ، فيتصرف لهم على الوجه الأرشد والأصلح . ثم بين اقتداره فى ذلك فقال : « إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ » أى أمين أحفظ ما تستحفظنيه ، عالم بوجوه التصرف فيه .

قال الزمخشري . وصف نفسه بالأمانة والكفاية اللتين هما طلبية الملوك ممن يولونه . وإنما قال ذلك ليتوصل إلى إمضاء أحكام الله تعالى ، وإقامة الحق ، وبسط العدل ، والتمكن مما لأجله تبعث الأنبياء إلى العباد ، ولعلمه أن أحداً غيره لا يقوم مقامه فى ذلك ، فطلب التولية ابتغاء وجه الله ، لا لحب الملك والدنيا .

فإن قلت : كيف جاز أن يتولى عملاً من يد كافر ، ويكون تبعاً له ، وتحت أمره وطاعته؟ قلت : روى مجاهد أنه كان قد أسلم . وعن قتادة هو دليل على أنه يجوز أن يتولى الإنسان عملاً من يد سلطان جائر . وقد كان السلف يتولون القضاء من جهة البغاة ويرونه . وإذا علم النبيّ أو العالم أنه لا سبيل إلى الحكم بأمر الله ودفع الظلم إلا بتمكين الملك الكافر أو الفاسق ، فله أن يستظهر به .

وقيل : كان الملك يصدر عن رأيه ، ولا يعترض عليه فى كل ما رأى ، فكان فى حكم التابع له والمطيع . انتهى .

وهذه الآية أصل فى طلب الولاية كالتضاء ونحوه ، لمن وثق من نفسه بالقيام بحقوقه ، وجواز التولية عن الكافر والظالم . وأصل فى جواز مدح الإنسان نفسه لمصاحته ، وفى أن المتولى أمراً ، شرطه أن يكون عالماً به ، خبيراً ، ذكياً الفطنة - كذا فى (الإكليل) . قال أبو السعود : وإنما لم يذكر إجابة الملك إلى ما سأله ، عليه السلام ، من جملة على

خزائن الأرض ، إيدانا بأن ذلك أمر لا مردّ له ، غنى عن التصريح ، لا سيما بعد تقديم ما يندرج تحته من أحكام السلطنة بحذافيرها ، من قوله : (إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ) ، وللتنبية على أن كل ذلك من الله عز وجل ، وإنما الملك آلة في ذلك .

تنبيه :

قال ابن كثير : خزائن الأرض هي الأهرام التي يجمع فيها الغلات . . . الخ . ولم أر الآن مستنده في كون الأهرام كانت مجمع الغلات ، ولم أفد عليه في كلام غيره . و (الأهرام) بفتح الهمزة ، جمع هَرَم بفتحين ، وهي مبان مربعة الدوائر ، مخروطية الشكل ، بقي منها الآن ثلاثة في الجزيرة ، بعيدة أمياً لا عن القاهرة ، معدودة من غرائب الدنيا . دعيت لرؤياها أيام رحلتى للديار المصرية عام ١٣٢١ هـ وقد استقر رأي المتأخرين في تحقيق شأنها على أنها كانت مدافن للموكمهم .

ففي كتاب (الأثر الجليل لقدماء وادى النيل) : جميع الأهرام ليست إلا مقابر ملوكية أثر أصحابها أن يتميزوا بها بعد موتهم عن سائر الناس ، كما تميزوا عنهم مدة حياتهم ، وتوخّوا أن يبقى ذكرهم بسببها على تطاول الدهور ، وتراخى العصور . وقد أجمع مؤرخو هذا العصر على أن الهرم الأكبر قبر للملك (خوفو) ، والثاني للملك (خفرع) والثالث للملك (منقرع) وجميعهم من العائلة المنفيسية . ولا عبرة بقول من زعم أنها معابد أو مراصد للكواكب ، أو مدرسة للمعارف الكهنوتية ، أو غير ذلك . انتهى .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ، نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ ، وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ)

« وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ » أى أرض مصر « يَتَّبِعُوا مِنْهَا » أى ينزل

من بلادها « حَيْثُ يَشَاءُ » وذلك أنه عليه السلام لما ولّاه النظر على خزائن مصر ، تجول في قطرها ، وطاف قراها ، والأمر أمره ، والإشارة إشارته ، عناية منه تعالى ورحمة ، كما قال : « نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ » أى الذين أحسنوا عملاً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (وَلَا جُزْءَ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ)

« وَلَا جُزْءَ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ » أى ثوابها خير من ثواب الدنيا للمؤمنين المتقين . إشارة إلى أن المطلب الأعلى هو ثواب الآخرة ، وأن ما يدخر لهؤلاء هو أعظم وأجل مما يخولون به فى الدنيا من التمكن فى الأرض والجاه والثروة والمُلك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ)

« وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ » إشارة إلى ما وقع من مصداق رؤيا يوسف . وذلك أن الأرض أخضبت سبع سنين ، وأخرجت من بركتها ما يعادل رمل البحر كثرة ، فجمع يوسف غلالها ، وجعل فى كل مدينة غلال ما حولها من الحقول ، ولما مضت هذه السبع ، دخلت السنون المجذبة ، فعمّ القحط مصر والشام ونواحيهما ، فأخذ الناس ، من سائر البلاد ، فى المسير إلى مصر ليمتاروا منها ، لأنفسهم وعيالهم ، لما علموا من وجود القوت فيها . وكان من جملة من سار للميرة إخوة يوسف ، عن أمر أبيهم يعقوب ، لتناول القحط بلادهم - فلسطين - فركبوا عشرة نفر ، واحتبس يعقوب عنده ابنه بنيامين ، شقيق يوسف ، خشية أن يلحقه سوء ، وكان أحب ولده إليه بمسد يوسف . فلما هبطوا مصر ، دخلوا على يوسف ، ولم يعرفوه لطول العهد ، ومفارقتهم إياهم فى سن الحداثة ، وعدم استثمارهم فى أنفسهم أن يصير إلى ماصار إليه ، وأما هو فعرفهم . روى أنهم لما دخلوا عليه

سجدوا له بوجوههم إلى الأرض ، تحية له فشرع يخاطبهم مقتكراً لهم ، وقال : من أين قدمتم ؟ قالوا : من أرض كنعان ، لنبتاع طعاماً . فقال لهم : أنتم جواسيس ، إنما جئتم لتجسسوا ثغور الأرض ! قالوا : معاذ الله ! ما جاء عبيدك إلا للميرة ، لأن الجهد أصابنا ، ونحن إخوة ، بنو أب واحد . قال : كم أنتم ؟ قالوا : كنا اثني عشر ، هلك منا واحد . قال : فكم أنتم هاهنا ؟ قالوا : عشرة . قال : فأين الأخ الحادى عشر ؟ قالوا : هو عند أبيه يتسلى به من الهالك . قال : لابد من امتحان صدق كلامكم ، فليبق واحد منكم عندى رهينة ، ولتذهب بقيتكم ، فتأخذ ميرة لجماعة أهلكم ، وأتوا بأخيكم الصغير إلى ، ليمتحن صدقكم . ثم أخذ شمعون ، واحتبسه عنده ، وأذن للبقية ، وأمر أن يمتطوا زاداً للطريق ، وهذا ما أشير إليه فى قوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُمْ مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوْفِي الْكَفِيلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ)

« وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ » بفتح الجيم ، وقرئ بكسرها ، أى أوفر ركايبهم بالطعام والميرة .
« قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُمْ مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوْفِي الْكَفِيلَ » أى أنه « وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ » أى المضيفين وقوله ذلك ، تحريض لهم على الإتيان به ، لا امتنان .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (فَإِنْ لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَّكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ)
« فَإِنْ لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَّكُمْ عِنْدِي » أى فيما تستقبلون ، « وَلَا تَقْرَبُونِ » أى ولا تقربوني بدخول بلادى مرة ثانية . فالياء محذوفة ، والنون نون الوقاية .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦١] (قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ)

« قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ » أى سنخادعه ونحتال فى انتزاعه من يده ، ونجتهد فى ذلك . وفيه تنبيه على عزة المطلب ، وصعوبة مناله - قاله أبو السعود - « وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ » أى ذلك . يعنون المرادة ، أو الإتيان به ، فيكون ترقياً إلى الوعد بتحصيله بعد المرادة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٢] (وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

« وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ » أى لخدمته الكياليين : « اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ » يعنى ببضاعتهم ، ما شروا به الطعام . روى أنها كانت فضة . أى اجعلوها فى أمتعتهم من حيث لا يشعرون . « لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا » أى لىكى يعرفونها ، « إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ » أى وفتحوا أوعيتهم ، « لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ » أى حسباً أمرتهم به ، فإن التفضل عليهم بإعطاء البدلين من أقوى الدواعى إلى الرجوع .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (فَلَمَّا رَجِعُوا إِلَى آبَائِهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانًا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)

« فَلَمَّا رَجِعُوا إِلَى آبَائِهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ » أى أنذرنا بمنعه بمد هذا ، إن لم نأت بأخيها ، « فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانًا نَكْتَلْ » أى نرفع المانع من الكيل ، ونكتل من الطعام ما نحتاج إليه ، وقرئ (يكتل) بالتحقيق أى أخونا لنفسه مع اكتيالنا ، « وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » أى من أن يناله مكروه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٤] (قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ ، فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا ، وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)

« قَالَ » أى يعقوب لهم « هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ » أى من قبله ، يوسف . يعنى : هل أقدر أن آخذ عليكم المهد والميثاق ، أكثر مما أخذت عليكم فى يوسف ، وقد قلتم^(١) : (وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) ثم ختمتم بضمانكم ؟ فما يؤمننى من مثل ذلك ؟ فلا أثق بكم ، ولا بحفظكم ، وإنما أفوض الأمر إلى الله « فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا » أى منكم ومن كل أحد « وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ » أى أرحم من والديه وإخوته ، فأرجو أن يرحمنى بحفظه . وهذا ميل منه إلى الإذن فى إرساله معهم لما رأى فيه من المصلحة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٥] (وَكَمَا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ، قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي ، هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ، وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزِدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ، ذَلِكَ كَيْلُ يَسِيرٍ)

« وَكَمَا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ » أى وجدوا دراهمهم ، ثمن طعامهم فى متاعهم .

روى أن أحدهم فتح متاعه ليأخذ علفاً لدايته ، فرأى فضته فى فم متاعه فقال لإخوته : قد ردت دراهمى وهامى فى متاعى ثم لما وصلوا كنعان ، وأخذوا يفرغون أوعيتهم ، وجد كل واحد منهم صرة دراهمه فى وعائه ، فاستطارت قلوبهم ، ودهشوا ، وحمدوا عناية الله بهم .

« قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي » أى ما ذا نبتغى وراء ذلك ؟ هل من زيادة ؟ أى : لا مزيد على ما فعل ، لأنه أكرمنا ، وأحسن مثوانا ، بإزالنا عنده ، ورد الثمن علينا . والقصد إلى

(١) [١٢ / يوسف / ١٢]

استغزاه عن رأيه . أو : لا نبغى فى القول ولا نكذب فيما حكينا لك ، من إحسانه الداعى إلى امتثال أمره . أو : ما نبغى وما نطق إلا بالصواب فيما نشير به عليك من تجهيزنا مع أخينا . وقرئ على الخطاب . أى : أى شئ تطلب وراء هذا من الدليل على صدقنا ؟
 « هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا » جملة مستأنفة موضحة لما دل عليه الإنكار من بلوغ اللطف غايته ، كأنهم قالوا : كيف لا ، وهذه بضاعتنا ردت إلينا تفضلاً من حيث لا ندرى ؟

« وَنَمِيرُ أَهْلَنَا » معطوف على مقدر مفهوم . أى : فنستظهر بها ، وغير أهلنا إذا رجعنا إلى الملك . أى : نأتيهم بميرة ، أى بطعام . يقال : (ماره) أناه بطعام ومنه : (ما عنده خير ولا مير) .

« وَنَحْفَظُ أَخَانَا » أى : فلا يصيبه شئ مما تخافه « وَنَزِدَادُ كَيْلِ بَعِيرٍ » أى باستصحابه « ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ » أى سهل على هذا الملك المحسن لسخائه ، فلا يضايقنا فيه . أو المعنى قصير المدة ، ليس سبيل مثله أن تطول مدته بسبب الحبس والتأخير . أو المعنى : ذلك الذى يكال لنا دون أخينا شئ يسير قليل ، فابعث أخانا معنا حتى نتسعم ونتكثر بمكيله .

وقال ابن كثير : هذا من تمام الكلام وتحسينه . أى : إن هذا يسير فى مقابلة أخذ أخيه لا يعدل هذا . فلا يكون من كلامهم ، والجملة محتملة للكل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٦] (قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُوا مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ)

« قَالَ » أى لهم أبوه « لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ » أى بهذه المقالة « حَتَّى تُؤْتُوا مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ » أى عهداً منه ، ويعيناً به ، لتردته على « إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ » أى

تغلبوا عليكم ، فلا تقدرّون على تخليصه . وأصله من : (أحاط به العدو) سدّ عليه مسالك النجاة ودنا هلاكه .

« فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْتَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَيَّ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ » أى شهيد رقيب . والقصد منهم على ميثاقهم بتخويلهم من نقضه بمجازاة تعالى .

قال ابن إسحاق : وإنما فعل ذلك لأنه لم يجد بداً من بعثهم لأجل الميرة التي لا غنى بهم عنها .

لطيفة :

قال الناصر : ولقد صدقت هذه القصة المثل السائر، وهو قولهم : (البلاء موكل بالمنطق) فإن يعقوب عليه السلام قال أولاً فى حق يوسف ^(١) : (وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ) فابتلى من ناحية هذا القول . وقال هاهنا ثانياً : (إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ) أى تغلبوا عليه ، فابتلى أيضاً بذلك ، وأحيط بهم وغلبوا عليه . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أُلْحِمَكُمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ)

« وَقَالَ » أى أبوه : « يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ » أى اثلاً يستغلت دخولهم من باب واحد ، أنظار من يقف عليه من الجند ، ومن يعسّ للحاكم ، فيريب بهم ، لأن دخول قوم على شكل واحد ، وزىّ متجدد ، على بلدهم غرباء عنه ، مما يلفت نظر كل راصد . وكانت المدن وقتئذ مبنية لا ينفذ إليها إلا من أبوابها ،

(١) [١٢ / يوسف / ١٣] .

وعلى كل باب حرسه ، وليس دخول الفرد كدخول الجمع في التنبيه ، واتباع البصر . وقيل :
 نهاهم لثلاث تصيبيهم العين إذا دخلوا كوكبة واحدة - وسيأتى بيانه - .
 « وَمَا أَغْنَىٰ عَنْكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ » أى لا أدفع عنكم بتدبيرى شيئاً مما قضى
 عليكم ، فإن الحذر لا يمنع القدر .

قال أبو السعود: ولم يرد به عليه السلام إلقاء الحذر بالمرة ، كيف لا وقد قال عز قائل^(١) :
 (وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ) وقال^(٢) : (خُذُوا حِذْرَكُمْ) . بل أراد بيان أن
 ما وصاهم به ليس مما يستوجب المراءى محالة ، بل هو تدبير فى الجملة . وإنما التأثير وترتيب
 المنفعة عليه من العزيز القدير ، وإن ذلك ليس بمدافعة للقدر ، بل هو استعانة بالله تعالى ،
 وهرب منه إليه . « إِنْ أَحْكَمُ إِلَّا اللَّهُ » أى لا يشاركه أحد ، ولا يمانه شيء « عَلَيْهِ
 تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ » .

المقول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِّنَ اللَّهِ مِنْ
 شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسٍ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ
 وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

« وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ » أى : من الأبواب المتفرقة « مَا كَانَ » أى
 ذلك الدخول « يُغْنِي عَنْهُمْ مِّنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسٍ يَعْقُوبَ قَضَاهَا »
 أى أبداها ، « وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ » أى : علم جليل ، لتعليمنا إياه بالوحي ، ونصب
 الأدلة ، حيث لم يمتد أن الحذر ، يدفع القدر ، وأن التدبير ، له حظ من التأثير . وفى تأكيد
 الجملة بـ (إن) و (اللام) وتنكير العلم ، وتعليقه بالتعليم المسند إلى ذاته سبحانه ، من الدلالة

(١) [٢ / البقرة / ١٩٥] . (٢) [٤ / النساء / ٧١ و ١٠٢] .

على شأن يعقوب عليه السلام ، وعلو مرتبة علمه ونخامته ، مالا يخفى - أفاده أبو السعود - .
« وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » أى فيظنون الأسباب مؤثرات .

قال ابن حزم فى (الملل) : كان أمر يعقوب عليه السلام بدخولهم من أبواب متفرقة ،
إشفاقاً عليهم ، إيماناً بإصابة العين ، وإيماناً تعرض عدو ، أو مستريب بإجماعهم ، أو بيمض
ما يخوفه عليهم . وهو عليه السلام معترف أن فعله ذلك ، وأمره إياهم بما أمرهم به من ذلك ،
لا ينفى عنهم من الله شيئاً يريد عز وجل بهم . ولكن لما كانت طبيعة البشر جارية فى
يعقوب عليه السلام ، وفى سائر الأنبياء عليهم السلام ، كما قال تعالى حاكماً عن الرسل أنهم
قالوا^(١) : (إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ) حملهم ذلك على بعض النظر المخفف لحاجة النفس
ونزعها وتوقها إلى سلامة من تحب ، وإن كان ذلك لا ينفى شيئاً ، كما كان عليه السلام^(٢)
يجب الفأل الحسن .

تنبية .

قال السيوطى فى (الإكمال) : فى هذه الآية - على ما روى عن ابن عباس ومجاهد
وغيرهما - أن العين حق^(٣) ، وأن الحذر لا يرد القدر . ومع ذلك لا بد من ملاحظة
الأسباب . انتهى .

وقال بعض اليمانيين : لهذه الجملة ثمرات وهى : استجباب البعد عن مضار العباد ،
والحذر عنها . فأما فعل الله تعالى فلا ينفى الحذر عنه . ثم قال : وفى (التهذيب) أن أبا على
أنكر الضرر بالعين ، وهو مروى عن جماعة من المتكلمين .
وصحح الحاكم والأمير الحسين وغيرهما جواز ذلك ، لأخبار وردت فيها .

(١) [١٤ / إبراهيم / ١١] . (٢) أخرجه البخارى فى : ٧٦ - كتاب الطب ،

٤٤ - باب الفأل ، حديث ٢٢٦٨ ، عن أنس . (٣) أخرجه البخارى فى : ٧٦ - كتاب

الطب ، ٣٦ - باب العين حق ، حديث ٢٢٦٣ ، عن أبى هريرة .

ثم قال : واختلاف من أين أنت المضرة الحاصلة بالعين . فمن قائل : بأنه يخرج من عين العائن شعاع يتصل بمن يراه ، فيؤثر فيه تأثير السم . وضعفه الحاكم بأنه لو كان كذلك ، لما اقتص ببعض الأشياء دون بعض ، ولأن الجواهر متماثلة ، فلا يؤثر بعضها في بعض . ومن قائل : بأنه فعل العائن . قال : وهذا لا يصح ، لأن الجسم لا يفعل في جسم آخر شيئاً إلا بمأسسته ، أو ما في حكمها من الاعتمادات ، ولأنه لو كان فعله ، وقف على اختياره . ومن قائل : بأنه فعل الله ، أجرى الله المادة بذلك لضرب من الإصلاح . وصحح هذا الحاكم ، وهو الذي ذكره الزخشرى والأمير الحسين ، وهو قول أبي هاشم ، ذكره عنهما في (التهذيب) انتهى .

وقد أوضحه الرازى بقوله : قال أبو هاشم وأبو القاسم البلخى : إنه لا يمتنع أن تكون العين حقاً ، ويكون معناه أن صاحب العين إذا شاهد الشيء وأعجب به استحسنه ، كان المصلحة له في تكليفه أن يغير الله ذلك الشخص ، وذلك الشيء حتى لا يبقى قلب ذلك المكلف متعلقاً به ، فهذا المعنى غير ممتنع . ثم لا يبعد أيضاً أنه لو ذكر ربه عند تلك الحالة ، وعذب عن الإعجاب ، وسأل ربه أن يقيه ذلك ، فعمده تميم المصلحة . ولما كانت هذه المادة مطردة ، لا جرم قيل : العين حق . انتهى .

أقول : وقد بسط الإمام ابن القيم في (زاد المعاد) هذا البحث بما يشفى ويكفى ، في (بحث هديه ﷺ في علاج العين) بعد إirاده ما روى في الصحيحين وغيرها من حقيقة العين ، وشهرة تأثيرها عند العرب ، قال :

فأبطلت طائفة ممن قل نصيبهم من السمع والعقل ، أمر العين ، وقالوا : إنما ذلك أوهام لا حقيقة لها ، وهؤلاء من أجهل الناس بالسمع والعقل ، ومن أغلظهم حجاباً ، وأكثفهم طباعاً ، وأبعدهم عن معرفة الأرواح والنفوس ، وصفاتها وأفعالها وتأثيراتها . وعقلاء الأمم على اختلاف مللهم ونحلهم لا يدفع أمر العين ولا ينكره ، وإن اختلفوا في

سببه ، وجهة تأثير العين ، فقالت طائفة : إن المائن إذا تسكيت نفسه بالكيفية الردية ، انبعثت من عينه قوة سمية ، تتصل بالعين فيتضرر . قالوا : ولا يستنكر هذا ، كما لا يستنكر انبعثات قوة سمية من الأنفى تتصل بالإنسان فيهلك ، وهذا أمر قد اشتهر عن نوع من الأفاعى أنها إذا وقع بصرها على الإنسان هلك ، فكذلك المائن .

وقالت فرقة أخرى : لا يستبعد أن ينبعث من عين بعض الناس جواهر لطيفة ، غير مرئية ، فتتصل بالعين ، وتتخلل مسام جسمه ، فيحصل له الضرر .

وقالت فرقة أخرى : قد أجرى الله المادة بخلق ما يشاء من الضرر عند مقابلة عين المائن لمن يعينه ، من غير أن يكون منه قوة ولا سبب ولا تأثير أصلاً . وهذا مذهب منكبرى الأسباب والقوى والتأثيرات في العالم . وهؤلاء قد سدوا على أنفسهم باب الملل والتأثيرات والأسباب ، وخالفوا العقلاء أجمعين . ولا ريب أن الله سبحانه خلق في الأجسام والأرواح قوى وطبائع مختلفة ، وجمل في كثير منها خواص وكيفيات مؤثرة ، ولا يمكن العاقل إنكار تأثير الأرواح في الأجسام ، فإنه أمر مشاهد محسوس . وأنت ترى الوجه كيف يحمر حمرة شديدة إذا نظر إليه من يحتمسه . ويستحي منه ، ويصفر صفرة شديدة عند نظر من يخافه ، إليه . وقد شاهد الناس من يسقم من النظر ، وتضعف قواه ، وهذا كله بواسطة تأثير الأرواح . ولشدة ارتباطها بالعين ينسب الفعل إليها ، وليست هي الفاعلة ، وإنما التأثير للروح ، والأرواح مختلفة في طبائعها وقواها وكيفياتها وخواصها ، فروح الحاسد مؤذية للمحسود أذى بيناً ، ولهذا أمر الله سبحانه رسوله أن يستعيز به من شره . وتأثير الحاسد في أذى المحسود أمر لا ينكره إلا من هو خارج عن حقيقة الإنسانية ، وهو أصل الإصابة بالعين ، فإن النفس الخبيثة الحاسدة تتكيف بكيفية خبيثة تقابل المحسود فتؤثر فيه بتلك الخاصية . وأشبه الأشياء بهذا ، الأنفى . فإن السم كامن فيها بالقوة ، فإذا قابلت عدوها انبعث منها قوة غضبية ، وتسكيت نفسها بكيفية خبيثة مؤذية فمنها ما تشدد كيفيتها وتقوى حتى تؤثر في إسقاط

الجنيين ، ومنها ما يؤثر في طمس البصر . كما قال ﷺ ^(١) في الأبر وذى الطفتين من الحيات : إنهما يلتصقان البصر ، ويسقطان الجبل . ومنها ما يؤثر في الإنسان كيفية مجرد الرؤية من غير اتصال به ، لشدة خبث تلك النفس ، وكيفية الخبيثة المؤثرة . والتأثير غير موقوف على الاتصالات الجسمية ، كما يظنه من قل علمه ، ومعرفته بالطبيعة والشرعة ، بل التأثير يكون تارة بالانصل ، وتارة بالمقابلة ، وتارة بالرؤية وتارة بتوجه الروح نحو من يؤثر فيه ، وتارة بالأدعية والرقى والتعوذات ، وتارة بالوهم والتخيل . ونفس العائن لا يتوقف تأثيرها على الرؤية ، بل قد يكون أعمى فيوصف له الشيء ، فتؤثر نفسه فيه وإن لم يره . وكثير من العائنين يؤثر في المعين بالوصف من غير رؤية ، وقد قال الله تعالى لنبيه ^(٢) : (وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ) وقال ^(٣) : (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ * وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ * وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ) . فكل عائن حاسد ، وليس كل حاسد عائناً . فلما كان الحاسد أعم من العائن ، كانت الاستعاذة منه استعاذة من العائن ، وهى سهام تخرج من نفس الحاسد والعين نحو المحسود والمعين ، تصيبه العين تارة ، وتخطئه تارة ، فإن صادفته مكشوفاً لا وقاية عليه أثرت فيه ، ولا بد . وإن صادفته حذراً ، شاكى السلاح ، لا منفذ فيه للسهام ، لم تؤثر فيه ، وربما ردت السهام على صاحبها . وهذا بمثابة الرى الحسى سواء ، فهذا من النفوس والأرواح ، وهذا من الأجسام والأشباح . وأصله من إعجاب العائن بالشيء ، ثم يتبعه كيفية نفسه الخبيثة ، ثم تستعين على تنفيذ سبيلها بنظرة إلى المعين . وقد يعين الرجل نفسه ، وقد يعين بغير إرادته ، بل بطبعه . وهذا أردأ ما يكون من النواع الإنسانية . وقد قال أصحابنا وغيرهم من الفقهاء : إن من عُرف

(١) أخرجه أبو داود في : ٤٠ - كتاب الأدب ، ١٦٢ - باب في قتل الحيات ، حديث

٥٢٥٢ ، عن ابن عمر . (٢) [٦٨ / القلم / ٥١] . (٣) [١١٣ / الفلق / ١ - ٥] .

بذلك ، حبسه الإمام ، وأجرى له ما ينفق عليه إلى الموت . وهذا هو الصواب قطعاً . انتهى كلام ابن القيم ، عليه الرحمة .

وقال الرازي : ليس من شرط المؤثر أن يكون تأثيره بحسب الكيفيات المحسوسة ، أعنى الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة ، بل قد يكون التأثير نفسانياً محضاً ، ولا يكون للقوى الجسمانية بها تعلق ، والذي يدل عليه أن اللوح الذي يكون قليل المرض ، إذا كان موضوعاً على الأرض قدر الإنسان على المشي عليه ، ولو كان موضوعاً فيما بين جدارين عاليتين لمجز الإنسان عن المشي عليه . وما ذاك إلا لأن خوفه من السقوط منه يوجب سقوطه ، فعلمنا أن التأثيرات النفسانية موجودة . وأيضاً إن الإنسان إذا تصور كون فلان مؤذياً له ، حصل في قلبه غضب ، ويسخن مزاجه جداً ، فبدأ تلك السخونة ليس إلا لذلك التصور النفساني ، ولأن مبدأ الحركات البدنية ليس إلا التصورات النفسانية ، فلما ثبت أن تصور النفس يوجب تغيير بدنه الخاص ، لم يبعد أيضاً أن يكون بمض النفوس بحيث تتعدى تأثيراتها إلى سائر الأبدان ، فثبت أنه لا يمتنع في العقل كون النفس مؤثرة في سائر الأبدان . وأيضاً جواهر النفوس مختلفة بالماهية ، فلا يمتنع أن يكون بمض النفوس بحيث يؤثر في تغيير بدن حيوان آخر ، بشرط أن يراه ، ويتمجب منه . فثبت أن هذا المعنى أمر محتمل ، والتجارب من الزمنى الأقدم ساعدت عليه ، والنفوس النبوية نطقت به . فمنده لا يبق في وقوعه شك ، وإذا ثبت هذا ، ثبت أن الذي أطبق عليه المتقدمون من المفسرين في تفسير هذه الآية بإصابة العين ، كلام حق . لا يمكن رده . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٩] (وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

« وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » يخبر سبحانه بأن إخوة يوسف لما قدموا عليه ، ضم إليه أخاه ، بنيامين ، إما على الطعام ، أو في المنزل ، وأعلمه بأنه أخوه ، وقال له : لا تبتئس . أى لا تحزن بما كانوا يعملون بنا فيما مضى ، فإن الله تعالى قد أحسن إلينا ، وجمعنا بخير .

وقد روى أنهم لما قدموا عليه ، ووقفوا بين يديه ، رأى أخاه بنيامين معهم ، فأمر بإزالتهم في بيته ، وحلولهم في كرامته وضيافته ، وحضورهم معه في غدائه . ثم دخل عليهم فقاموا وسجدوا له ، وسألهم عن سلامة أبيهم ، ورفع طرفه إلى أخيه ، فأدناه وآواه إليه ، وآنسه بحديثه - كما ذكر في الآية - ثم أراد يوسف أن يحتال على بقاء أخيه عنده ، فتواطأ مع فتياته ، إذ جهز إخوته ، أن يضموا سقايته في رحل أخيه ، كما بينه تعالى بقوله .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٠] (فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُوَذِّنٌ أَتَتْهَا الْغَيْرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ)

« فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ » أى من الطعام « جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ » وهى جام فضة يشرب به يوسف ، وضعه في ميرة أخيه .

وقد روى أن يوسف لما جهزهم وارتحلوا ، أمهلهم حتى انطلقوا وبمدوا قليلاً عن المدينة ، ثم أمر أن يسمى في إثرهم ، ويؤذنوا بما فقد ، كما أشار إليه تعالى بقوله : « ثُمَّ أَذَّنَ مُوَذِّنٌ أَتَتْهَا الْغَيْرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧١] (قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ)

[٧٢] (قَالُوا نَفَقِدُ صُوعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ)

« قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ ؟ »

« قَالُوا نَفَقِدُ صُوعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ » معنى (أذن)

نادى . يقال : آذنه : أعلمه ، وأذن أكثر الإعلام ، ومنه (المؤذن) لكثرة ذلك منه .

(المير) : الإبل التي عليها الأحمال ، لأنها تعير ، أى تذهب وتجيء ، وهو اسم جمع للإبل ،

لا واحده ، فأطلق على أصحابها . وقيل : هى قافلة الحير ، ثم كثر حتى قيل لكل قافلة

(عير) . و (الصواع) هو السقاية المتقدمة ، إناء فضة .

تنبيه :

قال فى (الإكليل) : فى الآية دليل على جواز الحيلة فى التوصل إلى المباح ، ومافيه الغبطة

والصلاح ، واستخراج الحقوق .

قال ابن العربى : وفى إطلاق السرقة عليهم ، وليسوا بسارقين ، جواز دفع الضرر بضرر

أقل منه .

وقوله تعالى : (وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ) أصل فى الجمالة .

وقوله : (وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ) أصل فى الضمان والكفالة . انتهى .

ولما اتهمهم المؤذن ومن معه من الفتيان :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٣] (قَالُوا تَاللّٰهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ)

« قَالُوا تَاللّٰهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ » أى ما جئنا

للسرقة ، أو لمطلق فساد ، وإنما جئنا للميرة ، وما كنا نوصف بالسرقة . وإنما استشهدوا

بعلمهم على براءتهم ، لما تيقنوه من حالهم ، فى كرتى مجيئهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٤] (قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ)

[٧٥] (قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ)

« قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ » أى السارق « إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ » .

« قَالُوا » أى لثقتهم ببراءتهم « جَزَاؤُهُ مَنْ وَجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ » أى جزاء سرقته ، أخذ من وجد في رحله رقيقاً . وهو قولهم : (فَهُوَ جَزَاؤُهُ) تقرير لذلك الحكم وإلزامه ، أى : فأخذه جزاؤه لا غيره . ويجوز أن يكون (جزاؤه) مبقداً ، والجملة الشرطية كما هي خبره ، على إقامة الظاهر مقام المضمر والأصل جزاؤه من وجد في رحله فهو هو .
« كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ » أى بالسرقه ، تأكيد إثر تأكيد ، وبيان لقبح السرقة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٦] (فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ

كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ

دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ)

« فَبَدَأَ » أى فتى يوسف « بِأَوْعِيَّتِهِمْ » أى ففتشها « قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ » أى بنيامين ، نفيًا للهمة « ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا » أى السقاية « مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ » أى دبرنا لتحقيق غرضه « مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ » أى شرعه وقانونه . والجملة استئناف وتعليل لذلك السكيد وصنعه . أى : ما صح له أن يأخذ أخاه في قضاء الملك ، فدبر تعالى ما حكم به إخوة يوسف على السارق ، لإيصال يوسف إلى أربه ، رحمة منه وفضلاً . وفيه إعلام بأن يوسف ما كان يتجاوز قانون الملك ، وإلا ، لاستبد بما شاء ، وهذا من وفور

فطنته ، وكال حكمته . ويستدل به على جواز تسمية قوانين ملل الكفر (ديناً) لها والآيات في ذلك كثيرة .

وقوله تعالى : « إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ » يعنى : أن ذلك الأمر كان بعشيئة الله وتديره ، لأن ذلك كله كان إلهاماً من الله ليوسف وإخوته ، حتى جرى الأمر وفق المراد .
« نَرَفَعُ دَرَجَاتٍ مَّنْ نَّشَاءُ » أى بالعلم ، كما رفعنا يوسف . وفي إثارة صيغة الاستقبال إشعار بأن ذلك سنة إلهية مستعمرة ، غير مختصة بهذه المادة .
« وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ » أى من أوائك المرفوعين « عَلِيمٌ » أى فوقه أرفع درجة منه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ)

« قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ » هذا تنصل منهم إلى العزيز بالتشبيه به .
أى : إن هذا فعل كما فعل أخ له من قبل ، يعنون به يوسف .
« فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ » ، قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا « أى منزلة ، حيث سرقتم أخاكم من أبيكم ، ثم طفقتهم تفترون على البرى . »
« وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ » أى من أمر يوسف .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٨] (قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ ، إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ)

« قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ ، إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ » لما تعين أخذ بنيامين وإبناؤه عند يوسف بمقتضى فتوأم ، طفقوا يعطفونه

عليهم ، بأن له أبا شيخاً كبيراً يحبه حباً شديداً يتسلى به عن أخيه المفقود ، نخذ أحداً بدله رقيقاً عندك .

قال بعضهم : الفقه من هذه الجملة أن للكبير حقاً يتوسل به ، كما توسلوا بكبر يعقوب . وقد ورد في الاستسقاء إخراج الشيوخ . انتهى .

وفي ما عزموا عليه لإيقاظ أخيه من شرك العبودية ، المقضى عليه بها ، ما يشف عن حسن طوية ، ووفاء بالوعد ، وبمرب عن أمانة ، وصدق بر ، وشدة تمسك بموثق أبيهم ، محافظة على رضاه وإكرامه ، وهكذا فليتمسك البار برضاة أبيه .

وقولهم : (إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ) أى إلينا ، فأنعم إحسانك بهذه القتمة . أو من المتعودين بالإحسان ، فليكن هذا منه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٩] (قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ)
« قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ » أى إن أخذنا بريئاً بمتهم ، لأنه لا يؤخذ أحد بجرم غيره . قال بعضهم : إلا ما ورد فى العقل .
وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٠] (فَلَمَّا اسْتِئْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا ، قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ ، فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي ، وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ)
« فَلَمَّا اسْتِئْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا » أى بئسوا من يوسف وإجابته لهم أشد بأس .
كما دل عليه (السين والقاء) فإنهما يزدان فى المبالغة .

قال أبو السعود : وإنما حصلت لهم هذه المرتبة من اليأس ، لما شاهدوه من عوده بالله لما طلبوه ، الدال على كون ذلك عنده في أقصى مراتب الكراهة ، وأنه مما يجب أن يحترز عنه ، ويعاذ بالله عز وجل ، ومن تسميته « ظلماً » بقوله : (إنا إذا لظالمون) . و (خلصوا) بمعنى اعتزلوا وانفردوا عن الناس ، خالصين ، لا يخالطهم سواهم . و (نجياً) حال من فاعل (خلصوا) أى : اعتزلوا في هذه الحالة مناجين . وإنما أفردت الحال ، وصاحبها جمع ، إما لأن النجى (فمیل) بمعنى (مفاعل) ، كالعشير والخليط ، بمعنى المعاشر والمخالط ، كقوله (١) : (وَقَرَّبْنَا نَجِيًّا) أى مناجياً ، وهذا في الاستعمال يفرد مطلقاً . يقال : هم خليطك وعشيرك ، أى مخالطوك ومعاشروك . وإما لأنه صفة على (فمیل) بمنزلة صديق ، وبابه . فوحدناه بزنة المصادر ، كالصهيل والوحيد والذميل . وإما لأنه مصدر بمعنى التناجى ، أطلق على المتناجين مبالغة ، أو لتأويله بالمشتق : والمصدر ، ولو بحسب الأصل ، يشمل القليل والكثير . وتنزيل المصدر منزلة الأوصاف أبلغ في المعنى ، ولذا قال الزمخشري : وأحسن منه - أى من تأويل (نَجِيًّا) بذوى نجوى أو فوجاً نجياً أى مناجياً - أنهم تمحضوا تناجياً لاستجماعهم لذلك ، وإفاضتهم فيه ، بجد واهتمام ، كأنهم في أنفسهم صورة التناجى وحقيقته ، وكان تناجيهم في تدبير أمرهم على أى صفة يذهبون ، وما يقولون لأنبيهم في شأن أخيم ؟ كقوم تمايوا بمادهم من الخطب ، فاحتاجوا إلى التشاور . انتهى .

لطيفة:

ذكر القاضي عياض في (الشفا) في (بحث إعجاز القرآن) : أن أعرابياً سمع رجلاً يقرأ : فلما استنأسوا منه خلصوا نجياً ، فقال : أشهد أن مخلوقاً لا يقدر على مثل هذا الكلام .

وقال الثعالبي في كتاب (الإيجاز والإعجاز) في الباب الأول : من أراد أن يعرف

(١) [١٩ / مريم / ٥٢] .

جوامع الحكم، ويتنبه لفضل الاختصار ، ويحيط ببلاغة الإيحاء ، ويفطن لكفاية الإيجاز ، فليقتدر القرآن ، وليتأمل علوه على سائر الكلام .

ثم قال : فن ذلك قوله عز ذكره ، في إخوة يوسف (فلما استأسوا منه خلصوا نجياً) ، وهذه صفة اعتزالهم جميع الناس وتقليبهم الآراء ظهراً لبطن ، وأخذهم في تزوير ما يلقون به أباهم عند عودهم إليه ، وما يوردون عليه من ذكر الحادث . فتضمنت تلك الكلمات القصيرة معاني القصة الطويلة .

وقوله تعالى : « قَالَ كَبِيرُهُمْ » أى فى السن ، كما هو المتبادر ، وهو ، فيما يروى ، (رؤفين) ، « أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ » أى عهداً وثيقاً فى رد أخيكهم ، وإنما جعل منه تعالى لكون الحلف كان باسمه الكريم . « وَمِنْ قَبْلُ » أى قبل هذا « مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ » أى قصرتم فى شأنه و (ما) إما مزيدة ، و (من) متعلق بالفعل بعده ، والجملة حالية . وإما مصدرية فى موضع رفع بالابتداء و (من قبل) خبره . أو فى موضع نصب عطفاً على معمول (تعلموا) . وإما موصولة بالوجهين ، أى : قدمتموه فى حقه من الخيانة ، ولم تحفظوا عهد أبيكم ، بعد ما قلتم ^(١) (وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ) (وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) ^(٢) .

« فَلَنْ أُبْرِخَ الْأَرْضَ » أى : فلن أفارق أرض مصر « حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىَ أَبِي » أى فى الرجوع « أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لى » أى بالخروج من مصر ، أو بخلاص أخى بسبب ما . « وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ » لأنه لا يحكم إلا بالحق والعدل . ثم أمر كبيرهم أن يخبروا أباهم بما جرى ، فقال .

(١) [١٢ / يوسف / ١١] (٢) [١٢ / يوسف / ٦٣] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨١] (ارْجِعُوا إِلَىٰ آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ)

« ارْجِعُوا إِلَىٰ آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ » أى : نُسبَ إلى سرقة صواع الملك ، « وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا » أى ما شهدنا عليه بالسرقة ، إلا بما تيقناه من إخراج الصواع من رحله .

تنبيه :

استنبط بعضهم من هذا عدم حواز الشهادة على الكتابة بلا علم وتذكر . وكذا من سمع كلامه من وراء حجاب ، لعدم العلم به - كذا في الإكليل - ولا يخفى أن مثل هذا مما يستأنس به في مواقع الخلاف .

« وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ » أى : وما علمنا أنه سيسرق حين أعطيناك الموثق .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (وَسَأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ)

« وَسَأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا » يعنون مصر . أى : أرسل إلى أهلها فسلمهم عن كنه القصة . « وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا » أى جئنا معها . وكان صحبهم قوم من كنعان « وَإِنَّا لَصَادِقُونَ » أى فيما أخبرناك .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٣] (قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ

يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ)

« قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا » معناه : فرجعوا إلى أبيهم ، فقالوا له ما قال لهم أخوهم . فقال : بل سولت ، أى زينت وسهلت أنفسكم أمراً ، ففعلتموه .

لطيفة .

قال الزمخشريّ : أمراً أردتموه ، وإلا فما أدرى ذلك الرجل أن السارق يؤخذ بسرقة ،
لولا فتواكم وتلاميكم .

قال الناصر: هذا من الزمخشريّ إسلاف جواب عن سؤال ، كان قائلًا يقول : هم في الواقعة الأولى سوات لهم أنفسهم أمراً بلا مرأ ، وأما في هذه الواقعة الثانية ، فلم يتمعدوا في حق بنيامين سوءاً ، ولا أخبروا أباهم إلا بالواقع على جليته ، وما تركوه بمصر إلا مغلوبين عن استصحابه ، فما وجه قوله ثانياً (بل سوات لكم أنفسكم أمراً) كما قال لهم أولاً ؟ وإذا ورد السؤال على هذا التقرير ، فلا بد من زيدٍ بسط في الجواب ، فنقول : كانوا عند يعقوب عليه السلام حينئذ متهمين ، وهم قَمِنُ بآتهامه لما أسلفوه في حق يوسف عليه السلام ، وقامت عنده قرينة تؤكّد نفي التهمة وتقويها ، وهي أخذ الملك له في السرقة ، ولم يكن ذلك إلا من دين يعقوب وحده ، لا من دين غيره من الناس ، ولا من عادتهم . وإلى ذلك وقعت الإشارة بقوله تعالى ^(١) : (مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ) تنبيها من الله تعالى على وجه اتهم يعقوب لهم ، فلم أن الملك إنما فعل ذلك بفتواهم له به ، وظن أنهم أفتوه بذلك بعد ظهور السرقة تمعدا ليتخلف أخوهم ، وكان الواقع أنهم استفتوا من قبل أن يدعى عليهم السرقة ، فذكروا ما عندهم ، ولم يشعروا أن المقصود إلزامهم بما قالوا . واتهام من هو بحيث تنطرق التهمة إليه لا حرج فيه ، وخصوصاً فيما يرجع إلى الوالد من الولد . ويحتمل - والله أعلم - أن يكون الوجه الذي سوغ له هذا القول في حقهم ، أنهم جعلوا مجرد وجود الصواع في رحل من يوجد في رحله ، سرقة ، من غير أن يحيلوا الحكم على ثبوت كونه سارقاً بوجه معلوم . وهذا في شرعنا لا يثبت السرقة عليه - والله أعلم - .

وقوله : (بل سوات لكم أنفسكم أمراً) واقع بمكانه من حالهم ، وإن كان شرعهم يقتضي ذلك مخالفاً لشرعنا ، فالعمدة على الجواب الأول . اهـ .

(١) [١٢ / يوسف / ٧٦] .

وقوله تعالى : « فَصَبْرٌ جَمِيلٌ » أى : بلا جزع « عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا » أى بيوسف وأخيه المتوقف بمصر ، فتذهب أحزانه بمرّة واحدة « إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ » أى العليم بحال وحالهم ، الحكيم فى تشديد الأمر لينظر مقدار الصبر ، فيفيض بقدرة الأجر ، ومن الأجر المعجل تمجيد الفرّج .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٤] (وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَإِيصَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ)

« وَتَوَلَّى » أى أعرض « عَنْهُمْ » أى عن بنيه كراهة لما جاءوا به « وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ » أى يا حزنى الشديد ١ و (الألف) بدل من ياء التمسك للتخفيف ، وقيل : هى ألف الندبة ، والهاء محذوفة . و (الأسف) أشد الحزن والحسرة على ما فات . وإنما تأسف على يوسف دون أخويه ، والحادث رزأها . والرّزء الأحدث أشد على النفس ، وأظهر أثرًا - لأن الرّزء فى يوسف كان قاعدة مصيباته التى ترتبت عليها الرزأيا فى ولده ، فكان الأسف عليه أسفًا على من لحق به ، ولأنه لم يزل عن فكره ، فكان غصًا طريًا عنده ، كما قيل ^(١) : * ولم تُنْسِنِ أَوْفَى المصِيبَاتِ بُعْدَهُ * وَكُلَّ جَدِيدٍ يُدْكَرُ بِالْقَدِيمِ . ولأنه كان واثقًا بحياتهما - دون حياته .

(١) ليس هكذا النص . ولا يمكن فهمه بغير ما قبله . وهو قوله :

نَعَى الرِّكْبُ (أَوْفَى) حِينَ آبَتْ رِكَابُهُمْ لَعَمْرَى لَقَدْ جَاءُوا بِشَرٍّ فَأَوْجَمُوا
نَعَمُوا بِاسْقِ الْأَخْلَاقِ لَا يَخْلُفُونَهُ تَكَادَ الْجِبَالُ الصَّمَّ مِنْهُ تَصَدَّعُ
فَعَزِيتَ عَنْ (أَوْفَى) (غَيْلَانُ) بُعْدَهُ عِزَاءُ وَجَفْنُ الْعَيْنِ بِالْمَاءِ مُتَرَعُ
وَلَمْ تُنْسِنِ (أَوْفَى) المصِيبَاتِ بُعْدَهُ وَلَكِنْ نَكَءُ الْقَرْحِ بِالْقَرْحِ أَوْجَعُ
وقائلها هشام ، أخوذى الرّمة وغيلان هو ذوالرّمة . انظر : ص ٢٢٣ من الجزء الأول ، من كامل المبرد (طبعة الحلبي) .

«وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ» وذلك لكثرة بكائه .

قال الزمخشري : إذا كثرت الاستعبار محقت العبرة سواد العين ، وقلبت إلى بياض كدر .

«فَهُوَ كَظِيمٌ» أى مملوء من الغيظ على أولاده ، ولا يظهر ما يسوؤهم . (فعليل بمعنى

(مفعول) كقوله^(١) (وَهُوَ مَكْظُومٌ) أو بمعنى شديد التجرع للغيظ أو الحزن ، لأنه لم يشكك

إلى أحد قط . فهو بمعنى (فاعل) .

تنبيه :

دلت الآية على جواز التأسف والبكاء عند المصيبة .

قال الزمخشري : فإن قلت : كيف جاز لنبي الله أن يبلغ به الجزع ذلك المبلغ ؟

قلت : الإنسان مجبول على أن لا يملك نفسه عند الشدائد من الحزن ، ولذلك حمد صبره ،

وأن يضبط نفسه حتى لا يخرج إلى ما لا يحسن .

ولقد بكى رسول الله ﷺ على ولده إبراهيم وقال^(٢) : إن العين تدمع والقلب يحزن ، ولا

نقول إلا ما يرضى ربنا ، وإنا بفراقك يا إبراهيم لحزونون .

وإنما الجزع المذموم ما يقع من الجهلة من الصياح والنياحة ولطم الصدور والوجوه

وتمزيق الثياب .

وعن الحسن أنه بكى على ولد ، أو غيره فقيل له في ذلك ؟ فقال : ما رأيت الله جعل الحزن

عاراً على يعقوب .

وقوله تعالى :

(١) [٦٨ / القلم / ٤٨] . (٢) أخرجه البخاري في : ٢٣ - كتاب الجنائز ، ٤٤ -

باب قول النبي ﷺ (إنا بك لحزونون) ، حديث ٦٩٢ ، عن أنس .

وأخرجه مسلم في : ٤٣ - كتاب الفضائل ، ١٥ - باب رحمته ﷺ الصبيان والعيال ،

وتواضعه وفضل ذلك ، حديث رقم ٦٢ (طبعنا) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٥] (قَالُوا تَاللّٰهِ تَفْتَوْاْ تَذَكَّرْ يُّوسُفَ حَتّٰى تَكُوْنَ حَرَضًا اَوْ تَكُوْنَ
مِنَ الْهَالِكِيْنَ)

« قَالُوا » أى اولاد يعقوب ، لأبيهم على سبيل الرفق به ، والشفقة عليه : « تَاللّٰهِ تَفْتَوْاْ تَذَكَّرْ يُّوسُفَ حَتّٰى تَكُوْنَ حَرَضًا » أى مريضاً مشفقاً على الهلاك ، « اَوْ تَكُوْنَ مِّنَ الْهَالِكِيْنَ » أى بالموت . يقولون : إن استمر بك هذا الحال ، خشينا عليك الهلاك والتلف . واستدل به على جواز الحلف بغلبة الظن . وقيل : إنهم علموه ، لكنهم نزّلوه منزلة المنكر ، فلذا أكدوه . و (تفتأ) مضارع فتئ ، مثلثة التاء . يستعمل مع النفي ملفوظاً أو منوباً ، لأن موضعه معلوم ، فيحذف للتخفيف كقوله (١) :

فقلتُ يمينَ اللهِ أبرحُ قاعداً ولوقطعمَ واراسى ليدكِ وأوصالى

أى : لا أبرح . ومعنى (تفتأ) : لا تزال ولا تبرح .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٦] (قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

« قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ » أى غمى وحالى ، « وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ » أى لا أشكو إلى أحد منكم ومن غيركم ، إنما أشكو إلى ربى داعياً له ، وملتجئاً إليه ، نخلونى وشكايتى . « وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ » أى لمن شكاً إليه من إزالة الشكوى ، ومزبد الرحمة « مَا لَا تَعْلَمُونَ » ما يوجب حسن الظن به ، وهو مع ظن عبده به .

ولما علم من شدة البلاء مع الصبر ، قرب الفرج ، قوتى رجاءهم ، وأمرهم أن يرحلوا لمصر ، ويطلبوا خبر يوسف وأخيه بقوله :

(١) فائله امرؤ القيس من قصيدته التى مطلعها :

الَاعِمُ صَبَاحًا أَيُّهَا الطَّلُّ الْبَالِي وَهَلْ يَمِنُ مَنْ كَانَ فِي الْمَصْرِ الْخَالِي؟

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٧] (يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيَاسُّوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ ، إِنَّهُ لَا يَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ)

« يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ » أى تعرفوا من نبيهما ، وتخبروا خبرهما « وَلَا تَيَاسُّوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ » أى فرجه ورحمته المريحة من الشدة . « إِنَّهُ لَا يَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ » - لم يُقَلْ (منه) إشارة إلى ظهور حصوله لمن لم يئأس - « إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ » أى بالله ورحمته ، وقدرته على إفاضة الروح ، بعد مضيّ المدة في الشدة ، وسنته في إفاضة اليسر مع العسر ، لا سيّما في حق من أحسن الظن به .
وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٨] (فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَمْنَا الضَّرَّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ، إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ)

« فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ » أى على يوسف بعد ما رجعوا إلى مصر ، ولانفهامه من القام طوى ذكره إيجازاً « قَالُوا : يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ » أى : الملك القادر ، المتمنع ، « مَسَّنَا وَأَهْلَمْنَا الضَّرَّ » أى : الشدة من الجذب ، « وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ » أى : بدرهم قليلة في مقابلة ما نمتاره . استعملوا الثمن واستحقروه اتضاعاً لهيبة الملك ، واستجلاً بألرافته وحنانه . وأصل معنى (المزجية) : الدفع والرمي ، فكفوا به عن القليل الذى يدفع ، رغبة عنه ، لذلك « فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ » أى : أتممه ووفره بهذه الدراهم المزجاة ، كما توفره بالدراهم الجياد . « وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا » أى : برّد أحنينا ، أو بالإيفاء ، أو بالمساحة وقبول ما لا يعد عوضاً . « إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ » أى يثيبهم أحسن الثوبة .

تنبيهات

الأول - في الآية إرشاد إلى أدب جليل ، وهو تقديم الوسائل أمام المآرب ، فإنها أنجح لها . وهكذا فعل هؤلاء : قدموا ما ذكر من رقة الحال ، والتمسكن ، وتصغير العوض ، ولم يفتخروا بحاجتهم ، ليكون ذريعة إلى إسعاف مرامهم ، يبعث الشفقة ، وهز العطف والرأفة ، وتحريك سلسلة الرحمة - كما قدمنا - ومن ثم ، رقت لهم ، وملكته الرحمة عليهم ، فلم يبالك أن عرفتهم نفسه ، كما يأتي .

الثاني - يؤخذ من الآية جواز شكوى الحاجة لمن يرجى منه إزالتها .

الثالث - استدل بعضهم بقوله تعالى : (فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ) على أن أجره الكيل على البائع ، لأنه إذا كان عليه توفية الكيل ، فعليه مؤنته ، وما يتم به .

الرابع - استدل بقوله تعالى : (وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا) من قال : إن الصدقة لم تكن محرمة على الأنبياء - كذافي الإكليل - وهذا بعد تسليم نبوة إخوة يوسف . وفيها خلاف . وسيأتي في التنبيهات ، آخر السورة ، تحقيق ذلك .

الخامس - في قوله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ) حث على الإحسان ، وإشارة إلى أن المحسن يجزي أحسن جزاء منه تعالى ، وإن لم يجزه المحسن إليه . ثم بين تعالى رأفة يوسف بغيره إليهم بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٩] (قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ)

« قَالَ » أي يوسف مجيباً لهم : « هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ » أي شبان غافلون ؟ استفهام تقرير ، يفيد تعظيم الواقعة . ومعناه : ما أعظم ما ارتكبتم في يوسف ، وما أقبح ما أقدمتم عليه ! كما يقال للمذنب : هل تدري من عصيت

وهل تعرف من خالفت ؟ وهذه الآية تصديق لقوله تعالى ^(١) : (وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهُمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ).

لطائف :

الأولى - أبدى المهاجى مناسبة بديعة فى قول يوسف لهم : (هَلْ عَلِمْتُمْ) إثر قولهم : (إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ) ، وهو أنهم أرادوا بقولهم : (إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ) أنه يعطيهم فى الآخرة ما هو خير من العوض الدنيوى ، فأشار لهم يوسف بأنكم تريدون دفع الضرر العاجل ، بوعد الأجر الآجل ، ولا تدفعون عن أنفسكم الضرر الآجل ، كأنكم تفكرونه ، هل علمتم ضرر ما فعلتم بيوسف ؟ .

الثانية - قيل : من تلافى بهم قوله : (إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ) ، كالاعتذار عنهم ، لأن فعل القبيح على جهل بمقدار قبحه ، أسهل من فعله على علم . وهم لو ضربوا فى طرق الاعتذار لم يُلقفوا عذراً كهذا . ألا ترى أن موسى عليه السلام ، لما اعتذر عن نفسه لم يزد على أن قال ^(٢) : (فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ) . ففيه تخفيف للأمر عليهم .

الثالثة - قال الزمخشري : فإن قلت : ما فعلهم بأخيه ؟ قلت : تعريضهم إياه للغم والشكل ، بإفراده عن أخيه لأبيه وأمه ، وجفاؤهم به ، حتى كان لا يستطيع أن يكلم أحداً منهم إلا كلام الدليل للعزير ، ويذاؤهم له بأنواع الأذى . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٠] (قَالُوا أَأَتَيْنَكَ لَأَنَّ يَوْسُفَ ، قَالَ أَنَا يَوْسُفُ وَهَذَا أَخِي ، قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ، إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ)
« قَالُوا » أى : استغراباً وتمجباً من أن هذا لا يعلمه إلا يوسف : « أَأَتَيْنَكَ لَأَنَّ

(١) [١٢ / يوسف / ١٥] . (٢) [٢٦ / الشعراء / ٢٠] .

يُوسُفُ ؟ قَالَ : أَنَا يُوسُفُ « أَيْ : الذى فعلتم به ما فعلتم ، « وَهَذَا أَخِي » أَيْ مِنْ أَبِي .
قال أبو السمود : زادهم ذلك مبالغة فى تعريف نفسه ، وتفخيما لشأن أخيه ، وتكملة لما
أفاده قوله : (هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ) حسبا يفيدده قوله :
« قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا » فكأنه قال : هل علمتم ما فعلتم بنا من التفريق والإذلال ، فأنا
يوسف ، وهذا أخى ، قد مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا بالخلاص مما ابتلينا به ، والاجتماع بعد الفرة ، والمرة
بعد الذلة ، والأنس بقدر الوحشة .

ثم علل ذلك بطريق الاستثناف التعليل بقوله : « إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ » أَيْ رَبِّهِ فِي جَمِيعِ
أَحْوَالِهِ ، « وَيَصْبِرْ » أَيْ : عَلَى الضَّرَاءِ ، وَعَنِ الْمَعَاصِي ، « فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ
الْمُحْسِنِينَ » أَيْ أَجْرَهُمْ . وَفِي وَضْعِ الظَّاهِرِ مَوْضِعَ الضَّمِيرِ ، تَنْبِيهِ عَلَى أَنَّ الْمُنْعَوَتَيْنِ بِالتَّقْوَى
وَالصَّبْرِ ، مَوْصُوفُونَ بِالْإِحْسَانِ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩١] (قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ)

« قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا » أَيْ فَضَّلَكَ بِمَا ذَكَرْتَ مِنَ التَّقْوَى وَالصَّبْرِ ، وَسِيرَةِ
الْحُسْنَى ، « وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ » أَيْ : وَإِنْ شَأْنُنَا وَحَالُنَا أَنَا كَمَا مَتَّعِدِينَ الذَّنْبِ ، لَمْ نَتَّقِ
وَلَمْ نَصْبِرْ ، ففعلنا بك ما فعلنا ، ولذلك أوثرت علينا . وفيه إشعار بالتوبة والاستغفار ،
ولذلك :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٢] (قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ، يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ، وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)

« قَالَ لَا تَثْرِيبَ » أَيْ : لَا تَعْيِيرَ وَلَا تَوْبِيخَ وَلَا تَقْرِيعَ ، « عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ » أَيْ :
وَإِنْ كُنْتُمْ مُلُومِينَ قَبْلَ ظَهْوَرِ مَنْتَهَى فَعَلِكُمْ ، وَلَا إِثْمَ عَلَيْكُمْ ، إِذْ « يَغْفِرُ لَكُمْ » .

أى حقى لرضای عنکم ، وحقه أيضاً لواسع رحمته كما قال : « وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ »
 أى : فكأنه لا خطأ منكم . و (اليوم) متعلق بالتثريب ، أو بالمقدر فى (عليكم) من
 معنى الاستقرار ، والمعنى : ولا أترّبکم اليوم ، وهو اليوم الذى هو مظنة التثريب ، فما ظنکم
 بغيره من الأيام ؟ ! فتميميره بـ (اليوم) ليس لوقوع التثريب فى غيره ، لأن من لم يثرب أول
 لقاءه واشتعال ناره ، فبعده بطريق الأولى .

وقال الشريف المرتضى فى (الدرر) : إن اليوم موضوع موضع الزمان كله كقوله :
 الْيَوْمَ يَرْحَمُنَا مَنْ كَانَ يَغْبِطُنَا وَالْيَوْمَ نَتَّبِعُ مَنْ كَانُوا لَنَا نَبِمًا
 ثم زادهم تكريماً بأن دعا لهم بالمغفرة ، لما فرط منهم بقوله : (يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ) .
 وقوله : (وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) تحقيق لحصول المغفرة ، لأنه عفا عنهم ، فالله أولى
 بالمغفرة والرحمة لهم ، وبيان للوثوق بإجابة الدعاء . وجوز تعلق (اليوم) بـ (يغفر) . والجملة
 خبرية سميت بشاراة بماجل غفران الله ، لما تجدد يومئذ من توبتهم وندمهم على خطيئتهم .
 والوجه الأول أظهر . والثانى من الإغراب فى التوجيهات .

تنبيه :

قال بعضهم : إن تجاوز يوسف عن ذنب إخوته ، وإبقاءه عليهم ، ومصافاته لهم ، تعلمنا
 أن نغفر لمن يسيء إلينا ، ونحسن إليه ، ونصفي له الود ، وأن نغضى عن كل إهانة تلحق بنا ،
 فيسبغ الله تعالى إذ ذاك علينا نعمه وخيراته فى هذه الدنيا ، كما أوسع على يوسف ويورثنا
 السعادة الآخروية . وأما إذا أضمرنا السوء للمسيئين إلينا ، ونقمنا منهم ، فينتقم الله منا ،
 ويوردنا مورد الثبور ، فنعود بالله من شرور أنفسنا ، وسيئات أعمالنا .
 ثم قال لهم يوسف :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٣] (اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ)

« اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ »
 أراد يوسف تبشير أبيه بحياته ، وإدخال السرور عليه بذلك ، وتصديقه بإرسال حلة من حلله التي كان يستشعر بها أو يتدثر ، ليـكون في مقابلة القميص الأول ، جالب الحزن ، وغشاوة العين . و (الإلقاء على وجهه) بمعنى المبالغة في تقريبه منه ، لما ناله من ضعف بصره ، فترجع إليه قوة بصره ، بانتماش قلبه ، بشمّه واطمئنانه على سلامته . وللمفرحات تأثير عظيم في صحة الجسم ، وتقوية الأعضاء ، وقد جود الكلام في ذلك الحكيم داود الأنطاكي (تذكرته) في مادة مفرح بما لا يستغنى عن مراجعته .

وفي (السكنوز) من كتب الطب : الفرح ، إن كان بلطف ، فإنه ينفع الجسم ، ويبسط النفس ، ويريح العقل ، فتقوى الأعضاء وتنتعش . انتهى .

ثم رأيت الرازي عوّل على نحو ما ذكرناه ، وعبارته : قال المفسرون : لما عرفهم يوسف سألمهم عن أبيه ، فقالوا : ذهب عينا ، فأعطاهم قميصه . قال المحققون : إنما عرف أن إلقاء القميص على وجهه يوجب قوة البصر بوحى من الله تعالى ، ولولا الوحي ، لما عرف ذلك ، لأن العقل لا يدل عليه . ويمكن أن يقال : لعل يوسف عليه السلام علم أن أباه ما صار أعمى إلا أنه من كثرة البكاء ، وضيق القلب ، ضعف بصره ، فإذا ألقى عليه قميصه ، فلا بد أن ينشرح صدره ، وأن يحصل في قلبه الفرح الشديد . وذلك يقوى الروح ، ويزيل الضعف عن القوى ، فينبئذ يقوى بصره ، ويزول عنه ذلك النقصان . فهذا القدر مما يمكن معرفته بالقاب . فإن القوانين الطيبة تدل على صحة هذا المعنى . انتهى .

وامل الرازى عنى بالمحققين الصوفية ، أو من يقف على الظاهر وقوفاً بحتماً ولا يخفى أن أسلوب التزليل فى كنيائاته ومجازاته أسلوب فريد ، ينبغى التفطن له .
وقد جوز فى قوله : (يَأْتِ بِصِيرًا) أن يكون معناه بصير بصيراً ، أو يجيىء إلى بصيراً ، على حقيقة الإتيان . فـ (بصيراً) حال . قيل : ينصره قوله : (وَأَتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ) أى : بأبى وغيره . وفيه نظر ، لأن اتحاد الفعلين هنا فى المبنى ، لا يدل على اتحادهما فى المعنى . ولا يقال : الأصل الحقيقة ، لأن ذلك فيما يقتضيه السياق ، ولا اقتضاء هنا . فالأول أرق وأبعد ، لما فيه من التجانس .

روى أن يوسف عليه السلام ، بعد أن دعا لهم بالمغفرة قال لهم : إن الله بهثنى أمامكم لأحييكم وقد مضت سنتا جوع فى الأرض ، وبقي خمس سنين ، ليس فيها حرث ولا حصاد . فأرسلنى الله أمامكم ليجمع لكم بقية فى الأرض ، ويستبقيكم لنتيجة عظيمة . وقد جعلنى سبجانه أباً لفرعون ، وسيداً لجميع أهله ، ومتسلطاً على جميع أرض مصر ، فبادروا وأشخصوا إلى أبى وأخبروه بجميع مجدى بمصر ، وما رأيتموه ، وقولوا له : كذا قال ابنك يوسف : قد جعلنى الله سيداً لجميع المصريين ، فهلم إلى ، فنقم فى أرض جاسان ، وتكون قريباً منى أنت وبنوك ، وبنو بنيك ، ومواشيك ، وجميع ما هو لك ، وأعولك ، هاهنا ، فقد بقي خمس سنين مجدية ، فأخشى أن يهلك الأهل والمال . وكان نجا الخبر إلى بيت فرعون . وقيل : جاء إخوة يوسف ، فسرّ بذلك فرعون وخاصة وأمره أيضاً بأن يؤكد عليهم إتيانهم بأبيهم وأهلهم ، ووعدهم خير أرض فى مصر تكون لهم ، لئلا يأسفوا على ما خلفوا . ثم زود يوسف إخوته أحسن زاد ، وأعطاهم من الحلل والثياب والدرهم مقداراً وافراً ، وبث إلى أبيه بمثل ذلك ، وأحبههم عجالات لأطفالهم ونساءهم ، وأوصاهم ألا يتخاضعوا فى الطريق - والله أعلم - .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٤] (وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ، لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ)

« وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ » أى خرجت من مصر . يقال : فصل القوم عن المكان وانفصلوا ، بمعنى فارقوه . « قَالَ أَبُوهُمْ » أى : لحفدته ومن حوله من قومه ، من عظم اشتياقه ليوسف ، وانتظاره لروح الله : « إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ » الريح : الرائحة ، توجد في النسيم . أى : لأنتمسم رائحته مقبلة إلى . كناية عن تحققه وجوده بما ألقى الله في روعه من حياته ، وساق إليه من نسائم البشارة الغيبية بسلامته . وقد كان عظم رجاءه بذلك من مولاه ، ووثق بنيل مأموله ومبتغاه ، ولذلك نهى نبيه عن الاستيئاس من روح الله . وإذا دنا أجل الضراء ، أخذت تهب نسائم الفرج حاملة عَرَفَ السراء ، يدرى ذلك كل من قوى إحساسه ، وعظمت فطنته ، واستنارت بصيرته ، فيكاد أن يلمس في نهاية الشدة زهر الفرج ، ولا يحفث إن آلى أنه يجد من نسيمه أزكى الفرج . عرف ذلك من عرف ، فأحرى بمن نالوا من النبوة ذروة الشرف .

وبإضافة الريح إلى الولد معروفة في كلامهم : وفي حديث عند الطبراني : ريح الولد من

ريح الجنة : وقال الشاعر :

يا حبذا ريحُ الولدِ ريحُ الخُرَاصِ في البلدِ

وقوله : (لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ) بمعنى إلا أنكم تفندون . أولولاه لصدقتموني . (وفنده)

نسبه إلى الفند بفتحتيين ، وهو ضعف الرأى والعقل من الهرم وكبر السن .

قال في (العناية) : مأخوذ من الفند ، وهو الحجر والصخرة ، كأنه جمل حجراً لقلّة

فهمه ، كما قال :

إذا أنت لم تمشق ولم تدّر ما الهوى فكن حجراً من يابس الصخر جليداً

ثم اتسع فيه فقيل : فنده ، إذا ضَمَفَ رأيه ، ولامه على ما فعله .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٥] (قَالُوا تَاللّٰهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ)

« قَالُوا » أى حفدته ومن عنده : « تَاللّٰهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ » أى لقي ذهابك عن الصواب المتقدم ، فى إفراطك فى محبة يوسف ، ولهجتك بذكره ، ورجائك للقائه ، وكان عندهم أنه مات أو تشمت ، فاستحال الاجتماع به . وجعله فيه لئلا يسهو عليه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٦] (فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ، قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ ، إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

« فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ » أى الخبر بما يسره من أمر يوسف « أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ » أى : طرح البشير القميص على وجه يعقوب ، أو ألقاه يعقوب نفسه على وجهه ، « فَارْتَدَّ بَصِيرًا » أى عاد بصيراً لما حدث فيه من السرور والانتماش . « قَالَ : أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ » أى : من حياة يوسف ، وإنزال الفرج وجوز كون (إِنِّي أَعْلَمُ) كلاماً مبدئياً . والمقول (لَا تَيَاسُّوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ) إن كان الخطاب لبنيه . أو (إِنِّي لَا أَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ) إن كان لحفدته ومن عنده .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٧] (قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ)

« قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ » الضمير لبنيه . طلبوا أن يستغفر لهم لما فرط منهم ، أو لحفدته ومن عنده لقولهم : (إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ) . والأول أقرب وأصوب .

ولما كان من حق المعترف بذنبه أن يُصْفَح عنه ، ويسأل له المغفرة ، وعدمه بذلك :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٨] (قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي ، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

« قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ » أى : سوف أدعوه لكم ،

فإنه المتجاوز عن السيئات ، الرحيم لمن تاب .

قال المہامی : صرّحوا بالذنوب دون الله ، لمزيد اهتمامهم بها ، وكأنهم غلب عليهم النظر

إلى قهره . وصرّح يعقوب بذكر الرب دون الذنوب ، إذ لا مقدار لها بالنظر إلى رحمته التي

ربّی بها الكل . انتهى .

وهذا من دقائق لطائف التزليل ومحاسنها فيه .

تنبيه :

قيل : في هذه الآيات دلالة على جواز التبشير ببشائر الدنيا واستحبابه ، وجواز السرور

بمحصل النعم الحاصلة في الدنيا . وفيها دلالة على إرجاء الاستغفار والدعاء لوقت يرى أنه

أحضر فيه قلباً من غيره أو أنه أفضل وأقرب للإجابة .

وقد روى أنه آخر الاستغفار إلى السحر . وتخصيص الأوقات الفاضلة بالاستغفار

والدعاء معروف في السنة ، ومنه شرع الاستغفار في السحر ، وعقب الصلوات ، وقضاء الحج .

وكان الدعاء في السجود ، وعند الأذان ، وبينه وبين الإقامة ، والإفطار من الصيام ، أقرب

للإجابة مما عده .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٩] (فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبْوِيَهُ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ

اللَّهُ ءَامِنِينَ)

« فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبْوِيَهُ » إشارة إلى ورود يعقوب وآله على يوسف .

وذلك أنهم تخلوا عن آخرهم ، ورحلوا من بلاد كنعان ، وأركبوا أطفالهم ونساءهم على العجل التي بعث بها فرعون ، وصحبوا ماشيتهم وسرحهم ، وهبطوا أرض مصر - وروى أنهم كانوا سبعة نفوساً - وتقدمهم يهوذا إلى يوسف ليدله على أرض (جاسان) فينزلوها . ثم خرج يوسف في مركبته ، فتلقى أباه في (جاسان) ، ولما ظهر له ألقى بنفسه على عنقه وبكى طويلاً . والمراد بدخولهم على يوسف وصولهم للملتقاء خارج البلد ، وإبواء أبويه ضمهما إليه ، واعتناقهما واصطحابه لهما في مركبه . قالوا : عنى بأبويه والده وخالته ، لأن أمه راحيل توفيت وهي نفساء بأخيه بنيامين . وتنزيل الحالة منزلة الأم ، لكونها مثلها في زوجة الأب ، وقيامها مقامها وتوقيرها ، كتنزيل العم منزلة الأب في قوله ^(١) (وَإِلَهُ إِيَّاكَ إِيرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ) .

« وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ » أى من القحط وأصناف المكاره .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٠] (وَرَفَعَ أَبُوتَهُ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ، وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ

رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلْتُ رَبِّي حَقًّا ، وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ

السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ

إِخْوَتِي ، إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ ، إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ)

« وَرَفَعَ أَبُوتَهُ عَلَى الْعَرْشِ » أى اجلسهما معه على سرير ملكه تكريماً لهما « وَخَرُّوا

لَهُ سُجَّدًا » أى سجد له أبوه وإخوته الباقون ، وكانوا أحد عشر ، تحية وتكرمة له .

وكان السجود عندهم للكبير يجرى مجرى التحية عندنا .

« وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا » أى السجود « تَأْوِيلُ » أى تعبير « رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ » أى

(١) [٢ / البقرة / ١٣٣] .

التي رأيتها أيام الصبا ، وهي سجود أحد عشر كوكباً والشمس والقمر « قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا » أى صدقاً مطابقاً للواقع في الحسّ ، « وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ » أى نجاتي من العبودية ، وجعل الملك مطيعاً لي مفوضاً إلى خزائن الأرض . وفي الاقتصار على التحدث بالخروج من السجن على جلالة ملكه ، ونفامة شأنه من التواضع ، وتذكر ما سلف من الضراء ، استدامة للشكر ، ما فيه من أدب النفس الباهر . وفيه إشارة إلى النعمة في الانطلاق من الحبس ، لأنه كما قال عبد الملك بن عبد العزيز ، لما كان في حبس الرشيد :

ومحلة شمل المسكاره أهلها وتقلدوا مشنوءة الأسماء
دار يهاب بها اللثام وتقمى وتقل فيها هيبه الكرماء
ويقول عليج ما أَرَادَ ، ولا ترى حرّاً يقول برقة وحياء
وبرق عن مس الملاحه وجهه فيصونه بالصمت والإغضاء

وقال شاعر من المسجونين :

خَرَجْنَا مِنَ الدُّنْيَا وَنَحْنُ مِنْ أَهْلِهَا فَلَسْنَا مِنَ الْأَحْيَاءِ فِيهَا وَلَا الْمَوْتَى
إِذَا جَاءَنَا السِّجَانُ يَوْمًا لِحَاجَةٍ عَجِبْنَا وَقُلْنَا: جَاءَ هَذَا مِنَ الدُّنْيَا

ويؤثر عن يوسف عليه السلام أنه كتب على باب السجن : هذه منازل البلاء ، وتجربة الأصدقاء ، وضمانه الأعداء ، وقبور الأحياء .

هذا وقد حاول كثير من الأدباء مدح السجن بسحر بيانهم . فقال علي بن الجهم :

قالوا : حَبِسْتَ فَقُلْتُ لَيْسَ بِضَائِرِي حَبْسِي . وَأَيْ مُهِنْدٍ لَا يُغْمَدُ ؟
أَوْ مَا رَأَيْتَ اللَّيْثَ يَأْتِي غَابَهُ كِبَرًا وَأَوْبَاشُ السَّبَاعِ تَرَدَّدُ
وَالْبَدْرُ يَذُرُّ كُهُ الْحَاقُ فَتَنْجَلِي أَيَّامُهُ وَكَأَنَّهُ مُتَجَدِّدُ
وَلِسْكَ حَالٍ مُعْقِبٍ وَلَرُبَّمَا أَجَلِي لَكَ الْمَكْرُوهُ عَمَّا تَحْمَدُ
وَالسِّجْنُ ، مَا لَمْ تَفْشَهُ لِدَنِيَّةٍ شَنْعَاءُ ، نَمِ الْمَنْزِلُ الْمُتَوَرَّدُ
بَيْتٌ يُجَدِّدُ لِلْكَرِيمِ كَرَامَةً فَيَزَارُ فِيهِ وَلَا يَزُورُ وَيُحْفَدُ

وأحسن ما قيل في تسلية المسجونين قول البحرى :

أما في رسول الله يوسف أسوةً لملك محبوباً على الجور والإفك
أفام جميل الصبر في السجن برهه فآل به الصبر الجميل إلى الملك

- نقله الثعالبي في (اللطائف واليوافيت) - .

« وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ » أى البادية، وقد كانوا أصحاب مواش، « مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ »
أى أفسد « الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي » أى بالحسد. وأسفده إلى الشيطان لأنه بوسوسته
والقائه . وفيه تفادٍ عن تربيهم أيضاً . وإنما ذكره لأن النعمة بعد البلاء أحسن موقفاً .
« إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ » أى لطيف التدبير له ، والرفق به ، « إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ »
بوجوه المصالح ، « الْحَكِيمُ » فى أفعاله وأفضيته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠١] (رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ، فَاطِرَ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي
بِالصَّالِحِينَ)

« رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ » أى بعضاً منه عظيماً ، وهو ملك مصر ، « وَعَلَّمْتَنِي
مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ » أى تعبیر الرؤيا ، « فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى مبدعهما
وخالقهما ، « أَنْتَ وَلِيِّي » أى مالك أموري ، فى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي
بِالصَّالِحِينَ » أى من النبیین والمرسلين . دعا يوسف عليه السلام بهذا الدعاء لما تمت نعمة
الله عليه واجتماعه بأبويه وإخوته ، وما آثره به من العلم والملك ، فسأل ربه عز وجل ، كما اتم
عليه نعمته فى الدنيا ، أن يحفظها عليه باقى عمره ، حتى إذا حان أجله قبضه على الإسلام ،
والحقه بالصالحين . فلبس فيه تمنى للموت ، وطلب التوفى بمنجزاً كما قيل .

روى الإمام أحمد والشيخان ^(١) عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به ، إن كان محسناً فيزداد ، وإن كان مسيئاً فله به يستعقب : ولكن ايقظ : اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي ، وفي رواية : وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي .

تنبيهان

الأول - في فقه هذه الآيات : قال بعض اليمانيين : يستدل مما روى أن يوسف خرج للقاء أبيه ، على حسن التعظيم باللقاء ، وكذا يأتي مثله في التشيع ، ومنه ما روى في تشيع الضيف . ويستدل مما روى أن المراد بأمه خالته - كما مر - أن من نسب رجلاً إلى خالته فقال : يا ابن فلانة ! لم يكن قاذفاً لها ويستدل من رفعهما على العرش - وهو السرير الرفيع - جواز اتخاذهما ، ورفع الغير ، تعظيماً للمرفوع . ويستدل من قوله : (وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ) على أن الانتقال منه نعمة ، وذلك لما يلحق أهل البادية من الجفاء ، والبعد عن موارد العلوم ، وعن رفاهة المدنية ، ولطف المعاشرة ، والكمالات الإنسانية . وروى لجرير ^(٢) :

أَرْضِ الْجَرَاءِ لَوْ أَنَّهَا جَرُولٌ أَعْنِي الْحَطِيئَةَ لَا غَتْدِي حَرَانًا
مَا جِئْتُهَا مِنْ أَى وَجْهِ جِئْتُهَا إِلَّا حَسِبْتُ بِيوتَهَا أَجْدَانًا

(١) أخرجه البخارى في : ٨٠ - كتاب الدعوات ، ٣٠ - باب الدعاء بالموت والحياة ، حديث ٢٢٤٥ .

ومسلم في ٤٨ - كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، حديث رقم ١٠ (طبعنا) .
والإمام أحمد في مسنده بالصفحة رقم ١٠١ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي) .
(٢) البيهقي لأبى تمام ونصهما كما في الديوان :

لَمْ آتِهَا مِنْ أَى وَجْهِ جِئْتُهَا إِلَّا حَسِبْتُ بِيوتَهَا أَجْدَانًا
بِلَدِ الْفَلَاحِ لَوْ أَنَّهَا جَرُولٌ أَعْنِي الْحَطِيئَةَ لَا غَتْدِي حَرَانًا

والقصيدة قالها يمدح مالك بن طوق يستبطنه . ومطامها :

قِفْ بِالطُّولِ الدَّارِسَاتِ غُلَانًا أَمْسَتْ حَبَالُ قَطِينِ رِثَانًا
انظر الصفحة ٣١٤ من الجزء الأول (طبعة المعارف) .

وفي الحديث ^(١) : (من بدا جفا) أى : من حل البادية . وفي آخر ^(٢) : (إن الجفا والقسوة في الفدادين) . ففي هذا دليل على حسن النقلة من البوادي إلى المدن . اهـ بزيادة .

الثانى - قص كثير نبأ استقرار يعقوب وآله بمصر . ومجمله أن يوسف اختار لمستقرهم أرض جاسان . فلما دخلوا مصر أخبر يوسف فرعون بقدم أبيه وإخوته وجميع ما لهم إلى أرض جاسان ، ثم أدخل أباه على فرعون ، فأكرمهم وكله حصه ، وسأله عن عمره فأجابه : مائة وثلاثون سنة ، وأقطعه وبنيه أجوداً أرض في مصر ، وهى أرض رعسيس ، أى عين شمس ، وملسكها إليهم ، ودعا له يعقوب ثم انصرف . ثم أخذ يوسف خمسة من إخوته ، فتلهم بين يدى فرعون ، فقال لهم : ما حرفتكم فأجابوه - كما أوصاهم يوسف - : نحن وآبائنا رعاة غنم ! فقال فرعون ليوسف : إن كنت تعلم أن فيهم ذوى حذق ، فأقمهم وكلاء على ماشيتى . وأجرى يوسف لأبيه وإخوته وسائر أهله طعاماً على حسبهم . وأقاموا في أرض مصر بجاسان ، فتملأوا فيها ، ونموا وكثروا جداً . وعاش يعقوب في أرض مصر سبع عشرة سنة ، فكانت مدة عمره كله مائة وسبعاً وأربعين سنة . ولما دنا أجله قال ليوسف : لا تدفنى بمصر إذا مت ، بل احملنى منها إلى مدفن آبائى ، فأجابه لذلك . ثم بعد مدة أخبر يوسف بمرض أبيه ، فأخذ ولديه وسار إلى أبيه ، فالتمش أبوه بمقدمه ، ورأى ولديه ، فقال : من هذان ؟ فقال : ابنائى رزقتهما الله هاهنا . فقال : أذنيهما منى ، فأدناهما ، فقبلهم ، ودعاهما . وقال له : لم أكن أظن أنى أرى وجهك ، والآن أراى الله نسلك أيضاً . ثم أعلم يوسف بدنو أجله ، وبشره بأن الله سيكون معكم ، ويردكم إلى أرض آبائكم . ثم دعا بقية بنيه ، ودعا لهم بالبركة ، وأوصاهم بأن يضموه إلى قومه ، ويدفنوه مع آبائهم في المغارة التى في حبرون ، وهى المعروفة اليوم بمدينة الخليل فإن فيها دفن إبراهيم ،

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده بالصفحة رقم ٣٧١ من الجزء الثانى (طبعة الحلبي) .

(٢) أخرجه البخارى في : ٥٩ - كتاب بدء الخلق ، ١٥ - باب خير مال المسلم غنم يتبع بها

شمع الجبال ، حديث ١٥٦٢ عن ابن مسعود ، من حديث ونصه : ألا إن القسوة وغلظ القلوب . الخ

وأخرجه مسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث رقم ٨١ (طبعنا) .

وسارة امرأته ، وإسحاق ورفقة زوجته ، وليمة امرأة يعقوب . ولما فرغ يعقوب من وصيته لبنيه فاضت روحه ، فوقع يوسف على وجه أبيه ، وبكى وقبله . ثم أمر الأطباء أن يحنطوه ويصبروه . ولما انقضت أيام التعزية به ، استأذن يوسف فرعون بأن يبرح لدفن أبيه ، عملاً بوصيته فأذن له وسار من مصر ، وصحبه إخوته آل أبيه وحاشيته ، ووجهاء مصر ، وأتباع فرعون في موكب عظيم ، إلى أن وصلوا أرض كنعان ودفنوه في المغارة - كما أوصى - ثم عاد بمن معه إلى مصر ، ولم يزل يوسف يرعى إخوته بالإكرام والإحسان ، إلى أن قرب أجله ، فأوصاهم بأن ينقلوه معهم إذا عادوا إلى الأرض التي كتبها الله لأبائهم . ثم توفي يوسف ، وهو ابن مائة وعشر سنين ، وحنطوه ، وجعلوه في تابوت بمصر .

هذا ما قصه قدماء المؤرخين ، والله أعلم بالحقائق . وإنما يذكر هذا ، القرآن الكريم ، لأن القرآن لم يبنَ على قانون التاريخ ، فليس فيه شيء من التاريخ من حيث هو قصص وأخبار ، وإنما هي الآيات والعبر ، تجلت في سياق الوقائع ، ولذلك لم تذكر قصة بترتيبها وتفصيلها ، وإنما يذكر موضع العبرة فيها ، كما سيأتي الإشارة إليه في قوله تعالى (١) : (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ) ، وقوله (٢) : (وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنْثِي بِهِ فُؤَادَكَ) . ومضى في المقدمة بسط هذا البحث ، فراجع . وسند ذكر إن شاء الله في آخر السورة شيئاً . من الحسك والعبر المقتبسة من نبأ يوسف ، فانتظر .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٢] (ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ، وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَنْجَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ)

« ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ » إشارة إلى ما سبق من نبأ يوسف ، البعيد درجة

(١) [١٢/يوسف/١١١] . (٢) [١١/هود/١٢٠] .

كأله في جميع ما لا يتناهى من المحاسن والأسرار حتى صار معجزاً . والخطاب لرسول الله ﷺ
 أى : هذا من أخبار الغيوب السابقة ، نوحيه إليك ، ونعلمك به ، لما فيه من العبرة والاتعاظ .
 وقوله تعالى : « وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ » كالدليل
 على كونه نبأً غيبياً ووحياً سماوياً . أى : لم تعرف هذا النبأ إلا من جهة الوحي ، لأنك لم
 تحضر إخوة يوسف ، حين أجمعوا أمرهم على إلقاء أخيهم في البئر ، وهم يَمْكُرُونَ به ، إذخثوه
 على الخروج معهم ، يبيغون له الفوائد ، وبأبيهم في استئذانه ليرسله معهم أى فلم تشاهدكم
 حتى تقف على ظواهر أسرارهم وبواطنها .

قال أبو السعود : وليس المراد مجرد نفي حضوره عليه الصلاة والسلام في مشهد إجماعهم
 ومكرهم فقط ، بل سائر المشاهد أيضاً . وإنما تخصيصه بالذكر لكونه مطلع القصة ، وأخفى
 أحوالها كما ينبي عنه قوله تعالى (وَهُمْ يَمْكُرُونَ) . والخطاب - وإن كان لرسول الله ﷺ -
 لكن المراد إلزام المكذبين . والمعنى : ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ، إذ لا سبيل إلى
 معرفتك إياه سوى ذلك ، إذ عدم سماعك ذلك من الغير ، وعدم مطالعتك للكتب ، أمر
 لا يشك فيه المكذبون أيضاً . ولم تكن بين ظهرائهم عند وقوع الأمر حتى تعرفه كما
 هو ، فتبلغه إليهم . وفيه تهكم بالكفار ، فكأنهم يشككون في ذلك فيدفع شكهم . وفيه
 أيضاً إيذان بأن ما ذكر من النبأ هو الحق المطابق للواقع ، وما ينقله أهل الكتاب ليس على
 ما هو عليه . يعنى : أن مثل هذا التحقيق بلا وحي لا يتصور إلا بالحضور والمشاهدة ، وإذا
 ليس ذلك بالحضور فهو بالوحي . ومثله قوله تعالى ^(١) : (وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُونَ
 أَفْلَأَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ) . وقوله ^(٢) : (وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْعَرْشِ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى
 مُوسَى الْأَمْرَ) انتهى .

وقوله تعالى :

(١) [٣ / آل عمران / ٤٤] . (٢) [٢٨ / القصص / ٤٤] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٣] (وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ)

« وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ » يريد به العموم ، أو أهل مكة . « وَلَوْ حَرَصْتَ » أى جهدت كل الجهد على إيمانهم ، وبالغت في إظهار الآيات الفاطمة الدالة على صدقك ، « بِمُؤْمِنِينَ » أى بالكتب والرسول ، لميلهم إلى الكفر ، وسبيل الشر . معنى : قد وضع بمثل هذا النبأ نبوته صلوات الله عليه ، وقامت الحجة ، ومع ذلك فما آمن أكثر الناس ، كما قال تعالى ^(١) : (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ) .

قال الرازى : ما معناه : وجه اتصال هذه الآية بما قبلها ، أن كفار قريش ، وجماعة من اليهود ، طلبوا من النبي عليه الصلاة والسلام قص نبأ يوسف تعنتاً ، فكان يُظنُّ أنهم يؤمنون إذا تلى عليهم ، فلما نزلت وأصرّوا على كفرهم ، قيل له : (وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ) الخ . وكأنه إشارة إلى ما ذكر في قوله تعالى ^(٢) : (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٤] (وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ، إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ)

« وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ » أى على هذا النصح ، والدعاء إلى الخير والرشد ، « مِنْ أَجْرٍ » أى أجرة « إِنْ هُوَ » أى ما هو ، يعنى القرآن ، « إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ » أى : عظة لهم ، يتذكرون به ويهتدون وينجون في الدنيا والآخرة . يعنى : أن هذا القرآن يشتمل على العظة البالغة ، والمرشد القويمة ، وأنت لا تطلب في تلاوته عليهم مالا ، ولا جملاً . فلو كانوا عقلاء لقبولوا ، ولم يعمدوا .

(١) [٢٦ / الشعراء / ٦٧ و ١٠٣ و ١٢١ و ١٣٩ و ١٥٨ و ١٧٤ و ١٩٠] .

(٢) [٢٨ / القصص / ٥٦] .

قال بعض اليمانيين : في الآية دليل على أن من تصدّر للإرشاد ، من تعليم ووعظ ، فإن عليه اجتناباً عما يمنع من قبول كلامه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٥] (وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ) «وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ» أي : وكم من آية على وحدانية الخالق ، وقدرته الباهرة ، ونعوته الجليلة ، في السموات : من كواكبها وأفلاكها ، وفي الأرض : من قطع متجاورات ، وحدائق وجنات ، وجبال راسيات ، وبحار زاخرات ، وقفار شاسعات ، وحيوان ونبات ، وثمار مختلفات ، وأحياء ، وأموات ، يشاهدونها ، ولا يعتبرون بها .

قال الرازي : معنى أنه لا عجب إذا لم يتأملوا في الدلائل الدالة على نبوتك ، فإن العالم مملوء من دلائل التوحيد ، والقدرة والحكمة ثم إنهم يرون عليها ، ولا يلتفتون إليها . واعلم أن دلائل التوحيد والعلم والقدرة والحكمة والرحمة ، لا بد وأن تكون من أمور محسوسة ، وهي إما الأجرام الفلكية ، وإما الأجرام العنصرية . أما الأجرام الفلكية فهي قسمان : أفلاك ، وكواكب . أما الأفلاك ، فقد يستدل بمقاديرها المقيمة على وجود الصانع . وقد يستدل بكون بعضها فوق البعض أو تحته ، وقد يستدل بأحوال حركاتها ، إما بسبب أن حركاتها مسبقة بالعدم ، فلا بد من محرك قادر ، وإما بسبب كيفية حركاتها في سرعتها وبطئها ، وإما بسبب اختلاف جهات تلك الحركات وأما الأجرام السكونية : فتارة يستدل على وجود الصانع بمقاديرها وأحيائها وحركاتها ، وتارة بألوانها وأضوائها ، وتارة بتأثيراتها في حصول الأضواء والأظلال ، والظلمات والنور .

وأما الدلائل المأخوذة من الأجرام العنصرية : فإما أن تكون مأخوذة من بسائط ، وهي عجائب البر والبحر ، وإما من المواليد وهي أقسام :

أحدها - الآتار العلوية ، كالرعد والبرق والسحاب والمطر والثالج والهواء وقوس قزح
وثانيها - المعادن على اختلاف طبائعها وصفاتها وكمياتها .
ثالثها النبات وخاصة الخشب والورق والتمر ، واختصاص كل واحد منها بطبع خاص
 وطعم خاص ، وخاصة مخصوصة .

ورابعها - اختلاف أحول الحيوانات في أشكالها وطبائعها وأصواتها وخلقتها .
خامسها - تشریح أبدان الناس ، وتشریح القوى الإنسانية ، وبيان المنفعة الحاصلة
 فيها .

فهذه مجامع الدلائل .

ومن هذا الباب أيضاً قصص الأولين ، وحكايات الأقدمين ، وأن الملوك إذا استولوا
 على الأرض وخربوا البلاد، وقهروا العباد، ماتوا ولم يبق منهم في الدنيا خبر ولا أثر ، ثم بقى
 الوزر والمقاب .

ولما كان العقل البشرى لا يفي بالإحاطة بشرح دلائل العالم الأعلى والأسفل ، ذكر في
 الكتاب العزيز مجملًا . انتهى .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٦] (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)

« وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ » أى : الناس ، أو أهل مكة ، « بِاللَّهِ » أى فى إقرارهم بوجوده
 وخالفته « إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ » أى : بعبادتهم لغيره ، وبالتخاذم الأحرار والرهبان أربابا ،
 وبقولهم بالتخاذم تعالى ولداً . سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً .

تنبيه :

كما تدل الآية على النعى عليهم بالشرك الأكبر ، وهو أن يعبد مع الله غيره . فإنها تشير إلى

ما يتخلل الأثدة وينغمس به الأكترون من الشرك الخفى ، الذى لا يشعر صاحبه به غالباً ومنه قول الحسن فى هذه الآية : ذاك المنافق ، يعمل إذا عمل رثاء الناس ، وهو مشرك بعمله .
يعنى : الشرك فى العبادة . فصاحبه ، وإن اعتقد وحدانيته تعالى - ولكن لا يخلص له فى عبوديته بل يعمل لحظ نفسه ، أو طلب الدنيا ، أو طلب الرفعة والمنزلة والجاه عند الخلق . فله من عمله وسعيه نصيب ، ولنفسه وحظه وهواه نصيب وللشيطان نصيب ، وللخلق نصيب .
وهذا حال أكثر الناس ، وهو الشرك الذى قال فيه النبي ﷺ ، فيما رواه ابن حبان فى صحيحه : الشرك فى هذه الأمة أخفى من ديب النمل . فالرياء كله شرك ، وهو محبط للعبادة ، مبطل ثواب العمل ، ويعاقب عليه إذا كان العمل واجباً . فإنه تعالى أمر بعبادته خالصة . قال تعالى (١) : (وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ) ، فمن لم يخلص لله فى عبادته ، لم يفعل ما أمر به ، بل الذى أتى به شئ غير المأمور ، فلا يقبل منه .
وروى مسلم (٢) وغيره عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : يقول الله : أنا أغنى الشركاء عن الشرك . من عمل عملاً أشرك فيه معى غيرى ، تركته وشركه .

وروى الإمام أحمد (٣) عن محمود بن لبيد ، رفعه إلى النبي ﷺ : إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر ! قالوا : وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ قال : الرياء ! .
ومن الشرك نوع غير مغفور ، وهو الشرك بالله فى المحبة والتعظيم ، بأن يحب مخلوقاً كما يحب الله . فهذا من الشرك الذى لا يغفره الله ، وهو الشرك الذى قال سبحانه فيه (٤) : (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا . . .) الآية - وقال أصحاب هذا الشرك

(١) [٩٨ / البيئة / ٥] . (٢) أخرجه مسلم فى : ٥٣ - كتاب الزهد والرقائق ، حديث ٤٦ (طبعنا) . (٣) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ٤٢٨ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) . (٤) [٢ / البقرة / ١٦٥] .

لَأَهْلَتَهُمْ ، وقد جمعهم الجحيم ^(١) : (تَاللّٰهِ اِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * اِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْمَالِئِينَ) ومعلوم أنهم ما سوّوهم به سبحانه في الخلق والرزق ، والإماتة والإحياء ، والملك والقدرة ، وإنما سوّوهم به في الحب والتآله ، والخضوع لهم والتذلل . وهذا غاية الجهل والظلم . فكيف يسوّى من خلق من التراب ، رب الأرباب ؟ وكيف يسوّى العبيد بالملك الرقاب ، وكيف يسوى الفقير بالذات ، الضعيف بالذات ، العاجز بالذات ، المحتاج بالذات ، الذى ليس له من ذاته إلا العدم ، بالغنى بالذات ، القادر بالذات ، الذى غناه وقدرته وملكه ووجوده وإحسانه وعلمه ورحمته وكهاله المطلق التام ، من لوازم ذاته ؟ فأى ظلم أفجع من هذا وأى حكم أشد جوراً منه ؟ حيث عدل من لا عدل له بخلقه ، أفاده الشمس ابن القيم في (الجواب السكاقي)

قال الحفاظ ابن كثير : وثمّ شرك خفى لا يشعر به غالباً فاعله ، كما روى عن حذيفة أنه دخل على مريض ، فرأى فى عضده سيراً فقطعه ، ثم قال : (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّٰهِ اِلَّا وَهُمْ مُّشْرِكُونَ) .

وفى الحديث ^(٢) : من حلف بغير الله فقد أشرك - رواه الترمذى عن ابن عمر وحسنه . وفى الحديث الذى رواه أحمد ^(٣) وأبو داود ^(٤) وغيرهما عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : إن الرقى والتمايم والتوالة شرك . ورواه الإمام أحمد بأبسط من هذا عن زينب امرأة عبد الله قالت : كان عبد الله إذا جاء من حاجة فانتهى إلى الباب ، تنحنح وبزق كراهة أن يهجم منا على أمر يكرهه ؟ قالت : وإنه جاء ذات يوم فتحنح ، وعندى عجوز ترفينى

(١) [٢٦ / الشعراء / ٩٧ و ٩٨] . (٢) أخرجه الترمذى فى : ١٨ - كتاب النذور والأيمان ، ٩ - باب حدثنا قتيبة ، حدثنا أبو خالد الأحمر . (٣) رواه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة ٣٨١ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) والحديث رقم ٣٦١٥ (طبعة المعارف) .

(٤) أخرجه أبو داود فى : ٢٧ - كتاب الطب ، ١٧ - باب فى تعليق التمايم ، حديث رقم ٣٨٨٣ .

من الحجر ، فأدخلتها تحت السرير . قالت : فدخل فجلس إلى جانبي ، فرأى في عنقي خيطاً ، فقال : ما هذا الخيط ؟ قالت : قلت : خيط رقي لي فيه ! فأخذه فقطعه ، ثم قال : إن آل عبد الله لأغنياء عن الشرك . سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن الرقي والتائم والتولة شرك . قالت : قلت له : لم تقول هذا ، وقد كانت عيني تفرق ، فكنت أختلف إلى فلان اليهودي يرقها ، فكان إذا رقاها سكنت ؟ ! فقال : إنما ذاك من الشيطان ، كان ينخسها بيده ، فإذا رقاها كف عنها ، كان يكفيك أن تقول كما قال النبي ﷺ : أذهب البأس ، رب الناس ، اشف وأنت الشافي . لا شفاء إلا شفاؤك ، شفاء لا يغادر سقماً .

وروى الإمام أحمد ^(١) عن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله ﷺ : من علق تميمه فقط أشرك !

وأخرج أيضاً ^(٢) عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : من ردت الطيرة عن حاجته فقد أشرك .

وبما ذكره علم أن لفظ الآية يتناول كل ما يصدق عليه مسمى الإيمان . مع وجوده مسمى الشرك ، فأهل الشرك الأكبر ما يؤمن أن الله هو الخالق إلا وهو مشرك به ، بما يتخذ من الشفاء ، وما يعبد من الأصنام . وكذا أهل الشرك الأصغر من المسلمين ، كالرياء مثلاً ، ما يؤمن أحدهم بالله إلا وهو مشرك به ، بذلك الشرك الخفي . وعلى هذا ، قال شرك يجمع الإيمان ، فإن الموصوف بهما مما تقدم ، مؤمن فيما آمن به ، ومشرك فيما أشرك به والتسمية في الشريعة لله عز وجل ورسوله ، فلهما أن يوقعا أى اسم شاء على أى مسمى شاء . فكما أن الإيمان في اللغة التصديق ، ثم أوقعه الله عز وجل في الشريعة على جميع الطاعات ، واجتناب المعاصي ،

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده بالصفحة رقم ١٥٦ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده بالصفحة رقم ٢٢٠ من الجزء الثاني (طبعة الحلبي) .

والحديث رقم ٧٠٤٥ (طبعة المعارف) .

إذا قُصد بكل ذلك ، من عمل أو تركٍ ، وجهُ الله تعالى ، كذلك الشرك نقل عن شرك شيء مع آخر مطلقاً ، إلى الشرك في عبادته تعالى ، وفي خصائص ربوبيته .

قال ابن القيم :

حقيقة الشرك هو التشبه بالخالق ، والتشبه للمخلوق به فالشرك مشبهه للمخلوق بالخالق في خصائص الإلهية ؛ فإن من خصائص الإلهية التفرد بملك الضر والنفع ، والعطاء والمنع ، وذلك بوجوب تعاقب الدعاء ، والخوف والرجاء ، والتوكل به وحده . فمن علق ذلك بمخلوق فقد شبهه بالخالق ، وجعل من لا يملك لنفسه نقماً ولا ضرراً ، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ، فضلاً عن غيره ، مشبهاً بمن له الأمر كله ، جل وعلا . فمن أقبح التشبيه تشبيهه هذا العاجز الفقير بالذات ، بالقادر الغني بالذات . ومن خصائص الإلهية السكّال المطلق من جميع الوجوه ، الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه . وذلك بوجوب أن تكون العبادة كلها له وحده ، والتمظيم والإجلال والخشية والدعاء والرجاء والإنابة والتوكل والاستمانة وغاية الذل ، مع غاية الحب ، كل ذلك يجب عقلاً وشرعاً وفطرة ، أن يكون له وحده . ويمنع عقلاً وشرعاً وفطرة أن يكون لغيره . فمن جعل شيئاً من ذلك لغيره فقد شبه ذلك الغير ، بمن لا شبيه له ، ولا ندّ له ، وذلك أقبح التشبيه وأبطله ، ولشدة قبحه ، وتضمنه غاية الظلم ، أخبر سبحانه عباده أنه لا يغفره . مع أنه كتب على نفسه الرحمة . ومن خصائص الإلهية العبودية التي قامت على ساقين ، لا قوام لها بدونهما : غاية الحب ، مع غاية الذل . هذا تمام العبودية . وتفاوت منازل الخلق فيها بحسب تفاوتهم في هذين الأصلين . فمن أعطى حبه وذله وخضوعه لغير الله ، فقد شبهه به في خالص حقه ، وهذا من الحال أن تأتى به شريعة من الشرائع ، وقبحه مستقر في كل فطرة وعقل . ولكن غيرت الشياطين فطر أكثر الخلق وعقولهم ، وأفسدتها عليهم ، ومضى على الفطرة من سبقت له من الله الحسن . إذا عرف هذا فمن خصائص الإلهية السجود . فمن سجد لغيره فقد شبه المخلوق به . ومنها التوكل ، فمن توكل

على غيره فقد شبهه به ، ومنها التوبة ، فمن تاب لغيره فقد شبهه به . ومنها الحلف باسمه تعظيماً وإجلالاً . فمن حلف بغيره فقد شبهه به . هذا في جانب التشبيه . وأما في جانب التشبه به ، فمن تعظم وتكبر ، ودعا الناس إلى إطرائه في المدح والتعظيم ، والخضوع ، والرجاء ، وتعليق القلب به ؛ خوفاً ، ورجاءاً ، والتجاء ، واستعانة ، فقد تشبه به ، ونازعه في ربوبيته والهيئته ، وهو حقيق بأن يهينه غاية الهوان ، ويذله غاية الذل .

وفي الصحيح ^(١) عنه عليه السلام قال : يقول الله عز وجل : المظمة إزارى ، والكبرياء ردأى ، فمن نازعنى واحداً منهما عذبتة . وكذلك من تشبه به في الاسم الذى لا ينبغى إلا لله وحده ، كملك الأملاك ، وحاكم الحكام ، ونحوه .

وفي الصحيح ^(٢) عنه صلى الله عليه وسلم . أغبط رجل على الله رجل يسمى ملك الأملاك ، لا مَلِكَ إلا الله .

فهذا غضب الله على من تشبه في الاسم ، الذى لا ينبغى إلا له ، فهو سبحانه ملك الملوك وحده يحكم عليهم كلهم ، ويقضى عليهم ، لا غيره .

وتقمة هذا البحث في (الجواب السكايف) لابن القيم ، فانظره .

وقوله تعالى :

(١) أخرجه مسلم في : ٤٥ - كتاب البرّ والصلة والآداب ، حديث رقم ١٣٦ (طبعنا) .

(٢) أخرجه البخارى في : ٧٨ - كتاب الأدب ، ١١٤ - باب أبنض الأسماء إلى الله ،

حديث رقم ٢٣٦٧ ، عن أبى هريرة .

ومسلم في : ٣٨ - كتاب الآداب ، حديث رقم ٢٠ و ٢١ (طبعنا) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٧] (أَفَأَمِنُوا أَنَّ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

« أَفَأَمِنُوا » أى هؤلاء المشركون « أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ » أى : عقوبة تنبسط عليهم وتغمرهم « أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً » أى فجأة « وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ » أى : بإتيانها . وهذا كقوله تعالى ^(١) : (أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ * أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلُبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ * أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ) وقوله ^(٢) : (أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ * أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ * أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ؟ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٨] (قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ، عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

« قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي » أى هذه السبيل ، التى هى الدعوة إلى الإيمان والتوحيد ، سبيل ، أى طريق ومسلكى وسنتى . والسبيل والطريق يذكّران ويؤنّشان . ثم فسر سبيله : بقوله : « أَدْعُو إِلَى اللَّهِ » أى : إلى دينه وتوحيده ، ومعرفة بصفات كماله ، ونعوت جلّاله « عَلَى بَصِيرَةٍ » أى : مع حجة واضحة ، غير عمياء . « أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي » أى : آمن بى ، يدعون إلى الله أيضاً على بصيرة ، لا على هوى . « وَسُبْحَانَ اللَّهِ » أى : وأترهه

(٦) [١٦ / النحل / ٤٥ و ٤٦ و ٤٧] . (٢) [٧ / الأعراف / ٩٧ و ٩٨ و ٩٩] .

وأجله وأقدسّه عن أن يكون له شريك أو ندّ أو كفو أو ولد أو صاحبة ، تعالى عن ذلك علواً كبيراً ، « وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ » أى : على دينهم .

تنبيهات :

الأول - قال السمين (أدْعُو إِلَى اللَّهِ) يجوز أن يكون مستأنفاً ، وهو الظاهر ، وأن يكون حالاً من الياء . و (على بصيرة) حال من فاعل (أدْعُو) . أى : أدعو كأننا على بصيرة . وقوله : (وَمَنْ اتَّبَعْنِي) عطف على فاعل (أدْعُو) ، ولذلك أكد بالضمير المنفصل . ويجوز أن يكون مبتدأ ، والخبر محذوف . أى : ومن اتبعنى يدعو أيضاً . ويجوز أن يكون (عَلَى بَصِيرَةٍ) خبراً مقدماً ، و (أَنَا) مبتدأ مؤخرًا ، و (مَنْ اتَّبَعْنِي) عطف عليه ومفعول (أدْعُو) إما منوى ، أى الناس ، أو منسى .

الثانى - دل قوله تعالى (عَلَى بَصِيرَةٍ) على مزية هذا الدين الحنيف ، ونهجه الذى انقرد به ، وهو أنه لم يطلب التسليم به لمجرد أنه جاء بحكايته ، ولكنه ادعى وبرهن وحكى مذاهب المخالفين ، وكرّ عليها بالحجة ، وخاطب العقل ، واستنهض الفكر ، وعرض نظام الأكوان ، وما فيها من الإحكام والإتقان ، على أنظار العقول ، وطالبها بالإيمان فيها لتصل بذلك إلى اليقين بصحة ما ادعاه ودعا إليه - انظر (رسالة التوحيد) فى تممة ذلك - .

الثالث - دلت الآية على أن سيرة أتباعه ﷺ ، الدعوة إلى الله .

قال الرازى : كل من ذكر الحجة ، وأجاب عن الشبهة ، فقد دعا بمقدار وسمه إلى الله . وهذا يدل على أن الدعاء إلى الله تعالى إنما يحسن ويجوز مع هذا الشرط : وهو أن يكون على بصيرة مما يقول ، وعلى هدى ويقين ، فإن لم يكن كذلك ، فهو محض الغرور . انتهى . ولا يخفى أن الدعوة إلى الله إنما هى بنشر مطالب الدين ، وإذاعة آدابه وتعليمه .

قال بعضهم : ينبغى للعالم أن يكون حديثه مع العامة ، فى حال مخالطته ومجالسته لهم ، فى بيان الواجبات والمحرمات ، ونوافل الطاعات ، وذكر الثواب والمعاقب ، على الإحسان

والإساءة . ويكون كلامه معهم بعبارة قريبة واضحة يعرفونها ويفهمونها . ويزيد بياناً للأمر التي يعلم أنهم ملابسون لها ولا يسكت حتى يسأل عن شيء من العلم ، وهو يعلم أنهم محتاجون إليه ، ومضطرون إليه ، فإن علمه بذلك سؤال منهم بلسان الحال . والعمامة قد غلب عليهم التساهل بأمر الدين ، علماً وعملاً ، فلا ينبغي للعلماء أن يساعدوهم على ذلك بالسكوت عن تعليمهم وإرشادهم ، فيعمّ الهلاك ، ويعظم البلاء . وقلما تختبر عامياً - وأكثر الناس عامة - إلا وجدته جاهلاً بالواجبات والمحرمات ، وبأمر الدين التي لا يجوز ولا يسوغ الجهل بشيء منها ، وإن لم يوجد جاهلاً بالكل ، وجد جاهلاً بالبعض . وإن علم شيئاً من ذلك ، وجدت علمه به علماً مسموعاً من ألسنة الناس ، لو أردت أن تقلبه له جهلاً فعلت ذلك بأيسر مؤونة ، لعدم الأصل والصحة فيما يعلمه . وعلى الجملة ، فيتأكد على العلماء أن يجالسوا الناس بالعلم ، ويحدثوهم به ، ويبيثوه لهم ، ويكون كلام العالم معهم في بيان الأمر الذي جاءوا من أجله . مثل ما إذا جاءوا لعقد نكاح ، يكون كلامه معهم فيما يتعلق بحقوق النساء من الصداق والنفقة والمعاشرة بالمعروف . أو لعقد بيع ، يكون كلامه في صحيح البيوع وآدابها ، وفوائد التجارة النافعة ، واجتناب الفسح والخذاع وهكذا . ولا ينبغي للعالم أن يخوض مع الخائضين ، ولا أن يصرف شيئاً من أوقاته في غير إقامة الدين . وبالسكوت عن التذكير والتعليم ، يغلب الفساد ، ويمع الضرر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٩] (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ، أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

« وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ » أى لا ملائكة

من أهل السماء. ردّ لقول المشركين ^(١) : (لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً). وهذا كقوله ^(٢) تعالى : (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنْهَمُمْ لِيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ). وقوله ^(٣) : (وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ) وقوله ^(٤) : (قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا مِنَ الرُّسُلِ) الآية .

واحتج بقوله تعالى : (إِلَّا رِجَالًا) على أنه لم ينتظم في سلك النبوة امرأة .
والقرى : جمع قرية ، وهى على ما فى (القاموس) : المصر الجامع . وفى (كفاية المتحفظ) : القرية كل مكان اتصلت به الأبنية ، وأخذ قراراً ، وتقع على المدن وغيرها . انتهى .

قال ابن كثير : والمراد بالقرى هنا المدن . أى : لأنهم من أهل البوادرى الذين هم أجنى الناس طباعاً وأخلاقاً . وهذا هو المعبود المعروف : أن أهل المدن أرقّ طباعاً ، وألطف من أهل بوادرهم . وأهل الريف والسواد أقرب حالاً من الذين يسكنون فى البوادرى . ولهذا قال تعالى ^(٥) : (الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا . . .) الآية .

قال قتادة : إنما كانوا من أهل القرى لأنهم أعلم وأحلم من أهل العمور .
وقوله تعالى : « أَفَلَمْ يَسِيرُوا » أى : هؤلاء المكذّبون ، « فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا » أى نظر تفكّر ، « كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ » أى : من الأمم المكذّبة . كقوله تعالى ^(٦) : (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا . . .) الآية فإذا استمعوا خبر ذلك ، رأوا أن الله أهلك الكافرين ، ونجى المؤمنين . وهذه كانت سنته تعالى فى خلقه ، ولهذا قال تعالى : « وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا » أى : الشرك والفواحش ، وآمنوا بالله ورسله وكتبه .

(١) [٤١ / فصلت / ١٤] . (٢) [٢٥ / الفرقان / ٢٠] . (٣) [٢١ / الأنبياء / ٨]

(٤) [٤٦ / الأحقاف / ٩] . (٥) [٩ / التوبة / ٩٧] . (٦) [٢٢ / الحج / ٤٦] .

قال ابن كثير : أى وكما نجيحنا المؤمنين فى الدنيا ، كذلك كتبنا لهم النجاة فى الدار الآخرة ، وهى خير لهم من الدنيا . كقوله تعالى (١) : « إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ » .
« أَفَلَا تَعْقِلُونَ » أى تستعملون عقولكم ، فعملوا أن الآخرة خير . أو تعلموا كيف عاقبة أولئك .

ثم بين تعالى أن العاقبة لرسله ، وأن نصره يأتهم إذا تمادى تكذيبهم ، تثبيتاً لفؤاده عليه الصلاة والسلام ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٠] (حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا

فَنَجِّىَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يَرُدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ)

« حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ » أى : من إجابة قومهم ، « وَظَنُّوا » أى : علموا وتيقنوا . يعنى : الرسل ، « أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا » يقرأ (كُذِّبُوا) بضم الكاف وتشديد الذال . أى : كذبهم قومهم بما جاءوا به ، لطول البلاء عليهم . ويقرأ بضم الكاف وتخفيف الذال . فالضمير فى (ظَنُّوا) - على ما اختاروه - للقوم . أى : ظنوا أن الرسل قد كذبوا . أى : ما وعدوا به من النصر .

وروى عن ابن عباس أن الضمير للرسل . أى : وظنوا حين ضعفوا وغلبوا أنهم قد أخلفوا ما وعدهم الله من النصر ، وقال : كانوا بشرى ، وتلا قوله تعالى (٢) : (وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ) وقد استشكلوه على ابن عباس ، وتأولوا كلامه وجوهاً :

(١) [٤٠ / غافر / ٥١] . (٢) [٢ / البقرة / ٢١٤] .

قال الزخشرى : أراد بالظن ما يخطر بالبال ، ويهيجس في القلب ، من شبه الوسوسة ، وحديث النفس ، على ما عليه البشرية . انتهى .

وقيل : المراد بظنهم عليهم السلام ذلك ، المبالغة في التراخي والإمهال ، على طريق الاستمارة التمثيلية ، بأن شبه المبالغة في التراخي بظن الكذب ، باعتبار استلزام كل منهما ، لعدم ترتب المطلوب ، فاستعمل ما لأحدهما للآخر .

وقال الخطابي : لا شك أن ابن عباس لا يجيز على الرسل أنها تُكذَّبُ بالوحي ، ولا تشك في صدق الخبر ، فيحمل كلامه على أنه أراد أنهم ، لطول البلاء عليهم ، وإبطاء النصر ، وشدة استنجاز ما وعدوا به - توهّموا أن الذي جاءهم من الوحي كان حساباً من أنفسهم ، وظنوا عليها الغلط في تلقى ما ورد عليهم من ذلك ، فيكون الذي بنى له الفعل أنفسهم ، لا الآتى بالوحي . والمراد بـ (الكذب) : الغلط ، لا حقيقة الكذب ، كما يقول القائل : كذبتك نفسك .

قال الحافظ ابن حجر : ويؤيده قراءة مجاهد (وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا) بفتح أوله مع التخفيف أى : غلطوا . ويكون فاعل (وظنوا) الرسل .

وقال أبو نصر القشيري : ولا يبعد أن المراد خطر بقلب الرسل ، فصرفوه عن أنفسهم . أو المعنى : قربوا من الظن ، كما يقال : بلغت المنزل ، إذا قربت منه .

وقال الترمذى الحكيم : وجهه : أن الرسل كانت تخاف بعد أن وعدهم الله النصر ، أن يتخلف النصر ، لا من تهمة بوعده الله ، بل لتهمة النفوس أن تكون قد أحدثت حدثاً ينقض ذلك الشرط ، فكان الأمر إذا طال ، واشتد البلاء عليهم ، دخلهم الظن من هذه الجهة .

وحكى الواحدى عن ابن الأنبارى أنه قال : ما روى عن ابن عباس غير معول عليه ، وأنه ليس من كلامه ، بل تووّل عليه .

قال ابن حجر : وعجب لابن الأنباري في جزمه بأنه لا يصح ثم الزخشي في توقفه عن صحة ذلك عن ابن عباس ، فإنه صح عنه ، أي : فرواه البخاري^(١) في تفسير البقرة بلفظ : ذَهَبَ بِهَا هُنَاكَ ، وأشار إلى السماء ، وزاد الإسماعيلي عنه : كالوا بشرأ ضعفوا وأيسوا وظنوا أنهم قد كذبوا .

وروى البخاري^(٢) أن عائشة كانت تقرأ (كذبوا) مشدودة ، وتقرأها على المعنى الأول ، وأن عروة قال لها : لعلها (كذبوا) مخففة ، فقالت : معاذ الله ! قال الحافظ ابن حجر : وهذا ظاهر في أنها أنكرت القراءة بالتخفيف ، ولعلها لم تبلغها ممن يرجع إليه في ذلك ، وقد قرأها بالتخفيف أئمة الكوفة من القراء : عاصم ويحيى بن وثاب والأعمش وحمة والكسائي . ووافقهم من الحجازيين أبو جعفر بن القعقاع ، وهي قراءة ابن مسعود وابن عباس وأبي عبد الرحمن السلمي والحسن البصري ومحمد بن كعب القرظي في آخرين .

وقوله تعالى : « فَفَجَّيْ مَنْ نَسَّاهُ » وهم الرسل والمؤمنون بهم . وقرئ * (فننجي) بالتخفيف والتشديد . وقرئ * (فنجا) .

« وَلَا يَرُدُّ بَأْسُنَا » أي عذابنا . « عَنْ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ » أي : إذا نزل بهم . وفيه بيان من شاء الله نجاتهم ، لأنه يعلم من المقابلة أنهم من ليسوا بمجرمين . وهم من تقدم .

(١) أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٢ - سورة البقرة ، ٣٨ - باب أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ ، حديث رقم ١٩٧٥ ، عن ابن عباس .

(٢) أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٢ - سورة البقرة ، ٣٨ - باب أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ ، حديث رقم ١٥٩٨ ، عن عائشة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١١] (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ، مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ
وَلَكِن تَصَدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً
لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

« لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ » الضمير ليوسف وإخوته ، أو للأنبياء
وأئمة . ورجح الزخشرى الثانى بقراءة (قِصصهم) بكسر القاف ، جمع قصة . والمفتوح
مصدر بمعنى المفعول . وأجيب بأن قصة يوسف وأبيه وإخوته مشتملة على قصص وأخبار
مختلفة ، وقد يطلق الجمع على الواحد ، كما مرّ في (أَضْفَاثُ أَحْلَامٍ) . وسنذكر وجوه العبر
منها بعونه تعالى .

« مَا كَانَ » أى : القرآن المدلول عليه بما سبق دلالة واضحة « حَدِيثًا يُفْتَرَى » أى :
يختلف . « وَلَكِن تَصَدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ » أى : من الكتب المنزلة ، فهو يصدق ما فيها
من الصحيح ، وينفى ما وقع فيها من تحريف وتبديل وتغيير ، ويحكم عليها بالنسخ أو التقرير .
قال بعض المحققين : المراد به أن قصص القرآن ليست مخترعة ولا مفتراة ، بدليل وجود
أمثالها بين الناس ، قبل نزوله . فهى وإن اختلفت قليلاً فى بعض التفاصيل والجزئيات ، عما
يرويه الناس ، إلا أنها توافقها فى الجملة ، وتصدقها فى الجوهر . فلا تظنوا أيها المشركون أن
النبي اخترعها بعقله ، بل اسألوا عنها أهل الكتاب ، تجدوا أنها معروفة بينهم ، ومروية فى
كتبهم . فوجود قصص القرآن عند الناس من قبل ، من أعظم ما يصدقه ويؤيده ، لأن النبي
صلوات الله عليه ، لم يطلع على كتب أهل الكتاب . ولا يتوهم من هذه الآية أن قصص
القرآن يجب ألا تختلف عن قصص التوراة والإنجيل فى شيء ما ، كلا ! إذ لو صح

هذا لما قال تعالى ^(١) : (إِنَّ هَذَا الْقُرْءَانَ يَقْصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ). فقصصه قد تختلف عما عندهم ، وتبين لهم حقه من باطله . فلا منافاة بين تصديق القرآن لقصصهم في الجملة ، ومخالفته لها في بعض الجزئيات - كما قلنا - ويجوز أن يكون المراد بقوله : « تصديق الذي بين يديه » تصديق الحق الذي عندهم ، لا كل الذي عندهم ، وإلا لدخل في ذلك عقائدهم الفاسدة ، وأوهامهم وخرافاتهم وغيرها ، مما جاء القرآن لإزالته ومحقه ، ويستحيل أن يكون مصدقاً لما جاء لإبطاله . فتنبه لذلك ، ولا تكن من الغافلين . انتهى .

وقوله تعالى . « وَنَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ » أى . تبیان كل ما يحتاج إليه من أحكام الحلال والحرام ، والآداب والأخلاق ، وجوه العبر والعظات . ولذا كان أعظم ما تنقذ به القلوب من الفتن إلى الرشاد ، ومن الضلال إلى السداد ، وتنبهى به الرحمة من رب العباد ، كما قال تعالى : « وَهَدَىٰ » أى : من الضلالة « وَرَحْمَةً » أى : من العذاب « لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » أى يصدقون به ، ويعملون بأوامره ، فإن الإيمان قول وعقد وعمل . وخصهم لأنهم المنتفعون به .

خاتمة في مباحث مهمة

الأول - فيما قيل في وجوه العبر في هذا القصص .

قال في (الباب) : الاعتبار والعبرة : الحالة التي يتوصل بها الإنسان من معرفة المشاهد إلى ما ليس بمشاهد . والمراد منه التأمل والتفكير . ووجه الاعتبار بهذه القصة أن الذي قدر على إخراج يوسف من الحبّ بمسد إلقائه فيه ، وإخراجه من السجن ، وتخليكه مصر بعد العبودية . وجمع شمله بأبيه وإخوته بعد المدة الطويلة ، واليأس من الاجتماع ، قادر على إعزاز محمد ﷺ ، وإعلاء كلمته ، وإظهار دينه . وأن الإخبار بهذه القصة العجيبة جار مجرى الإخبار عن الغيوب ، فكانت معجزة له ﷺ .

وقال بعضهم : إن قصة يوسف الصديق ، حجة الفائدة ؛ وجليلة المائدة ، تحذو بكل امرئ أبي إلى الاقتداء بها . فإن من أطلق سَوَامَ الفكر في حياة يوسف عليه السلام ، رآها رغيدة ، وألفاها هنيئة ، وما ذلك إلا لطيب سيرته ، وحيد سريره ، وتمسكه بمرى التقوى والفضيلة ، ولا سيما فضيلة العفة والطهارة ، التي ترفع قدر صاحبها ، وتنزله المنزلة السامية . فعلى المرء أن يقتفى أثر هذه الفضيلة الجليلة ، كيوسف ، فيتسمن ذروة المجد في هذه الدنيا ، وينال السعادة الدائمة في الآخرة . انتهى .

قال الإمام أبو جعفر بن الزبير : هذه السورة من جملة ما قص على النبي ، صلوات الله عليه ، من أنباء الرسل ، وأخبار من تقدمه ، مما فيه القنبت المشار إليه في قوله تعالى ^(١) : (وَكَلا نَقُصُّ عَلَيْكَ ...) الآية . وإنما أفردت على حديثها ، ولم تنسق على قصص الرسل ، مع أنهم في سورة واحدة ، لمفارقة مضمونها تلك القصص . ألا ترى أن تلك قصص إرسال من تقدم ذكرهم عليهم السلام ، وكيفية تلقى قومهم لهم ، وإهلاك مكذبيهم ؟ أما هذه القصة ، فحاصلها : فرج بعد شدة ، وتعريف بحسن عاقبة الصبر ؛ فإنه تعالى امتحن يعقوب عليه السلام بفقد ابنه وبصره ، وشتات بنيه . وامتحن يوسف عليه السلام بالجلب والبائع وامرأة العزيز وفقد الأب والإخوة والسجن . ثم امتحن جميعهم بشمول الضر ، وفلة ذات اليد ^(٢) (مَسَّنَا وَأَهْلَكْنَا الضَّرَّ ...) الآية . ثم تداركهم الله بالفهم ، وجمع شملهم ، وردّ بصر أبيهم ، وائتلاف قلوبهم ، ورفع ما نزع به الشيطان . و خلاص يوسف عليه السلام ، وبكيد من كاده ، واكتنافه بالمصمة ، وبرأته عند الملك والنسوة . وكل ذلك مما أعقبه جميل الصبر ، وجلالة اليقين ، وحسن تلقى الأقدار بالتفويض والتسليم ، على توالى الامتحان ، وطول المدة . ثم أنجز في أثناء هذه القصة الجليلة إنابة امرأة العزيز ، ورجوعها إلى الحق ، وشمهادتها ليوسف عليه السلام ، بما منحه الله من النزاهة عن كل ما يشين . ثم استخلاص العزيز إياه . إلى

(١) [١١ / هود / ١٢٠] . (٢) [١٢ / يوسف / ٨٨] .

ما انجرت في هذه القصة الجليلة من العجائب والعبر . فقد انفردت هذه القصة بنفسها ، ولم تناسب ما ذكر من قصص نوح وهود وصالح ولوط وشعيب ومومى عليهم السلام ، وما جرى في أممهم ، فلهذا فصلت عنهم . وقد أشار في سورة برأسها إلى عاقبة من صبر ورضى وسلم ليتنبه المؤمنون إلى ما في طي ذلك . وقد صرح لهم ما أجملته هذه السورة من الإشارة في قوله ^(١) تعالى : (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ ...) إلى قوله : (أَمَنَّا) وكانت قصة يوسف عليه السلام بجمالها أشبه شيء بحال المؤمنين في مكابدتهم في أول الأمر ، وهجرهم ، وتشققهم مع قومهم ، وقلة ذات أيديهم ، إلى أن جمع الله شملهم ^(٢) : (وَادْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا) ، وأورثهم الأرض ، وأيدهم ونصرهم . وذلك بجليل إيمانهم ، وعظيم صبرهم ، فهذا ما أوجب تجرد هذه القصة عن تلك القصص - والله أعلم - .

ثم إن حال يعقوب ويوسف عليهما السلام ، في صبرهما ، ورؤية حسن عاقبة الصبر في الدنيا ، ما أعدّ لهما من عظيم الثواب ، أنسب بحال نبينا عليه السلام في مكابدة قريش ، ومفارقة وطنه ، ثم تعقيب ذلك بظفره بعدوه ، وإعزاز دينه ، وإظهار كلفته ، ورجوعه إلى بلده ، على حالة قرّت بها عيون المؤمنين ، وما فتح الله عليه وعلى أصحابه . فتأمل ذلك ! ويوضحه ختم السورة بقوله : (حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ ...) الآية . فحاصل هذا كله الأمر بالصبر ، وحسن عاقبة أولياء الله فيه - كذا في تفسير البرهان للبقاعي ملخصاً - .

وجاء في كتاب (النظام والإسلام) في بحث التربية والآداب في قصص القرآن ما مثاله : طال الأمر على أمتنا ، فأهملت ما في غصون كتابها من أساس التربية والحكمة ، وكيف تنتقى الرجال الأكفاء في مهام الأعمال . يا ليت شمري ! ما الذى أصابها حتى غضت النظر عن القصص التى قصها ، وأهملت أمرها ، وظن أهلها أنها أمور تاريخية لا تفيد إلا

(١) [٢٤ / النور / ٥٥] . (٢) [٣ / آل عمران / ١٠٣] .

المؤرخين . القصص في كل أمة ، عليها مدار ارتقاؤها ، سواء كانت وضعية أم حقيقة ، على ألسنة الحيوان أو الإنسان أو الجماد . على هذا تبحث الأمم ، قديمها وحديثها . وناهيك بكتاب (كليله ودمنة) ، وما والاها من القصص الناصجة على منواله في الإسلام ، ككتاب (فاكهة الخلفاء) ، و (مقامات الحريري) . جاء القرآن بقصص الأنبياء ، وهي - لا جرم - أعلى منالاً ، وأشرف مزية . كيف لا وقد جمعت أحسن الأسلوب ، واختيار المقامات المناسبة لما سيقت إليه ، والقذوة الحسنة للكمّل المخلصين من الأنبياء ومن والاهم ، وتحققها في أنفسهم ، لوقوع مواردنا ، وإن حب التشبه طبيعة مرتكزة في الإنسان ، لا سيما لمن يقتدى بهم . فبهذه خمس مزايا اختصت بها هذه القصص ، ونقصت في سواها . أليس من العيب الفاضح أن نقرأ قصص القرآن ، فلانكاد نفهم إلا حكايات ذهبت مع الزمان ، ومرت كأمس الدابر ؟! ومالنا ولها إذن ؟! تالله إن هذا هو البوار ! ولم يكن هذا إلا للجهل بالمقصود من قصصها ، وأنها عبرة لمن اعتبر ، وتذكرة لمن تفكر ، وتبصرة لمن ازدجر . أما الرجوع إلى التاريخ ، ومقارنته بما قصه المؤرخون في كتبهم ، وماسطره الأقدمون على مباينتهم ، وما يقوله القاصون في خرافتهم ، فذلك سبيل حائد عن الجادة ، يضلّ فيه الماهرون . يرشدك لذلك ما تسمعه من نبأ فتية الكهف ، وكيف يقول ^(١) : (سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَأَيْتُهُمْ كَلْبُهُمْ ، وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ . وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّ أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَمْلِكُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ) . فانظر كيف أسند العلم لله ، ولم يمول على قول المؤرخين المختلفين ثم لم يبين الحقيقة ، لئلا يكون ذريعة للطعن في التنزيل . فإن قال : خمسة ، قالوا : ستة ؛ وإن قال : أربعة ، قالوا سبعة . فكتب المؤرخين كثيرة الاختلاف في القصص ، وما المقصود منها إلا ليكون عبرة . وبالإجمال : فليس القصد من هذه القصص إلا منافعها ، والعبر المبصرة للسامعين (أَقْدَكَ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ) .

(١) [١٨ / الكهف / ٢٢] .

ولسنا ممن يتبجح بالقول بلا بيان ، فلا نعتد إلا على البرهان . تأمل هذا القصص ، تجده لا يذكر إلا ما يناسب الإرشاد والنصح ، ويعرض عن كثير من الوقائع ، إذ لا لزوم لها ، ولا معمول عليها . فلا ترى قصة إلا وفيها توحيد وعلم ومكارم أخلاق ، وحجج عقلية ، وتبصرة وتذكرة ، ومحاورات جميلة تلذذ العقلاء . ولأن قصص من تلك القصص على ما حكاه عن يوسف الصديق عليه السلام ، وكيف جاوز فيها كل ما لا علاقة له بالأخلاق ، من مدنية المصريين وأحوالهم ، إلى الخلاصة والثمره . ألا ترى كيف صدرت بحديث سجد الشمس والقمر والكواكب له في الرؤيا ، دلالة على أن للطفل استعدادا يظهر على ملامحه ، وأقواله وأفعاله ورؤياه؟ وهذا أعظم شيء اعتنى به قدماء الحكماء ، من اليونان والفرس ، كذا كره المؤرخون وعلماء الأخلاق : كانوا يختبرون أبناءهم ، ويتأملون ملامحهم ، ليعرفوا ما استعداد له من الصناعات والرئاسات والعلوم . ثم تأمل في قصة الإخوة ، وحديث التقيص والحب والذنب والدم ، لتعلم ما نشاهده كل يوم من معاداة الأقران لمن ظهرت مبادئ الجمال النفسى ، والخلق المرضى ، والجلال الظاهر على ملامحه . فيعييبونه بما يشينه في نفسه أو عرضه أو خلقه ، دلالة على أن هذه سنة في الكون لا تغادر نبيا ، ولا حكيما ، ولا عالما مهما حسنت أخلاقه ، وجل ظاهره وباطنه . . !

كلّ العداوات قد تُرجى إزالتها إلا عداوة من عاداك من حسد .

جرت تلك السنة في الأناسي : فإذا صبر الصالح فاز بالولاية عليهم ، وأحبوه بعد العداوة ولو بعد حين ، وعادوا من آذاه ! ثم انظر في حديث قصة امرأة العزيز ، وكيف عف مع الشباب ، وكيف ساس نفسه وصدق ظن مولاه في الأمانة ؛ وأرضى إلهه ، واتسم بالفضيلة ، فتوّازى جماله الباطنى والظاهرى . . ! ولنكتف بهذا القدر الآن ، ولنشرع في الكلام على الآداب والأخلاق وتربية الأمراء والعفو والصفتح ، التي تضمنتها تلك القصة !

فأما علم الأخلاق ، وتربية رؤساء الأمم منها ، فتأمل في كلام الحكماء - أولهم وآخرهم -

تجد إجماعهم على أن سياسة أخلاق النفس أولاً فالمنزل فالمدينة ، كل واحدة مقدمة للاحقة
ثمرة لسابقتها ؛ إذ لا يعقل أن يسوس منزله من لم يسس نفسه ، أو يسوس أمته من لم يدبر
إدارة منزله !

بايع الصحابة - عليهم رضوان الله - الخليفة الأول ، فأخذ قاشاً وذراعاً وذهب إلى
السوق في الغداة ، فاستاء الصحابة ولاموه فقال : إذا أضمت أهلي ، فأنا للمسلمين أضجع !
ففرضوا له دريهمات من بيت المال ، فقال : إذن أنظر في شؤونكم ! لذلك ، نجد الغربيين -
إذا ولّوا رجلاً إدارة بلادهم - أكثروا السؤال عن قرينته وإدارة منزله ، علماً منهم أن منزله
أقرب إليه من الأمة .

فانظر هذه الحقائق من سيرة النبي يوسف الصديق كيف ذكرت في الكتب السماوية ،
وربتت في القرآن ترتيباً محكماً ، ذكرت فيها السياسات الثلاث مرتبة هكذا : النفس فالمنزل
فالمدينة ، ترتيباً طبيعياً ، تنبيهاً لبني الإسلام على معرفة هذا العلم وانتقائهم الأكفاء للأعمال
العامة . فأشير فيها لتربية الأخلاق الفاضلة بالمعة في عنقوان الشباب مع الصديق . وليت
شعري ! كيف حفظ أخلاق آبائه وقومه والأنبياء في وسط مدينة المصريين وزخرفهم
وجالهم ، وعبد الله وحده ، ونسى ما يراه من أبي الهول وأيس والأرباب المتفرقة .. ؟
يذكر هذا تبصرة لمن أحاطت بهم أمواج الحداث من كل جانب ، أن يحافظوا على أصول
دينهم وقواعده ، ثم ليفعلوا ما يشاءون في أمور دنياهم . . !

ظهر صدق يوسف في أخلاقه الشخصية ، فلم يكن ذلك كافياً لإدارة أموره العامة ،
فأودع السجن وأحيط بالأحداث والجهلة من كل جانب ، فأخذ يسوسهم كما يسوس الرجل
أهل منزله ، وبث عقيدته بينهم ، ظاهراً بمظهر الكمال والإحسان والعطف عليهم^(١) :
(قَالَ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ ...) الآية . وأخذ يقص عليهم سيرة أسلافه ، وحبّه

(١) [١٢ / يوسف / ٣٧] .

لمذهبهم ، وبفضه لأصنام المصريين ، ونحوم ، فقال^(١) : (إني ترَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ . . .) الآية . ثم أخذ يذكّرهم أن تفرّق وجهة الأمة ضلال في السياسة ، وأن توحيد وجهتها كياسة فيها ، فقال^(٢) : (يَا صَاحِبِي السَّجْنِ أَرَأَيْتَ أُزْجِرُكَ بِمُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ) فتفريق الوجهة شتات الجامعة . لم تُسدّ أمة في الوجود إلّا برجالٍ يوحدون وجهتها أيّاً كانت فيؤمنون مقصداً واحداً ، والتفصيل لا يخفى على أولى الأبواب . . .

وفي (آراء أهل المدينة الفاضلة) للفارابي اثنتا عشرة جامعة بكلّ منهن قوم اتحدت بها : كاللغة ، والوطن ، والدين ، والأخلاق ، والجنس ، والحكيم المرشد ، والأب الأكبر . ونحو ذلك مما امتازت به أمة أو جماعة .

ولما تمّ له ، عليه السلام ، الأمران - سياسة النفس والمشيرة - أخرج من السجن معظماً مبعجلاً وترقى من تعليم الصعلوك في السجن إلى تعليم الملوك على العروش ، وأخذ يربهم كيف يقتصدون الأموال ، وعبر لهم السبلات الخضر واليابسات والبقرات السماء والعجاف ، وأرشدهم إلى خزن البروسنابله لئلا يفسد ، وغير ذلك من الأمور العامة . وهذه هي المرتبة الثالثة سياسة الأمة بأجمعها بعد قطع تينك العقبتين .

والبراعة والكمياسة في علوم العمران ، وتدبير أمر الأمة ، إمّا بوحى وهذا خاصٌّ به وبأمثاله من الأنبياء عليهم السلام ، وإمّا بتعليم وتدريب وهو اللائق بسائر الناس .

ترشد هذه السيرة الشريفة إلى أن الأخلاق الفاضلة ما تثبت عليها النفس مع الحقيق والعظيم والصغير والكبير ، وأن الإنسان لا يستحقّر تعليم الأصاغر ، فإنه لا بدّ يوماً ما أن يصل إلى الأكبر ، كما في حديث^(٣) هرقل مع أبي سفيان ، وتعليم الصديق من في السجن . فبلغ صاحب السجن فرعون المصريين .

(١) [١٢ / يوسف / ٣٧] . (٢) [١٢ / يوسف / ٣٩] .

(٣) أخرجه البخاري في : ١ - كتاب الوحي ، ٦ - باب حدثنا أبو اليمان الحكم بن

نافع ، حديث رقم ٧ ، عن أبي سفيان بن حرب .

ابتلى هذا النبيّ بالسراء والضراء فلم تتغير أخلاقه ، وكان نموذج الكمال في سمة بيت الملك والجلال ، وموضع الثقة في ضيق قبر السجن وعشرة الأسافل التي تتغير بها الأخلاق ، وتنسى بها أصول الأعراق ، وتنزل الكامل من عروش الفضيلة إلى أسفل مقاعد الرذيلة ، ومن أوج الكمال إلى حضيض النقص !

وهذه قصة يوسف - الذي تربى في مصر ونشأ فيها ولم تهجه زخارف تلك المدنية إلى الرذيلة - جاءت عبرة للناس كافة وإلى المصريين خاصة ! بهذه الأخلاق اعلى يوسف عرش العظمة والجلال فساس مصر بعد أن كان مسوساً ، وملك بعد أن كان مملوكاً ليس الجزاء على الأخلاق والكمال خاصاً بالآخرة ، بل في الدارين ^(١) : (وَكَذَلِكَ مَسَكْنَا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * وَلَا أَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ) .

هذه هي الأخلاق الفاضلة ، ذكرت في التزويل نموذجاً ، في غضون هذه السيرة ، للأمم الإسلامية ليأخذوا ثمرتها ولا يضيعوا الزمن في أصلها وموردها في التاريخ كما يجمع المفسر على الإعراب أو الصرف أو البلاغة . وهذا غييض من فيض من حكم هذه القصة ، وبها نفهم ما ذكر في أولها ^(٢) (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذِهِ الْقُرْآنَ) دع قول الجاهلين ، وفهم المتنسكين ، وتجاوز خلط المؤرخين ، واختلافهم ، واصنع إلى ما في هذه القصة من هيئة تربية الحكام والأمراء ، كما أشرنا سابقاً ، ولتزدك بياناً !

قال علماء الأخلاق والحكام : لا ينظم أمر الأمة إلا بمصلحين ، ورجال أعمال قائمين ، وفضلاء مرشدين هادين ، لهم شروط معلومة ، وأخلاق مهودة ؛ فإن كان القائم بالأعمال نبيّاً فله أربعون خصلة ذكرها . كلها آداب وفضائل بها يسوس أمته . وإن كان رئيساً فاضلاً

(١) [١٢ / يوسف / ٥٦ و ٥٧] . (٢) [١٢ / يوسف / ٣] .

لمدينة فاضلة ، اكتفوا من الشروط الأربعين ببعضها . وسيدنا يوسف عليه السلام حاز من كمال المرسلين وجمال النبيين . ولقد جاء في سيرته هذه ما يتخذة عقلاء الأمم هدىً لاختيار الأكفاء في مهام الأعمال ، إذ قد حاز الملك والنبوة ! ونحن لا قبل لنا بالنبوة لانتقطاعها ، وإنما نذكر ما يليق بمقام رئاسة المدينة الفاضلة ، ولنذكر منها ثلاث عشرة خصلة هي أهم خصال رئيس المدينة الفاضلة لتسكون ذكرى لمن يتفكر في القرآن ، وتنبهياً للمتعلمين - العاشقين للفضائل - على تفاسير الكتاب العظيم ، وحباً في نظرهم في القرآن ، وليلعلوا أن تلك القصص وقد أودعت ما لم يكن ليخطر على بال من ستمه للتغنى به وبجرّد اللهو واللعب !
أهم ما شرطه الحكماء في رئيس المدينة الفاضلة :

١ - العفة عن الشهوات ، ليضبط نفسه وتتوافر قوته النفسية (كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ، إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ)^(١) .

٢ - الحلم عند الغضب ، ليضبط نفسه (قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ ، فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ)^(٢) .

٣ - وضع اللين في موضعه ، والشدّة في موضعها (وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ أَتُمْنُونِ بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَنْبِيَائِكُمْ ، أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنْتُمْ تُخَيَّرُونَ الْمُنْزِلِينَ * فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ)^(٣) ، والصدر للين والمعجز للشدّة .

٤ - ثقته بنفسه (اجْمَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ)^(٤) .

٥ - قوة الذاكرة ليمكنه تذكر ما غاب ومضى له سنون ، ليضبط السياسات ويعرف للناس أعمالهم (وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَمَرَقَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ)^(٥) .

(١) [١٢ / يوسف / ٢٤] . (٢) [١٢ / يوسف / ٧٧] .

(٣) [١٢ / يوسف / ٦٠ و ٥٩] . (٤) [١٢ / يوسف / ٥٥] .

(٥) [١٢ / يوسف / ٥٨] .

٦ - جودة المصورة والقوة الخييلة حتى تأتى بالأشياء تامة الوضوح (إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ)^(١) .

٧ - استمداده للعلم ، وحبّه له ، وتمكّنه منه (وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ، مَا كَانَ لَنَا أَنْ نَشْرِكَ بِاللّهِ مِنْ شَيْءٍ ، ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ)^(٢) ، (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ، وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)^(٣) ، (رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ)^(٤) .

٨ - شفقتّه على الضمفاء وتواضعه مع جلال قدره وعلوّ منصبه . نغاطب الفتيين المسجونين بالتواضع فقال : (يَا صَاحِبِي السَّجُنِ ...)^(٥) الآية ، وحادثهما في أمور دينهما ودنياهما ، فالأول بقوله : (لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ)^(٦) ، والثاني بقوله : (إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ ...)^(٧) الآية ، وشهدا له بقولها : (إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ)^(٨) .

٩ - العفو مع القدرة (قَالَ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ، يَقْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ، وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)^(٩) .

١٠ - إكرام العشيرة (وَاتَّقُونِي يَا أَهْلَ كُمْ أَجْمَعِينَ)^(١٠) .

١١ - قوة البيان والفصاحة بتعبيره رؤيا الملك ، واقتداره على الأخذ بأفئدة الراعى

- (١) [١٢ / يوسف / ٤] . (٢) [١٢ / يوسف / ٣٨] .
 (٣) [١٢ / يوسف / ٢٢] . (٤) [١٢ / يوسف / ١٠١] .
 (٥) [١٢ / يوسف / ٣٩] . (٦) [١٢ / يوسف / ٣٧] .
 (٧) [١٢ / يوسف / ٣٧] . (٨) [١٢ / يوسف / ٣٦] .
 (٩) [١٢ / يوسف / ٩٢] . (١٠) [١٢ / يوسف / ٩٣] .

والرعية والسوقة ، ما كان هذا إلا بالفصاحة المبنية على العلم والحكمة (فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ)^(١) .

١٢ - حسن التدبير (فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ ...)^(٢) الآية .

ثم تأمل في اقتدار يوسف عليه السلام على سياسة الملك ، وكيف اجتذب إليه القلوب بالإحسان (وَقَالَ لِفَتِيَائِهِ اجْمَعُوا بِضَاعَتَهُمْ ...)^(٣) الآية ، ودبر الحيلة العجيبة بمسألة الصواع والالتهام بالسرقة ليضم أخاه إليه (فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ ...)^(٤) الآية ، وعامل المحكومين بشرعهم ودينهم وملتهم وعاداتهم ، كما عليه جميع الأمم الشرقية الحية من الرفق بالأمة المحكومة لهم ، فيسوسونهم بدينهم وعاداتهم وشرعهم وأخلاقهم وأموالهم اتباعا لما رسمته الشريعة الغراء مما يناسب حكم سيدنا يوسف عليه السلام ، وذلك أنه أمر أتباعه أن يسألوهم (قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ)^(٥) الآية ، فكانت شريعة بنى يعقوب أن يستعبدوا السارق سنة عند صاحب المتاع ، فعاملهم بما هم عليه ، ولذلك يقول الله تعالى : (مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ، نَزَعَ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءَ ، وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ)^(٦) ، امتدح على حسن خطته في السياسة ومراعاته عادة أولئك القوم . وهذه - وإن كانت مسألة بسيطة الظاهر - فهي أم السياسة ورأس علوم العمران ، وأول ما يوصى به السواس والمقلد !

تالله ! ما أجمل القرآن وما أبهج العلم ! وليت شعري كيف يقول الله بمدها (نَزَعَ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءَ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ)^(٧) ولولا ما فيها من مبدأ شريف وحكم عالية مع

(١) [١٢ / يوسف / ٥٤] . (٢) [١٢ / يوسف / ٤٧] .

(٣) [١٢ / يوسف / ٦٢] . (٤) [١٢ / يوسف / ٧٦] .

(٥) [١٢ / يوسف / ٧٤] . (٦) [١٢ / يوسف / ٧٦] .

(٧) [١٢ / يوسف / ٧٦] .

وضوحها وبساطتها لذوى النظر السطحيّ والبُله الغفْل ، بما أعطاه هذا الجلال والإعظام ومدح العلم ! فحيا الله العلم وأدام دولته . !

ومن العجيب الغريب تدير هذه الحيلة بإخفاء الصواع ، ثم نظر أمتعتهم جميعاً (فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ)^(١) . وهذه - وإيم الله - هي بعينها ما يصنعه ملوك الأرض قاطبة اليوم من السياسات والتلطف في الأمور الخفية ، وإلباسها لبسة مختلفة لسياسة بلادهم ، وطلباً لحصول المقاصد النافعة ، ودخولاً للبيوت من أبوابها ؛ ولكن بينهم وبين هذا النبيّ بون بعيد . . . ! فانظر كيف تمطى هذه القصة - هذه الأمور العجيبة !

لعمري ! إن من طالع ما أمليناه بإمعان عن هذه القصة يتخيل عند تلاوتها أنه مشاهد أعمال الأمم الحاضرة والغابرة ! وكأنما طالع آراء أهل المدينة الفاضلة ، وعرف الحكماء وسواس الأمم ، وشاهد جمال العلم والأدب والحكمة والوعظة الحسنة ، حتى يعلم علم اليقين كيف قال الله في أول السورة (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ)^(٢) ، ويقول في آخرها : (ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ)^(٣) ويقول : (قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ)^(٤) ثم ذكر أن الإنسان لا ينبغي له أن ييأس من روح الله فقال : (حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ . . .)^(٥) الآية . ثم أفاد أن المقصود هو العبر والنظر لتأثير القصص ونمراتها ، لا مجرد تفسيرها ؛ إذ مجرد التفسير أمر بسيط يقنع به البسطاء . وإنما المقصد هو الاتعاظ والاعتبار فقال : (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ، مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ . . .)^(٦) الآية . وهذه ترشدك - إن كنت من ذوى الهمة العالية - أن

(١) [١٢ / يوسف / ٧٦] . (٢) [١٢ / يوسف / ٣] .

(٣) [١٢ / يوسف / ١٠٢] . (٤) [١٢ / يوسف / ١٠٨] .

(٥) [١٢ / يوسف / ١١٠] . (٦) [١٢ / يوسف / ١١١] .

تصبر نفسك مع الذين يتعلمون أمدا طويلا ، ولا تمجل بالرأسه حتى يبلغ الكتاب أجله ،
وتنال حظاً وافراً من الأخلاق والعلوم . فلا بأس بالوظائف ونفع الأمة مع دوام المثابرة على
العلم والاستزادة منه ! فلقد صبر هذا النبي عليه السلام أياماً وأياماً ، وليس للحوادث أنواباً
وأنواباً ، حتى إذا غلب اليأس جاء الفرج والرفعة !

فتأمل ! كيف كانت هذه السورة يقرؤها القارئون ، ويسمعها الجاهلون وهم عن آياتها
معرضون ! فإذا سمعوا صوتاً حسناً ظنوا أن هذا هو جمال القرآن ، فقالوا للقارى : سبحان
من أعطاك ! وفرحوا بما عندهم من العلم بظواهر وروني القراءة ، أو مجرد التفسير ومعرفة
القصة ، ولم ينظروا إلى الحكم الودعة فيها ! فقبح الجهل . ! يترك الرجل أعمى وإن لبس
الخلل وارتدى ثياب الفخار الكاذب والسراب الخداع . . كم للإنسان من آيات وعبر في
السموات والأرض فيعرض عنها ! خلقت لنا الأبصار والأسماع والعقول لننظر ماذا في
السموات والأرض مما ذرأ المبدع في الكون ، وتلا القرآن - وهو كلام مبدع الكون
- وتلطف في تصوير المعاني ، وألبسها أجمل لباس ، فأعرض العقلاء فضلاً عن العامة ! فما
لل العامة لا يتعلمون ؟ وما لذوى البصائر لا ينصحون ولا يبينون ؟ وما للناس لا يكادون
يفقهون . ؟

ذكرنا نموذجاً عن هذه السورة استنشاقاً لهم العقلاء ، وحثاً لمن لهم ذكاء وفطن وعقول
راجحة - على الرجوع إلى كتابهم ونظرم فيه ، وإزالة لشبه من ارتاب في هذه القصص
فأعرض ! وجلى أن قصص القرآن جميعها مملوءة بالحكم كهذه القصة ، وفي كل واحدة منها
ما ليس في الأخرى كأنها ثمرات مختلف لونها ! أين من يفقه هذا ممن يقف مع ألفاظها وهم
عن آياتها معرضون ؟ ولا عجب فإن نفوس الأسافل تأخذ الحكمة فترجمها من أفق سمائها
إلى أرض ضعتها ، كما يصير الماء في شجرة الحنظل مرّاً . فيقصدها هذا للنفات ، وذلك لقصة
بسيطة ، وآخر تسلية وتضييماً للزمن ، وآخر يقف عند الألفاظ وإعراؤها وصرفها وبلاغتها ،

ولكن هذا أرق مما قبله - فقد سار في الطريق وهي الألفاظ ، ولكن هيهات أن يصل للمقصود والثمرات إلا إذا أعدت تلك القواعد مقدمة للمقصود وبحث فيه ! وآخرون يسمعون الآيات فيمروضونها على التاريخ ، والمؤرخون مختلفون كما قدمنا . وما مثل هؤلاء في سيرهم إلا كمثل رجل أوتي آلة بخارية ليسقى بها الحث من النهر ، فجلس بجانبها وترك استعملها وأخذ يتفكر : من أين هذا الحديد؟ ولم يجلب الماء ؟ وإلى أي مسافة يرتفع ، وما العلة فيه ، ومن أين يأتي الفحم الحجري ، وفي أي الطرق يسير إلى أن يصل إلينا ؟ . فيمر عليه شهر وشهران فيذبل زرعه وتبور أرضه . ! ذلك مثل من يقرأ القرآن ويجعل جل عنايته تطبيقه على كلام المؤرخين أو قواعد النحويين أو الصرفيين وعلماء البلاغة فحسب ! اللهم إلا قدرا يسيراً للفهم ! وهذا - لعمر الله - انعكاس على الرأس ، واتخاذ الوسيلة مقصدا ، كمثل من أراد الحج فجعل همته إعداد الذخائر سنين فاخطفته النون وفارق الحياة ولم يحج ! ذلك مثلهم . !! انتهى .

البحث الثاني

احتج من جوز المعصية على الأنبياء - وهم الكرامة والباقلاني - بما جرى من إخوة يوسف ويومئذهم أخاهم وكذبهم لأبيهم ، وبما وقع من يوسف نفسه من أخذه أخاه وإيحاشه أباه .

قال الإمام أبو محمد بن حزم رحمه الله في (الملل والنحل) :

ما احتجوا به لا حجة فيه : لأن إخوة يوسف ، عليه السلام ، لم يكونوا أنبياء ؛ ولا جاء قط - في أنهم أنبياء - نص لا من قرآن ، ولا من سنة صحيحة ، ولا من إجماع ، ولا من قول أحد من الصحابة رضي الله عنهم ! فأما يوسف عليه السلام فرسول الله بنص القرآن ، قال عز وجل ^(١) : (وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ)

(١) [٤٠ / غافر / ٣٤] .

به . . إلى قوله - مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا) وأما إخوته فأفعالهم تشهد بأنهم لم يكونوا متورعين عن العظائم ، فكيف أن يكونوا أنبياء ! ولكن الرسولين - أباهم وأخاهم - قد استغفرا لهم وأسقطا القريب عنهم !

وبرهان ما ذكرنا - من كذب من يزعم أنهم كانوا أنبياء - قول الله تعالى حاكيا عن الرسول أخيهم أنه قال لهم : (أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا)^(١) ولا يجوز البتة أن يقوله لنبي من الأنبياء ؛ نعم ، ولا لقوم صالحين ؛ إذ توقيف الأنبياء فرض على جميع الناس ، لأن الصالحين ليسوا شرًا مكانًا ! وقد عاق ابن نوح أباه بأكثر مما عاق به إخوة يوسف أباهم ، إلا أن إخوة يوسف لم يكفروا . ولا يحل لمسلم أن يدخل في الأنبياء مَنْ لم يأت نص ولا إجماع أو نقل كافة بصحة نبوته ! ولا فرق بين التصديق بنبوة من ليس نبيًا ، وبين التكذيب بنبوة من صحت نبوته منهم ! فإن ذكروا في ذلك ما روى عن بعض الصحابة رضى الله عنهم وهو زيد بن أرقم : (إنما مات إبراهيم بن رسول الله ﷺ لأنه لا نبي بعد رسول الله ﷺ ، وأولاد الأنبياء أنبياء !) فهذه غفلة شديدة وزلة عالم ، من وجوه :

أولها : أنه دعوى لا دليل على صحتها !

وثانيها - أنه لو كان ما ذكره لا يمكن أن ينبأ إبراهيم في المهد كما نبي عيسى عليه السلام ، وكما أوتى يحيى الحكم صبيًا ؛ فعلى هذا القول لمل إبراهيم كان نبيًا وقد عاش عامين غير شهرين ، وحاشا لله من هذا !..

وثالثها : أن ولد نوح كان كافرًا بنص القرآن : عمل عملاً غير صالح . فلو كان أولاد الأنبياء أنبياء لكان هذا الكافر المسخوط عليه نبيًا ، وحاشا لله من هذا !..

ورابعها : لو كان ذلك ، لوجب ولا بد أن تكون اليهود كلهم أنبياء إلى اليوم ، بل جميع أهل الأرض أنبياء ، لأنه يلزم أن يكون الكل من ولد آدم لصلبه أنبياء ، لأن

(١) [١٢ / يوسف / ٧٧] .

أباهم نبيّ ، وأولاد أولادهم أنبياء أيضاً لأن آباءهم أنبياء وهم أولاد أنبياء ، وهكذا . . . أبداً حتى يبلغ الأمر إلينا ! وفي هذا من الكفر لمن قامت عليه الحجة وثبت عليه - مالا خفاء به .
وبالله تعالى التوفيق . . . !

ثم قال ابن حزم .

وذكروا - يعنى الكرامةية ومن وافقهم - أيضاً أخذ يوسف عليه السلام أخاه ، وإيخاشه أباه عليه السلام منه ، وأنه أقام مدة يقدر فيها على أن يعرف أباه خبره وهو يعلم ما يقامى به من الوجد عليه ، فلم يفعل وليس بينه وبينه إلا عشر ليال ! وبإدخاله صواع المالك في وعاء أخيه ولم يعلم بذلك سائر إخوته ، ثم أمر من هتف ^(١) (أَيَّتُهَا الْعَيْرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ) وهم لم يسرقوا شيئاً ، ويقول الله تعالى ^(٢) (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ، وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ) ؛ وبخدمته لفرعون ، وبقوله للذى كان معه في السجن ^(٣) (إِذْ كُنْتُ فِي السِّجْنِ) قال ابن حزم : وكل هذا لا حجة لهم في شيء منه ، ونحن نبين ذلك بحول الله تعالى وقوته ، فنقول وبالله تعالى نتأيد : أما أخذه أخاه وإيخاشه أباه منه فلا شك في أن ذلك ليرفق بأخيه وليعود إخوته إليه ، ولعلمهم لو مضوا بأخيه لم يعودوا إليه وهم في مملكة أخرى ، وحيث لا طاعة ليوسف عليه السلام ولا لملك مصر هنالك ، وليكون ذلك سبباً لاجتماعه وجمع شمل جميعهم ! ولا سبب إلى أن يظن برسول الله يوسف عليه السلام الذى أوتي العلم والمعرفة بالتأويل - إلا أحسن الوجوه . وليس مع من خالفنا نصّاً بخلاف ما ذكرنا . ولا يحل أن يظن بمسلمٍ فاضل عقوق أبيه ، فكيف برسول الله صلوات الله عليه ؛ وأما ظنهم - أنه أقام مدة يقدر فيها على تعريف أبيه خبره ولم يفعل - فهذا جهل شديد ممن ظن هذا لأن يعقوب في أرض كنعان من عمل فلسطين ، في قوم رحّالين خصاصين في لسان

(١) [١٢ / يوسف / ٧٠] . (٢) [١٢ / يوسف / ٢٤] .

(٣) [١٢ / يوسف / ٤٢] .

آخر وطاعة أخرى ودين آخر وأمة أخرى ! فلم يكن عند يوسف عليه السلام ، علم بمد فراقه أباه بما فعل ، ولا حتى هو أو ميت ، أكثر من وعد الله تعالى بأن ينبتهم بفعلهم به ، ولا وجد أحداً يثق به ، فيرسل إليه ، للاختلاف الذى ذكرنا . وإنما يستسهل هذا اليوم من يرى أرض الشام ومصر لأمير واحد وملة واحدة ، ولسانا واحداً وأمة واحدة ، والطريق سابل ، والتجار ذاهبون وراجعون ، والرفاق سائرة ومقبلة ، والبرود ناهضة وراجعة ، فظن كل ييضاء شحمة^(١) ولم يكن الأمر حينئذٍ كذلك ، ولكن كإقدامنا ! ودليل ذلك أنه حين أمكنه لم يؤخره ، واستجلب أباه وأهله أجمعين عند ضرورة الناس إليه ، وانقيادهم له للجوع الذى كان عم الأرض ، وامتيازهم عنده ، فانظر وعد ربّه تعالى الذى وعده حين ألقوه فى الحبّ فاتوه ضارعين راغبين كما وعده تعالى فى رؤياه قبل أن يأتوه ! وأما قول يوسف لإخوته « إِنَّكُمْ كَسَارُ قُورِنَ » وهم لم يسرقوا الصواع ، بل هو الذى كان قد أدخله فى وعاء أخيه دونهم ، فقد صدق عليه السلام لأنهم سرقوه من أبيه وباعوه ، ولم يقل عليه السلام : إنكم سرقتم الصواع ، وإنما قال^(٢) : (نَفَقِدُ صُوعَ الْمَلِكِ) وهو فى ذلك صادق لأنه كان غير واجد له فكان فاقداً له بلا شك ! وأما خدمته عليه السلام لفرعون فإنما خدمه تقية وفى حقّ الاستنقاذ الله تعالى بحسن تدييره ، ولعل الملك أو بعض خواصّه قد آمن به إلا أن خدمته له على كل حال حسنة وفعل خير ، وتوصل إلى الاجتماع بأبيه وإلى المدل وإلى حياة النفوس ؛ إذ لم يقدر على المغالبة ولا أمكنه غير ذلك ، ولا مربة فى أن ذلك كان مباحاً فى شريعة يوسف عليه السلام بخلاف شريعتنا ، قال الله تعالى^(٣) : (لِكُلِّ جَمَلًا مِّنْكُمْ شِرْعَةٌ وَمِنْهَا جَا) . وأما سجود أبويه فلم يكن ذلك محظوراً فى شريعتهم بل كان فعلاً حسناً ، وتحقيق رؤياه الصادق من الله تعالى . ولعل ذلك السجود

(١) أصل المثل (ما كلّ ييضاء شحمةً ، ولا كل سوداء تمرّة) انظر : أمثال الميدانى ،

بالصفحة ١٥٦ من الجزء الثانى (المطبعة الخيرية عام ١٣١٠ هـ)

(٢) [١٢ / يوسف / ٧٢] . [٥ / المائدة / ٤٨] .

كان تحية كسجود الملائكة لآدم عليه السلام . إلا أن الذى لا شك فيه أنه لم يكن سجد عبادة ولا تذلل وإنما كان سجد كرامة فقط بلا شك ! وأما قوله عليه السلام للذى كان معه فى السجن ^(١) (اذْ كَرَّيْنِي عِنْدَ رَبِّكَ) فما علمنا الرغبة فى الانطلاق من السجن محظورة على أحد ! وليس فى قوله ذلك دليل على أنه أغفل الدعاء إلى الله عز وجل . لكنه رغب هذا الذى كان معه فى السجن فى فعل الخير وحضه عليه ! وهذا فرض من وجهين : أحدهما وجوب السعى فى كف الظلم عنه ، والثانى : دعاؤه إلى الخير والحسنات . وأما قوله تعالى ^(٢) (فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ) فالضمير الذى فى (أنساه) وهو الهاء راجع إلى الفتى الذى كان معه فى السجن ، أى : أن الشيطان أنساه أن يذكر ربه أمر يوسف عليه السلام ؛ ويحتمل أيضاً أن يكون أنساه الشيطان ذكر الله تعالى ، ولو ذكر الله عز وجل لذكر حاجة يوسف عليه السلام ، وبرهان ذلك قول الله عز وجل ^(٣) (وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ) فصحّ يقيناً أن المذكر بعد أمة هو الذى أنساه الشيطان ذكر ربه حتى تذكر . وحتى لو صحّ أن الضمير من (أنساه) راجع إلى يوسف عليه السلام لما كان فى ذلك نقص ولا ذنب . إذ ما كان بالنسيان فلا يبعد عن الأنبياء أوأما قوله ^(٤) (هَمَّتْ بِهِ ، وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ) فليس كما ظن من لم يعمّن النظر حتى قال من المتأخرين من قال : (إنه قعد منها مقعد الرجل من المرأة) ومعاذ الله من هذا أن يظنّ رجل من صالحى المسلمين أو مستورهم ! فكيف برسول الله ﷺ !! فإن قيل : إن هذا قد روى عن ابن عباس رضى الله عنه من طريق جيدة الإسناد ؛ قلنا : نعم ! ولا حجة فى قول أحدٍ إلا فيما صحّ عن رسول الله ﷺ فقط ! والوهم فى تلك الرواية إنما هى بلا شك عمن دون ابن عباس ، أو لعلّ ابن عباس لم يقطع بذلك ؛ إذ إنّما أخذه عن لا يدري من هو ، ولا شك فى أنه شىء سمعه فذكره ؛ لأنه رضى الله عنه لم يحضر ذلك ولا ذكره عن رسول الله ، ومحال أن يقطع ابن عباس بما لا علم له به ! لكن معنى الآية لا يمدو أحد وجهين : إمّا أنه همّ بالإيقاع بها وضربها :

(١) [١٢ / يوسف / ٤٢] . (٢) [١٢ / يوسف / ٤٢] .

(٣) [١٢ / يوسف / ٤٥] . (٤) [٢٢ / يوسف / ٢٤] .

كما قال تعالى^(١) (وَكَمْتَ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ) وكما يقول القائل : لقد همت بك ، لكنه عليه السلام امتنع من ذلك ببرهان أراه الله إياه استغنى به عن ضربها . وعلم أن الفرار أجدى عليه وأظهر لبراءته ، على ما ظهر بعد ذلك من حكم الشاهد بأمر قد القميص . والوجه الثانى : أن الكلام تمّ عند قوله (وَلَقَدْ كَمْتَ بِهِ) ثم ابتدأ تعالى خبراً آخر فقال (وَهُمْ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ) وهذا ظاهر الآية بلا تكلف تأويل . وبهذا نقول . وبرهان ربه هاهنا هو النبوة وعصمة الله عز وجلّ إياه . ولولا البرهان لكان يهيم بالفاحشة ، وهذا لاشك فيه ! ولعلّ من ينسب هذا إلى النبيّ المقدس يوسف ، يزه نفسه الرذلة عن مثل هذا المقام فيهلك . وقد خشى النبيّ ﷺ الهلاك على من ظن به ذلك الظن ، إذ قال للأتصاريين حين لقيهما : هذه صفة^(٢) ! ومن الباطل الممتنع أن يظن ظان أن يوسف عليه السلام همّ بالزنى وهو يسمع قول الله تعالى^(٣) (كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ الشُّوْءَ وَالْفَحْشَاءَ) ! فنسأل من خلفنا عن الهمّ بالزنى : سوء هو أم غير سوء ؟ فلا بدّ أنه سوء ، ولو قال : إنه ليس بسوء لعاند الإجماع . فإذا هو سوء ، وقد صرف عنه سوء ، فقد صرف عنه الهمّ بيقين ! وأيضاً فإنها قالت^(٤) (مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا) وأنكر هو ذلك فشهد الصادق المصدق^(٥) (إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ) فصحّ أنها كذبت بنص القرآن ، وإذا كذبت بنص القرآن فما أراد بها قط سوءاً ، فما همّ بالزنى قط . ولو أراد بها الزنى لكانت من الصادقين ، وهذا بيّن جدّاً ! وكذلك قوله تعالى عنه أنه قال^(٦) (وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ . فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ) فصحّ عنه أنه قط لم يصب إليها .

انتهى كلام ابن حزم عليه الرحمة والرضوان . وإنما نقلت كلامه برقمته لأنه كما قيل :

(وما محاسن شيء كلّها حسن .. ١١)

(١) [٤٠ / غافر / ٥] . (٢) أخرجه البخارى في : ٣٣ - كتاب الاعتكاف ، ٨ -

باب هل يخرج المعتكف لحوائجه إلى باب المسجد ، حديث ١٠٣١ . (٣) [١٢ / يوسف / ٢٤] .

(٤) [١٢ / يوسف / ٣٥] . (٥) [١٢ / يوسف / ٢٦] . (٦) [١٢ / يوسف / ٣٣] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٣ - سُورَةُ الرَّعْدِ

سميت به لما فيها من قوله عز وجل^(١) (وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ) الدال على الصفات السالبة والثبوتية ، مع الإخبار عن الأمور الملكوتية ، ومع كون الرعد جامعاً للتخويف والترجية ، وهذه من أعظم مقاصد القرآن - قاله المهايمى .

وللسلف رأيان فى أنها مكية أو مدنية ؛ ويقال : إنها مدنية إلا قوله^(٢) (وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا . . .) الآية . ويقال : من أولها إلى آخر^(٣) (وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا) مدنى وباقيها مكى . والله أعلم .

وآيها ثلاث وأربعون .



(١) [١٣ / الرعد / ١٣] . (٢) [١٣ / الرعد / ٣١] . (٣) [١٣ / الرعد / ٣١] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (الْمَرَّ، تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ، وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ)

قال أبو السعود : « الْمَرَّ » اسم للسورة ، ومجمله : إما الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف ، أى : هذه السورة مسماة بهذا الاسم ، وهو أظهر من الرفع على الابتداء ، إذ لم يسبق العلم بالتسمية . وقوله تعالى « تِلْكَ » على الوجه الأول ، مبتدأ مستقل ، وعلى الوجه الثانى ، مبتدأ ثانٍ ، أو بدل من الأول أشير به إليه إيذاناً بفخامته . وإما النصب بتقدير فعل يناسب المقام نحو : اقرأ أو اذكر ، فهـ (تلك) مبتدأ كما إذا جعل (المر) مسروداً على نمط التعميد ، والخبر على التقادير ، قوله تعالى « آيَاتُ الْكِتَابِ » أى : الكتاب المجيب الكامل الغنى عن الوصف به المعروف بذلك من بين الكتب ، الحقيق باختصاص اسم الكتاب به . فهو عبارة عن جميع القرآن ، أو عن الجميع المنزل حينئذ . وقوله تعالى « وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ » أى : من الكتاب المذكور بكلامه « الْحَقُّ » أى : الثابت المطابق للواقع فى كل ما نطق به ، الحقيق بأن يخص به الحقيقة لمرافقه فيها ، وقصور غيره عن مرتبة الكمال فيها . وفى التعبير عنه بالموصول ، وإسناد الإنزال إليه بصيغة المبنى للمفعول ، والتعرّض لوصف الربوبية مضافاً إلى ضميره عليه السلام ، من الدلالة على فخامة المنزل التابعة لشأن جلالة المنزل وتشريف المنزل إليه ، والإيحاء إلى وجه الخبر - ما لا يخفى . . ! انتهى ملخصاً بزيادة .

لطيفة :

في (الَّذِي أُنْزِلَ) وجهان : أحدهما هو في موضع رفع ، و (الْحَقُّ) خبره ، أو الخبر (مِنْ رَبِّكَ) و (الْحَقُّ) خبرٌ محذوف ، أو خبر بعد خبر . وثانيهما محله الجر بالمطف على (الْكِتَابِ) عطف العام على الخاص أو إحدى الصفتين على الأخرى . أو بتقدير زيادة الواو في الصفة ، و (الْحَقُّ) خبرٌ محذوف ، ومنع كثير من النحاة زيادة الواو في الصفات . وآخرون على جوازها لتأكيد اللصوق ، أي الجمع والاتصال . لأنها كما تجمع المطفوف بالمطفوف عليه ، كذلك تجمع الموصوف بالصفة ، وتفيد أن اتصافه به أمر ثابت . وقوله تعالى « وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ » أي : بذلك الحق لرفضهم التدبر فيه شقاقاً وعناداً . وهذا كقوله تعالى ^(١) (وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢] (اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ، ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ، وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ، يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ)

يخبر تعالى عن كمال قدرته وعظيم سلطانه أنه الذي بقدرته رفع السموات ، أي خلقهن مرتفعات عن الأرض ارتفاعاً لا ينال ولا يدرك مداه ! وقوله تعالى « بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا » أي أساطين . جمع عماد أو عمود . وقوله تعالى « تَرَوْنَهَا » إما استئناف للاستشهاد برؤيتهم السموات كذلك ، كقول الشاعر : * أنا بلا سيفٍ ولا رمحٍ تراني * أو صفة لـ (عَمَدٍ) جيء بها إبهاماً ؛ لأن لها عمداً غير مرئية ، وإليه ذهب كثير من السلف ، ورجح ابن كثير

(١) [١٢ / يوسف / ١٠٣] .

الأول وأنها لا عمد لها ، قال : وهذا هو اللائق بالسياق والظاهر من قوله تعالى^(١) (وَيُمْسِكُ السَّمَاءُ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ) والأكل أيضاً في القدرة ! وقوله تعالى « ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ » تقدم تفسيره في سورة الأعراف ، وأنه يُمرُّ كما جاء من غير تكليف ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تمثيل . وقوله تعالى « وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ » أى ذلّهما لما أراد منهما من نفع العالم السفلى . وقوله تعالى « كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى » أى لغاية معينة ينقطع دونها سيره ، وهو قيام الساعة ، كقوله تعالى^(٢) (وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا) وقد بين ذلك في قوله تعالى^(٣) (إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ) (وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَحَرَتْ)^(٤) والافتقار على الشمس والقمر ، لأنهما أظهر الكواكب وأعظم من غيرها . فتسخير غيرها يكون بطريق الأولى . وقد جاء التصريح بتسخيرها مع غيرها في قوله تعالى^(٥) (وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ، أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ) . وقوله تعالى « يُدَبِّرُ الْأَمْرَ » أى : أمر العالم العلوى والسفلى وبصرّفه ويقضيه بمشيئته وحكمته على أكمل الأحوال . لا يشغله شأن من شأن . وقوله تعالى « يُفَصِّلُ الْآيَاتِ » معنى : الآيات الدالة على وحدته وقدرته ونعمته الجليلة . أى يبينها في كتبه المنزلة . وقوله تعالى « لَمَلَكُكُمْ بَلَاءً رَبُّكُمْ تَوْفَنُونَ » أى : لعلكم توفنون وتصدقون بأن هذا المدبر والمفصل ، لا بدّ لكم من المصير إليه ، بالبعث بعد الموت للجزاء؛ فإن من تدبر حق التدبر ، أيقن أن من قدر على إبداع ما ذكر من الآيات العلوية ، قدر على الإعادة والجزاء !

(١) [٢٢ / الحج / ٦٥] . (٢) [٣٦ / يس / ٣٨] (٣) [٨١ / التكاوير / ١] .
(٤) [٨٢ / الانقطار / ٢] . (٥) [٧ / الأعراف / ٥٤] .

لطائف

الأولى - جُوزَ في قوله تعالى (اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ) أن يكون الموصول خبراً ، وأن يكون صفة ، والخبر (يُدَبِّرُ الْأَمْرَ) . ورجح في (الكشف) الأول ، بأن قوله الآتي ^(١) (وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ) عطف عليه على سبيل التقابل بين العلويات والسفليات . وفي المقابل الخبرية ممتينة ، فكذا هذا ليمتوافقا . والجملة مقرررة لقوله ^(٢) (وَالَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقَّ) . وعدل عن ضمير الرب إلى الجلالة لترشيح التقرير . كأنه قيل : كيف لا يكون المنزل ممن هذه أفعاله هو الحق ؟ وتعريف الطرفين لإفادة أنه لا مشارك له فيها . لا سيما وقد جعل صلة للموصول . وهذا أشد مناسبة للمقام ، من جملة وصفاً مفيداً لتحقيق كونه مدبراً مفصلاً ، مع التعظيم لشأنهما . والمقصود بالإفادة قوله : (أَمَلَّكُمْ رَبِّكُمْ تَوْقِنُونَ) . فالعنى أنه فعلها كلها لذلك .

الثانية - قال القاضي : قوله تعالى (رَفَعَ السَّمَوَاتِ ... الخ) دليل على وجود الصانع الحكيم ، فإن ارتفاعها على سائر الأجسام المساوية لها في حقيقة الجرمية ، واختصاصها بما يقتضى ذلك ، لا بد وأن يكون بمخصّص ليس بجسم ولا جسماني ، يرجح بعض المكّنات على بعض بإرادته ، وعلى هذا المنهاج سائر ما ذكر من الآيات .

الثالثة - (يدبّر) و (يفصل) يقرآن بالياء والنون . وهما مستأنقان . أو الأول حال من ضمير (ستخر) والثاني من ضمير (يدبّر) . أو كلاهما من ضمائر الأفعال المذكورة . ولما قرر الشواهد العلوية ، أرَدَها بذكر الدلائل السفلية على قدرته وحكمته . فقال تعالى :

(١) [١٣ / الرعد / ٣] . (٢) [١٣ / الرعد / ١] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣] (وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا ، وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ، يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

« وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ » أى بسطها وجعلها متسمة ممتدة في الطول والعرض لإخراج النعم الكثيرة منها .

قال الشهاب : استدل به بعضهم على تسطیح الأرض وأنها غير كرية بالفعل . وأن من أثبتته أراد به أنه مقتضى طبعها ، وورد بأنه ثبت كريةها بأدلة عقلية ، لكنه لعظم جرمها يشاهد كل قطعة وقطر منها كأنه مسطح ! وهكذا كل دائرة عظيمة . ولا يعلم كريةها إلا هو تعالى .

« وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ » أى : جبالاً ثوابت أوتاداً لها يكثر فيها النبات وتنحفظ تحتها المياه « وَأَنْهَاراً » متفجرة منها ، وذلك لتكاثر النبات والأشجار وحفظ الحيوان « وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ » أى : صنفين اثنين كالحلو والحامض ، والأسود والأبيض ، والصغير والكبير ، والبساتنى والجبلى ...

قال المصباح : يفيد كل صنف فائدة غير فائدة الآخر ، فكان كل صنف نعمة بعد الإنعام بأصول الأصناف ، وجعل لإتمام الإنعام بالأصناف المختلفة الطبائع لئلا تجتمع فتضار متناولها فصولاً مختلفة ، إذ

« يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ » أى : يابس مكانه فيصير أسود مظلماً بعد ما كان أبيض منيراً ! فبطول الليل يحصل الشتاء ، وبطول النهار يحصل الصيف ، وبأحد الاعتدالين يحصل الخريف ، وبالأخر الربيع « إِنَّ فِي ذَلِكَ » أى : فى مَدَّ الْأَرْضَ وما بعده « لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ

يَتَفَكَّرُونَ » أى آيات باهرة لقوم يفكرون فيستدلون بأن تكوين ما ذكر على هذا النمط البديع لا بد له من قادر حكيم ! أو يفكرون فيعلمون أن تكثير النعم جلب محبة النعم بصرفها إلى ما خلقت من أجله . والمحبة موجبة للرجوع إليه . وفيه إشارة إلى أن من دبر ذلك لمعيشهم ، أفلا ينعم عليهم بإرسال رسل وإنزال كتب ترشدكم إلى ما فيه سعادتهم ؟ بلى ، وهو أحكم الحاكمين .

لطائف :

الأولى - قال الرازى : من الاستدلال بأحوال الجبال ، أن بسببها تتولد الأنهار على وجه الأرض . وذلك أن الحجر جسم صلب . فإذا تصاعدت الأبخرة من قعر الأرض ووصلت إلى الجبل احتبست هناك فلا تزال تتكامل فيحصل تحت الجبل مياه عظيمة . ثم إنها لكثرتها وقوتها تثقب وتخرج وتسيل على وجه الأرض . فمنفعة الجبال فى تولد الأنهار هو من هذا الوجه ، ولهذا السبب . ففى أكثر الأمور أينما ذكر الله الجبال ، قرن بها ذكر الأنهار . مثل ما فى هذه الآية ، ومثل قوله ^(١) (وَجَعَلْنَا فِيهَا رِوَاسِيَّ شَاخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا) .

الثانية - أشار الرازى إلى أن الناس ، كما ابتدأوا من زوجين اثنين بالشخص ، هما آدم وحواء ، فكذا الأشجار والزروع خلقت أولاً من زوجين اثنين ثم كثرت والله أعلم .

الثالثة - فى قوله (يُغِشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ) استعارة تبعية تمثيلية مبنية على تشبيهه بإزالة نور الجوّ بالظلمة ، بتغطية الأشياء الظاهرة بالأغطية ، أى يستر النهار بالليل . والتركيب وإن احتمل العكس أيضاً - بالجل على تقديم المفعول الثانى على الأول - فإن ضوء النهار أيضاً سائر لظلمة الليل ، إلا أن الأنسب بالليل أن يكون هو الغامى . وعدّه هذا فى تضايف الآيات السفلية ، وإن كان تعلقه بالآيات العلوية ظاهراً - باعتبار أن ظهوره فى الأرض -

فإن الليل إنما هو ظلمها . وفيما فوق موقع ظلمها لا ليل أصلاً . ولأن الليل والنهار لهما تعلق بالثمرات من حيث العقد والإفضاج ، على أنهما أيضاً زوجان متقابلان مثلها .
وقرى (يفتى) من الغشمية - أفاده أبو السمود .
ثم بين تعالى طائفة من الآيات بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِّضُ بَعْضُهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ،
إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

« وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ » أى : بقاع متقاربات مختلفة الطبائع . فمن طيبة إلى سبخة ، ومن صلبة إلى رخوة ، مما يدل على قادر مدبر مرشد حكيم في صنعه « وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ » جمع صنو ، وهى نخلة أصلها واحد وفروعها شتى ، وفى (القاموس) النختلان ، فما زاد فى الأصل الواحد ، كل واحدة منهما صنو .
ويضم أو عام فى جميع الشجر ، وإفراد الزرع لأنه مصدر فى الأصل يشمل القليل والكثير « يُسْقَىٰ » قرئ بالتحتية والفوقية « بِمَاءٍ وَاحِدٍ » أى : بماء المطر أو بماء النهر « وَنُفِّضُ بَعْضُهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ » فتفاضل قدراً وشكلاً ورائحة وطعماً . والأكل ، قرئ بضم الهمزة والكاف وتسكينها وهو ما يؤكل ، وهو هنا الثمر والحب . والمجرور إما ظرف لـ (نفضل) أو حال من بعضها ، أى : نفضل بعضها ما كولاً ، أو : وفيه الأكل « إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ » أى : الذى فصل « لَآيَاتٍ » على وحدانيته تعالى وباهر قدرته « لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ » فإن من عقل ما تقدم جزم بأن مَنْ قَدَّرَ على إبداعها وخلقها مختلفة الأشكال والألوان والطعوم والروائح فى تلك البقاع المتباينة المتجاورة ، وجعلها أحداث ذات بهجة - قادر على إعادة ما أبداه ، بل هو أهون فى القياس .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] (وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبُ قَوْلِهِمْ أَذًا كُنَّا تُرَابًا أَوْ إِنَّا لَنِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ،
أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ
أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

«وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبُ قَوْلِهِمْ أَذًا كُنَّا تُرَابًا أَوْ إِنَّا لَنِي خَلْقٍ جَدِيدٍ» خطاب للنبي ﷺ ،
أى : إن تعجب من شئ فقولهم عجيب حقيق بأن يقتصر عليه التعجب ؛ لأن من شاهد ما
عدد من الآيات العجيبة التى تدل على قدرة يصغر عندها كل عظيم - أيقن بأن من قدر على
إنشائها ولم يمتدحها ، كانت الإعادة أهون شئ عليه وأيسره . فكان إنكارهم أعجوبة من
الأعاجيب . وجوز أن يكون خطاباً لكل من يصلح له ، أى : إن تعجب ، يا من نظر فى
هذه الآيات ، وعلم قدرة من هذه أفعاله ، فازدد تعجباً ممن ينكر ، مع هذا ، قدرته على البعث ،
وهو أهون من هذه !

قال أبو السعود : والأنسب بقوله ^(١) (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ) هو الأول و (عجب)
خبر قدم على المبتدأ للقتصر ، والتسجيل من أول الأمر بكون قولهم ذاك أمراً عجيباً .
وقوله تعالى « أُولَئِكَ » أى المنكرون لقدرة على البعث « الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ »
أى : تمادوا فى الكفر ؛ فإن من أنكر قدرته تعالى فقد أنكره ؛ لأن الإله لا يكون عاجزاً ،
وفيه تكذيب لخبره ورسوله عليهم السلام « وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ » أى : السلاسل
فى أيمانهم مشدودة إلى أعناقهم يوم القيامة ؛ لأنهم غلوا أفكارهم عن النظر فى هذه الأمور
كما جعلوا خالقهم مغلول القدرة على ذلك وهو القادر الحكيم . « وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ
فِيهَا خَالِدُونَ » .

(١) [١٣ / الرعد / ٦] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦] (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ

« وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ » أى : يستعجلونك بالعقوبة قبل العافية والسلامة منها ؛ وذلك أنهم سألوا رسول الله صلوات الله عليه ، أن يأتيهم بالعذاب استهزاء منهم بإنذاره .

قال الشهاب : والمراد بكونها قبل الحسنة ، أن سؤالها قبل سؤالها ، أو أن سؤالها قبل انقضاء الزمان المقدّر لها !

« وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ » أى : عقوبات أمثالهم من المكذبين . فإلهم لا يعتبرون بها ولا يخشون حلول مثلها ؟ أو العقوبات التي يضرب بها المثل في الشدة . والجملة حالية أو مستأنفة . و(المثالث) قراءة العامة فيها فتح الميم وضم الراء جمع مَثَلَةٌ - كسمرة وسمرات - وهى العقوبة الفاضحة . سميت بها لما بين العقاب والمقاب عليه من المائلة كقوله (وَجَزَاهُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةً مِثْلُهَا) ، أو هى مأخوذة من المثل بمعنى القصاص . يقال : أمثاته وأقصصته بمعنى واحد ، أو هى من المثل المضروب لعظمها . وقرئُ بفتح الميم وسكون المثلثة ، وهى لغة أهل الحجاز . وقرئُ بضم الميم وسكون المثلثة ، وقرئُ بفتحهما وبضمهما .

وقوله تعالى « وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ » من الناس من حمل المغفرة على المعارف منها ، وهو مغفرة الذنوب مطلقاً إلا حيث دلّ الدليل على التقييد في غير الموحّد فإن ظلمه - أعنى شركه - لا يغفر . وما عدا الشرك فغفرانه في المشيئة . ومنهم من ذهب إلى أن المغفرة مراد بها معناها اللغوي . وهو الستر والصفح ، بالإمهال وتأخير العقاب إلى الآخرة ، أى : إنه ذو صفحٍ عظيمٍ لا يماجل بالعقوبة . مع أنهم يظلمون ويخطئون

بالليل والنهار . كما قال سبحانه^(١) : (وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ) وهذا التأويل أنسب بالسياق الرهيب !

وعجب من الشهاب حيث وافق الرازي في دعواه (إن تأخير العقاب لا يسمى مغفرة لأنه مخالف للظاهر ، ولا استعمال القرآن . وللازومه كون الكفار كلهم مغفورا لهم لأجل تأخير عقابهم إلى الآخرة) ولا يخفك صحة تسميته مغفرة لأنها في اللغة الستر . ومن أفراد الستر بالإمهال ؟ ودعوى أنه مخالف للظاهر ولا استعمال القرآن ، تحكم بحت على أسلوب القرآن ، بإرجاعه إلى ما أصّله . مع أن التحاكم إليه في الفروع والأصول ، وهو الحجة في اللغة والاستعمال ! ودعوى فساد الازوم وتهويل خطبه - فارغة ؛ لأنه لا محذور في ذلك . لا سيما وهو المناسب لاستعجالهم العذاب المذكور قبل ، فالإلزام صحيح ! ثم من المقرر أن القرآن يفسر بعضه بعضا ، فهذه الآية في معناها كآية (وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ ...) الخ . فاذا كرر من التأويل مؤيد بهذه الآية ، فتفطن ولا تكن أسير التقليد ... !

ولما بين تعالى سعة حلمه ، قرنه ببيان قوة عقابه ، ليعتدل الرجاء والخوف ، فقال سبحانه : « وَإِنْ رَبُّكَ أَشَدُّ بِدُ الْعِقَابِ » أى : لمن شاء ، كما قال تعالى^(٢) : (فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ) . وقال تعالى^(٣) : (إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ، وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ) وقال سبحانه^(٤) : (نَبِيٌّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ » .

(١) [٣٥ / فاطر / ٤٥] . (٢) [٦ / الأنعام / ١٤٧] .

(٣) [٧ / الأعراف / ١٦٧] . (٤) [١٥ / الحجر / ٥٠ و ٤٩] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ، إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ ،
وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ)

« وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا » وهم المستمجلون بالسيئة المتقدمون .

قال أبو السعود : وإنما عدل عن الإضمار إلى الموصول ، ذمًا لهم ونعيًا عليهم كفرهم
بآيات الله تعالى التي تحرّ لها صم الجبال ، حيث لم يرفعوا لها رأسًا ولم يمدّوها من جنس
الآيات وقالوا عنادا :

« لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ » أى : مثل آيات موسى وعيسى عليهما السلام ،
أو مثل ما يقترحون من جعل الصفا ذهبًا ، أو إزاحة الجبال وجعل مكانها مروجًا وأنهارًا
« إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ » أى : مرسل للإنذار والتخويف من سوء عاقبة ما يأتون ويذرون ،
وناصح كغيرك من الرسل . فما عليك إلا البلاغ ، لا إجابة المقترحات ا « وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ »
أى : نبيّ داعٍ إلى الحق مرشد بالآية التي تناسب زمنه كقوله تعالى ^(١) : (وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا
خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ) تعريض بأنه عليه الصلاة والسلام ليس بدعًا من الرسل . فقد خلا قبله
الهداة الداعون إلى الله ، عليهم السلام ؛ أو المعنى : لكل قوم هاد عظيم الشأن ، قادر على هدايتهم ،
هو الله سبحانه ، فما عليك إلا إنذارهم لاهدايتهم . وإيتاؤهم الإيمان وصدّهم عن الجحود .
فإن ذلك لله وحده كقوله تعالى ^(٢) : (لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) ؛
أو المعنى : (لِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ) قائد يهديهم إلى الرشـد . وهو الكتاب المنزل عليهم الداعي
بمعنوا الهداية إلى ما فيه صلاحهم . يعنى : أن سر الإرسال وآيته الفريدة إنما هو الدعاء
إلى الهدى وتبصير سبيله ، والإنذار من الاسترسال في مساقط الردى . وقد أنزل عليك من الهدى
أحسنه . فكفى بهدايته آية كبرى وخارقة عظمى . وأما الآيات المقترحة فأمرها إلى الله . وقد

(١) [٣٥ / فاطر / ٢٤] . (٢) [٢ / البقرة / ٢٧٢] .

لا يفيد إزالتها هداية ! قال تعالى ^(١) : (وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ) (وَمَا يُشِيرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ) ^(٢) مع ما يستتبع الإصرار بعدها من الأخذ بلا إمهال ! (سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا) ^(٣) .

قال الشهاب : وجوز عطف (هادٍ) على (منذر) وجعل المتعلق مقدماً عليه ، للفاصلة فيدل على عموم رسالته وشمول دعوته . وقد يحمل خبر مبتدأ مقدر ، أى : وهو هادٍ ، أو وأنت هاد ، وعلى الأول فيه التفات . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَرْذَاذُ ، وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ)

[٩] (عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ)

« اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ » جملة مستأنفة ، جواب سؤال وهو : لماذا لم يجابوا لمقترحهم فننقطع حججهم فلمعلمهم يهددون بأنه أمر مدبر عليم نافذ القدرة فقال ما تقضيه حكمته البالغة دون آرائهم السخيفة ؟ وهذا على أن (الهادى) بمعنى (الداعى إلى الحق) . وإن كان المراد به الله سبحانه ، فالجملة تفسير لقوله (هادٍ) أو مقرر مؤكدة لذلك - كذا فى (العناية) .

وأشار الرازى إلى أن الآية : إما مقصولة بما قبلها مشيرة إلى أنه تعالى واسع العلم لا يخفى عليه أن اقترحهم عناد وتعنت ، وأنهم لا يزدادون بإظهار مقترحهم إلا عناداً ، فلذا لم يجابوا

(١) [١٧ / الإسراء / ٥٩] . (٢) [٦ / الأنعام / ١٠٩] . (٣) [٣٣ / الأحزاب / ٦٢] .

إليه . وإما متصلة بقوله (وَيَسْتَمِجِلُونَا) يعنى : أنه تعالى عالم بجميع المعلومات . فهو تعالى إنما ينزل العذاب بحسب ما يعلم أن فيه مصلحة .

ثم إن لفظ (ما) فى قوله تعالى (مَا تَحْمِلُ) مصدرية أو موصولة ، أى : حملها أو ما ما تحمله من الولد ، على أى حالة هو من ذكورة وأنوثة ، وتتمام وخداج ، وحسن وقبح ، وطول وقصر . . . وغير ذلك من الأحوال الحاضرة والترتبة .

« وَمَا تَنْيِضُ الْأَرْحَامُ » أى : تنقص من الحمل « وَمَا تَزْدَادُ » أى : تأخذه زائداً .

قال الزخشرى : ومما تنقصه الرحم وتزداده ، عدد الولد ؛ فإنها تشمل على واحد . وقد

تشتمل على اثنين وثلاثة وأربعة . ويروى أن شريكاً كان رابع أربعة فى بطن أمه ، ومنه

جسد الولد فإنه يكون تاماً ومخدجاً . ومنه مدة ولادته فإنها تكون أقل من تسعة أشهر .

وأزيد عليها ، ومنه الدم فإنه يقل ويكثر .

« وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ » أى : بقدرٍ وحيدٍ لا يجاوزه حسب قابليته كقوله تعالى (١) :

(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ) وقوله (٢) (وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا) وذلك أنه

تعالى خص كل مكوّن بوقت وحال معينين ، وهما لوجوده وبقائه أسباباً مسوقة إليه تقضى ذلك :

« عَالِمُ الْغَيْبِ » أى ما غاب عن الحس « وَالشَّهَادَةِ » أى ما شهد الحس « الْكَبِيرُ »

أى العظام الشأن الذى كل شىء دونه « الْمُتَمَالٍ » أى المستعمل على كل شىء بقدرته . أو

المنزه عن صفات المخلوقين ، المتعالى عنها .

وأكثر القراء على حذف ياء (الْمُتَمَالٍ) تخفيفاً ، وصلاً ووقفاً ، وقرئ بإثباتها فيهما

على الأصل .

(١) [٥٤ / القمر / ٤٩] . (٢) [٢٥ / الفرقان / ٢] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (سَوَاءٌ مِّنْكُمْ مَنْ أَسْرَأَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٌّ بِاللَّيْلِ
وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ)

« سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَأَ الْقَوْلَ » أى فى نفسه « وَمَنْ جَهَرَ بِهِ » أى لغيره « وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٌّ بِاللَّيْلِ » أى : طالب الخفاء فى غتبا بالليل فى ظلمته « وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ » أى : ذاهب فى سر به ، أى فى طريقته يبصره كل أحد .

لطيفة :

قيل : إن (سواء) بمعنى الاستواء وهو يقتضى ذكر شيئين ، وهنا إذا كان (سارب) معطوفاً على جزء الصلة أو الصفة ، يكون شيئاً واحداً .

وأجيب عنه بوجهين : (الأول) أن (سارب) معطوف على (من هو) لا على (مستخف) كأنه قيل : سواء منكم إنسان هو مستخف وآخر هو سارب . و (الثانى) أنه عطف على (مستخف) . إلا أن (من) فى معنى الاثنين كقوله ^(١) :

* نَكُنْ مِثْلَ مَنْ يَأْذِنبُ يَصْطَحِبَانِ *

كأنه قيل : سواء منكم اثنان هما مستخف وسارب . وعلى الوجهين (من) موصوفة لا موصولة . فيحمل الأولان على ذلك ليتوافق الكل .

وهناك وجه آخر وهو أن يكون الموصول محذوفاً وصلته باقية ؛ والمعنى : ومن هو مستخف بالليل ومن هو سارب بالنهار . وحذف الموصول المعطوف وبقاء صلته شائع . خصوصاً وقد

(١) البيت ، يخاطب فيه الذئب :

تَمَشَّ . فَإِنْ وَاقَقَنِى لَا تَخُونِى نَكُنْ مِثْلَ مَنْ ، يَأْذِنبُ ، يَصْطَحِبَانِ

وقائله الفرزدق من قصيدته التى مطلعها :

وَاطْلَسَ عَسَالٍ وَمَا كَانَ صَاحِبًا دَعَوْتُ بِنَارِى مَوْهِنًا فَأَنَانِى

تكرر الموصول في الآية ثلاثاً . ومنه قوله تعالى ^(١) (وَمَا أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ)
والأصل : ولا ما يفعل بكم . وإلا كان حرف النفي دخيلاً في غير موضعه . لأن الجملة الثانية
لو قدرت داخلة في صلة الأول بواسطة العاطف ، لم يكن للنفي موقع ؛ وإنما صحب في الأول
الموصول لا الصلة ، ومنه قول حسان رضى الله عنه ^(٢) :

فَمَنْ يَهْجُو رَسُولَ اللَّهِ مِنْكُمْ وَيَمْدَحُهُ وَيَنْصُرُهُ سِوَاهُ !

أى : ومن يمدحه وينصره .

وهذا الأخير نقله الناصر في (الانتصاف) وهو وجيه جداً . وأما تضعيف غيره له ،
بلزوم حذف الموصول وصدر الصلة معاً ، وأن النجاة ، وإن ذكروا جواز كل منهما ، لكن
اجتماعهما منكر - فهو المنكر . لأن أسلوب التزليل هو الحجة ، وإليه التحاكم في كل فنٍ
ومعجزة ، والجمود على القواعد ورد ما خالفها ، إليها - من التمصب واللجاج ، والغفلة عن مقام
التزليل في الاحتجاج !

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١] (لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ
لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا
فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِّنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ)

« لَهُ مُعَقَّبَاتٌ » أى : لمن أسر أو جهر أو استخفى أو سرب ، ملائكة يتعاقبون عليه

(١) [٤٦ / الأحقاف / ٩] . (٢) من قصيدته التي يهجو بها أبا سفيان . ومطالعها :

عَفَّتْ ذَاتُ الْأَصَابِعِ فَالْجَوَاءِ إِلَى عِذْرَاءٍ مِّنْزَلِهَا خَلَاءَ

ذات الأصابع والجواء : موضعان بالشام بأكناف دمشق وعذراء : موضع على بر يد من دمشق .

« مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ » أى من جوانبه كلها ، أو من أعماله ، ما قدم وآخر « يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ » أى : يراقبون ما يلفظ من قول وما يأتى من عمل ، خيراً أو شراً ، بأمره وإذنه ، أو من أجل أمره لهم بحفظه . فد (من) تمليلية أو بمعنى باء السببية . ولا فرق بين العلة والسبب عند النحاة ، وإن فرق بينهما أهل المعقول .

وفى (الصحيح)^(١) : يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار . ويحتممون فى صلاة الصبح وصلاة العصر . فيصعد إليه الذين باتوا فيكم فيسألهم ، وهو أعلم بهم : كيف تركتم عبادى ؟ فيقولون : أتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون . وفى الحديث الآخر^(٢) : إن معكم من لا يفارقكم إلا عند الخلاه ، وعند الجماع . فاستحيوهم وأكرمواهم !

و (المعقبات) جمع معقبة من (عقب) مبالغة فى (عقب) فالتفعيل للمبالغة والزيادة فى التعقيب فهو تكثير للفعل أو الماعل ، لا للتقدمة . لأن ثلاثيه متعدي بنفسه وأصل معنى (المعقب) مؤخر الرّجل . ثم تجاوز به عن كون الفعل بغير فاصل ومهلة . كأن أحدهم يطأ عقب الآخر . قال الراغب : عقبه إذا تلاه . نحو دَبْرُهُ وَقَفَّاهُ وقيل : هو من (اعتقب) أدغمت التاء فى القاف ؛ وردّوه بأن التاء لاتدغم فى القاف من كلمة أو كلمتين . وقد قال أهل التصريف : إن القاف والكاف ، كل منهما يدغم فى الآخر ولا يدغمان فى غيرها . والتاء فى (معقبة) واحدة (المعقبات) للمبالغة لالتأنيث ، لأن الملائكة لا توصف به . مثل نسابة وعلامة .

(١) أخرجه البخارى فى : ٩ - كتاب مواقيت الصلاة ، ١٦ - باب فضل صلاة العصر ،

حديث رقم ٣٥٩ ، عن أبى هريرة .

ومسلم فى : ٥ - كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، ٣٧ - باب فضل صلاتى الصبح

والعصر ، والمحافظة عليهما ، حديث رقم ٢١٠ (طبعتنا) .

(٢) لم أقف على هذا الحديث بعد البحث عنه فى ما بين يديّ من أصول السنة .

أو هي صفة جماعة وطائفة . و (مَنْ بَيْنَ يَدَيْهِ) ظرف مستقر صفة (مُعَقَّبَاتٌ) أو ظرف لغو متعلق بها . و (مِنْ) لا ابتداء الغاية أو حال من الضمير الذي في الظرف الواقع خبراً . والكلام على هذه الأوجه يتم عند قوله (وَمِنْ خَلْفِهِ) . ويجوز أن يكون ظرفاً لـ (يَحْفَظُونَهُ) أى : معقبات يحفظونه من بين يديه ومن خلفه ، أى تحفظ ما قدم وآخر من الأعمال ، كناية عن حفظ جميع أعماله . ويجوز أن يكون (يَحْفَظُونَهُ) صفة لـ (مُعَقَّبَاتٌ) أو حالاً من الظرف قبله ، بمعنى أن المعقبات محيطة بجميع جوانبه .

تنبيهات :

الأول - ما قدمناه في معنى الآية هو الأشهر . وعن ابن عباس : هو السلطان الذي له حرس من بين يديه ومن خلفه .

قال الزمخشري : أى يحفظونه في توهمه وتقديره ، من أمر الله . أى من قضايه ونوازله . أو على التهكم به .

قال الرازي : وهذا القول اختاره أبو مسلم الأصفهاني . والمعنى : أنه يستوى في علم الله تعالى السر والجر ، والمستخفي بظلمة الليل والسارب المستظهر بالأعوان والأنصار . وهم الملوك والأمراء ! فنلجأ إلى الليل فلن يفوت الله أمره ، ومن سار نهجاً بالمعقبات - وهم الحراس والأعوان الذين يحفظونه - لم ينجبه حرسه من الله تعالى ! والمعقب العون . لأنه إذا أبصر هذا ذاك ، فلا بد أن يبصر ذاك هذا . فتصير بصيرة كل واحد منهم معاينة لبصيرة الآخر ، فهذه المعقبات لا تنحصر من قضاء الله ومن قدره ! وهم وإن ظنوا أنهم يخلصون بخدومهم من أمر الله ومن قضائه ، فإنهم لا يقدرون على ذلك البتة ! والمقصود من هذه الجملة : بعث السلاطين والأمراء والكبراء على أن يطلبوا الخلاص من المسكاره ، عن حفظ الله وعصمته ، ولا يمتثلوا في دفعها على الأعوان والأنصار ، ولذلك قال تعالى بـ (وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا . . .) الآية .

الثاني : قدمنا أن الضمير في (لَهُ مُعَقَّبَاتٌ) لمن أسر أو جهر . . . الخ . وأرجعه بعضهم لله ، وما بعده (لمن) . قال الشهاب : فيه تفكيك للضائر من غير داع . وقيل : الضمير (لمن) الأخير ، وقيل : للنبي لأنه معلوم من السياق .

الثالث - أشار الرازي في معنى الآية الأشهر إلى سر اختصاص الحفظة ببني آدم ، ما ملخصه : إنهم يدعون إلى الخيرات والطاعات بما يجده المرء من الدواعي القلبية إليها ؛ وإن الإنسان إذا علم أن الملائكة تحصى عليه أعماله كان إلى الحذر من المعاصي أقرب . لأن من آمن ، يمتد جلالة الملائكة وعلو مراتبهم ، فإذا حاول الإقدام على معصية واعتقد أنهم يشاهدونها ، زجره الحياء منهم عن الإقدام عليها ، كما يزجره عنها إذا حضره من يعظمه من البشر . وإذا علم أن الملائكة تحصى عليه تلك الأعمال ، كان ذلك أيضاً رادعاً له عنها . وإذا علم أن الملائكة يكتوبونها كان الردع أكمل . ١

« إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ » أى : من العافية والنعمة « حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ » أى : من الأعمال الصالحة أو مملكتها ، التى هى فطرة الله التى فطر الناس عليها إلى أضدادها « وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا » أى : لسوء اختيارهم واستحقاقهم لذلك « فَلَا مَرَدَّ لَهُ » أى : فلا رد لقضائه فيهم « وَمَالَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ » أى : بلى أمرهم فيدفع عنهم السوء الذى أراده الله بهم بما قدمت أيديهم من تغيير ما بهم . وفيه دلالة على أن تخلف مراده تعالى محال . وإبذان بأنهم بما يشروه من إنكار البعث واستعجال السيئة واقتراح الآية ، قد غيروا ما بأنفسهم من الفطرة ، واستحقوا لذلك حلول غضب الله تعالى وعذابه - أفاده أبو السعود .

تنبيه :

في هذه الآية وعيد شديد وإنذار رهيب قاطع ، بأنه إذا انحرف الآخذون بالدين والمنتمون إليه عن جادته المستقيمة ، ومالوا مع الأهواء ، وتركوا التمسك بأدابه وسفته القوية ، حل بهم ما ينقلهم إلى الحن والبلايا ، ويفرق كلمتهم ، ويوهى قوتهم ، ويسلط عدوهم !

وفي حديث قدسيّ عند ابن أبي حاتم : ليس من أهل قرية ولا أهل بيت يكونون على طاعة الله ، فيمّحون منها إلى معصية الله ، إلّا حوّل الله عنهم ما يحبون إلى ما يكرهون .
ولابن أبي شيبة : ما من قرية ولا أهل بيت ، كانوا على ما كرهت من معصيتي ، ثم تحوّلوا عنها إلى ما أحببت من طاعتي ، إلّا تحوّل لهم عما يكرهون من عذاب ، إلى ما يحبون من رحمتي .
وقال القاشانيّ : لا بدّ في تغيير النعم إلى الفقم ، من استحقاق جليّ أو خفيّ .
وعن بعض السلف : إن الفارة مزّقت خفيّ . وما أعلم ذلك إلّا بذنب أحدثته ، وإلّا ما سلطها الله على ! وتمثّل بقول الشاعر (١) :

* لو كنتُ من مآزِنٍ لم تَسْتَبِيحْ إِبِلِي *

أقول : المنقول عن بعض السلف محمول على شدة الخوف منه تعالى ، وإلّا فالتحقيق الفرق بين ما ينال الشخص والقوم ، كما أشارت له الآية . وقد جوّد الكلام في ذلك ، الإمام مفتي مصر في (رسالة التوحيد) في بحث الدين الإسلاميّ فقال :

كشف الإسلام عن العقل غمة من الوهم فيما يمرض من حوادث الكون الكبير (العالم) والكون الصغير (الإنسان) . فقرّر أن آيات الله الكبرى في صنع العالم إنّما يجري أمرها على السنن الإلهية التي قدرها الله في علمه الأزليّ . لا يغيّرها شيء من الطوارئ الجزئية . غير أنه لا يجوز أن يفعل شأن الله فيها . بل ينبغى أن يحمي ذكره عند رؤيتها . فقد جاء على لسان النبي ﷺ (٢) : (إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يخسفان لموت أحدٍ ولا لحياته ،

(١) هذا مطلع الحماسية الأولى . وعجزه :

* بَنُو اللَّقَيْطَةِ مِنْ ذُهِلِ بْنِ شَيْبَانَ *

وقائله بعض شعراء بلنبر ، واسمه قُرَيْطُ بْنُ أُنَيْفٍ .

قال المرزوقيّ : ومعنى البيت : لو كنتُ مازنيّاً لم تُغَرِّبْ بنو اللقيطة على إيليّ .

(٢) أخرجه البخاريّ في ١٦ - كتاب الكسوف ، ٢ - باب الصدقة في الكسوف ، =

فإذا رأيتم ذلك فاذكروا الله (وفيه التصريح بأن جميع آيات الكون تجري على نظام واحد . لا يقضى فيه إلا العناية الأزلية على السنن التي أقامته عليها . ثم أباط اللثام عن حال الإنسان في النعم التي يتمتع بها الأشخاص أو الأمم ، والمصائب التي يرزؤون بها . ففصل بين الأمرين (الأشخاص والأمم) فصلاً لا مجال معه للاختلاط بينهما .

فأما النعم التي يمتع الله بها بعض الأشخاص في هذه الحياة ، والرزايا التي يرزأ بها في نفسه ؛ فكثير منها كالثروة والجاء والقوة والبنين ، أو الفقر والضعمة والضعف والفقد ، وقد لا يكون كاسبها أو جالبها ما عليه الشخص في سيرته من استقامة وعوج أو طاعة وعصيان ! وكثيراً ما أمهل الله بعض الطغاة البغاة ، أو الفجرة الفسقة ، وترك لهم متاع الحياة الدنيا ، إنظاراً لهم ، حتى يلقاهم ما أعد لهم من العذاب المقيم في الحياة الأخرى ! وكثيراً ما امتحن الله الصالحين من عباده ، وأثنى عليهم في الاستسلام لحكمه ، وهم الذين إذا أصابتهم مصيبة ، عبروا عن إخلاصهم في التسليم بقوله : (إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ) ! فلا غضب زيد ، ولا رضا عمرو ، ولا إخلاص سريرة ، ولا فساد عمل مما يكون له دخل في هذه الرزايا ، ولا في تلك النعم الخاصة ، اللهم إلا فيما ارتباطه بالعمل ارتباط المسبب بالسبب على جاري العادة . كارتباط الفقر بالإسراف ، والذل بالجهن ، وضياع السلطان بالظلم . وارتباط الثروة بحسن التدبير في الأغلب . والمساكنة عند الناس بالسعى في مصالحهم على الأكثر . وما يشبه ذلك مما هو مبين في علم آخر . . . !

أما شأن الأمم فلا يس على ذلك ؛ فإن الروح الذي أودعه الله جميع شرائعه الإلهية : من تصحيح الفكر ، وتسديد النظر ، وتأديب الأهواء ، وتحديد مطامح الشهوات ، والدخول

= حديث رقم ٥٨٤ ، عن عائشة .

ومسلم في : ١٠ - كتاب الكسوف ، ٢ - باب ذكر عذاب القبر في صلاة الخسوف ،

حديث رقم ٨ (طبعنا) .

إلى كل أمر من بابه ، وطلب كل رغبة من أسبابها ، وحفظ الأمانة ، واستشعار الأخوة ، والتعاون على البر ، والتناصح في الخير والشر ، وغير ذلك من أصول الفضائل : ذلك الروح هو مصدر حياة الأمم ، ومشرق سعادتها في هذه الدنيا قبل الآخرة^(١) (وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا) ولن يسلب الله عنها نعمته ما دام هذا الروح فيها . يزيد الله النعم بقوته وينقصها بضعفه حتى إذا فارقتها ذهبت السعادة على أثره وتبعته الراحة إلى مقره ! واستبدل^(٢) الله عزة القوم بالذل ، وكثرهم بالقل ، ونعيمهم بالشقاء ، وراحتهم بالعناء ، وسلط عليهم الظالمين أو العادلين فأخذهم بهم وهم في غفلة ساهون^(٣) (وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاَهَا تَدْمِيرًا) ! أمرناهم بالحق ففسقوا عنه إلى الباطل ، ثم لا ينفعهم الأنين ، ولا يجديهم البكاء ، ولا يفيدهم ما بقي من صور الأعمال ولا يستجاب منهم الدعاء ولا كاشف لما نزل إليهم ! لأن يلجأوا إلى ذلك الروح الأكرم فيستقرلوه من سماء الرحمة برسل الفكر والذكر والصبر والشكر^(٤) (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) (سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا)^(٥) . . . وما أجل ما قاله العباس بن عبد المطلب في استسقائه^(٦) . اللهم ! إنه لم ينزل بلاء إلا بذنب ، ولم يرفع الا بتوبة . . . !

- (١) [٣ / آل عمران / ١٤٥] . (٢) الصواب في استعمال الاستبدال والتبدل ، أن تفرق الباء بالمبدل منه (حاشية الطبعة الرابعة عشرة) . (٣) [١٧ / الإسراء / ١٦] . (٤) [١٣ / الرعد / ١١] . (٥) [٣٣ / الأحزاب / ٦٢] . (٦) جاء في (نيل الأوطار) عند حديث أنس الذي رواه البخاري : أن عمر بن الخطاب ، كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب ... الخ . قال الشوكاني : وقد بين الزبير بن بكار ، في الأنساب ، صفة مادعا به العباس في هذه الواقعة والوقت الذي وقع فيه ذلك . فأخرج بإسناده أن العباس لما استسقى به عمر قال ... الخ . انظر الصفحة رقم ٨ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي ، الطبعة الثانية) .

على هذه السنن ، جرى سلف الأمة ! فبينما كان المسلم يرفع روحه بهذه العقائد السامية ،
ويأخذ نفسه بما يتبعها من الأعمال الجليلة ؛ كان غيره يظن أنه يزلزل الأرض بدعائه ،
ويشق الفلك ببكائه ، وهو ولىع بأهوائه ، ماضٍ في غلوائه ، وما كان يغنى عنه ظنه من
الحق شيئاً...!

ولما خوف تعالى العباد بإزال مالا مردّله ، أتبعه ببيان آيات قدرته وقهره وجلاله .
فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢] (هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ)

[١٣] (وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ
فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ)

« هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا » أى من الصواعق « وَطَمَعًا » أى بالمطر أن يحيى
النبات « وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ » أى بالماء « وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ » أى يسبح
سامعوه من العباد الراجين للمطر متلبسين بحمده ، أى: يضجون بـ (سبحانه الله والحمد لله)
فيكون على حذف مضاف أو إسناداً مجازياً للحامل والسبب ، أو يسبح الرعد نفسه ، بمعنى
دلالاته على وحدانيته تعالى وفضله ، المستوجب لحمده . فيكون الإسناد على حقيقة والتجوز
في التسبيح والتحميد . إذ شبه دلالاته بنفسه على تنزيهه عن الشرك والعجز بالتسبيح والتعزیه
اللفظي . ودلالاته على فضله ورحمته ، بحمد الحامد لما فيها من الدلالة على صفات الكمال .

قال الرازى: الرعد اسم لهذا الصوت المخصوص . والتسبيح والتقديس وما يجري مجراهما ،
ليس إلا وجود لفظ يدل على حصول التعزیه والتقديس لله سبحانه وتعالى . فلما كان حدوث

هذا الصوت دليلاً على وجود متعالٍ عن النقص والإمكان ، كان ذلك في الحقيقة تسبيحاً . وهو معنى قوله تعالى ^(١) (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ) .

« وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ » أى : وتسبح الملائكة من خوف الله تعالى وخشيته وإجلاله « وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ » أى : فيهلك بها من يشاء . وقوله تعالى « وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ » بمعنى الكفرة المخاطبين في قوله تعالى (هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ) وقد التفت إلى الغيبة إبداناً بإسقاطهم عن درجة الخطاب وإعراضاً عنهم ، وتمديداً لجناياتهم لدى كل من يستحق الخطاب . كأنه قيل : هو الذى يفعل أمثال هذه الأفاعيل العجيبة ، من إراءة البرق وإنشاء السحاب الثقال وإرسال الصواعق الدالة على كمال علمه وقدرته . ويعقلها من يعقلها من المؤمنين . أو الرعد نفسه والملائكة . ويعملون بموجب ذلك من التسبيح والحمد والخوف من هيئته تعالى ، و (هم) أى الكفرة الذين حكيت هفواتهم مع ذلهم وهوانهم وحقارة شأنهم ، يجادلون في شأنه تعالى ، بإنكار البعث واستمجال العذاب ، استهزاء واقتراح الآيات . قالوا لعطف الجملة على ما قبلها من قوله تعالى (هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ) أفاده أبو السعود .

أى : يريكم ما ذكر من الآيات الباهرة الدالة على القدرة والوحدانية . وأنتم تجادلون فيه و (الجدال) أشد الخصومة ، من (الجدل) بالسكون - وهو قتل الحبل ونحوه ، لأنه يقوى به وتشدد طاقاته . « وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ » أى : والحال أنه شديد الماحلة والمأكرة والمكابدة لأعدائه . يأتينهم بالهلكة من حيث لا يحتسبون ، من (تحكُّه) إذا كاده وعرضه للهلك ، ومنه (تمحل لكذا) إذا تكلف استعمال الحيلة واجتهد فيه .

تنبيه :

ذكر في العلم الطبيعي : أن الصواعق شرارات تنطلق دفعة واحدة من تموجات السحب

(١) [١٧ / الإسراء / ٤٤] .

ومصادمتها لبعضها : فيحصل في الهواء اهتزاز قوى ، وأما الرعد فهو الصوت الذى يحصل من ذلك الانطلاق ويصل إلينا ببطء على حسب بعد السحب الحاملة للصواعق عنا . وعلى حسب اتساع السحب ، يطول سماعنا الصوت الرعد وإذا لمع البرق من السحابة ، فقد تمت نتائج الصاعقة . فتمت برهة لطيفة بين لمعان البرق وسماع الرعد ، فقد أُمن ضررها . فإن لم يمض بينهما شيء ، بأن كان الإنسان قريباً من محل الصاعقة وسمع الرعد مع مشاهدة البرق فى آن واحد ، أمكن أن يصاب بالصاعقة فى مرورها . وأما سبب انتعجار الصاعقة فقالوا : من المعلوم أن انطلاق الكهرباء إنما يحصل باتحاد كهربائية الأجسام مع بعضها ، فإذا قرب السحاب من الأجسام الأرضية طلبت الكهرباء السحابية أن تتحد بالكهربائية الأرضية فتنبجس بينهما شرارة كهربائية هى البرق . وحينئذ يقال : إن الأجسام الأرضية صعدت : هذا مجمل ما قالوه :

وقد حاول الرازى الجمع بين ما روى عن بعض السلف : أن الرعد ملك ، وبين ما ثبت فى العلم الطبيعى بما يدفع المنافة فقال : اعلم أن المحققين من الحكماء يذكرون أن هذه الآثار العلوية إنما تتم بقوى روحانية فلكية ، فليسحاب روح معين من الأرواح الفلكية يدبره ؛ وكذا القول فى الرياح وفى سائر الآثار العلوية . قال : وهذا عين ما نقلناه من أن الرعد اسم ملك من الملائكة يسبح الله ، فهذا الذى قاله المفسرون بهذه العبارة هو عين ما ذكره المحققون من الحكماء . فكيف يليق بالماقل الإنكار ؟ انتهى .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤] (لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ ، وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطٍ كَفِّهِهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ ، وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ)

« لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ » أى : الدعاء الحق بالعبادة والتضرع والإنابة ؛ وتوجيه الوجه ثابت له تعالى لاغيره . لأنه الذى يجيب المضطر ويكشف السوء فهو الحقيق بأن يعبد وحده بالدعاء والالتجاء . فإضافة الدعوة للحق من إضافة الموصوف للصفة .
وفيهما إيدان بعباستهما للحق ، واختصاصها به ، وكونها بمنزل من شائبة البطلان والضياع والضللال . كما يقال : كلمة الحق .

ثم بين تعالى مثال من يعبد من الأصنام ويدعى ، في عدم النفع والجدوى بقوله : « وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ » أى : الأصنام الذين يدعوه المشركون من دونه تعالى « لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ » أى : من مطلوباتهم « إِلَّا كَبَاسِطٍ كَفِّهِهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ » أى : إلا استجابة كاستجابة باسط كفيه أى كاستجابة الماء لمن مده يديه إليه يطلب منه أن يبلغ فاه ، والماء حماد لا يشعر ببسط كفيه ولا بظمائه وحاجته إليه فلا يقدر أن يجيب دعاءه ويبلغ فاه . وكذلك ما يدعونه ، حماد لا يحس بدعائهم ولا يستطيع إجابتهم ولا يقدر على تفهمهم ! والغرض نفي الاستجابة على القطع بتصوير أنهم أحوج ما يكونون إليها لتحصيل مباغيتهم ، أخيب ما يكون أحد في سعيه لما هو مضطر إليه فضلاً عن مجرد الحاجة . وحاصله : أنه شبه آهتهم - حين استكفائهم إياهم ما أهمهم بلسان الاضطرار في عدم الشعور فضلاً عن الاستغاثة للاستجابة ، وبقائهم لذلك في الخسران - بحال ماء يراى من عطشان باسط كفيه إليه يناديه عبارة وإشارة ، فهو لذلك في زيادة ظمأ وشدة خسران ! والتشبيه على هذا من المركب التمثيلي في الأصل ، أبرز في معرض التهكم حيث أثبت

للماء استجابة ، زيادة في التخسير والتخسير . فالاستثناء مفرغ من أعم عام المصدر ، أى : لا يستجيبون شيئاً من الاستجابة ، والضمير في (هو) للماء و (بالغه) للفم ، وقيل : الأول للبسط والثاني للماء . وبسط الكف : نشر الأصابع ممدودة كما في قوله ^(١) :
تَعَوَّدَ بَسَطَ الكَفِّ حَتَّى لَوْ أَنَّهُ أَرَادَ انْقِبَاضاً لَمْ تُطِعْهُ أَنَامِلُهُ
« وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ » أى : عبادتهم والتجاؤم لآلهتهم « إِلَّا فِي ضَلَالٍ » أى :
في ضياع لا منفعة فيه لعدم إمكان إجابتهم .
وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥] (وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ
وَالْآصَالِ)

وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ
إخبار عن عظمته تعالى وسلطانه الذى قهر كل شىء ، بأنه ينقاد لجلاله وإرادته وتصريفه
المكونات بأسرها من أهل الملأ الأعلى والأسفل ، طائعين وكرهين لا يقدرُونَ أن يعتمعوا
عليه ، وكذا تنقاد له تعالى ظلالهم حيث تقصف على مشيئته فى الامتداد والتقلص والقيء
(١) رواية البيت هكذا :

فَنَاهَا لِقَبْضِ لَمْ تُطِعْهُ أَنَامِلُهُ

انظر ديوان أبى تمام ص ٢٣٢ (طبعة بيروت) .

وص ٢٩ من الجزء الثالث بشرح الخطيب التبريزى (طبعة المعارف) .

والبيت من قصيدته التى مطلعها :

أَجَلُ أَيْهَا الرِّبْعُ الَّذِى خَفَّ آهْلُهُ لَقَدْ أَدْرَكَتْ فَيْكَ النُّوْى مَا تَحَاوَلُهُ

يعدح بها أمير المؤمنين ، المعتصم بالله .

والزوال! وقوله « بِالْعُدُوِّ وَالْآصَالِ » إما ظرف لـ (يسجد) والباء بمعنى (فى) والمراد بهما الدوام لأنه يذكر مثله للتأييد وإما حال من (الظلال) والمراد ما ذكر . أو يقال التخصيص لأن امتدادها وتصلصها فيهما أظهر . هذا ماجرى عليه الأكثر فى معنى (السجود) فيكون استعارة للانقياد المذكور ، أو مجازاً مرسللاً لاستعماله فى لازم معناه ، لأن الانقياد مطلقاً ، لازم للسجود .

وفى (تنوير الاقتباس) : تأويل السجود بالصلاة والعبادة وجمل (طوعاً وكرهاً) نشرأ على ترتيب الالف . قال (طوعاً) أهل السماء من الملائكة لأن عبادتهم بغير مشقة و (كرهاً) أهل الأرض لأن عبادتهم بالمشقة . ثم قال . ويقال (طوعاً) لأهل الإخلاص و (كرهاً) لأهل النفاق . ثم قال : (وظلالهم) يعنى وظلال من يسجد لله أيضاً ، وتسجد غدوة عن أيمانهم ، وعشية عن شمائلهم .

قال أبو السعود : وقد قيل : إن المراد حقيقة السجود ، فإن الكفرة حال الاضطراب وهو المعنى بقوله تعالى (وَكَرْهُاً) يخصون السجود به سبحانه . قال تعالى ^(١) (فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ) ولا يبعد أن يخلق الله تعالى فى الظلال أفعالاً وعقولاً بها تسجد لله سبحانه ، كما خلقها للجبال حتى اشتغلت بالتسبيح وظهر فيها آثار التجلى . كما قال ابن الأنبارى . ويجوز أن يراد بسجودها ما يشاهد فيها من هيئة السجود تبعاً لأصحابها . وأنت خبير بأن اختصاص سجود الكافر ، حالة الضرورة والشدة ، بالله سبحانه لا يجدى ، فإن سجودهم لأصنامهم حالة الرخاء مخلّ بالقصر المستفاد من تقديم الجار والمجرور ، فالوجه حل السجود على الانقياد ولأن تحقيق انقياد الكل فى الإبداع والإعدام له تعالى ، أدخل فى التوبيخ على اتخاذ أولياء من دونه من تحقيق سجودهم له تعالى . وتخصيص انقياد العقلاء بالذكر مع كون غيرهم أيضاً كذلك لأنهم العمدة . وانقيادهم دليل انقياد غيرهم . انتهى .

(١) [٢٩ / النكبات / ٦٥] .

وهذه الآية كقوله تعالى^(١) (وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) وقوله^(٢) :
(أَوَلَمْ يَرْوُا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ ...) (آية .

تنبيه :

هذه السجدة من عزائم سجود التلاوة ، فيسنّ للقارىء والمستمع أن يسجد عقد قراءته واستماعه لهذه السجدة - كذا في (الباب) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦] (قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ ، قُلْ أَتَاخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ، قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ، أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ، قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ)
« قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أي خالقهما « قُلِ اللَّهُ » أمرٌ بالجواب من قبله عليه الصلاة والسلام ، إشعاراً بتعينه للجواب ، فهو والخصم في تقريره سواء . أو أمره بحكاية اعترافهم ، إيذاناً بأنه أمر لا بدّ لهم منه . كأنه قيل : احك اعترافهم فبكتهم بما يلزمهم من الحجة « قُلْ » أي : إلزاماً لهم وتبكيثاً « أَتَاخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ » أي : أيمدّ أن علمتموه ربّ السموات والأرض ، عبدتم من دونه غيره فجعلتم ما كان يجب أن يكون سبب التوحيد من علمكم وإقراركم ، سبب الإشراك ؟ أفاده الزمخشري .

« لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا » أي : لا يقدرّون على نفع أنفسهم ولا على دفع الضرر عنها . فكيف يستطيعونه لغيرهم ! فإذا نعتهم محض العبث والسفه ! « قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ » لما بين ضلالهم وفساد

(١) [٣ / آل عمران / ٨٣] . (٢) [١٦ / النحل / ٤٨] .

رأيهم في الحجة المذكورة، يتن أن الجاهل بها يكون كالأعمى، والعالم بها كالبصير، والجاهل بمثلها كالظلمات، والعلم بها كالنور ! وكما أن كل أحد يعلم بالضرورة أن الأعمى لا يساوى البصير والظلمة لا تساوى النور ، كذلك كل أحد يعلم بالضرورة أن الجاهل بهذه الحجة لا يساوى العالم بها ! « أَمْ جَمَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ » أى : بل أجمعوا ، والهمزة للإنكار ، وقوله : « خَلَقُوا كَخَلْقِهِ » صفة لـ (شركاء) داخلة في حكم الإنكار « فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ » أى : خلق الله وخلقهم ؛ والمعنى : أنهم ما اتخذوا لله شركاء خالقين مثله حتى يتشابه عليهم الخلق ، فيقولوا هؤلاء خلقوا كما خلق الله فاستحقوا العبادة كما استحقها . ولكنهم اتخذوا شركاء عاجزين لا يقدرون على ما يقدر عليه الخلق ، فضلاً عما يقدر عليه الخالق .

قال الناصر: وفي قوله تعالى : (خَلَقُوا كَخَلْقِهِ) في سياق الإنكار ، تهكم بهم . لأن غير الله لا يخلق خلقاً البتة ، لا بطريق المشابهة والمساواة لله ، تقدس عن التشبيه ؛ ولا بطريق الانحطاط والقصور . فقد كان يكفى في الإنكار عليهم ، أن الشركاء التى اتخذوها لا تخلق مطلقاً ، ولكن جاء في قوله تعالى (كَخَلْقِهِ) تهكم يزيد الإنكار نأ كيداً !

« قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ » أى : لا خالق غير الله ، ولا يستقيم أن يكون له شريك في الخلق ، فلا يكون له شريك في العبادة ! « وَهُوَ الْوَاحِدُ » أى . المتوحد بالربوبية « الْفَهَّارُ » الذى لا يغالب ، وما عداه مربوب ومقهور !

ثم ضرب تعالى مثلين للحق في ثباته وبقائه ، والباطل في اضمحلاله وفنائته بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] (أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا ، وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلَهُ ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ، فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ)

« أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ » أى الزن « ماء » أى مطراً « فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا » أى :

بمقدار ملئها في الصغر والكبر ، أى أخذ كل واحد بحسبه ، فهذا كبير وسع كثيرا من الماء ، وهذا صغير وسع بقدره « فَأَخْتَمَلُ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا » أى : فحمل ورفع ، من قوة الجيشان ، زبدا عاليا على وجه الماء « وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ » أى : من نحو الذهب والفضة والنحاس ، مما يسبك في النار « ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ » أى : طلب زينة « أَوْ مَتَاعٍ » كالأواني وآلات الحرب والحراث « زَبَدٌ مِثْلُهُ » أى : مثل زبد السيل . وهو خبثه الذى ينفيه الكبير « كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ » أى مثلهما ، أى : إذا اجتمعا لاثبات للباطل ولا دوام . كما أن الزبد لا يثبت مع الماء ولا مع الذهب والفضة ونحوها ، مما يسبك في النار بل يذهب ويضمحل . وقد بين ذلك بقوله تعالى « فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً » أى مقدوفاً مرمياً به ، أى : فلا ينتفع به بل يتفرق ويتمزق ويذهب في جانبي الوادى ويلقى بالشجر وتنسفه الرياح . وكذلك خبث ما يوقد عليه من المعادن يذهب ولا يرجع منه شيء ، ولا يبقى إلا ما ينتفع به من الماء والمعدن كما قال : « وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ » أى يبقى فيها منتفعاً به « كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ » أى : يبين أمثال الحق والباطل !

تنبيهات

الأول - قدمنا أن هذه الآية مثل ضرب به الله للحق وأهله . والباطل وحزبه ، كما ضرب الأعمى والبصير والظلمات والنور مثلاً لها . فمثل الحق وأهله بالماء الذى يُنْزِلُهُ مِنَ السَّمَاءِ فتسيل به أودية الناس فيحییون به وينفعهم بأنواع المنافع . وبالمعدن الذى ينتفعون به في صوغ الحلى منه واتخاذ الأواني والآلات المختلفة ، وأن ذلك ما كثر في الأرض باقٍ بقاء ظاهراً . يثبت الماء في مناقفه ويسلك بعضه في عروق الأرض إلى العيون والفتى والآبار . وكذلك المعدن يبقى أزمنة مطاولة ؛ وشبه الباطل في سرعة اضمحلاله ووشك زواله وانسلاخه عن المنفعة ، بزبد السيل وخبث المعدن . فإنه - وإن علا وارتفع واتفخ - إلا أنه أخيراً يضمحل ؛

وكذلك الشبهات والتعميمات الزائفة قد تقوى وتعظم . إلا أنها في الآخرة تبطل وتضمحل وتزول ، ويبقى الحق ظاهراً لا يشوبه شئ من الشبهات . لأنه لا بقاء إلا للنافع . وما تصارع الحق والباطل ، إلا وفاز الحق بقرنه . . . !

الثاني - قوله تعالى (بِقَدَرِهَا) صفة (أودية) ، أو متعلق بـ (سالت) أو (أنزل) .
وقرأ عامة القراء بفتح الدال ، وقرأ زيد بن علي والأشهب وأبو عمرو ، في رواية ، بسكونها .
الثالث - قوله تعالى (احْتَمَل) بمعنى حمل ، فالزيد بمعنى المجرى - كذا قيل . ويظهر لي :
أن إثارته عليه لزيادة في معناه ، وقوة في مبناه !

الرابع - الأودية جمع واد . وهو مفرج بين جبال أو تلال أو آكام . والإسناد إليه مجاز عقلي ، كما في (جرى النهر) .

قال السمين : وإنما نكّر الأودية وعرف السيل ، لأن المطر ينزل في البقاع على المناوبة فيسيل في بعض أودية الأرض دون بعض . وتعريف السيل لأنه قد فهم من الفعل قبله وهو (فسالت) ، وهو لو ذكر لكان نكرة . فلما أعيد أعيد بلفظ التعريف نحو : رأيت رجلاً فأكرمت الرجل . انتهى .

وأصله لأبي حيان حيث قال : عرف السيل لأنه عني به ما فهم من الفعل . والذي يتضمنه الفعل من المصدر وإن كان نكرة ، إلا أنه إذا عاد في الظاهر كان معرفة . كما كان لو صرح به نكرة . وكذا يضم إذا عاد على ما دل عليه الفعل من المصدر نحو : من كذب كان شراً له ، أي الكذب . ولو جاء هنا مضمراً لكان جائزاً عائداً على المصدر المفهوم من (فسالت) . وأورد عليه : أنه كيف يجوز أن يعنى به ما فهم من الفعل وهو حدث ، والمذكور المعروف عني ، فإن المراد به الماء السائل ؟ وأجيب : بأنه بطريق الاستخدام !

قال الشهاب : وهو غير صحيح ، لا تكلف - كما قيل - لأن الاستخدام أن يذكر لفظ بمعنى ويماد عليه ضمير بمعنى آخر . سواء كان حقيقةً أو مجازياً ؛ وهذا ليس كذلك . لأن الأول

مصدر ، أى حدث فى ضمن الفعل ، وهذا اسم عين ظاهر يتصف بذلك الحدث ، فكيف يتصور فيه الاستخدام ؟ نعم ! ما ذكره أغلبى لا يختص بما ذكر ، فإن مثل الضمير اسم الإشارة ، وكذا اسم الظاهر كما فى قول بعضهم :

* أخت الغزاة إشرافاً وملفتاً *

فالحق أنه إنما عرّف لكونه معهوداً مذكوراً بقوله (أودية) وإنما لم يجمع لأنه مصدر بحسب الأصل .

الخامس - قوله تعالى (وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ) جملة أخرى معطوفة على الجملة الأولى ، لضرب مثل آخر . و (زبد) مبتدأ قدم عليه خبره ، و (من) فى (مما) للابتداء أى : نشأ منه ، وجوز كونها للتبعيض أى : هو بعضه ؛ وردّه أبو السعود بأنه يخل بالتمثيل . وقوله (فِي النَّارِ) صفة مؤسسة ؛ لأن الموقد عايه يكون فى النار وملاصقاً لها ، وقيل : إنها مؤكدة . وقال أبو السعود : فى زيادة النار إشعار بالمبالغة فى الاحتمال للإذابة وحصول الزبد . وعدم التعرض لإخراجه من الأرض لعدم دخل ذلك العنوان فى التمثيل ، كما أن لعنوان إنزال الماء من السماء دخلاً فيه حسبما فصل فيما سلف ، بل له إخلال بذلك . وسرّ التعبير بالموصول فى قوله (وَمِمَّا يُوقِدُونَ) الخ الإيجاز بجمعه لأنواع المعادن مع إظهار الكبرياء بالتهاون بها ، كأن أشرف الجواهر خميس عنده تعالى ، إذا عبّر عن سبكه بإيقاد النار به ، المشعر بأنه كالخطب الخسيس ، وصوره بحالة هي أخط حالاته . وهذا لا ينافى كونه ضرباً مثلاً للحق . لأن مقام الكبرياء يقتضى التهاون به ، مع الإشارة إلى كونه مرغوباً فيه منتفعاً به بقوله (ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ) فوقى كلاً من المقامين حقه .

السادس - قدمنا أن قوله تعالى (كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ) على حذف مضاف ، أى مثاهما ، وسرّ الحذف الإنباء عن إكمال التماثل بين المثل والمثل به . كأن المثل المضروب عين الحق والباطل .

السابع : بدأ بالزبد في البيان في قوله (فَأَمَّا الزَّبَدُ) وهو متأخر في الكلام السابق ، لأن في التقسيم يبدأ بالمؤخر كما في قوله ^(١) (يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ ...) الخ وقد راعى الترتيب فيه . ولك أن تقول النكته فيه أن الزبد هو الظاهر المنظور أولاً ، وغيره باقٍ متأخر في الوجود لاستمراره . والآية من الجمع والتقسيم ، على ما فصله الطيبي - كذا في (العناية)

الثامن - قوله تعالى (كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ) تفخيم لشأن هذا التمثيل وتأكيده لقوله (كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ) إما باعتبار ابتداء هذا على التمثيل الأول ، أو بجمل ذلك إشارة إليهما - كذا في أبي السمود .
التاسع - أشار الحافظ ابن كثير إلى كثرة ضرب الأمثال النارية والمائية في التنزيل والسنة ، قال :

وقد ضرب سبحانه وتعالى في أول سورة البقرة للمنافقين مَثَلَيْنِ - ناري ومائي - وهو قوله ^(٢) (مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ...) الآية ، ثم قال ^(٣) (أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ ...) الآية ؛ وهكذا ضرب للكافرين في سورة الفجر مَثَلَيْنِ أحدهما قوله ^(٤) (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ ...) الآية ، والسراب إنما يكون في شدة الحر ؛ ولهذا جاء في (الصحيحين) ^(٥) : (فيقال لليهود يوم القيامة : فما تريدون ؟ فيقولون ؟ أي ربنا ! عطشنا فاسقنا . فيقال : ألا ترُدُّون ؟ فیرِدُّونَ

(١) [٣ / آل عمران / ١٠٦] . (٢) [٢ / البقرة / ١٧] .

(٣) [٢ / البقرة / ١٩] . (٤) [٢٤ / النور / ٣٩] .

(٥) أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٤ - سورة النساء ، ٨ - باب إن الله

لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ، حديث رقم ٢١ ، عن أبي سعيد الخدري .

وأخرجه مسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث رقم ٣٠٢ (طبعتنا) .

النار، فإذا هي كسراب يحطم بعضها بعضاً) . ثم قال تعالى في المثل الآخر ^(١) (أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجْجٍ . . .) الآية . وفي (الصحيحين) ^(٢) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال : إن مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً فكان منها طائفة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير . وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وروعوا وسقوا وزرعوا . وأصاب طائفة منها أخرى . إنما هي قيمان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأً فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه الله بما بعثنى، ونفع به فعمله وعلمه ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به ، فهذا مثل الماء . وفي (مسند الإمام أحمد) ^(٣) عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : مثلي ومثلكم كمثل رجل استوقد ناراً ، فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش وهذه الدواب التي يقعن في النار ، يقعن فيها . وجعل يحجزهن ويغلبهن فيقتحمهن فيها . قال : فذلكم مثلي ومثلكم . أنا آخذ بحجزكم عن النار : هلم عن النار ! فتغلبوني فتقتحمون فيها . . . وأخرجه في (الصحيحين) ^(٤) أيضاً . فهذا مثل نارى . انتهى .

ولما بين سبحانه شأن كلٍّ من الحق والباطل حالاً ومآلاً ، تأثره ببيان حال أهل كلٍّ منهما مآلاً . ترغيباً وترهيباً ، بقوله :

(١) [٢٤ / الفور / ٤٠] .

(٢) أخرجه البخارى في : ٣ - كتاب العلم ، ٢٠ - باب فضل من علم وعلم ، حديث ٦٨ .

وأخرجه مسلم في : ٤٣ - كتاب الفضائل ، حديث رقم ١٥ (طبعنا) .

(٣) أخرجه في مسنده بالصفحة رقم ٢٤٤ من الجزء الثانى (طبعة الحلبي) .

والحديث رقم ٧٣١٨ (طبعة المعارف) .

(٤) أخرجه البخارى في : ٨١ - كتاب الرقاق ، ٢٦ - باب الانتهاء عن المعاصى ،

حديث رقم ١٦١٠ .

وأخرجه مسلم في : ٤٣ - كتاب الفضائل ، حديث رقم ١٧ (طبعنا) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨] لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ ، وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ، أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمُ جَهَنَّمُ ، وَبِئْسَ الْمِهَادُ)

« لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ » أى : للمؤمنين الذين استجابوا لربهم بطاعته وطاعة رسوله ، والتموه الحسنى كما قال تعالى ^(١) : (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ) الحسنى مبتدأ قدم عليه خبره الموصول « وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ » وهم الكفرة « لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ » أى : بما فى الأرض ومثله معه من أصناف الأموال ، ليتخلصوا عما بهم . وفيه من تهويل ما يلقاهم ما لا يحيط به البيان ولأجله عدل عن أن يقال : وللذين لم يستجيبوا السوءى ، كما تقتضيه المقابلة « أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ » أى : فى الدار الآخرة ، فيناقشون على الجليل والحقير « وَمَأْوَاهُمُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ » أى : المستقر . وفى قوله (وَمَأْوَاهُمُ جَهَنَّمُ) إشعار بتفسير الحسنى بالجنة ، لانقضاءها من مقابلتها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩] (أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ، إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ)

« أَفَمَنْ يَعْلَمُ » أى يصدق « أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ » يعنى القرآن « الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ » أى : كمن لا يعلم ذلك ، إلا أنه أريد تقييح حاله فعبر عنه بالأعمى « إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ » أى : العقول البراة عن مشايعة الإلـف ومتابعة الوهم .

(١) [١٠ / يونس / ٢٦] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ)

« الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ » أى : مما كلفهم به « وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ » أى : ما وثقوه على أنفسهم وقبلوه من الإيمان بالله وغيره من المواثيق بينهم وبين العباد ، وهو تعميم بعد تخصيص ، وفيه تأكيد للاستمرار المفهوم من صيغة المستقبل - أفاده أبو السمود .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢١] (وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ

سُوءَ الْحِسَابِ)

« وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ » أى : من أرحمهم وقراباتهم وإخوانهم المؤمنين ، بالإحسان إليهم على حسب الطاقة ونصرتهم والذب عنهم والشفقة عليهم والنصيحة لهم وكف الأذى عنهم « وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ » أى : يعملون له أو يخافون وعيده فلا يعصونه فيما أمر « وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ

سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ)

« وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ » أى : يدفعون بالكلام الحسن الكلام السيئ إذا خاطبهم به الجاهلون كما قال تعالى ^(١) : (اذْفَعْ بِاللَّيْلِ هِيَ أَخْسَنُ ...) الآية ، أو يتبعون

(١) [٢٣ / المؤمنون / ٩٦] .

السيئة الحسنة لتحوها « أُولَئِكَ لَهُمْ عُقُوبَى الدَّارِ » أى: عاقبة الدنيا وهى الجنة. لأنها مرجع أهلها . فتعريف الدار للمهد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ،

وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ)

[٢٤] (سَلَامٌ عَلَيْهِمْ بِمَا صَبَرْتُمْ ، فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ)

« جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ » أى : آمن ووحد وعمل صالحاً من هؤلاء .

قال أبو السعود : وفى التقييد بالصالح قطع للأطباع الفارغة لمن يتمسك بمجرد حبلى الأنساب .

وأصله للزجاج حيث قال : بين تعالى أن الأنساب لا تنفع إذا لم يحصل معها أعمال صالحة ، بل الآباء والأزواج والذريات لا يدخلون الجنة إلا بالأعمال الصالحة .

وقرى - شاذاً - بضم لام (صَلَحَ) . قال الزمخشري : والفتح أنصح .
« وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْهِمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ » .

ثم بين تعالى مآل مقابل الفريق الأول بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ

يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ)

« وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ

وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أَوْ آلَتْكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ « أى : عذاب جهنم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ، وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ)

« اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ؛ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ » هذا كقوله تعالى ^(١) (أَيْخُسَبُونَ أَنَّ مَا نُعِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ * فَسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ) . وتفكير (متاع) للتقابل كفى آية ^(٢) (قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تظْلَمُونَ فَتِيلًا) وقال ^(٣) : (بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ، قُلْ : إِنْ اللَّهُ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ)

« وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا : لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ » كقولهم ^(٤) : « (فَلْيَسْأَلْنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ) وتقدم الكلام على هذا غير مرة . وقوله تعالى : « قُلْ إِنْ اللَّهُ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ » جملة جرت مجرى التعجب من قولهم ، مشيرة إلى أنه من باب العناد والافتراح لما لا تقتضيه الحكمة من الآيات المحسوسة التى لا يعقل أحد بعد مجيئها ، لا من باب طلب الهداية . وإلا فلو كان بغيتهم طلب الهداية بآية لكفاهم إزال هذا الكتاب من مثله ، صلوات الله عليه ، فإنه آية الآيات . ! ولكنهم قوم

(١) [٢٣ / المؤمنون / ٥٥] . (٢) [٤ / النساء / ٧٧] .

(٣) [٨٧ / الأعلى / ١٦ و ١٧] . (٤) [٢١ / الأنبياء / ٥] .

آثروا الضلال على الهدى ، زاغوا عنه فأزاح الله قلوبهم . فطوى ما دل عليه هذه الجملة ، إيجازاً للعلم بها .

قال أبو السعود : (قُلْ : إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ) إضلاله مشيئة تابعة للحكمة الداعية إليها ، أى يخلق فيه الضلال لصرفه اختياره إلى تحصيله ، ويدعه منهمكاً فيه . لعله بأنه لا ينجع فيه اللطف ولا ينفعه الإرشاد كمن كان على صفتكم فى المكابرة ، والعناد ، والغلو فى الفساد . فلا سبيل له إلى الاهتداء ، ولو جاءته كل آية . ثم قال : (وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ) أى : أقبل إلى الحق وتأمل فى تضايف ما نزل من دلائله الواضحة . وحقيقة الإنابة الدخول فى نوبة الخير . وإيثار إيرادها فى الصلة على إيراد المشيئة ، كما فى الصلة الأولى ، للتنبيه على الداعى إلى الهداية بل إلى مشيئتها ، والإشعار بما دعا إلى المشيئة الأولى المكابرة . وفيه حث للكفرة على الإقلاع عما هم عليه من العتو والعناد . وإيثار صيغة الماضى للإيماء إلى استدعاء الهداية لسابقة الإنابة ، كما أن إيثار صيغة المضارع فى الصلة الأولى للدلالة على استمرار المشيئة حسب استمرار مكابرتهم ، انتهى .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ ، أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)

« الَّذِينَ ءَامَنُوا » بدل من (من أناب) أى : آمنوا بالله ورسوله وكتابه « وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ » أى تسكن وتخشى عند ذكره ، وترضى به مولى ونصيراً . والمدول إلى صيغة المضارع لإفادة دوام الاطمئنان واستمراره « أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ » أى : بذكره دون غيره تسكن القلوب أنساً به ، واعتماداً عليه ، ورجاء منه ؛ وقد ر بعضهم مضافاً .

أى بذكر رحمته ومغفرته ، أو بذكر دلائله الدالة على وحدانيته ؛ ورأى آخرون أن المراد

(بذكر الله) القرآن ، لأنه يسمى ذكراً ، كما قال تعالى ^(١) : (وَهَذَا ذِكْرُ مُبَارَكٍ أَنْزَلْنَاهُ) وقال سبحانه : ^(٢) : (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) لأنه آية بينة تسكن القلوب وتثبت اليقين فيها . وهذا المعنى يناسب قوله ^(٣) : (لَوْ لَا أَنْزَلْ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ) أى : هؤلاء ينكرون كونه آية . والمؤمنون يعملون أنه أعظم آية تطمئن لها قلوبهم ويرد اليقين . قال الشهاب : وهو أنسب الوجوه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحَسَنُ مَاٰبٍ)

« الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحَسَنُ مَاٰبٍ » الموصول إما مبتدأ (طوبى لهم) مبتدأ ثان وخبر فى موضع الخبر الأول ، وإما خبر لـخذوف أى هم ، وإما بدل من (أناب) وجمله (طوبى لهم) دعائية أو خبرية .

قال الزمخشري : (طوبى) مصدر من (طاب) كبشرى وزلفى ، ومعنى (طوبى لك) أصبت خيراً وطيباً . ومحملها النصب أو الرفع . كقولك . طيباً لك وطيب لك ، وسلاماً لك وسلام لك . والقراءة فى قوله (وحسن مايب) بالرفع والنصب تدل على محليها ، واللام فى (لهم) للبيان مثلها فى (سقياً لك) ، والواو فى (طوبى) منقلبة عن ياء ، لضمه ما قبلها . قال ثعلب : قرئ طوبى لهم بالتثنية .

قال الفاسى : ومن نون (طوبى) جملة مصدراً بغير ألف كسقياً وزعم بعضهم : أنها كلمة أعجمية . وفى (لسان العرب) عن قتادة : أنها كلمة عربية ، تقول العرب : طوبى لك إن فعلت كذا وكذا ! وأنشد :

طوبى لمن يستبدل الطودَ بالقرى ورسلاً بيقطين العراقِ وقومها

السل اللبن ، والطود : الجبل ، والفوم : الخبز والحنطة - كذا فى (تاج العروس) .

(١) [٢١ / الأنبياء / ٥٠] . (٢) [١٥ / الحجر / ٩] . (٣) [١٠ / يونس / ٢٠] .

[٣٠] (كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لَتَتْلُو عَلَيْهُمْ الَّذِي
أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ ، قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ
تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَاب)

« كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ » أى مضت « مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لَتَتْلُو عَلَيْهُمْ
الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ » أى : لتبلغهم هذا الوحي العظيم والذكر الحكيم ، كما بلغ من خلا قبلك
من المرسلين أممهم . وقوله : « وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ » جملة حالية أو مستأنفة أى :
يكفرون بالبالغ الرحمة ، الذى وسعت رحمته كل شيء . والمدلول إلى المظهر الدال على الرحمة ، إشارة
إلى أن الإرسال نائى منها ، كما قال تعالى ^(١) (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) وإلى أنهم لم
يشكروا نعمة هذا الوحي الذى هو مدار المنافع الدينية والدنيوية ، وإلى أن الرحمن من أسمائه الحسنى
ونعوته العليا ، وقد كانوا يتجافون هذا الاسم الكريم ، ولهذا لم يرضوا يوم الحديبية ^(٢) أن
يكتبوا (بسم الله الرحمن الرحيم) وقالوا : ما ندرى ما الرحمن الرحيم ؟ كما فى الصحيح . وقد
قال تعالى ^(٣) (قُلْ اذْعُوا اللَّهَ أَوْ اذْعُوا الرَّحْمَنَ) . وفى (صحيح مسلم) ^(٤) عن ابن عمر
مرفوعا : (أحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن) .

« قُلْ هُوَ » أى : الرحمن الذى كفرتم به وأنكرتم معرفته « رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَاب » أى : توبتى وإنابتى . فإنه لا يستحق ذلك غيره . ثم أشار
تعالى إلى عظمة هذا الوحي وتفضيله على ما سواه بقوله :

(١) [٢١ / الأنبياء / ١٠٧] . (٢) حديث يوم الحديبية أخرجه البخارى فى :

٥٤ - كتاب الشروط ، ١٥ - باب الشروط فى الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة

الشروط ، حديث رقم ٨٨١ و ٨٨٢ عن المسور بن مخرمة ومروان ، وهو حديث طويل جامع ،

فلا يفوتك الاطلاع عليه . ففيه غنى كبير . (٣) [١٧ / الإسراء / ١١٠] .

(٤) أخرجه مسلم فى : ٣٨ - كتاب الآداب ، حديث رقم ٢ (طبعنا) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣١] (وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ ، بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا ، أَلَمْ يَأْسِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ، وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ) « وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا » أى قرآنًا ما « سُيِّرَتْ بِهِ » أى : بإزاله أو بتلاوته « الْجِبَالُ » أى أذهبت عن مقارها ، وزعزت عن أماكنها « أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ » أى : شُقَّتْ حتى تمصدع وتصير قطعاً « أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ » أى خوطبت بعد أن أحييت بتلاوته عليها ، والجواب محذوف أى : لكان هذا القرآن ؛ لكونه غاية في الهداية والتذكير ، ونهاية في الإنذار والتخويف . وعلى هذا التقدير ، فالقصد بيان عظم شأن القرآن وفساد رأى الكفرة حيث لم يقدروا قدره العلى ولم يعدوه من قبيل الآيات . فافترحوا غيره مما أوتى موسى وعيسى عليهما السلام . وقدر الزجاج الجواب (لما آمنوا به) كقوله : ^(١) (وَلَوْ أَنَّ نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ . . .) الآية ، وعليه فالقصد بيان غلومهم في المكابرة والتمناد وتماديهم في الضلال والفساد .

ونقل عن الفراء ؛ أن الجواب مقدم عليه وهو قوله (وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ) وما بينهما اعتراض . وفيه بعد وتكلف . وأشار بمضهم إلى أن مراده أنها دليل الجواب ؛ والتذكير فى (كلم) لتغليب المذكور من الموتى على غيره .

وقوله تعالى « بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا » أى : له الأمر الذى عليه يدور فلك الأكوان وجوداً وعدمًا ، يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد لما يدعو إليه من الحكم البالغة وهو إضراب عما تضمنته (لو) من معنى النفى ، أى : لو أن قرآنًا فعل به ما ذكر لكان هذا القرآن .

(١) [٦ / الأنعام / ١١١] .

ولكن لم يفعل بل فعل ما عليه الشأن الآن . لأن الأمر كله له وحده . وعلى تقدير الزجاج السالف ، فالإضراب متوجه إلى ما سلف من اقتراحهم مع كونهم في العناد على ما شرح .
أى : فليس لهم ذلك بل لله الأمر جميعا . إن شاء أتى بما اقترحوا وإن شاء لم يأت به حسبما تستدعيه داعية الحكمة ، من غير أن يكون لأحد عليه تحكم أو اقتراح . كذا فى
أبى السعود .

وقوله تعالى « أَفَلَمْ يَبَيِّنْ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءَ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا » أى :
أفلم يعلم ويتبين كقوله (١) :
أَلَمْ يَبَيِّنْ لِّلْأَقْوَامِ أَنِّي أَنَا ابْنُهِ وَإِنْ كُنْتُ عَنْ أَرْضِ الْعَشِيرَةِ نَائِيًا
وقوله (٢) :

أقول لهم بالشَّعْبِ إِذْ يَسِرُّونَنِي أَلَمْ تَيَّأَسُوا أَنَّى ابْنُ فَارِسٍ زَهْدَمَ
أى : أَلَمْ تَعْلَمُوا ! ويديرونى من إيسار الجزور ، أى يقسموننى ، ويروى : يأمروننى
من (الأسر) . أى : أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ تَعَالَى لَوْ شَاءَ هَدَايَتَهُمْ لَهْدَاهُمْ ، لأن الأمر له . ولكن قضت
الحكمة أن يكون بقاء التكليف على الاختيار .

« وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا » أى : من أهل مكة « تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ »
أى : بسبب ما صنعوه من الكفر والتماذى فيه . وعدم بيانه لهويله أو استهجانه . والقارعة :
الداهية التى تفرع وتقلق ، يعنى ما كان يصيبهم من أنواع البلايا والمصائب من القتل والأسر

(١) انظر أساس البلاغة بالصفحة رقم ٥٥٨ من الجزء الثانى .

ومعجم غريب القرآن صفحة ٢٣٢ و ٢٩١ (طبعنا) .

(٢) انظر مجاز القرآن ، لأبى عبيدة ، الصفحة رقم ٣٣٢ من الجزء الأول ، والبيت رقم ٣٨٣ .

وانظر تفسير الطبرى بالصفحة رقم ١٥٣ من الجزء الثالث عشر (طبعة الحلبي الثانية) .

وانظر أساس البلاغة بالصفحة رقم ٥٥٨ من الجزء الثانى .

والنهب والسلب « أَوْ تَحُلْ » أى : تلك القارعة « قَرِيْبًا » أى : مكانا قريبا « مِنْ دَارِهِمْ » فيفزعون منها ويتطايروا إليهم شررها « حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ » أى : فتح مكة « إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ » أى : لا ينقض وعده لرسله بالنصرة لهم ولأتباعهم فى الدنيا والآخرة ، كما قال تعالى (١) : (فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ) وفى الآية وجه آخر ، وهو حمل (الذين كفروا) على جميع الكفار أى : لا يزالون ، بسبب تكذيبهم ، نصيبهم التوارع فى الدنيا أو نصيب من حولهم ليعتبروا ، كقوله تعالى (٢) : (وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنْ الْفُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) وقوله (٣) : (أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ، أَفَهُمُ الْغَابِئُونَ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ)

« وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا » أى : أمهلتهم وتركتهم ملاوة من الزمن ، فى أمن ودعة ، كما على البهيمة فى المرعى « ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ » أى : عقابى إياهم . وفيه من الدلالة على فظاعته ما لا يخفى . والآية تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عما لقي من المشركين من التكذيب والافتراح ، على طريقة الاستهزاء به ، ووعيد لهم .

(١) [١٤ / إبراهيم / ٤٧] . (٢) [٤٦ / الأحقاف / ٢٧] .

(٣) [٢١ / الأنبياء / ٤٤] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ، وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ، أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بَيِّظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ ، بَلْ زَيْنٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ ، وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ) « أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ » أى : مراقب لأحوالها ومشاهد لها ، لا يخفى عليه ما تكسبه من خير أو شر . فهو مجاز ، لأن القائم على الشيء عالم به ، ولذا يقال : وقف عليه - إذا علمه فلم يخف عليه شيء من أحواله ، والخبر محذوف تقديره : كمن ليس كذلك - وإنما حذف اكتفاءً بدلالة السياق عليه وهو قوله : « وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ » أى : عبدوها معه من أصنام وأنداد وأوثان وقوله : « قُلْ سَمُّوهُمْ » تبكيت لهم إثر تبكيت ، أى : سمّوهم من هم ، وماذا أسماؤهم ؟ فإنهم لاحقيقة لهم ! أو صفوهم وانظروا هل لهم ما يستحقون به العبادة ويستأهلون الشراكة ؟

وقال الرازى : إنما يقال ذلك فى الأمر المسحق الذى بلغ فى الحقارة إلى الا يذكر ولا يوضع له اسم ، فعند ذلك يقال : سمّه إن شئت ، يعنى : أنه أخس من يسمّى ويذكر ، ولكنك إن شئت أن تضع له اسماً فافعل . فكأنه تعالى قال : سمّوهم بالآلهة ، على سبيل التهديد ، والمعنى : سواء سمّيتهم بهذا الاسم أو لم تسموهم به ، فإنها فى الحقارة بحيث لا تستحق أن يلتفت العاقل إليها .

« أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ » أى : بشركاء لا يعلمهم سبحانه . وإذا كان لا يعلمهم ، وهو عالم بكل شيء مما كان ومما يكون ، فهم لاحقيقة لهم . فهو نفى لهم بنفى لازمهم على طريق الكناية .

قال الناصر : وحقيقة هذا النفي أنهم ليسوا بشركاء وأن الله لا يعلمهم كذلك لأنهم ليسوا كذلك ، وإن كانت لهم ذوات ثابتة يعلمها الله ، إلا أنها مربوبة حادثة لا آلهة معبودة . ولكن

محىء النفى على هذا السنن المتلو بدیع لا تسكتنه بلاغته وبراعته . ولو أتى الكلام على الأصل غير محلى بهذا التصريف البديع لكان : وجعلوا لله شركاء وما هم بشركاء . فلم يكن بهذا الموقع الذى انقضت التلاوة .

وقوله تعالى « أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ » أى : بل أئسمونهم شركاء بظاهر من القول من غير أن يكون لذلك حقيقة ، كتسمية الزنحى كافوراً من غير بياض فيه ولا رائحة طيبة ، لفرط الجهل وسخافة العقل ، وهذا كقوله تعالى ^(١) : (ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ) . (مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا) ^(٢) . وعن الضحاك : إن الظاهر بمعنى الباطل ، كقوله ^(٣) :

وذلك عارٌ يا ابن ربيعة ظاهراً . .

تنبيه :

قال الزخشرى : هذا الاحتجاج وأسايبه المجيبة التى ورد عليها ، منادى على نفسه بلسان طلاق ذلق ؛ أنه ليس من كلام البشر لمن عرف وأنصف من نفسه .

قال شارحوه : فإن قوله تعالى (أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ) لما كان كافياً فى هدم قاعدة الإشراف مع السابق واللاحق وماض من زيادات النكت ، وكان إبطالاً من طريق حق ، مذهباً بإبطال من طرف النقيض على معنى : ليتهم إذا أشركوا بمن لا يجوز أن يشرك به ، أشركوا من يتوهم فيه ذلك أدنى توهم ، وروى فيه أنه لا أسماء للشركاء ولا حقيقة لها فضلاً عن المسمى على السكناية الإيمائية . ثم بوانغ بأنها لا تستأهل أن يسأل عنها على السكناية التلويحية استدلالاً بنفى العلم عن نفى المعلوم . ثم منه إلى عدم الاستئصال مع التوبيخ ، وتقدير أنهم يريدون أن ينبشوا عالم السرائر والخفيات بما لا يعلوه وهو محال على محال . وفى جعل اتخاذهم شركاء .

(١) [٩ / التوبة / ٣٠] . (٢) [١٢ / يوسف / ٤٠] .

(٣) لم أعرف تمام البيت ، ولا من هو قائله ، ولم أهدد إليه فيما بين يدي من الكتب .

فن داره فليثبته هنا مشكوراً مأجوراً .

ومجادلة الرسول عليه الصلاة والسلام إنباء له تعالى ، نكتة بل نكت سرية . ثم أضرب عن ذلك وقيل : قد بين الشمس لدى عيين وماتلك التسمية إلا بظاهر من القول لا طائل تحته بل هو صوت فارغ .

فمن تأمل حق التأمل ، اعترف بأنه كلام خالق القوى والقدر ، الذى تقف دون أستار أسرارهم أفهام البشر ... !

وقوله تعالى : « بَلْ زَيْنَ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ » إضراب عن الاحتجاج عليهم . كأنه قيل : دع ذكر ما كنا فيه من الدلائل على فساد قولهم . لأنه زين لهم كفرهم ومكرهم ، فلا ينفعمون بهذه الدلائل .

وقوله تعالى :

« وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ » أى : عن سبيل الله ، وقرئ : بفتح الصاد أى : صدوا الناس « وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ » أى : يخلق فيه الضلال بسوء اختياره ، أو يحذله « فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ » أى : من أحد يهديه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَعَذَابٌ آخِرٌ أَشَقُّ ، وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ

مِنْ وَّاقٍ)

« لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » وهو ما نالهم على أيدي المؤمنين ، أو مافيه من عذاب الحيرة والضلالة . فإن نفس غير المؤمنين فى نكد مستمر وداء دوى لا برء له إلا الإيمان . كما فصل فى موضع آخر « وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ » أى : من عذاب الدنيا كمًا وكيفًا « وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَّاقٍ » أى : حافظ يعصمهم من عذابه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ ، تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، أُكُلُهَا دَائِمٌ

وَوَظِلُّهَا ، تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا ، وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ)

« مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ » أى عن الكفر والمعاصى « تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا

الْأَنْهَارُ ، أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ، تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا ، وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ » .

في الآية وجوه من الإعراب :

(الأول) : أن (مثل) مبتدأ خبره محذوف ، أى : فيما يقص وبتلى عليكم صفة الجنة ،

وجملة (تَجْرَى) مفسرة أو مستأنفة استثنافاً بيانياً أو حال من ضمير (وعد) أى : وعدها

مقدراً جريان أنهارها . وهذا الوجه سالم من التكلف ، مع مافيه من الإيجاز والإجمال

والتفصيل . وقدّر الخبر فيه مقدماً لطول ذيل المبتدأ ، أو لئلا يفصل به بينه وبين مايفسره ،

أو ما هو كالمفسر له .

(الثانى) : أن خبره (تَجْرَى) - على طريقة قولك : صفة زيد أسمر - قيل : هو غير

مستقيم معنى ، لأنه يقتضى أن الأنهار فى صفة الجنة . وهى فيها ، لافى صفتها . مع تأنيث

الضمير المائد على المثل حملاً على المعنى .

(الثالث) : أن ثمة موصوفاً محذوفاً ، أى : مثل الجنة جنة تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ،

وقوله (وظلها) مبتدأ محذوف الخبر أى : كذلك .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (وَالَّذِينَ اتَّيْنَاهُمْ بِالْكِتَابِ يُفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ ، وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ ، قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ ، إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَآبٌ)

وَالَّذِينَ اتَّيْنَاهُمْ بِالْكِتَابِ يُفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ » لأنه يحصل لهم به من المعاني والدلائل وكشف الشبهات ما لم يحصل لهم من تلك الكتب السالفة . قيل : عني بهم الذين آمنوا بالنبي ﷺ من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام ، فإنهم يفرحون بما أنزل من القرآن ؛ لما يرون فيه من الشواهد على حقيقته التي لا يمتري فيها ، ومن المعارف والمزايا الباهرة التي لا تحصى كما قال تعالى ^(١) : (الَّذِينَ اتَّيْنَاهُمْ بِالْكِتَابِ يَقُولُونَ حَقٌّ نَلَاوَنَهُ) . « وَمِنَ الْأَحْزَابِ » يعني بقية أهل الكتاب والمشركين « مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ » وهو ما يخالف معتقدهم ، وجوز أن يراد (بالموصول) من يفرح به منهم لمجرد تصديقه لما بين يديه وتعظيمه له وإن لم يؤمنوا . و (بـ) (الأحزاب) المشركون ، خاصة المنكرين لما فيه من التوحيد . ولذا أمر برد إنكارهم بقوله تعالى : « قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا » أي : لا إلى غيره « وَإِلَيْهِ مَآبٌ » أي : مرجى للجزاء ، لا إلى غيره .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (وَكَذَلِكَ أُنْزِلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ، وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ

مِنَ الْعِلْمِ مَالَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ)

« وَكَذَلِكَ أُنْزِلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا » أي : حاكماً بالحق ، أو حكمة عربية « وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ

(١) [٢ / البقرة / ١٢١] .

أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ « أى لئن تابعتهم على دين، ماهو إلا أهواء بعد ثبوت العلم عندك بالبراهين والحجج فلا ينصرك ناصر ولا يقيك واق . وهذا من باب الإلهاب والتهيج والبعث للسامعين على الثبات فى الدين والتصلب وأن لا يزل زال عند الشبهة بعد استمساكه بالحجة ، وإلا فكان رسول الله ﷺ من شدة الشكيمة بمكان - كذا فى (الكشاف) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ، وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ، لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ)

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً » أى : مثل إبراهيم وإسحاق ويعقوب وغيرهم وهورد لقولهم : لو كان نبياً لكان من جنس الملائكة كما قالوا^(١) : (مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ) ، وإعلام ، بأن ذلك سنة كثير من الرسل ، فما جاز فى حقهم ليم لا يجوز فى حقه ؟ وقد قال تعالى له^(٢) : (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مُثَلِّمُكُمْ يُوسَى إِلَى) . « وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ » أى : ما صح له ولا استقام ولم يكن فى وسعه أن يأتى بما يقترح عليه ، إلا بإرادته تعالى فى وقته ، لأن الآيات معينة بإزاء الأوقات التى تحدث فيها ، من غير يغير وتبدل وتقدم وتأخر . فأمرها منوط بمشيئته تعالى ، المبنية على الحكم والمصالح التى عليها بدور أمر الكائنات « لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ » أى لكل وقت من الأوقات أمر مكتوب ، مقدّر معين أو مفروض فى ذلك الوقت على الخلق حسب تقضيه الحكمة . فالشرائع معينة عند الله بحسب الأوقات ، فى كل وقت يأتى ، بما هو صلاح ذلك الوقت ، رسول من عنده ، وكذا جميع الحوادث من الآيات

(١) [٢٥ / الفرقان / ٧] . (٢) [١٨ / الكهف / ١١٠] .

وغيرها فليس الأمر على إرادة الكفار واقتراحاتهم ، بل على حسب ما يشاؤه تعالى ويختاره .
وفيه ردّ لاستعجالهم الآجال وإتيان الخوارق والعذاب .

القول في قأويل قوله تعالى :

[٣٩] (يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ)

« بَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ » أى : ينسخ ما يشاء نسخه من الشرائع لما تقتضيه الحكمة بحسب الوقت « وَ يُثَبِّتُ » أى بدّله ما فيه المصلحة ، أو يبقيه على حاله غير منسوخ « وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ » أى : أصله .

قال الرازى : العرب تسمى كل ما يجرى مجرى الأصل للشيء أمّا له ، ومنه أم الرأس للدماغ وأم القرى لسكة . وكل مدينة فهي أم لما حولها من القرى . فكذلك أم الكتاب هو الذى يكون أصلاً لجميع الكتب . روى على بن أبى طلحة^(٢) عن ابن عباس فى الآية يقول : يبذل الله ما يشاء فينسخه ويثبت ما يشاء فلا يبدله (وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ) يقول : وجعله ذلك عنده فى أم الكتاب الناسخ والمنسوخ . وما يبدل وما يثبت . كل ذلك فى كتاب . وعن قتادة : أن هذه الآية كقوله تعالى (مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا ...) الآية .

تنبية :

تمسك جماعة بظاهر قوله تعالى : (يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ) فقالوا : إنها عامة فى كل شيء كما يقتضيه ظاهر اللفظ . قالوا : يحو الله من الرزق ويزيد فيه . وكذا القول فى الأجل والسعادة والشقاوة والإيمان والكفر .

قال الرازى : هو مذهب عمر وابن مسعود . والقائلون بهذا القول كانوا يبدعون ويتضرعون إلى الله تعالى فى أن يجعلهم سعداء لا أشقياء . انتهى .

(١) انظر تفسير الطبرى ، الصفحة ١٦٩ من الجزء الثالث عشر (طبعة الحلبي الثانية) .

أشار بذلك إلى آثار أخرجهما ابن جرير^(١) عن عمر وابن مسعود . وليس في الصحيح شيء منها .

ظَهَرَ لِي * في دمر في ١٢ ربيع الأول سنة ١٣٢٤ :

إنَّ ما يستدل به الكثير من الآيات لمطلب ما ، أن يدقق النظر فيه تدقيقاً زائداً ، فقد يكون سياق الآية لأمرٍ لا يحتمل غيره ، ويظنَّ ظاناً أنه يستدل بها في بحثٍ آخر ، وقد يؤكده ما يراه من إطباق كثيرٍ من أرباب التصانيف على ذلك وإنما المدار على فهم الأسلوب والسياق والسباق .

خُذْ لَكَ مَثَلًا قَوْلَهُ تَعَالَى (يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ) فكم ترى من يستدل بها على العلم الملقى ، ومحو ما في اللوح الذي يسمونه (لوح المحو والإثبات) وبوردون من الإشكالات والأجوبة ما لا يجد الواقف عليه مقنعاً ولا مطمئناً . مع أنَّ هذه الآية ، لو تمعن فيها القارئ ، لعلم أنها في معنى غير ما يؤولهمون . وذلك أنهم كانوا يفترون على رسول الله ﷺ ، في أوائل البعثة ، أن يأتي بآية كآية موسى وعيسى . توهماً أن ذلك هو أقصى ما يدل على نبوة النبي في كل زمان ومكان . فأعلمهم الله تعالى أنَّ دور تلك الآيات الحسنية انقضى دورها وذهب عصرها . وقد استعبد البشر للتفتة إلى الآية العقلية ، وهي آية الاعتبار والتبصر . وإن تلك الآيات محيت كما محى عصرها . وقد أثبت تعالى غيرها مما هو أجلي وأوضح وأدل على الدعوة . وهو قوله تعالى قبلها : (وَمَا كَانَ

(١) انظر تفسير ابن جرير الطبري ، عن أثر عمر ، بالصفحة رقم ١٦٧ و١٦٨ من الجزء

الثالث عشر (طبعة الحلبي الثانية) .

وانظر كذلك ، عن أثر ابن مسعود ، بالصفحة رقم ١٦٨ من الجزء الثالث عشر

(طبعة الحلبي الثانية) .

* نقلت من دفتر للواردات والسوانح العلمية للمؤلف رحمه الله .

لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ . يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُنْثِتُ
وَعِنْدَهُ أُمُّ السُّكُوتِ (...)

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ
وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ)

« وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ » أى : من إزال العذاب في حياتك « أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ »
أى : قبل ذلك « فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ » أى : تبليغ الوحي « وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ » أى :
حسابهم وجزاؤهم . قال أبو حيان : جواب الشرط الأول (فذلك شافيك) والثاني (فلا لوم
عليك) وقوله تعالى (فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ...) الخ دليل عليهما .
وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤١] (أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ، وَاللَّهُ يَمْحُكُمُ
لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ، وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ)

« أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا » أى : أرض الكفرة . ننقصها
عليهم بإظهار دين الإسلام في أطراف ممالكهم .

قال ابن عباس : أى : أو لم يروا أنا نفقح للرسول الأرض بعد الأرض ؛ يعنى أن انتقاص
أحوال الكفرة وازدياد قوة المسلمين من أقوى العلامات على أنه تعالى ينفذ وعده ، ونظيره
قوله تعالى ^(١) : (أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ، أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ)

(١) [٢١ / الأنبياء / ٤٤] .

وقوله ^(١): (سَرُّهُمْ ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ ...) الآية .

قال الشهاب : هذا مرتبط بما قبله . يعني لم يؤخر عذابهم لإيهامهم ، بل لوقته المقدر ، أو ما ترى نقص ما في أيديهم من البلاد وزيادة ما لأهل الإسلام . ولم يخاطب النبي صلى الله عليه وسلم به تعظيماً له ، وخاطبهم تهويلاً وتنبيهاً عن سِنَّةِ الغفلة . ومعنى (نأتى الأرض) يأتينا أمرنا وعذابنا . انتهى .

وقيل : ننقصها من أطرافها بموت أهلها وتخريب ديارهم وبلادهم . فهؤلاء الكفرة كيف آمنوا من أن يحدث فيهم أمثال هذه الوقائع ؟ .

تنبية :

يذكرون - ها هنا - رواية عن ابن عباس ومجاهد : أن نقصها من أطرافها هو موت علماءها وفقهائها وأهل الخير منها . ويؤيد من يعتمد ذلك بأن الجوهرى حكى عن ثعلب : أن الأطراف يطلق على الأشراف جمع طَرَف وهو الرجل الكريم ، وشاهده قول الفرزدق ^(٢) :

وَأَسْأَلُ بِنَا وَبِكُمْ إِذَا وَرَدَتْ مَسْنَى
أَطْرَافُ كُلِّ قَبِيلَةٍ مَنْ يَتَّبَعُ

يريد أشراف كل قبيلة : فعنى الآية : أو لم يروا ما يحدث في الدنيا من الاختلافات : موت بعد حياة ، وذل بعد عز ، ونقص بعد كمال ! وإذا كان هذا مشاهداً محسوساً ، فما الذى يؤمنهم من أن يقلب الله الأمر عليهم فيذلهم بعد العزة ! ولا يخفئك أن هذا المعنى لا يذكره السلف تفسيراً للآية على أنه المراد منها ، وإنما يذكرونه تهويلاً لخطب موت العلماء بسبب

(١) [٤١ / فصلت / ٥٣] .

(٢) فى الديوان (صفحة ٥٢٦) من يسمع عوضاً عن (من يتبع) .

ومطلع القصيدة :

بَيْنَ إِذَا وَرَدَتْ عَلَيْكَ مُجَاشِعٌ أَوْ نَهْشَلٌ تَلَمَّاحٌ تَكُمُ مَا تَصْنَعُ ؟

أنهم أركان الأرض وصلاحتها وكلها وعمرانها ، فوهم نقص لها وخراب منها . كما قال أحمد ابن غزال :

الأرض تحيي إذا ما عاش عالمها متى يموت عالم منها يموت طرفُ
كالأرض تحيي إذا ما النيثُ حلَّ بها وإن أُنِيَ عَادَ في أكنةٍ فيها التَّلَفُ

ولذا قال الأزهرى كما في (لسان العرب) : أطراف الأرض نواحيها الواحد طرف ، (ونقصها من أطرافها) أى نواحيها ناحية ناحية ، وعلى هذا من فسر (نقصها من أطرافها) فتوح الأرضين . وأما من جعل (نقصها من أطرافها) موتَ علمائها فهو من غير هذا ، قال : والتفسير على القول الأول .

وقوله تعالى « وَاللَّهُ يَحْكُمُ » أى : ما يشاء كما يشاء ، وقد حكم للإسلام بالجز والإقبال ، وعلى الكفر بالذل والإدبار ، حسبما يشاهد من المخايل والآثار وفى الاتفات من التكلم إلى الغيبة ، وبناء الحكم على الاسم الجليل ، من الدلالة على الفخامة وتربية المهابة وتحقيق مضمون الخبر ، بالإشارة إلى العلة ، ما لا يخفى . وهى جملة اعتراضية جىء بها لتأكيد فحوى ما تقدمها .

وقوله تعالى : « لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ » اعتراض فى اعتراض . لبيان علو شأن حكمه تعالى . وقيل : نصب على الحالية كأنه قيل : والله يحكم نافذاً حكمه - كما تقول : جاء زيد لاهمة على رأسه ، أى حاسراً . و (المعقب) من يكرّر على الشيء فيبطله ، وحقيقته من يعقبه ويقفيه بالرد والإبطال . أفاده أبو السعود .

« وَهُوَ مَرِيعُ الْحِسَابِ » أى فعمّا قليل يحاسبهم ويجازيهم فى الآخرة بعد عذاب الدنيا بالقتل والأسر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا ، يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ، وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ)

« وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ » أى مكر الكفار الذين خلوا ، إيقاع المكره بأنبيائهم والمؤمنين كما مكر هؤلاء ، وقوله « فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا » إشارة إلى ضعف مكرهم وكيدهم لاضمحلاله وذهاب أثره ، وأنه مما لا يسوء ، وأن المكر المرهوب هو ما سيؤخذون به من إيقاع فنون النكال ، وهم نائمون على فرش الإمهال ، مما لا يخطر لهم على بال ، كما يرمى إليه قوله تعالى : « يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ » أى فيوفىها جزاءها الممد لها على ما كسبت من فنون المعاصى التى منها مكرهم ، من حيث لا يحتسبون « وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ » أى العاقبة الحميدة ، وعلى من تدور الدائرة ، وهذا كقوله تعالى (١) : (وَمَكْرُؤًا مَكَرًا وَمَكْرَنَا مَكَرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ * فَتِلْكَ بَيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا ...) الآية .

القول في تأويل تعالى :

[٤٣] (وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا ، قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ)

« وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ » فإنه أظهر على رسالتى ، من الحجج القاطعة والبيّنات الساطعة . ما فيه مندوحة عن شهادة شاهد آخر . قيل : جعل هذا شهادة (وهو فعل والشهادة قول) على سبيل الاستعارة ، لأنه يبنى عن الشهادة بل هو أقوى . انتهى . ولا يخفى أن الشهادة أعم من القول والفعل . على

(١) [٢٧ / النمل / ٥٠ - ٥٢] .

أن المراد من تلك الحجج هي آيات القرآن والذكر الحكيم ، وهي كلامه تعالى ، وقد قال تعالى^(١) : (وَبَسِّتْنَاهُ لَكَ أَحَقُّ هُوَ ، قُلْ إِي وَرَبِّي) .

وقوله تعالى : « وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ » أى ومن هو من علماء أهل الكتاب فإنهم يجدون صفة النبي ﷺ ونعمته في كتابهم من بشارات الأنبياء به . كما قال تعالى^(٢) : (الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ) وقال تعالى^(٣) : (أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ) .

ويروى عن مجاهد أنه عني بـ (مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ) عبد الله بن سلام . ونوفس بأن السورة مكية ، وإسلامه كان بالمدينة . وأجاب البعض بأن بعض السور المسكية ربما وجد فيه مدنى وبالمعكس ، وكان هذه الآية من ذلك .

وقد روى الحافظ أبو نعيم الأصفهاني في (دلائل النبوة) : أن عبد الله بن سلام أسلم قبل الهجرة ، حيث رحل إلى مكة قبلها ، واستيقن نبوته صلوات الله عليه ، ثم آب إلى المدينة وكنتم إسلامه إلى أن كانت الهجرة . والله أعلم .

تم الجزء التاسع ، وبليه إن شاء الله الجزء العاشر وفيه تفسير :

(١٤) - سورة إبراهيم و ١٥ - سورة الحجر و ١٦ - سورة النحل و ١٧ - سورة الإسراء

~~~~~

(١) [ ١٠ / يونس / ٥٣ ] . (٢) [ ٧ / الأعراف / ١٥٧ ] .

(٣) [ ٢٦ / الشعراء / ١٩٧ ] .











